



# قصاصات المعاد

Twitter: @abdullah1994

الدكتور محمد رجب البيومي



الدكتور محمد رجب البيومي

# قصرات المعاد

الطبعة الأولى  
١٩٩٢/٣/٢٩ هـ. ١٤١٣/٩/٢٥

٧٥

كتاب  
النادي الأدبي الثقافي

المملكة العربية السعودية

الرئاسة العامة لرعاية الشباب

**النادى الأدبى الثقافى بجدة**

ص. ب: ٥٩١٩ - ت ٦٨٢٤٦٦٢

الفاكس ٦٨٣٢٥١٢



بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الكتاب

يقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين فى مقدمة الجزء الأول من  
فيض الخاطر:

«هذه مقالات نشرت بعضها فى مجلة الرسالة، وبعضها فى مجلة  
الهلal، وبعضها لم ينشر فى هذه ولا تلك، استحسن أن أجمعها فى  
كتاب، لأنها بدائع أو روائع، ولا لأن الناس ألحوا علىّ فى جمعها  
فنزلت على حكمهم، واثمّرت بأمرهم، ولأنها ستفتح فى الأدب  
فتحةً جديدةً لا عهد للناس به، ولكن لأنها قطع من نفسى أحرص  
عليها، حرصى على الحياة، وأجهد فى تسجيلها إجابة لرغبة حب  
البقاء، وهى مجموعة أدلّ منها مفرقة، وفى كتاب أبين منها فى  
أعداد»

وما قاله الدكتور أحمد أمين أجد صداه القويّ لدىّ، لأنّى  
حرصت على جمع هذه المقالات لأنها قطع من نفسى، ولم يلبّ علىّ  
أحد فى جمعها، وهى مجموعة فى كتاب أوضح منها متفرقة فى أنهار  
الصحف والمجلات.

والكاتب معذور حين يستجيب لرغبة ملّحة فى ضرورة جمع  
مقالاته، لأنه عانى معاناة أدبية فى رصد خواطرها. وتتبع أفكارها،  
وسواء كان المقال ذاتياً يعبر عن عاطفة خاصة أو موضوعياً ينتهج النهج

العلمى فى البحث النظرى فإن الكاتب يبذل وقته فى نسج خيوط  
بحته مدققاً ناقداً، وأقول ناقداً، لأن كل كاتب يحترم نفسه يتقد كل  
خاطرة يسنح بها فكره قبل أن يذيعها للقارئ، فإذا نفى عنها  
الشوائب، وصارت مستقيمة فى رأيه سارع بتسجيلها، راجياً أن تجد  
الصدى الحى لدى قارئه، وقد يضيق بعض الكتاب بنقد آرائهم،  
وهذا ضيق عقلى لا اعتبار له، لأن الناقد شريك الكاتب فى طريق  
نضاله القلمى وهو أحرى أن يكون صديقاً موحّجاً، لا عدواً راصداً.

وبهذه النظرة أرجو أن أجد من القارئ الكريم ما يستد خطوة  
عائرة، أو يقوم أعوجاجاً ناشراً، وعلى الله قصد السبيل،

( د . محمد رجب البيومى )

# الهجرة النبوية والشيخ الأعرابي

منذ قررت مصر الاحتفال رسمياً بيوم الهجرة المحمدية فى أول المحرم من كل عام ، والصحف اليومية ، والمجلات الدورية تمنح هذه المناسبة الكريمة قسطها الأوفى من التحليل والتفسير، بحيث لو جمع ما كتب فى الصحف لكان مكتبة مستقلة، ولا أكتُم القارىء أن أدباء الجيل الماضى كانوا أكثر إهتماماً بهذه المناسبة من أدباء اليوم، إذ كانت لدينا حينئذ مجلات أدبية كالرسالة والثقافة تُصدر كل عام عدداً مستقلاً بذكريات الهجرة وما يجرى مجراها من أجداد الإسلام على مدِّ عصوره المتلاحقة، وبكل عددٍ نوايغ الفكر العربى من كبار الأدباء يسطون ويحللون، ويؤيدون ويدفعون، مما يجعل المناسبة الكريمة ذات صدقٍ فكرى يتجاوب فى أرقى مستوياته، فيُحيى الشعور، ويُفسح طريق الأمل، ويزيد المؤمنين يقيناً واعتصاماً، ولا أنكر أن الإذاعات المختلفة تتجاوب بهذه الذكرى محفلة محتشدة، ولكن الثمرة غير الثمرة، والأريج دون الأريج، لقد كان من عجائب الصدف أتى فى بعض هذه المناسبات، قد استمعت إلى حديث تقليدى عن الهجرة فى إذاعة ما، ثم أدزْتُ المفتاح لأستمع إلى حديث مماثل فى إذاعة ثانية وثالثة ورابعة، وكانت النتيجة أن المتحدثين جميعاً يتشابهون ويتمثلون، فما فتح الله على أحد بطريف يدل على شخصيته! وكأنَّ الموقف لا يتطلب إلاَّ السرد التاريخى محوطاً ببعض الآيات والأحاديث، مما يعرفه طلبة المدارس فى الصفوف الأولى! أين هذا

كله من عددٍ ممتاز من مجلّة شهيرة كالرسالة ، تسطع على القراء بما يخلب ويروع .

### حديث مشتهر

وقد رأيتُ أن أتحدّث هذا العام عن بعض مواقف الهجرة التي تداولتها المصادر المتعدّدة في القديم ، والمراجع المتداولة في الحديث ، هذا الموقف هو موقف الشيخ النجدي في دار الندوة حين اجتمع المشركون للتآمر على حياة رسول الله ، بعد أن أنتقل المهاجرون من المسلمين إلى المدينة المنورة ، فاستعاضوا أهلاً بأهل ، والتف حول الإسلام من تعهّدوا على نصرته ليلة العقبة مسترخّصين دماءهم في ذات الله ! وسيلحق رسول الله بهم فيصبحُ ذا شوكة حربيّة تقف للمشرّكين بالمرصاد ، وإذن فلا مفرّ من مُواجهة الموقف في اجتماع دار الندوة ، لتجتمع الكلمة المشتركة على أمرٍ حاسم .. يذفّع النذر الغاشية ! وهو قاسجُله الله في كتابه حين قال :

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ، ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين﴾ (١) .

قلنا إن حديث الندوة ذائع مشتهر ، ومع ذُبوعه المدوّى ، نجده يحتاج إلى تعقيب مفيد ، يبدّد ماغشيه من ضباب ساعدت الكتب المتعاقبة على انتشاره ، فكيف رُوى هذا الحديث في أوائل مصادره من كتب التراث .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٣٠ .



إننا نرجع إلى ابن اسحاق فى سيرته فنجدّه يقول — ببعض  
التصرف —:

«إن قرشاً اجتمعت فى دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون من أمر  
النبي ﷺ حين خافوه، فغدوا فى اليوم الذى استعدوا له، وكان  
يُسمى يوم الزّحّة، فاعترضهم إبليس على هيئة شيخ جليل، فوقف  
على باب الدار، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من الاعراب، سمع  
بالذى استعدتم له، فحضر معكم لسمع ما تقولون، وعسى ألاّ يعدمكم  
منه رأى» وتُصح، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع  
فيها أشراف قرش من كلّ قبيلة، من بنى عبد شمس شيبة وعتبة  
وأبو سفيان، ومن بنى نوفل طعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم،  
والحارث بن عامر، ومن بنى عبد الدار النضر بن الحارث ومن بنى  
أسد البختری بن هشام وزمعة بن الأسود، وحكيم بن خزام، ومن بنى  
مخزوم أبو جهل ومن بطون آخرين كلّها من قرش!

فقال بعضهم، إنّ هذا الرجل قد كان أمره ما كان، وما رأيتُم،  
وما نأمنه أن يثب علينا بمن أتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً، قال:  
فتشاوروا، فمِن قاتل: احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم  
تربصوا به ما أصاب أشباهه!

فقال الشيخ الاعرابى: لا والله ما هذا برأى، فلو حبستموه لخرج  
أمره من وراء الباب الذى أغلقتُموه دونّه إلى أصحابه فلاّ وشكّوا أن  
يثبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم.

ثم تشاوروا، فقال قاتل، نُخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا،

فإذا خرج عنا، فلا والله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع!

فقال الشيخ الاعرابي: لا والله ما هذا برأى، أما رأيتم حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال، ولا نأمن أن يحلّ على حتى من العرب فيغلب عليهم، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم  
٣٢٠

فقال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأياً، هو أن تأخذوا من كل قبيلة، فتني شاباً جلدأ، نسيباً وسيطاً، ومع كل فتى سيف، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه فستريح وتفرق دمه في القبائل كلها، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً..

فقال الشيخ الاعرابي: القول ما قاله الرجل، ولا رأي غيره، فتفرقوا وهم مجمعون على ذلك، هذا ما جاء في المصدر الأول، وما ردّدته الكتب إلى يومنا هذا، ونحن لانكر الاجتماع، فقد ثبت بنص القرآن الكريم، ولانكر أنهم انتهوا إلى وجوب اغتيال رسول الله! وقد مكروا ومكر الله، والله خير الماكرين! ولكننا نتساءل عن إبليس، وعن الشيخ الاعرابي: الذي تراءى في صورته، وهل كان ما جاء في الرواية بشأنه، ممّا يعقل أن يتردد دون تعقيب،

## ( مؤرخ ناقد )

كان المؤرخ الإسلامي الكبير الأستاذ عبد الوهاب النجار ذا فكر جوال دعوب، فهو يقف أمام كثير من المسلمات ليغصّف بقرارها

المطمئن ، عن براهين دامغة ، وأدلة حاسمة إذ كان كما قال الأستاذ على الجارم في رثائه :

له حجج يُستقيا كلاما وما هي غير أسياف تُسَل  
وأراء تُرى فيها ابن بحر يصول كما يشاء ويستدل

وابن بحر هو الجاحظ ، وحسبك أن يقرن الجارم صديقه النجار بالجاحظ ، وقد وقت الأستاذ النجار أمام حديث الشيخ الاعرابي موقف المرتاب ، فذكر في بحث ضاف نشره مُسلسلاً بمجلة الإسلام ١٣٥٧ هـ أنه يستريب أن تُدخل قريش في هذا الأمر إذ لا يعقل أن تُدخل قريش في أمرها إنساناً لا تعلم عنه شيئاً إلا أنه اعرابي ، ولم لا يكون هذا الاعرابي عينا للمسلمين ما داموا لم يعرفوا شيئاً من أمره فكيف أجازوا له التصدر دون احتياط ؟ ثم إذا كان إبليس قد تزيّاً بزى الشيخ الاعرابي ، فنأبأ القوم أنه إبليس ، ولم لا يكون آدمياً ، مع أن رؤية إبليس مُستبعدة ، لأن الله عز وجل يقول عنه :

﴿إنه يراكم . هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾

ثم إن الله عز وجل قد سَمى مؤامرة المشركين مكرًا ، والمكر هو التدبير في الخفاء ، فهل يكون منه أن يجتمع ممثلو القبائل جميعاً ما عدا بنى عبد مناف ، وفيهم أصهارهم وأصدقاؤهم الذين يُسارعون في نقل ما أئتمروا به ، فيفسد المراد ؟

هذا لباب ما قاله الأستاذ النجار ، وأنا أضيف إليه ، أن الثابت أن الاجتماع كان في دار الندوة ، وهي المنتدى العام الذي أنشأه

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٧

قصي بن كلاب تجاه البيت الحرام، لترسم فيها خطط قرش التجارية، وما يكون من عقود الزواج، أو إعلان الحرب، أو عقد التحالف، وكان من شروط روادها أن يتجاوز الواحد منهم سن الشباب إلى الكهولة، بحيث لا يحضر غير المجربين من ذوى الحنكة والدهاء، فهل يُعقل أن تُشترط الشروط الدقيقة في أصحاب الندوة، ثم يطرقها شيخ لا يُعرف من أين جاء ليتصدر المتجمعين، وليكون صاحب الترجيح فيما يُقال، فهو يعترض على الرأي الأول، ويخالف الرأي الثاني، ويختار رأى أبى جهل، فيكون اختياره موضع الحسم الصريح، وهو بعد، غريبٌ دخيل!!

إن حديث الشيخ الأعرابي لا يثبت لنقاش، وأذكر أن الأستاذ محمد لطفى جمعة.. قد قال - متبهما - بصدده في كتابه (ثورة الإسلام): يظهر أن حضور الندوة كان مُباحاً للإنس والجن، حتى غشياً إبليس نفسه، وإذا كان شعراء أوروبا قد أشخصوا إبليس في قصة فاوست لجيته، وهاملت لشكسبير بعد المسيح بسبعة عشر قرناً، فلا عجب إذا سبقهم العرب إلى ذلك، وفي اعتقادنا أنها خرافة تدل على أن زعيم القوم كان شيطانياً.

ومن الحق أن نقول إن تعقيب الأستاذ النجار، قد استغله كاتب لاحق، دون أن يُشير إليه، وكأنه قد اهتدى إليه من ذات نفسه! وهذا مما يجب أن يكون موضع المُواخِذَة، إذ يلزم اللاحق أن يعترف بما نقل عن السابق، وهو اعتراف يصفه بالدقة والأمانة اللتين ترفعان من قدره، أكثر مما يرفعه اختلاص مشبوه.

ومن الطريف أن نذكر أن بعض كتاب السيرة، وهو الصالحى

صاحب (سبل الهدى والرشاد) قد ذكر في الجزء الثاني من كتابه في حديثه عن بناء قريش للكعبة ، حين حكمت رسول الله في وضع الركن قبل مبعثه الشريف ، ما خلاصته .. أنّ إبليس قد تصوّر في هيكल شيخ اعرابي لينهى قريشاً عن تحكيم محمد بن عبد الله ! واذن فلإبليس سابقة أولى في زته الاعرابى عند بعض المؤرخين ..

## فى القصة

لا حرج أن يظهر إبليس فى قصة تتحدث عن النبى ، فقارئ القصة يعلم أنّها تحتاج إلى خيال يُجسّم الحقيقة ويُظهرها فى أجل مظهر ، كما يعلم أنّ القاصّ ليس محققاً يفحص الوقائع مؤيداً أو معارضاً ، ولكنه يختار من الوقائع ما يُضئء الجوانب المظلمة ، ومن وسائل هذه الإضاءة ما يرفّده به الخيال من تصوير جميل ، وقد اعترف الدكتور طه حسين فى مقدّمة على هامش السيرة أنّه لا يكتب للعلماء والمؤرخين ، لأنّه لا يريد بما يكتب جانب العلم والتاريخ ، وهو لا يتحدث إلى العقل حديث الحقائق التى يقرها العلم ، ولكنه يتحدث إلى القلب والشعور ليثير العواطف ، ويذكى الأحاسيس ! وفى ضوء هذه المقررات فتّح الدكتور طه مكاناً كبيراً لأبليس فى الجزء الثالث من كتابه ، فهو لم يقف به عند دار الندوة ليلة الهجرة ، بل سبق به البعثة المحمّدية ، ورسّمه شيخاً جميل المنظر (كذا) فى زى أعرابى يعترض أبا جهل ليسقيه شراب البُغض لمن يسمّى محمداً ، وليقول له فيما يقول إنه سيجعل الناس سواسية لا فرق بين حرّ وعبد ، وأنّه سيدعو إلى عبادة الله ومحظّم الأصنام ، وقد سمّاه الدكتور طه (أبا قرّة) وجعل يعدّ مقابلاته الكثيرة لأبى جهل ، يملأ قلبه سعيّاً ملتهباً ، ويصور له نفسه وقد ضوّلت

وتلاشت جوارما ينتظر محمداً من مجد ! ثم يصريح له بأنه ابن النار منها خرج ، وإليها سيعود ، لا يعرف غير النار أباً أو أمّاً .

فإذا جاء الحديث عن مؤامرة دار الندوة ، فإنّ صاحب على هامش السيرة لا يزيد شيئاً عن الواقع المتعارف . وقد كان في وسعه أن يمتد بأبى مُرة حيث يجعله صاحب السيطرة الكبرى وذا الرأى التاجع الذى تضافرت على تأييده البراهين ، ولكنه يكتفى بأن يقول :

« وهذا أبو جهل بذل أقصى جهده ، وغاية ما يمتلك من قوة ، وآزره حليفه أبو مرة ، فأحسن مؤازرته ، واجتمعت قرش فى دار ندوتها تتشاور فى أمر محمد ، وحضر اجتماعهم أبو مرة ظاهراً لهم فى زيه ذاك ، الذى كان يراه فيه أبو جهل [ وحده ] . فلما جعل القوم يدبرون رأيهم بينهم أخذ أبو مرة يرد على كل متكلم كلامه ، حتى قال أبو جهل مقالته ، فأيدها أبو مرة كل التأييد ، ولم لآ ؟ لقد كانت مقالة أبو جهل تُبلغه الغاية التى يسعى إليها ، رأى أبو جهل أن يُنتدب لقتل محمد فتى جلدٌ من كل قبيلة ، من قبائل قرش ، حتى إذا اجتمع هؤلاء الفتيان عُدوا على محمد ، فضربوه بسيفهم ضربة رجل واحد ، فإذا فعلوا ذلك ذهب دمه بين القبائل ، ولم تعرف بنو عبد مناف عند من يطلبون دمه ، » .

يَحْتَلُ إلى أن الدكتور طه كان مُجهداً حين بلغ بحديثه مؤامرة دار الندوة ، والّا فكيف اتسع خياله ليتحدث عن إبليس صفحاتٍ وصفحاتٍ كى بصور نفسية أبى جهل من خلال حديثه عن مُلهمه وصاحب وحيه الشيطان ، حتى إذا انتهى إلى الموقف الذى ظهر فيه إبليس حيّاً متكلماً فى صُحف السيرة ، لم يشأ أن يأخذ من حديثه

المدون، ما يمتد به إلى تحليل تصويري، يرسم المكونات الخافية،  
ويفضح الخوارج الكظيمة، كما يفعل كبار القصاصين، حين يتعمدون  
تشریح الأهواء المتضاربة! أترأه قد اكتفى بما أسلف، فأثر الإيجاز؟

## ( فى المسرحية )

ألف الأستاذ توفيق الحكيم مسرحية محمد، لينقل مشاهد من السيرة  
النبوية فى قالبها الحوارى دون تعديل بمس الجوهر، وقد احتاط فلم  
يجر على لسان رسول الله ﷺ غير ما قال، كما لم يأت إلا بما روته  
كتب السيرة دون تزيد، وإذا كانت كُتُب السيرة قد روت حديث  
إبليس، ومجيئه فى صورة الشيخ الاعرابى فإن الحكيم قد روى حديثاً  
لأبليس مع الحية ليلة الهجرة. ولا أدزى إلى أى مرجع قد اتجه حين  
جعل الحية ذات موضوع فى هذا المجال، فقد جاء المشهد السادس  
من مشاهد الهجرة على هذا النحو؟

الحيّة [ تصيح ] إبليس فى لبوس شيخ من الاعراب!

ابليس: لا تصيحى أيتها الضئيلة.

الحيّة: ماذا جئت تصنع الليلة فى دار الندوة؟

ابليس: أريد محمداً؟

الحيّة: تريد به الهلاك!

ابليس: أريد لنفسى الحياة.

الحيّة: ماذا صنع بك؟

ابليس: يريد أن يغير وجه الأرض.

الحيّة: كيف؟

ابليس: نورٌ يخرج من قلبه يضيء الأرض

الحية: وما يضيرك فى هذا؟

ابليس: يعمى بصرى هذا التور

الحية: اطفئه من قلبه .

ابليس: لا سلطان لى على مثل هذه القلوب .

الحية: قلبٌ لا ككل القلوب، إتنى لأذكر أمره فقد جاءه الملكان

وهو صغير بطست من ذهب، مملوء ثلجاً، فأخذه، وشقا بطنه،

واستخرجاً قلبه، فشقا، واستخرجاً منه علقه سوداء،

إبليس: العلقه السوداء!؟

الحية: تك رسولك إلى كل قلب .

ومضى الحوار فى استطراده . فآلم إبليس بدور الحية مع آدم حين

أخرجته من الجنة، ثم انتقل إلى ما كان من أمر الندوة مستجلاً ما دار

بها من نقاش على نحو ما جاء فى كتب السيرة، إلى أن أجمعوا على

قتل رسول الله باقتراح أبى جهل وارتياح إبليس !

ولا أدرى ما دور الحية فى دار الندوة؟ إذ أنّ دورها الذى ذكرته

بعض الكتب كان فى غار ثور، حين لدغت رجلاً أبى بكر،

فتساقطت دمعه .

## فى الشعر

رحم الله صديقنا وأستاذنا الشاعر الكبير محمد عبد الغنى حسن،

لقد ذكر خواطره النبيلة عن الهجرة النبوية فى قصائد كثيرة تتعدد

بمرور الأعوام، وما كتبه فى هذا المجال مسرحية شعرية ذات فصل



واحد عن مؤامرة دار الندوة، إذ سجّل شعراً ما دار من الحوار بين أبي جهل وأبي سفيان وأمّية بن خلف، ويعنينا هنا ما ذكره الأستاذ عبد الغنى على لسان الشيطان، حيث قال مبتهجاً حين شهد حماسته المتأمرين:

هذا مجال الدّس والتفريق      بين الصديق الحر والصديق  
لا كنتُ من نار ومن حريق      إنّ لم أسِرْ فيهم على طريقى  
ثم قال محمد عبد الغنى حسن على لسان إبليس إذ يردّ على من أمر  
بترك محمّد وشأنه:

أتى أرى صحابةً      من حوله وعدداً  
فإن تركتم أمره      اليوم فقد يغلو غدا  
ناشدكم أصنامكم      أن تعملوا فيه المدى  
وأن تُرجعوا العصر منه      والمضى والأبدا

وهنا قال أبو جهل:

ما كنت يا شيطان إلا      رجع نفسي والصدى  
لم تُعد مافئ من الرغبة      وقيت الهدى  
قصدت بالأمس الفتى      وكان ينشئ المسجدا  
أردت نضخ رأسه      بحجر فا بدا...!

ولعلنا نلاحظ أن الشيطان هنا قد اقترح القتل، وفي الرواية التاريخية أنّ أبا جهل هو الذى اقترح وإبليس سارع بالتأييد،

ولا خلاف يتضح ، لأنّ أبا جهل إذا كان هو المقترح فقد استجاب  
إلى وحى الشيطان الرجيم !

هذه خطوات سريعة عن مؤامرة الندوة ، نكتبها فى مناسبة  
الهجرة ، ولو اتسع المجال لاستشهدت ببعض ما يدور فى هذا الفلك ،  
وقد يكون فيما ذكر.. بعض الغناء عما ضاق عنه النطاق .

## حافظ إبراهيم أمير الدعابة

يروقك جداً أن تقرأ للأستاذ عبد العزيز البشري عن صديقه حافظ إبراهيم ، كما يتمتع أن تسمع حافظاً يروى نكات البشرى ، أو يداعبه ببعض الأفاكية ، فقد ألفت بين الصديقين الكبيرين مشابه أصيلة فى خفة الروح وعذوبة الحديث ودقة الملاحظة وقوة الإحتمال ، حتى تعود الناس أن يتلقفوا عنها كل نادر رائع من الملمح والطرائف ، ومضى صيتها الجهرى فى مضمار الأدب ، وقد تسبر بها الروح الرياضية إلى أبعد أشواطها ، فترى كل صديق منها يجلس لصاحبه بمرصد من التندر ، فهو يعابته ويفاضبه ويقطع عليه تيار القول بلاذع من الفكاهة أو ساخر من التندر فلا يؤثر ذلك قليلاً أو كثيراً فى دعائم الود المتأصلة أو يهى من وشائج الحب المتعاقبة .

بل كثيراً ما تنقل هذه المعاتبة من مجالس السمر ، إلى منابر الصحافة ، فيكتب البشرى عن حافظ ما يضايقه ويكيده إذ يفضل بعض زملائه من الشعراء عليه ، ثم يلقاه ليتبادلًا النكات المرححة دون غضب أو اضطغان ، وحين أفرد البشرى له فصلاً فى مرآته الذائعة ، لم يفته أن يتعرض لوصفه بلون ساخر من ألوان الفكاهة العاتبة ، فانبرى يقول عن صفية الأثير وخليله الحميم :

« جهم الصوت جهم الخلق جهم الجسم كأنما قد قد من صخرة من فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة أن يكون إنساناً فكان

والسلام ، أما ما يدعى فه فكأنما شق بعد الخلق شقا ، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقا ، وأما لون بشرته والعياذ بالله فكأنما عهد به إلى نقاش مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاف أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها ، فخرج مزججا من هذا كله لا يرتبط به واحد بسبب ولا يتصل بنسب ، وإنك لو نضوت عنه ثيابه ، وألبسته دراعة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبة ضافية ، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات لخلته من فورك دهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين ، فإذا جردته كله وأطلقته فى البر حسبته فيلا ، أو أرسلته فى البحر ظننته درفيلا» !!

هذه الفكاهة المصورة يتحدث الأديب الكبير عن الشاعر المرموق ، ثم يلقاه ليستأنفا الوثوب الشفوى بعد أن فرغ البشرى من هجومه التحريرى !! والقارىء والسامع كلاهما غام مستفيد . كان الأستاذ البشرى كثير الحلف فى مجالسه وأحاديثه ، فهو لا يكاد يروى خبراً أو يذكر حادثة دون أن يشفعها عفوا وبدون قصد بكلمة والله . وقد لحظ ذلك صديقه حافظ فانتهر تكرار الحلف من صاحبه بمجلس حافل وروى هذه النادرة :

كان البشرى ينظر فى إحدى القضايا الشرعية — أيام كان قاضيا بالحاكم — وكان الشهود يتقدمون بين يدى المحكمة شاهدا شاهداً فيدلى كل منهم فى القضية بشهادته بعد أن يدلى باليمين ، ثم اتفق أن كررت المحكمة على أحد الشهود أن يؤدى القسم فلم يبادر ، فإذا بالشيخ البشرى بترك مجلس القضاء ويقف مكان الشاهد ليقول «سأحلف أنا بالله نيابة عنه» .

وفاجأ البشرى بدعابة صاحبة ليضحك مع المعجبين ، ثم يحاذر أن يقسم جاهدا ولكن هيهات ، فكل امرئ وما تعود .

على أنه كثيراً ما انتقم لنفسه من صاحبه فسخر منه بقاذفة لاذعة وكال له الصاع صاعين فقد زارا حديقة الحيوان ذات يوم معا . وبعد انتهاء مطافهما الطويل دلّفا إلى الباب ، فقال حافظ للبشرى أمام الحاضرين « حاسب يا أخى أحسن البواب يحوشك عند الباب » : فرد البشرى فى براعة ساخرة « لكن مافيش خوف عليك فيه منك هنا كثير.. » وقد ضحك حافظ لبراعة الرد ضحكة عالية أوقفته عن السير لحظات ..

وقد أجاد الأستاذ البشرى حين تحدث فى مرآته عن فكاهة حافظ فقال : « خفيف الظل ، عذب الروح ، حاضر البديهة رائع البديهة ، رائع النكتة بديع المحاضرة ، إذ كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل إليك أنك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلبله ، وأشرق نرجسه ، وتألّق ورده ، وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت » ..

هذه المجالس التى تحدث عنها الأستاذ البشرى كانت مبعث السرور ، وميدان الأنس والمتعة لدى من أسعدهم الحظ بمصاحبة الشاعر الكبير إذ كان يفسح المجال للابتسام والمرح ما استطاع ، معتمدا على روحه الممراح ، وطبعه المؤنس ، ولعل شهرة حافظ فى الشعر ترجع فى أوثق أسبابها إلى مجالس صفوه ، وأمسيات مرجه ، فشاعر النيل بين قرنائه الأفذاذ كان محدود الثقافة ، ضيق الخيال ، عزوفا عن

مطالعة العلوم المثمرة، إلا ما كان من انكبابه على نوع خاص من كتب الأدب العربى ودواوين الشعر وصحف النوادر والطرف، وشاعر يعيش بعقله فى هذا النطاق المتواضع يحتاج إلى سلم مرتفع يصعد عليه ليتوسط سلسلة رائعة من الأفذاذ تضم أمثال شوقى ومطران وشكرى والزهاوى والعقاد وغيرهم من شعراء الثقافة المتفرعة، والتبحر العميق، ولكن مجالس الفكاهة الضاحكة قد اختصرت الطريق أمام الرجل إلى دنيا الشهرة والإقبال، ولك أن توازن فى مجال المقارنة بين حافظ إبراهيم وأحمد محرم مثلاً، لتعرف كيف ساعدت صلات حافظ على ذبوعه واشتاره فيما قبع محرم الشاعر العظيم فى دمنهور منطوباً على نفسه فلم ينل حظوة حافظ ونباهته مع أن — محرمًا رحمه الله — كان أرصن ديباجة وأصفى طبعاً، وأغزر إنتاجاً من صاحبه، ولكن شاعر النيل سمر القاهرة ونديم العلية من الكبراء والعظماء، طار شعره طيراناً ومشت قصائد أخيه هونا، والدنيا حظوظ وأقسام ..

ومن حظ الشاعر السعيد أن أكثر الناس لأوائل عهده كانوا يظنون الشعراء مصادر النكات والغمزات، ومنايع النوادر والأفاكية لأن الجيل المتقدم من شعراء القرن الماضى كان وافر الحظ فى هذه الناحية، فكان الليثى وأبو النصر وعبد الله النديم ندماء ظرفاء، يجيدون السمر والتندر قبل أن يجيدوا القوافى والأوزان، فاقتضى حفى ناصف وإمام العبد وحافظ إبراهيم آثار أسلافهم، وأولعوا بالفكاهة والتطرف حتى صاروا أنس المجالس وهجة الزمان .. وإذا كانوا فى مجاهم الشعرى قد تقدموا بالأدب خطوة، فقد تقدموا فى الفكاهة خطوات ..

أكب حافظ - رحمه الله - على ذخائر الأدب العربي فحفظ كنوزها. وتصيد لآلئها من كتب الملح والنوادر القديمة، ورزقه الله حساً مرهفاً وذوقاً رفيعاً، فامتزج محفرظه بمبتكره، وفاض على لسانه رحيقاً مستطاباً، وكانت الحياة لعهد هادئة فارغة لم تحفل بشواغل الحضارة، من مسارح وملاه ومنتديات وإذاعات، بل إن سراً النيل فى مبدأ هذا القرن كانوا يترفعون عن ارتياد هذه الأماكن، فانسعت أوقات فراغهم، وأخذوا يتطلبون السمر المؤنس، والنديم الفكه، والمحدث اللبق، وحافظ أجدر الناس بهذه الأوصاف فتكالبوا على مجلسه، وتدافعوا إلى محضره، وقد شعر حافظ بمكانته المدلة، فباهى بمواهبه، واعتبرها ذخيرة مرغوة، يتحدث عنها إلى سعد زغلول فيقول:

قل للرئيس أدم الله دولته      بأن شاعره بالباب ينتظر  
إن شاء حدثه، أو شاء أطربه      بكل نادرة تجلى بها الفكر

ومعلوم أن لكل مقام مقالاً، فما يستطاب من النادرة فى وقت يستهجن فى وقت آخر، وحافظ خير من يعرف ذلك وبقدرة، فقد تحبش الدعابة فى صدره فيخترنها اختزاناً، ويدخر لها الفرصة السانحة حتى إذا تهيأ وقتها المناسب عطر بها مجلسه فهزت مشاعر سامعيه وتناقلها الجمهور، فقد بلغ حافظاً - على سبيل المثال - أن إمام العبد يدعى أستاذيته ويقول: لقد خلقت - حافظاً وشوقياً - فلم يجابه صاحبه بشيء، وانتظر حتى جاء إمام يقترض بعض نقوده، فقال له فى عبث ساخر، أنا كما خلقتنى يامولاي، وتضابق إمام وأزبد، ولكن حافظاً قد ألجمه ورد دعواه فى هدوء واستخفاف.

على أنه — فى ميدان تندرہ — يجعل من الاشتقاق اللفظى نكأة  
للفكاهة الهادفة ، فتأتى على لسانه محكمة بارعة تبلغ مبلغها القوى من  
النفوس فنحن نعلم أن أمين الرافعى — رحمه الله — قد سخر قلمه ربع  
قرن فى المطالبة بجلاء الإنجليز . وصادف أن اتفق مع حافظ على  
التنزه فى وقت معين ولكن أميناً يخلف وعده معتذراً بأنه أخذ شربة  
ملح إنجليزى فلم تمش معه .

وهنا يفجؤه شاعر النيل صائحاً ، يا أمين بك : الإنجليز لا يمضون  
أى مكان .. ولا يتمالك سامعه نفسه فيصفق فى إعجاب وطبعى أن  
يفهم حافظ قوانين النكات فينتظر الدفاع من يهاجه بفكاهته ، بل إنه  
كثيراً ما يقبل هجوم غيره ببشر وإيناس ، وهذه روح رياضية حميدة تجبر  
صاحبها على الاشتواء بنار أوقدها لغيره فتطير شررها إليه .

شاهد مرة شاباً وسماً يسير مع رفيق دميم فقال من فوره للدميم  
«أبوك السبب مدفعش مهر» فرد عليه الدميم «وأبوك دفع كام؟»  
فضحك الشاعر ضحكاً عالياً إذ أدرك ما بينه وبين صاحبه من اتفاق .

ومن طرائف الشاعر أنه كان يفاجئ أصدقاءه بما لا يتوقعون ، فهو  
يدؤهم بحديث جدى ينبىء عن الاهتمام البالغ ، حتى ليظن سامعه  
أنه بصدد نبأ هام يتطلب الإسراع ، ثم يستمع فلا يجد غير فكاهة  
تأخذ طابع الجد ثم لانقف عند كلمتين أو ثلاث بل تمتد فى معرض  
حديث متصل ، وفى كل جملة منه بادرة لاذعة أو دعاية نافذة ،  
والغريب أن الشاعر لا يظهر من الخفة والابتسام حينئذ ما يوحى  
بتندرہ ، بل يسترسل ليترك صاحبه متحرراً ينتظر النهاية بفارغ الصبر  
حتى تحين .



وتطبيقاً لما ذكرناه ننقل هنا عن الأستاذ عبد الرحمن صدقى  
— إحدى هذه الطرائف المسلسلة التى برع حافظ فى سياقها  
وإحكامها براعة لا تتفق لكثير من الناس، وهى باطرادها المتماست  
وترتيبها المنسجم تغنى عن التعليق، قال الأستاذ صدقى:

« كنت وصديق لى منحدرين فى شارع محمد على فلما صرنا تجاه  
مقهى دار الكتب وكان يعرف وقتئذ بالقهوة العثمانية، اندفع صديقى  
ودفعنى معه، فإذا بنا نواجه شاعر النيل حافظ إبراهيم واقفاً على أهبة  
الانصراف من المقهى فحياه الصديق ثم قدمنى، ولكن حافظ لم يمهله  
فقال له ذكرتك الليلة البارحة، وهذا أنت، فتهلل الصديق معقباً على  
الفور كالعادة «خير إن شاء الله خير». قال حافظ «كنت أقرأ  
الليلة البارحة فى رسالة الغفران ما جاء فى صفة جهنم فذكرتك»..  
فسأل صاحبى: وماذا يجعلك تذكرنى فى هذا الوضع بالذات؟ فظهر  
الجد على وجه حافظ وفى نبرة صوته، ثم قال «هو الحق أقول لك،  
لقد أعيانى تصور زبانية الجحيم كالعمالق فى أيديهم مقامع من حديد  
يتأهبون هذه الأهبة المهولة، ويتكفون هذا الوقود العظيم، لتعذيب من  
كان مثلك فى صغر الحجم وقصر القامة وخفة الوزن». فأجاب  
الرجل «ألا تكف عن هزلك»؟ قال حافظ «ما أنا بهازل فى هذه  
المرّة يا بنى، أنا مشفق عليك، ولو كان أمرك يؤمّد يوكل إلّى، لكان  
حسبك فى جهنم موقداً من موائد الكحول الصغيرة «اسبرتو» تنقلب  
من ذبالتة على نار لينة بسيرة، وقبل أن يراجع زميلى بكلمة أشار  
حافظ إلّى وسأله: «أترى زميلك من أصدقاء العقاد؟» وما كاد  
يسمع الرد بالإيجاب، حتى التفت إلى قائلاً: ما أظنك إلا كنت أكثر  
شباباً قبل أن تعرفه، إن العقاد يعقد على الناس الحياة، إنه لا يبدع

شيئاً على حاله فى الشعر وفى مقاييس النقد وفى سائر الأمور  
نصيحته إليك أن تنجو بحياتك منه» .

ونحن الآن نجد فى النكات العالمية تهكما لاذعاً، ونقداً مريراً إذ أن  
الفكاهة الحاضرة مع سهولتها ولطف موقعها تقوم بنصيبها الوافر فى  
النقد والتوجيه، وكذلك كانت النكات العربية القديمة ولم تتخلف  
عنها نكات حافظ، وقد حملت فى طياتها من النقد ما هذب الطبايع،  
ورقق الأذواق، بل إن الشاعر كان يفهم أن النكتة فى حقيقتها صورة  
كاريكاتيرية ساخرة، فكما يلاحظ الرسام انحرافاً دقيقاً فى خلق  
الإنسان أو تكوينه فيظهره للناس مجوفاً مكبراً، فكذلك يهدف السمر  
المريح إلى الغمزة المستترة فيبرزها فى دعاية ساخرة، بل إن الفكاهى  
يملك من الخيال والتفنن والاسترسال ما لا يملكه المصور، وأقرأ إن شئت  
قول حافظ فى إنسان ضخم الجثة عظيم البطن ..

عطلت سير الكهرباء فلم تجد شيئاً يعوق مسيرها إلا كما  
تسرى على وجه البسيطة لحظة فتجويها وتحار فى أحشاكها

أقرأ هذين البيتين لترى من الدعاية والسخرية ما يعجب ويروق .  
ولعل مما يدهش القارئ أن يكون الشاعر قد ارتجل البيتين ارتجالاً مما  
يؤكد أصالة الفكاهة لديه وقوة النادرة عنده، إذ قهرت فى مدة  
وجيزة ما يتطلبه الشعر من أوزان وقبود .

والذى يدرس شعر حافظ ثم يستمع إلى نواته وفكاهته يلاحظ  
بعداً كبيراً بين الفنين وهما فرعاً دوحه واحدة، ف شعر - حافظ إلا  
ماندر منه - يمتاز بالوقار والرصانة فقلّ إن تعثر فيه على الانبساط

والتندر، وكان المتوقع أن تغمر الفكاهة نواحيه فيظهر فى لون ضاحك رفاف، ولعل مرد ذلك أن حافظاً تتلمذ فى ميدان الشعر على أساتذة البارودى من أئمة العصر العباسى. وهؤلاء يؤثرون الرصانة والقوة والجرس، ويدخرون التندر والمرح إلى المجالس والمجتمعات، ولو أن — حافظاً — تتلمذ على الشعراء المصريين كالبهاء زهير ومن أتى بعده لظهر الطابع الفكاهة فى شعره، ولكن الحملة القوية التى وجهت إلى أصحاب البديع المتكلف باعدت بين حافظ وهؤلاء مع أن الفكاهة الأصلية تكن أحياناً فى طباق مستملح أو جناس عذب، أو تورية لطيفة، مما لا ينكره ناقد ذواق، وما ضر البديع غير قوم تكلفوه عن تعسف وجذب وإمحال، فجاءت أشعارهم آسنة كدرة كربة المذاق، وقد لاحظت أن جل ما قاله حافظ فى صديقه حفى ناصف يفيض بالمرح والدعابة على غير عادة الرجل فى شعره، وأؤكد أن روح حفى ناصف قد سيطرت على حافظ فساقتها هذا المساق البارع الفاتن .. وقرأ قصيدة حافظ فى تكريم حفى ل ترى من فنون الدعابة ونوادر الفكاهة ما ينعشك ويهيجك، حتى لتعجب كثيراً لشاعر يملك هذه الروح الطائفة ثم يقبع بها فى حيز خاص فلا يسمح بانطلاقها فى معارج إلهامه إلا بقدر ضئيل، بل إن — حافظاً — حين رثى باحثة البادية كريمة حفى ناصف لم تشغله اللوعة الصادقة عن التندر المطبوع فاندفع يقول فى رثائه:

وتركت شيخك لا يعى هل غاب زيد أو حضر

فهل ظن صديقه الملتاع ينسبط لهذه الدعابة فى يوم كدر مداهم تتأجج فيه الأشجان، وبخاصة إذا كانت وفاة نابغة كباحثة البادية

قد صعقت والدها ودمرتة حتى أصيب بالشلل الجزئي وحمل إلى حفلة الرثاء فى محفة لعدم قدرته على السير.

ومما يدخل فى هذا الباب ما يروى أن شاعر النيل قد وقف يلقى رثاءه لثروت باشا (١) فى حفلة تأبين، وكان الجمع حاشداً والشعراء مجتمعين لذلك اليوم، وفيهم شاعر البادية المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب، وكان من عادة الشيخ أن يحضر إلى الاحتفالات راكباً حماره، فلما وصل حافظ فى قصيدته إلى أحد المقاطع القوية، سأله الحاضرون الإعادة، وصادف أن نهق حمار الشيخ فى الخارج، فقال لهم حافظ: انتظروا حتى يفرغ حمار الزميل من إنشاده، فانقلبت حفلة التأبين إلى ضحك وضجيج.

هذه نادرة لطيفة ساقها الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فى مقال جميل نشره بجريدة المصرى عن حافظ إبراهيم منذ أربعين سنة، والأستاذ فهمى خير من يتحدث بلباقة عن حافظ ومعاصريه، وقد ذكر مع هذه الطرفة الرائعة طرفاً أخرى لحافظ نذكر من بينها ما قال الأستاذ:

« كان حافظ — رحمه الله — لا يجتمل العيش إلا فى جو من المرح، ولهذا كان يبتدع النكتة ابتداءً، ويخترع لها المناسبة اختراعاً، كان فى مرة يسير فى الطريق العام بالليل فرأى ذلك المصباح الذى تضعه مصلحة التنظيم فى مواضع الخطر، وهو لا يرسل إلا ضوءاً أحمر ضئيلاً،

---

(١) هكذا ذكرى الراوى، وأظنها حفلة تأبين إسماعيل صبرى كما سمعت من غير واحد.

فتعمد حافظ أن يدوس على المصباح ، فصاح فيه العسكري هو أنت أعمى تدوس على الفانوس ، فقال حافظ ساخراً : آمال تخطو الفانوس فى الضلمة ليه .. والتقى به مرة فى الطريق أحد السائلين ، فسأله أن يعطيه قرشاً ، فرد حافظ ، والله عمرك أطول من عمرى كنت حاقولك كده .

وكان فى مرة بهم بركوب الترام فداس عفواً على قدم أحد الركابين ، فثار فى وجه حافظ ثورة عنيفة ، وأخذ حافظ يترضاه ويعتذر إليه ، ولكن على غير جدوى ، فقد إندفع صاحبنا فى ثورته ، يقول لحافظ : أنت تعرف أنا مين وابن مين ؟ وهنا لم يطق حافظ صبراً ، فالتفت إليه وقال : يا أخى نحن فى شهر يولية ، وفى وقت الظهر ، والحر أشد ما يكون . وأنت تركب مع عامة الناس ، فى الدرجة الثالثة وبعد هذا تبقى مين وابن مين « فهت الرجل وانسل من بين الحاضرين .

وبعد ، فقد شغلت فى صباى البعيد يجمع نوادر حافظ ، وكان يقاسمنى هذا الشغف صديقى ورفيق صباى الأستاذ محرز أحمد خفاجى ، إذ جمع فى ذاكرته النادر الطريف فى هذا المجال ، وإنى لأنتهز هذه الفرصة السانحة فأهدى له هذا المقال المتواضع تذكيراً لماض سعيد .

\*\*\*

## محمد عبده بين امتحائين

قد يحسّ بعض الطلاب الناهضين ، بأمنية تختلج في نفسه ، إذ يشتهي أن تُطوى سَوى الدراسة بامتحان عاجل يقفز فيه إلى الصف النهائي في وثبة ظافرة تتيح له أن ينال الأجازة العلمية دون انتظار ملول إلى تعاقب السنوات عاماً خلف عام ! هذه الأمنية المشتهاة كانت تتحقق فعلاً لدى بعض الطلاب ، خلال بعض المراحل التعليمية الغابرة بالأزهر ، فقد كان من حق كل طالب مكث حقبةً في الأزهر طالت أو قصرت ، أن يتقدّم لامتحان العالمية ، ومعه شهادة اثنتين من العلماء مدونةً في كتابٍ يعرض أساء العلوم التي درسها الطالب ، ويبين أساء الكتب التي تضمنت هذه العلوم ، فإذا تمّ ذلك حُدّد للطالب موعد الامتحان في مدى قريب ، واختيرت اللجنة التي يؤدي أمامها الامتحان شفويّاً فحسب ، فإذا وفقه الله فقد أصبح عالماً مرموقاً يجلس للتدريس بعد أن كان طالباً ، وإذا كبا به الحظ ، فلديه فرص مثاليات لا تقف عند حصر - فقد يؤدي الطالب امتحان ( العالمية ) عشر مرات متتالية دون يأْس ، لأن المنال عسير ، والمطمح بعيد ..

هذا النظام الإداري الذي أدركه محمد عبده ، قد جاء خلفاً لوضع آخر ، حيث كان الطالب الأزهرى يقضى بالأزهر سنوات عدة يطلب فيها العلم على أساتذته كما يشاء ، فلا يتقيّد بحضور .. أو

بأستاذ أو بكتاب وإنما يختار ما أراد من العلوم ومن أحب من الاساتذة. ويظل يواصل دراسته.. حتى إذا أحسّ بتمكّنه العلمى، جلس للتدريس، وتخلّق حوله الطلاب والاساتذة.. يسألونه جميعاً فى كلّ ما يعمّن لهم من العلوم، وعليه أن يجيب دون تلكؤ، فإذا اجتاز العقبة بسلام، هُنيء وقرّظ، وأصبح شيخاً يجلس ليعلم وإذا كانت الأخرى، فعليه أن ينتظر حتى ينضج، ولن يعترف بنضجه إلا إذا جلس، وتخلّق حوله الجمع المتحفز للسؤال الحريص، ووفق للاجابة السديدة بإتقان.

وواضح أن الطريقة الأولى أصوب وأتقن، فقد يتعصب قوم فيلتحون فى الاسئلة، ثم يأبون الإقرار بالصواب، وقد يتساهل آخرون فيفكرون بالفوز مسبقاً عن تراص سابق، أقول قد، وهى للتقليل، لأن الأمر قد اطرد على العسر الشديد، فالطالب يستعد، وببذل من العناء فوق ما يتحمّل، والمناقش متحفز متربّص كمن يقف على ثغرة خطيرة فى جبهة حربية، فهو يحاول أن يتّهى الخطر ما استطاع، والناس أضنّ بالثناء فى موضعه، فكيف به فى غير موضعه، وقدماً قيل:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً مالم يزوا عنده آثار إحسان

### (محمد عبده)

لم يكن محمد عبده الطالب، الناشئ تلميذاً مغموراً فى بيئته الأزهرية الخاصة، أو فى مجتمعه المصرى العام، فقد اشتهر عنه سداد المنطق، وحرية التفكير، إذ كان يناقش ما يقوله شيوخه فى اعتداد،

ويعارضهم كثيراً بما تضيق به صدورُ أَلْفِ الطاعة والامثال، كما عُرف بمقالاته الناقدة فى جريدة الأهرام، فى وقت كانت المقالات الصحفية لدى فريق من الشيوخ تُعنى الانصراف عن المتون العلمية والشروح التقريرية والحواشى المشتهرة حول الشروح والمتون، وكُل ذلك لأُتيح للطلاب مجالاً للعلم الحقيقى الذى يُدرس فى الحلقات كما يزعمون هذا إلى شهرة محمد عبده بالتلمذة على جال الدين الأفغانى، والتشبع بأرائه الإصلاحية فى السياسة، واتجاهاته العلمية فى دراسة الفلسفة والحكمة ومالم يُؤلف فى الأزهر من قبل، فكان محمد عبده يُناقش أساتذته فى ضوء ما استنار به من آراء جال الدين، فلا يرى الصدر المتسع والردّ الصائب، بل يسمعُ صيحات المروق والسعى إلى الفتنة، وتقليد الملاحدة من أعداء الدين، وفى زملاء محمد عبده من الطلاب من يحسدون مكانته، ويقصرون عن موهبته، فيسوءهم أن يكون ذا رأى واضح، فى مجتمعه المصرى بعامة، ويتمنون. فى نفوسهم أن يتهجوا نهجه، وقد حال ضعفهم العلمى، واستعدادهم العقلى دون ما يبتغون، هؤلاء «يفزعهم نشاط زميلهم النابغة، فيختلقون عليه أكاذيب علمية، ليست بذات شأن لو ذاعت فى بيئة محصنة تستمع إلى الاتجاهين، وتزن المسائل بمعاييرها الصحيح، ولكن التلاميذ يختلقون والشيوخ يصدقون، وفيهم من تأخذه الحماسة، فيهدد الطالب فى مستقبله، ويضيق بمرآه إذا شهدته، ويحذر منه زملاءه الشيوخ وأبناءه الطلبة، إذ لا يستقيم للأزهر أقرّ إذا نجح فيه تلاميذ جال الدين، وأولهم هذا الذى يسير مرتفع الرأس، ويناقش فى ثقة واعتداد.



## ( محمد عlish )

كان الشيخ محمد عlish من كبار علماء عصره، وله فى الأزهر صوت مسموع، وقد نشأ على الدراسة التقليدية، واعتق آراءً تناقلها عن اساتذته، وشرحها لطلابه كما سَطُرَتْ فى كتب المتأخرين، وقد جاءه أن جمال الدين الأفغانى يشرح كتباً غير التى تُدرس بالأزهر، ويُنادى بآراء لا تتفق وما ارتآه شيوخه فى الجامع الأثرى الخالد، كما جاءه أنه يُفَضِّل بعض آراء المعتزلة، وهم لدى الشيخ عlish ممن لا يوثق بهم فى رأى، فاشتعل غضباً على جمال الدين وتلاميذه، وجعل يتعقبهم فى الحلقات، ضارباً بعكازه تارةً، وشامتاً بلسانه تارات، وبعض الذين يكتبون عن الشيخ عlish، ينحون عليه بالنقد الصارخ، ويرؤنه مثلاً للجمود المتأصل، وأنا أراه ظاهرة طبيعية لابتدأ أن تُوجد، فالعلمُ يحتاج إلى المحافظ المتشدد، كما يحتاج إلى المجدد المتطلع، فإذا تسرعَ الثانى حاولَ الأول أن يبصره عاقبة التسرع، وإذا جمَدَ المتشدد حاولَ المجدد أن يزحزحه قليلاً عن مكانه، وبذلك يسير الفكر فى طريق مأمون، ولكنَّ بعض المحافظين يشَّطون. وبعض المجددين ينقمون. فتتسع الهوة بين فريقين يحاربان فى جهة واحدة، وما أحرى الهوة أن تضيق، بل ما أحرأها أن تُمتنع أصلاً فلا تُوجد، وقد كان الشيخ عlish — رحمه الله — لساناً صادقاً من ألسنة الحق حين قامت الثورة العراقية فأيدها مُفتياً وفقياً، ونازك خصوصتها بأبلغ ما يملك من الرأى، وحين دارت الدائرة على العراقيين لم ينتكر لهم، بل دافع وعانَد وتحَدَّى، ثم سيق إلى المحاكمة وهو فى أواخر أيامه، فأهمل وأمتنهن حتى لقى أجله فى مستشفى لم يكثر بمقامه، فدفن فى مشهد ذليل، دون أن يشيعه غير خدم المستشفى، فهم وحدهم

أهل الوفاء فى زمن خاف فيه كلُّ مسئول على نفسه! أقول ذلك كله قبل أن أسطر خصوصية الشيخ الكبير، لمحمد عبده، فقد بَالَغ وأسرف، لَقِيَهُ ذاتَ مرةَ غاضباً منفِعلاً. وسأله: علمتُ أنك ترجح بعض آراء المعتزلة على ماقاله الأشاعرة، وكانَ محمد عبده دقيق الإجابة، فقال: إذا كنتُ لاأقلدُ الأشاعرة، فأنا أيضاً لاأقلدُ المعتزلة! وهى إجابةٌ تثير الشيخ عليش، لأنه أشعرنى ويرى تقليد الأشاعرة مما يجب ويلتزم.

## الامتحان أول

تقدّم محمد عبده إلى امتحان العالمية سنة «١٨٧٧» وفقاً لقانون الامتحانات، الذى صدر مرسومه سنة «١٨٧٢م»، وكان على الطالب أن يُمتحن فى علوم الأصول والفقه والتوحيد والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق، وقد هزىء به أساتذته الذين سيتولون امتحانه، إذ لم يبقوا على مبلغ ثقافته المتعددة، وظنوا أنّ من اشتغلَ بالمقالات فى الجرائد، والخطب فى المساجد، والمحاورات فى المجالس، لن يَبقى لديه وقتٌ يتسع لدراسة هذه العلوم، ومن هنا أخذ الشيخ عليش ومن آلف لَقَةً يُشيعون أنّه راسبٌ لا محالة، وأحسبُ أن مثل هذه الإشاعات إذا تداولت وانتقلت إلى الطالب.. فإنها تزعزع ثقته بنفسه، ولكن محمد عبده استمسك بإرادته. وأيقن أن المعركة حاسمة، ولن يخوضها بغير عزيمة صادقة تحتاح العوائق، وجاء وقتُ الامتحان، فتصدّر شيخُ الأزهر الأستاذ محمد العباسى المهدي مجلسَ النقاش، ومن حوله أعضاءُ اللجنة.

وكلّهم يدور في فلك الشيخ عليّش الذي صمّم على حرمان التلميذ منها أجاب، ودارت الأسئلة العويصة بوجهها من يعتقدون أنّ الطالب سينسحب حين يعجز، ولكنّ المفاجأة كانت غير متوقعة، إذ أجاب الطالب، فقرّر ما يرون، وما سجلّوه في كتبهم، ثمّ عقب بالتنفيذ الصارم لبعض المقرّرات، وشيخ الأزهر فرح بتألّق وجهه، ولكن الأعضاء كانوا ينتظرون في علمى التوحيد والفقه إجابة لا يتعداها الطالب فأخذوا بمن يقرّرهم ما يبتغون، ثمّ يعقب عليه بعض ما يراه، وقد انتظر منهم أن يعقبوا على ملاحظاته، فكانوا ينتقلون من مادة إلى مادة، ليجدوا بعض ما يعجز، ولعلّ مما أتاح للطالب أن يفوز، أنه كان يُفاجئ الأساتذة بما تُزعمهم أن يردوا به عليه إذا خالفوه، وقد تعودوا أن يقولوا السؤال المحفوظ. لسمعوا الجواب المحفوظ، فما بهم يسمعون ما يعرفون ثمّ يعقب عليه الطالب بما لا يتوقعون. لقد طال بلاؤهم بالطالب كما طال بلاء الطالب بهم ولعلّ محمد عبده قد أفصح عن بعض ذلك حين قال:

«عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جادى الآخرة سنة ١٢٩٤ هـ، وابتليت فى الامتحان أشد أنواع البلاء، لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش، وكان يُعادبنى — على الغيب — اتباعا لآراء من لارشد عندهم، من بُلداء الطلبة، وكانوا قد أجمعوا على ألاّ يمنحونى درجةً ما فى العلم، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها، ولكن كان أمر الله أغلب، فخرجت من الامتحان بالدرجة الثانية، وصرتُ مدرّساً من مدرّسى الجامع الأزهر، وأخذتُ أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية».

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده، أما كيف حصل على الدرجة العلمية، فإن رئيس اللجنة الشيخ محمد العباسي المهدي، قد بر بإجابات الطالب، واعتراضاته وأظهر من دلائل القبول والارتياح ما ضاقت به اللجنة أكبر الضيق حتى إذا انتهى الامتحان، وفرغت اللجنة للمداولة صرّح الرئيس للأعضاء أنّه لم يجد فيمن امتحن من قبل، من يصل إلى مرتبة محمد عبده. ذكاء وعلم واستنباطاً، واستحقاقاً للدرجة الأولى، فكثّر اللّجّاج، وتعصّب الشيخ عlish طالباً رسوب الطالب، وحين سدّ الباب بإصرار الشيخ العباسي، تقدّم أحد الأعضاء بجلّ وسط، فحواه أن يحرّم الطالب من الدرجة الأولى إرضاء للشيخ عlish وجماعته، وبنال العالمية من الدرجة الثانية إرضاء للشيخ المهدي، وكتّب صاحب الاقتراح قراراً بما اهتدى إليه، ووقعه، فسارع الشيخ المهدي بالتوقيع، وتبعه الأعضاء على كراهة ظاهرة، وفاز الشيخ بأمنيته إذ أصبح معترفاً به، وله الحق أن يدرس بالأزهر وسواه.

## الامتحان الثاني

أما الامتحان الثاني فقد صار فيه الطالب الممتحن من قبل في سنة ١٨٧٧م أستاذاً يمتحن تلاميذه بعد خمسة وعشرين عاماً في ١٩٠٢م، وكان الطالب الذي يجلس ليؤدي الامتحان هو الشيخ محمد الأحمدى الظواهري الذي صار فيما بعد سنة ١٩٢٩ شيخاً للجامع الأزهر، ولطرافه ما جرى في امتحان الشيخ الظواهري نلّم بشيء منه، لنعرف الفرق بين امتحان وامتحان.

أصبح محمد عبده منذ رجوعه من منفاه معلماً من أعلام الإصلاح الدينى فى العالم الإسلامى ، وهذه الزعامة الإصلاحية لم تكن موضع الارتياح من كثير من العلماء الذين تتلمذوا على أضراب الشيخ عlish ، فجمدوا على مقررات لاسبيل إلى التنازل عنها ، ووقفوا بالمرصاد لمسمى الأستاذ الإمام فى إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف ، وفتح باب الاجتهاد فى مسائل التشريع ، وتفسير كتاب الله العزيز على نحو توجيهى يرشد الناس إلى الصراط المستقيم ، بعيداً عما يملأ كتب التفسير.. من مسائل نحوية وصرفية وكلامية وبلاغية ومنطقية تسدل حجاباً كثيفاً على معانيه . ومن الذين عارضوا الإمام فى منهجه الإصلاحى زميله الشيخ إبراهيم الظواهرى شيخ الجامع الأحمدى ، وأحد شيوخ التصوف الذائع بين المصرين فى نهاية القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن ، هذا التصوف الذى يركز على إقامة الموالد ، وزيارة الأضرحة ، وتقديم النذور ، وترديد الكرامات المنسوبة للأولياء . مما قام الأستاذ الإمام بمحاربته ، ونعى على محترفيه ، والشيخ ابراهيم الظواهرى هو شيخ الجامع الأحمدى ، وله فى السيد البدوى اعتقاد كبير ، وقد نسب أصدقاؤه لبيته من الكرامات الذائعة مالم يصادف ارتياح الإمام محمد عبده ، فتباعد ما بين الرجلين على نحو يستعصى على الوفاق .

وحين تقدم الطالب محمد الأحمدى نجل الشيخ إبراهيم الظواهرى لامتحان العالمية ، وعرف أنّ الأستاذ الإمام سيرأس اللجنة ، وقع فى حيرة شديدة ، فالطالب منسوب إلى اتجاه أبيه ، والإمام ذو سطوة فى السؤال وردّ الجواب ، والطالب كما يروى عن نفسه فى مهب الريح .

تُرى ماذا صنع الإمام مع تلميذه، والأمر أمره لأنّ جميع أعضاء اللجنة، يتركّون له توجيه الأسئلة ومناقشة الردود.

لقد تحدّث الأستاذ الأكبر محمد الأحمدى الظواهري في مذكّراته (عن السياسة والأزهر؛ مفضّلاً ما جرى يوم امتحانه، فذكر أنّه تهيب الموقف قبل أن يلج حجرة الامتحان، وكان من عادة الطلاب أن يبدؤوا بتقبيل أيدى الأساتذة قبل الجلوس، فما كاد يلمس يد الأستاذ الإمام حتى نزعها منه، مكتفياً بلمس أصابعه، ثمّ فاجأه بأن قال له: لقد سمّاك والدك الأحمدى نسبةً لأحمد البدوى وسنرى ما سيكون من شأن هذا الرجل معك.

قال الشيخ الظواهري: كان هذه العبارة مصحوبةً بخطف يده منى أثناء محاولة تقبيلها أثر سييء فى نفسى، فانقبض صدرى، واسودت الدنيا فى عيني، ولما طلب منى أن ابتدئ الكلام تأخرتُ برهة، ثمّ تماسكت وأجبتُ بطريقة غير طريقة زملائي، إذا عمدتُ إلى جوهر الموضوع دون تعلق بالخواشى الزائدة، وأيقنتُ أنّي حُزْتُ قبول الإمام، ولكنّ لم يظهر على وجهه ما يدلّ على سروره، فشقّ ذلك على نفسى، وضممت أن أنتزع منه الإعجاب، فخطر لى أن أعاد الكلام مرةً أخرى فى الموضوع نفسه، فعندئذ قال الشيخ: لماذا تُريد استئناف الكلام، لقد تكلمت كلاماً طيباً جيداً، وعالجتُ البحثَ علاجاً رائعاً، والأحسنُ أن ننقل إلى موضوع آخر، فكانتُ عبارة الإمام هذه كأنها البلمس الشافى، فاندفعت أجيب بالطريقة التى اخترتها فقال الشيخ إن ترتيب بحثك وطريقة العرض، ممّا يُعجب ويروق. وسأخذ معك فى ترتيب الأبحاث طريقاً جديداً، وأخذ

يقلب أوضاع المسائل ، ويخرج من علم إلى علم ، حتى طال النقاش  
بضع ساعات على غير المألوف ، وحتى أرهقت إرهاقاً جسمانياً وعقلياً  
فطلبت فى نفسى شربة ماء ، ولكتى سكت مهابة للشيخ ، ثم غلبنى  
الظلم ، فطلبت من الشيخ أن يأمر لى بشربة ماء ، فقال الشيخ أنت  
تستحق (شربات) لاءاء ، فقد أحسنت كل الإحسان ، وأرسل فى  
طلب كوب كبير من (الخرنوب) لأشرب مع أعضاء اللجنة على  
حسابه ، ثم قال : لقد فتح الله عليك يا أحدى ، والله إنك أعلم من  
أبيك ، ولو كان عندى فوق الدرجة الأولى لأعطيتك إياها ، فكانت  
عبارة هذه حديث الناس فى الأزهر ، وأصبحت من أسباب  
سعادتى !

هذا ملخص ما قال الشيخ الظواهرى فى مذكراته ، وقد تأثر نفسياً  
بسلوك الإمام بدءاً حين نزع يده دون أن يقبلها ، ولم يذّر أنها عادة  
الإمام مع الطلاب جميعاً ، لأنه يريد أن يرتفع بهم عن مظاهر الخضوع ،  
ولو كانوا تلامذة له ، أمّا امتناعه عن التقريظ عند الإجابة الأولى فلا  
شئ فيه ، فقد تكون إجابة السؤال الأول ممّا يحفظه الطالب ..  
ويدرى أبعادها مصادفةً ، فالأحرى بالممتحن أن ينتظر ، وقد انتظر  
الشيخ حتى تأكد ، فاندفع فى الشناء .

ومقارنة الامتحان الأول بالامتحان الثانى تدلّ على إنصاف الإمام  
وترفعه فوق الحزازات الشخصية ، وهذا ماغاب عن اللجنة الأولى  
حين ناصبته العداء ، وصمّمت على رسوبه ، لولاً موقف شيخ الأزهر!  
وثنان ما بين الموقفين !

والطريف أن الأستاذ الأكبر الشيخ الظواهري قد تابع حديثه فذكر أن قول الإمام له إنك أعلم من أبيك صادف سروراً من والده، وقال له هذا مما يضاعف بهجتى إذ أتمنى أن تسبقنى يا بنى، وسأذهب إلى منزل الأستاذ فى عين شمس لأشكره، وتعال معى، فذهبا مساء!

وقد يظن قارئ اليوم أن امتداد النقاش فى جلسة الامتحان بضع ساعات يحملُ بعض التحامل، ولا كذلك لأن الامتحان شفوئى فقط. وقد يمتد يوماً كاملاً، بل قد تُواصل اللجنة اجتماعها فى الغد، لبعض الظروف الداعية لذلك، وهو تدقيق يُحمد، فليتنا نلتزم الجِدَّة فى هذه المواقف الحاسمة، لأن التساهل معها، يُضر كثيراً، وقد شهدنا من يحملون الأجازات العلمية، ثم يحارون فى البدهيات، وما جاء ذلك إلا بالتفريط المعيب!

هذه صفحة من تاريخ الأزهر القريب، نذكرها اليوم لنستفيد منها عبرة واعظة، لمن يعى ويتأمل. مترجمين على من جاء ذكرهم فى هذا المقال محافظين ومجددين.

\*\*\*



## مساجد مضطهدة

مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى أوضح من أن يشار إليها بجديث ، فهو ملتقى الأرض بالسما لى من يتوجه إلى الله بقلب مؤمن ، وفيه يشعر المسلم بحقيقته المؤمنة ؛ إذ يكون فى أحسن أحواله النفسية ، وإن جاز له أن يفكر فى بعض المخطورات استجابة لدواعى الضعف الإنسانى فى لحظة من اللحظات ، فإن هذا التفكير المنحرف لا يخطر بباله بالمسجد ، لأن ما يوحى به هذا المكان الطاهر من السموّ الخلقى يربأ بكل وافد إليه أن يتحدر إلى ما يغضب الله ، لذلك كان المسجد موضع طهارة خلقية ، قبل أن يكون موضع حسية بالوضوء ، بل إن الوضوء فى صميمه تهية نفسية للنظافة الخلقية بعد أن نظفت اليد والوجه والقدم ، فالمتوضىء قبل أن يقدم على الصلاة يحسّ بأثر هذه النظافة النفسية فى كيانه ؛ إذ اتخذ بالوضوء سلاحاً باتراً يقهر الشر ويرد به .

وإذا كان المسجد فى المجتمع العربى الذى يمثل الأكرية فى الوطن ، له هذه المنزلة العالية فى النفوس ، فإن المسجد فى المجتمع الذى يضمّ الأقلية فى بلاد الغرب وغيرها من الأمم التى لاتدين جهرتها بالإسلام ، يمثل دوراً أكبر وأشدّ تأثيراً من دور المسجد ببلاد الإسلام ؛ لأنه الملتقى الوحيد لأبناء الإسلام الذين يشعرون فى آفاقه بشدة ارتباطهم بدينهم الحنيف ، وهو بهذه الصلة الفريدة ذو تأثير يمتد

إلى كل المناحي الإنسانية فى حياة المسلم ، فهو موضع التقائه بصفوة أصدقائه ممن استقاموا على طريق الحق ، وهو ناد حافل بالتوجيه الدينى ، والالتناء السياسى ، والبت النفسى ، كما أنه رباط الوحدة بين قوم يحتاجون إلى الالتئام المتعاون كى يشد بعضهم بعضا ، هذا إلى الاحتفال بالمناسبات السارة الجامعة لذوى الميل المشترك ، بل بالمناسبات الخاصة حين تشارك فيها الجماعة أحد أفرادها فى النعماء والبأساء معاً ، ومن أعظم مزايا المسجد فى هذا الوطن أنه موئل الضيف الغربى حين يحلّ لأول مرة فى البلد النازح ، فما يكاد المسلم يضع قدمه فى عاصمة من عواصم البلاد النائية حتى يسأل عن المسجد ، ليتعرف بمن يمدونه بالنصيحة والعون ، ويشتون قدمه على الطريق ، فيهيئون له سبل الإقامة المطردة على وجه مريح ، فإذا أودى أخ أو جماعة ، فإن إخوانه جميعاً من ورائه ، وماهى إلا لحظات ينتقل فيها إلى المسجد حتى يجد المؤازر الناصح والمساعد الحريص .

وقد أنشئت المساجد فى ربوع المعمورة على نحو يبعث على الغبطة ، ولكن بعض الذين فى قلوبهم مرض من المتعصبين المفرطين يسوءهم أن تؤدى المساجد رسالتها المسالمة ، فأخذوا يتربصون بها الشرور ، ويضعون أمامها العراقيل ، ومن هؤلاء من يفهم الدين على غير وجهه ؛ إذ يرى أنّ محاربة أبناء الديانة الأخرى برهان على إخلاصه لعقيدته ، مع أن مبادئ الأديان كلها تدعو إلى الرفق والتسامح والتعاون ، ومن يشذ عن هذه المبادئ إنما يخالف الصريح من تعاليم عقيدته ، وهو بلاء ينذر بالفجائع الدامية ، وقد تعرضت بعض المساجد من أجله إلى مآزق محرجة قد تصل إلى حد الكوارث ، حين تسيل الدماء ، وتزهق الأرواح ، ويضيق المجال عن

الإحاطة ببعض ما ارتكب فى هذا المجال ، ولكننا نكتفى بأمثلة ثلاثة ، نرى فى مثالين منها قسوة التجبر وفضاعة الاستبداد ، وفى مثال ثالث مظهر الاحتيال الخادع فى محاربة العمل المثمر الذى لا يجلب شراً لأحد ، حين ترتفع كلمة الله فى بيت من بيوته ، أما هذه المساجد الثلاثة فمسجد بابر بالهند ، والمسجد الإبراهيمى بالخليل ، ومسجد فالديرول بألمانيا ، ولا أريد أن أسهب فأوجع ، ولكننى أوجز ما استطعت :

## ١ — مسجد بابر بالهند

نذكر هذه الضجة العنيفة التى تسببت فى استقالة الوزارة بالهند بسبب ما اعتزمه الهندوس من هدم هذا المسجد ، وإقامة معبد هندوسى مكانه ، وما كان لهذه الضجة التى سالت بسببها الدماء وزهقت مئات الأرواح أن تحدث ، لو خلت النفوس من التعصب المقيت .

أنشأ هذا المسجد الفاتح التترى الكبير ظهير الدين محمد بابر ، الذى غزا الهند وملكها بعد حروب تكللت بالنصر ، وارتفعت مئذنته حوالى سنة ٩٣٥ هـ ، وصار أكبر مسجد أترى بناه مؤسس الدولة التيمورية بالهند ، وظلت الشعائر تقام فيه عدة قرون ، حتى ظهرت الفتنة بين الهندوس والمسلمين ، وتعصبت الأكثرية على الأقلية ، فأوصد المسجد بدعوى أنه أقيم منذ سبعة قرون على أنقاض معبد هندوسى !! وتحمس القوم لهذه الدعوى ، فصمموا على هدمه وإقامة المعبد الهندوسى مكانه ، وتلك دعوى لا مثيل لها فى أى بلد من بلاد

الله ؛ لأن الذى يحاول أن يبحث عن أى أثر فى مدى عدة قرون تبلغ السبعة لابد أنه يجده قد تنقل من مالك إلى مالك ، ففى أى منطق يجوز لإنسان أو جماعة فى القرن العشرين أن تطالب بمكان قد نسب إليها قبل سبعة قرون على وجه الظن لاعلى وجه التحقيق ؟ لأن أكثر المعابد الهندية كانت ذات بناء متواضع لا يثبت على الأيام ، وقد كتب الأثريون تاريخ هذه المعابد على سبيل الظن لاعلى سبيل التحقيق .

فشكلة المسجد مفتعلة ، جعلها المتطرفون من الهندوس وسيلة لإراقة الدماء دون حقّ ، وقد انتصرت لها الأحزاب السياسية فى الهند ، لا لأنها حق فى ذاتها ، بل لاحتواء أصوات العامة فى الانتخابات السياسية ، وقد واجه هذه المشكلة رئيس الوزارة السابق « برتاب سيخ » بحزم ، فأتخذ موقف الحياد حين أحال قضية المسجد إلى المحكمة العليا فى الهند لتفصل فى القضية على ضوء الحجج والوثائق التاريخية ، وهذا إجراء منصف ما كان يجوز الاعتراض عليه لو سلمت النفوس من الأحقاد ، ولكن ما كاد رئيس الوزراء بصر قراره بإحالة القضية إلى المحكمة العليا حتى ثار عليه أكثر أعضاء الحكومة ، واستقال سبعة من الوزراء احتجاجاً على مسلك نزيه قام به رئيس محابد لم يتعصب للمسلمين ، ولكن حاول وضع الأمر فى ميزان العدالة الزهية ، وقد حظى زعيم المنشقين على رئيس الوزراء بشعبية كبيرة ، ونال ثقة الأحزاب الهندوكية ، وعلى رأسها حزب المؤتمر الذى يتزعمه « راجيف غاندى » فسقطت وزارة « برتاب » ؛ لأنه اتجه بالقضية إلى القضاء !

والعجيب أن بعض الساسة أصدر منشورات تقول إنه لا ينادى بهدم مسجد «بابر» فقط، بل بهدم.. المساجد التي نشأت في الدولة منذ حكم «بابر التيموري»، ولم نجد في بلاد الإسلام من يستنكر هذا الغضب المقيت، بل وجدنا من يرمون المسلمين بالتعصب، لأنهم يتمسكون بمساجدهم! وتهمة التطرف في موضوع هذا المسجد بالذات يجب أن توجه إلى الهندوس الذين افتعلوا الفتنة، وتحمسوا لهدم المسجد الإسلامي بغياً دون حق، ولكن الباطل يصير حقاً عند من يسرهم أن تهدم مساجد الله على رءوس الأشهاد.

## ٢ — المسجد الإبراهيمي بالخليل

شُيد المسجد الإبراهيمي بمدينة الخليل الفلسطينية في العصر الأموي، على الطراز المعروف في ذلك العهد، وهو بناء حسن المنظر يحوط به سور مرتفع يتخلله بابان، أحدهما في الجنوب والآخر في الغرب، وله منارتان عاليتان طول الواحدة سبعة أمتار، وفي داخله صحن مكشوف كصحن الأزهر الشريف، مع أبنية متجاورة في الداخل تشبه الأروقة الملحقة ببعض مساجد القاهرة! وقد ظل المسجد إسلامياً خالصاً لا يناع في إسلاميته أحد، حتى جاءت محنة حزيران سنة ١٩٦٧م، فظهرت فجأة دعوة صهيونية تدعو إلى استرداد المسجد الإبراهيمي؛ لأنه يهودي النشأة، فهو موئل جدهم إبراهيم، وقد دفن فيه يعقوب وسارة ويوسف وإسحق، وتلك افتراءات تكذبها مصادر اليهود نفسها؛ لأن التوراة قد ذكرت أن إبراهيم — عليه السلام — قد اشترى قطعة أرض لتدفن فيها زوجته، ولم

تقل التوراة إنه أقام بها معبداً، ومقابر الأنبياء من أولاد إبراهيم عليه السلام لم تجمع فى مكان واحد، ولم يأت دليل مشتهر على انفرادها بموضع خاص! أما أن إبراهيم - عليه السلام - جد موسى بن عمران نبي اليهودية، فهو أيضاً جد العرب ووالد اسماعيل عليه السلام العربى كما هو والد اسحاق العبرى! فلماذا يصر اليهود على اختصاصهم به.. وقد ظهر قبل اليهودية بأكثر من ستمائة عام، والله - عز وجل - يقول: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»، وما قاله القرآن يقوله جبهة المؤرخين شرقاً وغرباً.

وقد اقتحم الصهيونيون حرم المسجد، وحددوا فيه مكاناً فسيحاً لإقامة صلواتهم، وجعلوا زاوية صغيرة منه لصلاة المسلمين فى أوقات محددة فقط، بينما يظل بصفة دائمة مجالاً لصلوات اليهود، وقد دُفّر فيه كل ما يبدل على إسلاميته الواضحة من آيات قرآنية، ومنبر ومحراب مع ما كان يحفل به من المصاحف والكتب الإسلامية، التى استبدلت بنسخ حديثه من نسخ التوراة، وقد أهدرت كرامة المسجد حين جلبت له زجاجات الخمور؛ ليشربها حراس «الكنيس» على زعمهم فى أماكن العبادة وفناء المسجد، ولا أدرى كيف يتفق وجود نسخ التوراة والتلمود مع زجاجات الخمر ومظاهر القصف والطرب!

هذا وقد جاهد الشعب الفلسطينى فى مقاومة هذا الاعتداء الصارخ، ومازلنا نذكر الجريمة البشعة التى دنست المسجد الإبراهيمى الشريف فى أكتوبر سنة ١٩٨٩ م حين قام الجنود الإسرائيلون بتمزيق نسخ القرآن بالمسجد، وأطلقوا النار على المصلين فأصيب منهم فى

هذه النازلة سبعة وأربعون مواطناً، وقامت إسرائيل باعتقال سبعة وستين شخصاً ممن تصدوا لمقاومة الاعتداء على الحرم الإبراهيمي، ثم صدرت كتب إسرائيلية تثبت الحق التاريخي لليهود في المسجد، كما نقلت نسخة قديمة خطية للتوراة إلى المسجد، على زعم أنها كانت في الأصل بالمسجد الإبراهيمي ثم اختفت منه عدة قرون! ولم يقل أحد كيف اختفت؟ وفي أى مكان كان هذا الاختفاء، وكيف وجدت فجأة، ومن أى موضع! وإذا كانت أقدم نسخة في زعمهم الآن هي نسخة المسجد الإبراهيمي، فكيف قالوا من قبل إن أقدم نسخة هي نسخة المسجد الأقصى بالقدس؟ ذلك تخبط يدل على المراوغة والاحتيال.

### ٣ — مسجد «فالدربول» بألمانيا

تكثر في ألمانيا المساجد، وهي تبنى في الأحياء الراقية، ويقوم على تشييدها كبار المهندسين الذين يتمتعون بالذوق المعماري، ويحاولون أن يحيطوا البناء بالخضرة الزاهية، والسياج الجميل. وتُشاد هذه المساجد بتبرعات المسلمين من الأتراك والمغاربة والأفارقة واليوغسلافين والمصريين من الذين يسكنون هذه الديار مع إخوانهم الذين اعتنقوا الإسلام من الألمانين، لأن هذا الدين القيم قد وجد طريقه إلى قلوب الكثيرين بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ أقبل الألمان على قراءة ترجات القرآن فانجذبوا إلى هديه الكريم.

أما مسجد «فالدربول» فله مشكلة خاصة ترددت في الصحف هناك، واهتم بها الجمهور اهتماماً شديداً؛ لما صحب بناءه من

اعتراضات لا مبرر لها ، حين جمعت الجالية التركية بالمدينة مبلغاً كبيراً لبناء المسجد ، ولا حرج فى ذلك قانونياً ، لأن الدستور الألمانى يكفل للمواطنين جميعاً ممارسة عباداتهم كما يشاءون ، وقد تم البناء على أحسن ما يتصور المشاهد من الإبداع والأناقة ، ولكن المهندس المعماريّ بالمدينة أمر بإيقاف البناء ، حين رأى مئذنة عالية تأخذ وضعها الطبيعى مدعياً أن المساجد فى جميع البلاد بألمانيا – وتبلغ أكثر من ألف مسجد – ليس بها مآذن باستثناء عشرة مساجد فقط هى التى يرتفع فيها صوت الآذان من أعلى مكان بالمدينة ، ولا بد أن يكون مسجد «فالدبرول» – فى رأيه – خالياً من المئذنة ، التى تشوه المنظر الجمالى للمدينة ، حين تنفرد ناهضة على ارتفاع ستة وعشرين متراً ، وهى حجة باطلة من أساسها ؛ لأن مدخنة المصنع الكبير ترتفع فى المدينة كما ترتفع المئذنة ، وترسل من الدخان ما يعكر الجو ، ولم يقل هذا المهندس إن المدخنة تخلّ بالوضع الجمالى فى بلده ، وبما زاد الأمر بلبلة أن بعض المتعصبين ممن رأوا فى إقامة المسجد إساءة لمشاعرهم الخاصة ، قد أيدوا المهندس واستغلوا ما يقوله عن المئذنة ، وكأنه حق عادل ، وحين تأزم الوضع رأى المسلمون أن يطالبوا بتعويض قدره ثمانمائة ألف مارك ألمانى للجالية التركية ؛ لأنها لم تقم المسجد إلا بعد تصريح بينائى ، وفى بعض الاجتماعات الخاصة رأى المنكرون لتشييد المئذنة أنهم لا يستطيعون أن يمنعوا إقامة المسجد بحكم الدستور الألمانى إذا نجحوا فى منع المئذنة وحدها ، وأنه سيؤدى رسالته فى المدينة ، وهى رسالة ذات توجيه دينى ؛ لأن مكتبته حافلة بالكتب الداعية إلى الإسلام ، ويتوافد عليها القارئون من المسلمين وسواهم لاسيما من طوائف البروتستانت التى تنجذب إلى قراءة الموضوعات



الدينية، وترى فى بساطة العقيدة الإسلامية ما يتواءم واتجاهاتها الثقافية، وقد انتهى الأمر إلى أن ترتفع المئذنة ولكن فى حيز أقل مما قدر لها، وقد تكلف بناؤها خمسين ألف مارك، وأدى المسجد رسالته. وشاء الله أن تكون الضجة التى صاحبت بناءه عامل انتباه إليه، فأصبح مزاراً كبيراً لزائرى المدينة، ومحلاً للتعارف الإسلامى بين الوافدين من شتى ربوع الإسلام.

وبعد....

فقد كان المظنون أن تكون بيوت الله - فى شتى الأديان - حرمة تنأى بها عن الاضطهاد والكيد، ولكنّ الذين يفهمون الدين على أنه تعصب على دين آخر قد جعلوا من بعض هذه البيوت الطاهرة مذابح رجال، ومجازر شباب، ويزعمون بعد ذلك أنهم يجاهدون فى سبيل دينهم الذى يعتنقونه، وكل الأديان تبرأ من الجرائم الفاحشة، والبقى المربع.

\*\*\*

## عمر بن الخطاب أديبا وناقداً

أنصف المؤرخون عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — خليفة عظيماً، فكتبوا الأسفار المتنوعة التى تبرز سياسته الفذة فى حل المعضلات وتوجيه الأمور، ولكن الكثير منهم لم يتعرضوا إلى ما كان له — رضى الله عنه — من ذوق سليم فى نقد الشعر وقدم راسخة فى تفهم مراميه، مما انتثر فى كتب الأدب عقده، دون أن يظفر بمن يجمع نظامه فى سلك خاص، وهكذا نجد نفرأ من عطاء التاريخ قد تعددت مواهبهم، وتشعبت نواحي عبقريتهم فكتب المؤرخون عن أبرز ناحية فى شمائلهم تاركين ماعداها فى ذمة النسيان والحمول!

والحق أن عمر — رضى الله عنه — كان واسع المحفوظ من جيد الكلام، حتى قال محمد بن سلام الجمحى: «ما عرض لابن الخطاب أمر إلا واستشهد فيه بالشعر» ورجل يملك هذه الثروة من القوافى، لابد أن يكون ذا ولوع بالمعانى الجيدة، والأساليب الرائعة. فهو ينظر فيما يسمعه نظرة الباحث الناقد، ثم يحفظ ما يروقه ويعجبه، مستشهداً به فى موضعه، مثنياً على صاحبه بما يستحق من تقدير.

ولقد كان يقول «أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته، يستعطف بها قلب الكريم ويستميل فؤاد اللئيم» ويقول أيضاً «الشعر جذل من كلام العرب تسكن به نائرتهم، وبطفاً غيظهم وبلغ به القوم فى ناديم» ويعطى به السائل.

ولعل أبلغ ما يؤيدنا فى ذلك أن إسلامه قد هبط على قلبه عن طريق البلاغة القرآنية إذ وفد على أخته نائراً بهم أن يبطش بها حين أشرق عليها نور الإسلام فهده حسه الحسن إلى آيات رائعة من كتاب الله يؤخذ بها عقله المفكر وينفعل بها وجدانه الحساس . ويجد لها مذاقاً خاصاً يدفعه إلى الإستزادة حتى إذا لمس نورها فى عقله ووجد حلاوتها فى قلبه ذهب من توه إلى رسول الله ﷺ سيد بلغاء العرب فأعلن إسلامه ! وهكذا كان إيمان ابن الخطاب وليد سحر بيانى يجمع إلى المنطق السديد، نصاعة القول وبغزو العقل ببراهينه كما يغزو العاطفة بروعته ذات القوة والتأثير. وإذا كان الخليل يختار خليله، فإن أبا حفص قد تفرس فى أصحابه فوجد عبد الله بن عباس بروى القصائد الجيدة وينتقد ما يعرض له من أبيات فقربه واجتباها، وكثيراً ما اختلى به الساعات الطويلة يتناشدان ويتطارحان، قال ابن عباس «خرجنا مع ابن الخطاب فى سفر فقال ألا تزاملون؟ أنت يافلان زميل فلان، وأنت يافلان زميل فلان، وأنت يا ابن عباس زميلى، وكان لى محبا ومقربا، حتى كان كثير من الناس ينفسون على مكانتى منه فزاملته وأخذ ينشد:

وما حلت من ناقة فوق رحلها      أيسر وأوفى ذمة من محمد

ثم قال: يا ابن عباس، ألا تشدنى لشاعر الشعراء؟ قلت: ومن شاعر الشعراء قال: زهير، فقلت لِمَ صبرته كذلك؟ قال: «لأنه لا يعاظم بين الكلامين، ولا يتنبح الوحشى، ولا يمدح أحداً بغير ما هو فيه» فعمر يفضل زهيراً على من عداه مبينا أوجه التفضيل، وهى سنة طريفة فى النقد، إذ كان من قبل عمر من الرواة، متى نقدوا

شعرا قالوا إنه برود يمنية تطوى وتنشر، أو قالوا إنه سمط الدهر، أو قالوا إنه مزاد لا يقطر منه شيء، إلى آخر هذه التشبيهات المجملة التي لا تفصل حكما ولا تعلل رأياً، فجاء عمر في نقده بالتفصيل الواضح والتعليل المقبول.

وليس من الغريب أن يخالف الفاروق ما أجمع عليه كثير من أئمة النقد في الأدب، فيفضل زهيراً على امرئ القيس، لأن عمر الدقيق يسر الشعر بعقله فلا يعجبه منه إلا ما جاء متمشياً مع المنطق السليم، فكان نبيل الغرض رائع الحكمة، وزهير حكيم قد يزن الأشياء بميزانها العاقل، فلا يفحش في غزله، ولا يتعابث في تصابيه، بل يسوق الحكمة تلو الحكمة رائعة ساطعة تجذب إليها كل مفكر حصيف، أما أمرؤ القيس مثلاً فلا نظن عمر يرضى عنه، وجل شعره في مغازلة الحسان، ومعاقرة الخمر، والاسترسال مع الصبوة إلى أبعد شوط، وهي بعد أغراض لا يش لها الحكماء من قادة الرأي كعمر بن الخطاب: سمع مرة قول زهير.

فإن الحق مقطعة ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

فأخذ يحرك رأسه في عجب ويقول في تبسم: «إنما أراد أن يبين أن مقطع الحقوق يمين أو حكومة أو دية كما جاء به الإسلام.

هذا التدقيق المتواصل في شعر زهير جعل الفاروق يكرر إعجابه به، ولا يني يتحدث عنه في حاسة وإثارة. دخل عليه ذات صباح أحد أولاد هرم بن سنان ممدوح زهير «فسأله من أنت؟ فقال أنا ابن هرم بن سنان فقال عمر: صاحب زهير قال نعم، قال أما إنه كان

يقول فيكم فيحسن؟ فقال الابن: كذلك كنا نعطي فنجزل فتبسم عمر.. وقال قولته الصادقة: ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم!

ولقد كان النابغة الذبياني يلي زهيراً في المنزلة لدى الفاروق، لأن النابغة أقرب إلى زهير منه إلى امرئ القيس، إذ كان مثد التفكير، شريف الغرض؛ وإعجاب عمر به يرجع إلى ما سمع من أبياته التي تنحو منحى زهير في المنطق والسداد «لقى عمر بن الخطاب وفد غطفان فقال: أي شعرائكم الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ربة      وليس وراء الله للمرء مذهب

فقالوا النابغة، قال فن القائل:

فإنك كالليل الذي هو مدركي      وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقالوا النابغة، فقال فن القائل:

أنتك عاريا خلقا ثيابي      على وجل تظن بي الظنون

فقالوا النابغة: قال ذلك أشعر شعرائكم».

وإذن فزهير عنده شاعر الشعراء، أما النابغة فهو شاعر غطفان! وطبعي أن يكون عمر مع هذا النظر الثاقب في الشعر قادرا على أن يوجهه حيث يريد، شأن الذين يتبحرون في مادة من المواد فلا يكتفون بسردها على الوجه المعروف، بل يذهبون في تأويلها إلى مدى لا يقدر على تفهمه واستنباطه غير المتمرس الحاذق، إذ يأتي إليه

الشعر صريح الدلالة على معنى خاص ، فيستخرج أبو حفص منه ما يغيب عن غيره !

وفى حديثه مع النجاشي ما يشير إلى ذلك ، فقد كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قِرى الأضياف ، إلى أن هجأهم النجاشي فضجروا وسبوا به ، واستعدوا عليه عمر فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا أبشع هجاء . فقال «ماذا قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر ليت آل الخطاب كذلك ، قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا ورد الوارد آخر منهل

فقال عمر: وما فى ذلك ، هذا أقل للزحام ، قالوا إنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر: كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه ، قالوا فإنه

قال :

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد ، وسيد القوم خادمهم .

فهذه الأبيات كلها سب صريح ولكن عمر يتجه بها كما شاء له  
افتتانه ، إذ كان لا يخفى عليه — وهو الباقعة الألعى — ما تتضمنه من  
هجو لاذع ، ولعله فى ذلك كما يقول صاحب العمدة « يدرأ الحدود  
بالشبهات » .

كذلك كان الفاروق على علم تام بشعراء عصره يستطلع أخبارهم  
ويستفسر عن أحوالهم ، وربما ذكر له الشاعر فجعل يسأل عن معاشه  
وأوصافه الجسمية والخلقية ، وكأنه يريد أن يفهم شعره على ضوء  
حياته ، قام مرة يصلى الصبح فوجد رجلا قصير القامة أعور متنكبا  
قوسا ، ويده هراوة ، فقال له : أنت متمم بن نويرة ؟ فقال نعم يا أمير  
المؤمنين . فقال : هكذا وصفت لى ، فأشدنى مراثيك فى مالك  
أخيك ، فأخذ ينشده حتى وصل إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا  
فلما تفرقنا كأتى ومالكا على طول وصل لم نبت ليلة معا

فقال عمر : والله هذا هو التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر  
فأرئى أخى زيدا بمثل مراثيت به أخاك ، فقال متمم : لو أن أخى  
يا أمير المؤمنين مات على مامات عليه أخوك من الإيمان مراثيته ، فقال  
عمر : « ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم » .

ونحن لو فتشنا مراثى متمم هذا ، ما وجدنا أحسن من البيت  
الذين وقف عندهما الفاروق ، وفى ذلك الدليل القوى على سلامة  
ذوقه ، ودقة شعوره بمعانى الكلام ، وقد جاء بعد عمر من هام بهذين  
البيتين من أئمة الأدب فكتبها على قبر أخيه .

على أن أبا حفص كان يفعل إنفعالا شديداً يظهر أثره في وجهه حين يسمع شعرا يقال في مناوئة الدعوة المحمدية . فقد أسكت من أنشده شعر أمية بن الصلت في رثاء قتلى بدر، وكأنه يربأ بالشعر أن ينحط إلى درجة تجعله يجحد عن الحق ويميل إلى الباطل . ولطالما توعد من يقول شعرا في هذا الموضوع البغيض ، حتى إن كراهته لأعداء الرسالة من الشعراء ظلت كامنة في قلبه على رغم إسلامهم بعد ذلك ، فقد كان أبو شجرة بن الحنساء شاعرا مثلها ، وقد لحق بأهل الردة وأخذ يقول الشعر في تحريضهم على أصحاب محمد ﷺ وكان مما قاله :

فرويت رمي من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم لما أخفق في تحريضه ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه صاغرا ، وقبل منه ذلك أبو بكر، وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر، قال : يا أمير المؤمنين أعطني فيأني ذو حاجة فقال عمر: من أنت؟ فلما عرفه صاح؛ أي عدو الله! أأست القائل:

فرويت رمي من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم جعل يعلوه بالدرة على رأسه ، فطار عدوا إلى ناقته ، وارتحل عائدا إلى قومه من بنى سليم ، وعمر يكرر البيت في تهكم واستهزاء .

وكان برغم صرامته في الحق يعطف على الشعراء المجيدين . وقصة النجاشي السابقة تؤكد لنا هذا المعنى أبلغ تأكيد ، وحسبك أن الخطيئة كان يلقي منه — على سلاطة لسانه وقبح هجوه — كل تسامح



محمود، فقد حبسه عمر - رضى الله عنه - حين هجا الزبرقان بن بدر  
فنظم عدة أبيات عاطفية يستميل بها قلبه ومنها:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ      زغب الحواصل لاماء ولاشجر  
ألقبت كاسهم فى قعر مظلمة      فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فرق له عمر، وأطلقه من سجنه ومنحه دراهم كثيرة على ألا  
يتعرض لهجو المسلمين .

ولقد شاع فى الناس حبه للشعر وتأثره به أيما تأثر، فعمد كثير من  
أصحاب الحاجات إلى عرض مطالبهم عليه فى أسلوب شعري فكان  
يردهم أحسن رد، قال عثمان بن أبى العاص: كنت عند عمر فأتاه  
شيخ كبير يسمى أمية ابن حرثان فأنشده .

لمن شيخان قد نشدا كلابا      كتاب الله لوقيل الكتابا  
أناديه فيعرض فى إباء      فلا وأبى كلاب ما أصابا  
فانك وإبتغاء الأجر بعدى      كباغى الماء يتبع السرابا  
تركت أباك مرعشة يداه      وأمك لاتطيق لها شراباً  
إذا غنت حمامة بطن وج      على بيضاتها ذكرت كلابا

فقال عمر: مم ذاك يا أخا العرب؟ فقال: هاجر كلاب إلى  
الشام فى جيش الحرب، وترك أبوين كبيرين ولا من عائل لهما: فبكى  
عمر حتى ماتتبن كلامه ثم كتب إلى يزيد بن أبى سفيان فى أن  
يرحله، فقدم عليه، فقال عمر: بر أبوك إلى أن يموتا؟

وكان لا يطوف فى شارع أو زقاق ويسمع شعرا ينشد إلا وقف  
يتسمعه حتى ينقطع الصوت، وله فى ذلك غرائب عجيبة، سمع  
أعرابية تنشد:

فمن من تسقى بعذب مبرد      نقاخ فتلكم عند ذلك قرت  
ومن من تسقى بأخضر آجن      أجاج ولولا خشية الله فرت

فعلم ماتريد، وبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم، فخيره بين  
خمسائة درهم أو جارية من الفء، على أن يطلق زوجته، فاختر  
الدراهم وطلقها، وهذان البيتان لا يدرك مرماها غير من له بصيرة  
عمر وذكاؤه، ولو سمعها غيره لظنها شعرا ينشد وكفى ولكن عمر  
الدقيق يصل إلى المراد بالمعيتة المتوقدة.

وطاف ذات ليلة ببعض خيام المدينة فسمع أعرابية تنشد:

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه      وأرقنى أن لا خليل ألاعبه  
فوالله لولا الله لاشىء غيره      لزلزل من هذا السرير جوانبه  
وبت ألاهى غير بدع ملعن      لطيف الحشا لا يجتوبه مصاحبه  
يلاعبنى طورا وطورا كأثما      بدا قر فى ظلمة الليل حاجبه  
يسر به من كان يلهو بقربه      يعاتبنى فى حبه وأعاتبه

فسأل عنها فقيل إن زوجها غائب فى جيش القتال من عام،  
فذهب إلى ابنته وسأها كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: مائة  
وعشرين ليلة، فأمر أن يمكث المتزوج أربعة أشهر ويستبدل به غيره.  
ولو أردنا أن نستقصى ماورد عن عمر من هذا القبيل لطال بنا  
القول، وحسبنا أن نشير.

على أن ذوق الأديب يظهر واضحاً في قوله ، وكذلك كان عمر ،  
فقد جاءت عباراته ممتعة ، وردوده بارعة ، مر يوماً بمنزل أنيق فقال :  
لمن هذا ؟ فقيل لعاملك فلان ، فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج  
أعناقها . وتنازع عبد الله وعاصم ابنه ، فسألاه أيها أفضل من أخيه ،  
فقال أنتما كحمارى العبادى ، قيل له أى حماريك شر ؟ فقال هذا ثم  
هذا ! وقال : الكوفة ججمة العرب ، وكنز الأمصار ، ورمح الله فى  
الأرض . وحج ذات مرة وهو أمير المؤمنين فلما مر فى طريقه بأحد  
الأودية المقفرة صاح على مسمع من أصحابه لا إله إلا الله ، يعطى من  
بشاء ما يشاء ، كنت بهذا الوادى فى مدرعة صوف أرعى إبل  
الخطاب ، وكان فظاً يتعبنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت ، وقد  
أمسيت الليلة وليس بينى وبين الله أحد ثم أنشد :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته      يبقى الآله ويفنى المال والولد

وكتب الأدب مملوءة بأمثال هذه الروائع من آثاره حديثا ورسائل  
ونقدا ، إذ كان - رضى الله عنه - فذا فى سياسته ، فذا فى أخلاقه  
فذا فى أدبه ونقده . وما أصدق الخطيئة حين قال فيه :

ما آثروك بها إذ قدموك لها      لكن لأنفسهم كانت بك الإثر

\*\*\*

## يَاتَلْفُون عَلَى صَفَحَاتِ الْهَلَالِ

ما أفسح ما يتسع له هذا العنوان، إِنَّ الدَّارِسَ المنقَّبَ ليستطيع أن يكتب في مجاله مؤلفاً كبيراً من عدة أجزاء، لأن مجلدات الهلال في سيرها المنتظم في نحو ما يقرب من قرن زاخِرٍ بالأحداث، جَيَّاش بالحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية، عامِرٍ بالأفذاذ من أساطين القلم، وقادة الرأي. وأساتذة التوجيه الديني والأدبي والسياسي، هذه المُجلَّدات الثريَّة ببحوثها ومقالاتها، وتحقيقاتها واستطلاعاتها، وقصائدها وقصصها في حاجة إلى جماعة من الدارسين، كلٌّ وفق تخصصه المنهجي، ليؤرخوا لمصر والعالم العربي في هذا القرن في ضوء ماسطرته مجلداتُ الهلال، أفيجوز لمثلِّي أن يكتب هذا العنوان الفسيح ليضم مقالاً واحداً في بضع صفحات!

ولكنَّ عواطف الإنسان تُلزمه أن يُفصح عنها بما ينبىء عن مكنونها المستتر، فيشير إلى بوارق خاطفة، تومض ومضاً قد يهدي الطريق لمن يرتاد، ولا بدَّ من تحديد مَنحى مُوجَزٍ مِنْ مناجي القول، ليجرى الحديث بين شَظَينِ متقاربين كما يتسلسل ماء الغدير في ضفَّتَينِ متجاورتين، وقد اخترتُ أن يكون حديثي عن بعض الأعلام الكبار من قادة الفكر الديني الذين أنجبهم الأزهر الشريف، فأسهموا بجهودهم الحافلة في عالم الفكر المعاصر، وكانت مجلةُ الهلال أفقا مشرقاً تألق فيه كواكبهم الساطعة على فترات تتقارب وتتباعَد، وهم بعدُ من ذبوع السيرة، وجهارة الصيت وشرف المنزلة بالمكان الأرفع،

ولهم آراؤهم الصائبة فى ميادين الإصلاح الدينى ، والتحديد البياتى والنقد الاجتماعى ، وما أحوجتنا اليوم إلى أن نهتدى ببعض ما سَجَلوه ، وإنه لكثير حفيل .

## ( الإصلاح الدينى )

أيعقل أن يُذكر الإصلاح الدينى فى الحقبة التى بزغ فيها الهلال ولا يُذكر رائد الإصلاح الأستاذ الإمام محمد عبده ؟ لقد مات الرجل بعد أن ظهر الهلال بثلاث عشرة سنة ، ولكنَّ آراءه الإصلاحية أخذت تتوالى على صفحات الهلال بعد رحيله إذ كان من مميزات الهلال أن يختار من أقوال الراحلين ما تدعو إليه مناسبة تشغل القراء عند ظهور العدد ، فترددت أقوال « مأثورة » لمحمد عبده ومصطفى كامل والمنفلوطى وباحثة البادية ، وجبران خليل جبران وغيرهم من أساطين الفكر فى الصفحات الأولى ، وهكذا رأينا آراء محمد عبده تسطع فى أفق الهلال بعد رحيله . كالشمس تغيب مساءً ثم ما تلبثُ أن تشرق .

فى سنة ١٩٣٧ احتلَّت وزارة المعارف بمرور مائة عام على إنشائها ، وأصدرت مجلَّة الهلال عدداً خاصاً بهذه الذكرى الجليلة . وكان ممَّا كثر الحديثُ عنه بهذه المناسبة . أنَّ التربية الخلقية لم تَسْرُ مع التربية العلمية فى خَطْوٍ متوافق ، إذ اهتمت الوزارة بكثرة المعلومات دون أن تلتفت إلى تقويم السلوك ، وهو أمرٌ سبقَ أن دعا إليه الأستاذ الإمام بمقال نشره سنة ١٨٨١ م ، فكان من الأنسب أن تُعيد الهلالُ نشر مقال الأستاذ الإمام ليكون صوتاً من عالم الغيب يُنادى بأنَّ تربية

النفوس لابدَّ منها بإزاء تربية العقول . إذ لا تُدرَكُ المعرفة المشرقة إلا بعد تحلّي النفس بالصفات الجميلة ، لأنّ الإنسان إذا كان فاسد الأخلاق سُبِّبَ الشقاءَ لنفسه ، ولغيره ، مهما أحاط بعلوم الدنيا جميعها ، والخلق الصحيح ثمرةً من ثمار التعليم الدينى ، ومن تتبّع قوانين التعليم فى الممالك الأوربية رآها تبتدئ بالتعاليم الدينية ، والاستمرار عليها إلى مدى ستّ سنوات متصلة ، فتتربّى لدى الطالبة ملكة خلفية رفيعة تُقرّبُها من الفضائل ، وتُنأى به عن الرذائل ، وقد شرعت العبادات لتكون وسيلةً إلى تقويم النفس ، ودفعها إلى الخشوع والاطمئنان .

فى مثل هذه المعانى دارَ مقال الأستاذ الإمام ، وقد نُشر بالهلال مُجاوراً لمقال آخر للأستاذ محمد أحمد جاد المولى تحت عنوان التطوّز الخلقى فى مائة عام ، ذَهَبَ فيه الكاتب إلى أن تطوّزنا الخلقى لم يستقر بعد ، وكأنى بما جاء فى مقال الإمام وقد نصّ على وسائل الاستقرار ، ودعائمه الثبات .

وحين اتَّهَمَ الشَّرقُ بالتعصب انهماماً جعلَ النفوس تنفرُ من هذا الوصف ، التبس الأمرُ على الناس ، فظنُّوا أن كلّ تعصب مقيتٌ ، مع أنّ التعصب للخير فضيلةٌ تدفعُ إلى التّقدم ، وتدعو إلى الاتحاد ، فرأت مجلة الهلال أن تفتتح عددها الصادر فى أول يوليو سنة ١٩٣٣ بمقال للأستاذ الإمام نصّ فيه على أنّ التعصبَ نسبةً إلى العُصبة ، وهى جماعةُ المرءِ الذين يُعززون قُوته ، ويدفعون عنه الضيم ، وقد أقام الله بناء الأمم على التّرابط والتعاون ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأفراد ، أعظمُ باعٍ على بلوغ الأقصى من درجات الكمال ،

فالتعصّب روحٌ كُلُّى يَرْفُى بالأُمة ويدفعُها إلى النهوض ، كما أنّه يرفعُ نفوسَ الآحاد عن معاطاة الدُنيا ، وارتكاب الخيانات ، إذ هو تعصّب للفضائل لا للردائل .

أما الكلمة الشهيرة التى نسبت إلى الإمام محمد عبده حين قال ، «إنما ينهضُ بالشرق مستبِدّ عادل» فقد أعادت مجلّة الهلال نشرها بعدد نوفمبر سنة ١٩٣٣م فى سياقها المظرد ، الذى بصوّر مفهومها الصحيح لدى الإمام . إذا التبس على بعض القراء معنى المستبد فى عبارة الإمام ، فحسبوه الدكتاتور الذى لا يعبأ برأى سواه ، رجوعاً إلى المعنى الحقيقى لكلمة «مستبد ، ولكنّ وصفت المستبِدّة بالعدالة يُوجب أن يكون المعنى مجازيّاً ، لوجود القرينة المانعة من المعنى الحقيقى ، وهى صفة العدل» وقد قالَ الإمام فى تمة حديثه كما نشرته الهلال : إنّ المستبد عادِلٌ لا يخطو خطوةً إلّا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه . فإنّ عَرَضَ خَطَ لنفسه ، فذلك فى النظرة الثانية ، لأنّ الحاكم أكثرُ لقومه ممّا هو لنفسه ، فهو يُكره المتاكِرِن على التعارف ، ويقهّرُ الجيران على التناصف .

ونحن بمنطوق هذه الكلمات لانشم رائحة استبداد من إنسان يعملُ لقومه لالنفسه . ويلتزم بالعدل الصريح حين يُلزَم المتخاصمين بالتصافى ، ويُجبرُ معشره على الإنصاف ؛ فعلى الذين يأخذون كلمةً من السياق ، أن يقول لهم ، لا تقفُوا عند قول الله ( لا تقربوا الصلاة ) بل اثموا النص الشريف .

هذا بعض ما تتمثل به للأستاذ الإمام ، ونحن نعلمُ أن تلاميذه الكبار قد ترسموا خطوه الإصلاحى وسطعت أرواحهم فى شتى

المجالات الفكرية على صفحات الهلال، وكأنها زهرة من بستانه، أو عبير من زهرته، ونكتفى في المجال الديني بتلميذين جديرين من تلاميذه تبوّءا مشيخة الأزهر عن أصالة واستعداد، هما الأستاذ محمد مصطفى المراغى، والأستاذ مصطفى عبد الرازق - رحمهما الله -.

أما الشيخ المراغى فهو أقرب تلاميذ محمد عبده شبا به، إذ كانت له مهابة أسد، وجلال ملك، وفقه إمام، وكان منطقته الفصل فى كثير من العلم والسياسة والتشريع، وقد تبجّح قوم بمهاجمة الأديان، فكتب الأستاذ بمجلة الهلال (يناير سنة ١٩٣١) مقالاً منطقيّاً عن الإخاء الإنسانى فى الإسلام، ذكر فيه أن عوامل التفرّق تجبر الناس على الخضوع للفرائز الهابطة، وتدفعهم إلى الأثرة والغيرة والخوف والشك مما يباعد مسافة الإخاء العالمى، وقد شاهدنا الهول الهائل من حروب طاحنة دقّت قوى الإنسانية. ولن يُجدى التقدم الفلسفى والسبق العلمى عنها شيئاً، ولكنّ العقيدة الدينية ذات نفع طيب فى هذا المجال، لأنّ الأديان تعتمد فى الإنسان على أصل راسخ من غريزة التدين، تدفعه إلى الثقة بأنّ العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة. . . ترقب النيات وتحكم الضمائر، وتجزى الناس بالخير والشر، هذه القوة هى الحاسمة فى ترجيح نوازع الفضيلة وكبح جاح الرذائل، والرجوع إلى غريزة التدين يرفع الإنسان إلى مافوق الإعتزاز باللون والدم والحياة والطبقة، لذلك نحمد الإسلام يعنى بفكرة الأخوة الإنسانية، ولم يحم وزننا لشرف المولد وكرم الجنس لأن معيار التفاضل عنده هو التقوى.

هذه سطور قليلة تُوجز مقالاً هادفاً ذا معانٍ إنسانية سامية، وله



نظائر مماثلة سجلّها الأستاذ الإمام على صفحات الهلال ، ولعلّ من أهمها حديثه الضّافى حين تولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية ، إذ ظلّ على القراءة بنظرات صائبة حول دور الأزهر فى المجتمع الإسلامى ، وعن الرابطة الإسلامية ومدى تأثيرها ، وعمّا ينقص العالم الإسلامى من أسباب النهوض ، وموقف المسلمين من الحضارة المعاصرة ، وأىّ أعلام الإسلام أولى بالتقديم ، وهى عناصر حديث شامل تشير إليه ولا تفصّل عنه ، فإذا التمس القارئ مكانه فيجده فى عدد يونية سنة ١٩٣٥ من مجلة الهلال .

وإذا كان المراغى يمثل الطابع الإصلاحى فى تطبيق آراء محمد عبده فإن خَلَقَه الأستاذ الكبير مصطفى عبد الرازق يمثل الطابع الفلسفى من تفكير الأستاذ الإمام ، وقد ترجم رسالة التوحيد إلى اللغة الفرنسية مع زميل باريسى ، وساعدته ثقافته الواسعة على أن يكتب بحثاً فلسفياً دقيقة . نشر بعضها على صفحات الهلال ، وقد كان من سماته الأسلوبية فى مجال البحث العلمى أن يكثر من النصوص المتقابلة . ومثل هذا المنحى قد يثقل على قارئ مجلة دورية . ولكنّ الهلال تعلم أن قراءها من الخاصة ، فاستعنت صفحاتها لبحوث دقيقة كتبها الأستاذ فى مجال النظر الفلسفى ، ونشر هنا إلى بحثين طريفيّن تحدّث مصطفى عبد الرازق فى أولها عن الفلسفة الإسلامية فى ضوء النهضة الحديثة مبيّناً المقصود من هذه الفلسفة وموضحاً أغراضها وصلتها بعلم الكلام ، وقد ألّم بوجهة المستشرقين فى دُرُس هذه الفلسفة حين جعلوها نقلاً للفلسفة الغربية القديمة دون تحديد ، مخالفاً هذا النظر الضيق حيث امتدّ بالفلسفة الإسلامية لتشمل علوم الكلام وأصول أحكام الفقه ، وهى من صميم الفكر الإسلامى

الذى لم يشته مع الفكر اليونانى فى لبابه الصميم ، وكان الباحث من التسامح بحيث حاط النظر المخالف بما يشبه الاعتذار، وهذا خلق فلسفى عملى نعهده لدى الصفوة من المترقعين ، أما البحث الثانى فقد تسلسل فى عدة أجزاء من الهلال سنة ١٩٣٢ لتكتمل حلقاته فى وحدة متآخية تبحث عن مذهب العلم الحديث فى الدين .  
والعلاقة بينهما ، وبداية الاهتمام بهذا البحث عند علماء اللغات ، والبيكولوجيين ، وعلماء الاجتماع ، متحددا وجهة النظر الإسلامية المستقلة ، وهذه البحوث وإن أخذت طابع الفكر المجرد فإنها ذات صلة بالإصلاح الدينى ، لأن معرفة الأصول الصحيحة للدين الحق تهى إلى الطريق القويم ..

## التجديد البيانى

من الآف للنظر أن صيحات التجديد البلاغى دوت على صفحات الهلال قبل بر صداها فى القاعات الجامعية . لأن الهلال قد سبقت الجامعة المصرية القديمة بسنوات عدة ، فحفلت أعدادها ببحوث عن النقد الأدبى ، والأسلوب البيانى ، كانت طليعة موفقة لما جد من تجديد فى هذه الدراسات ، ثم جاءت الجامعة المصرية الجديدة فحفلت بهذه الدراسات فى تودة مطمئة . لأن الاجتهاد العلمى لا يوتى ثمره بين يوم وليلة ولكنه ، بذور تكن فى باطن الأرض أمدأ طويلاً حتى تنشق التربة الصالحة عن عود أخضر يأخذ فى النمو شيئاً فشيئاً ، حتى يشب ونمو ثم يورق ويزدهر ثم يوتى أكله الطيب . ومن بشائر ما كتبه الهلال فى هذا المجال مقال السيد

مصطفى المنفلوطى عن البيان وصلته بالطبع ، ومدى التكلف لدى من يظنون الجزالة البليغة فى الغرابة الحوشية ، دون التفات إلى الفطرة المطبوعة على اليسر والسلاسة ، وقد مهّدت المجلّة لهذا المقال الرائع بقولها « ليس فى كتابنا من هو أجدر بالتكلم عن البيان من أمير البيان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وانا لنود أن يطلع على هذا المقال البديع كلُّ أديبٍ من أدبائنا ، وكلّ متطلّع إلى احتراف الأدب من شبابنا » .

أما أولى الصيحات المرنّة فى عالم التجديد البلاغى فقد دَوَّى بها صوّت الأستاذ على عبد الرازق فى بحثين ضافين بعددنى الهلال (أبريل ومايو سنة ١٩٣١) حيث ألقى نظرة صادقة على البلاغة العربيّة فى حاضرها وماضيها ، ثم مايجب أن تكونَ عليه فى مستقبلها . وللأستاذ الكبير على عبد الرازق عهدٌ بالتدريس البلاغى . إذ ألقى على طلاب الأزهر فى العقد الثانى من هذا القرن عدة بحوث بلاغية جمعها فى مؤلّف لطيف تحت عنوان (الأمالى) ومازالتْ خواطره البلاغية تعتاده على رغم انصرافه للبحوث التشريعية مُصيّباً كانَ أو مخطئاً حتى هتف ببعثه عن البلاغة على منبر الهلال ، فأشار إلى بُذ من أقوال السابقين . وحدّد عناصرَ الجمال فى الأسلوب الأدبى موضحاً بلاغة القرآن والحديث ، ومُتسائلاً عن التجديد البلاغى المنتظر، معترفاً بما فى اللّغة العربيّة من مُرونة لا تكادُ تُعرف فى لغة أخرى ، إذ تُساعدُ هذه اللّغة على أن تشقّ من الكلمة الواحدة عشرات الكلمات ، وقد وسعت صنوف الحضارات المتعاقبة ، ولاقتْ فى عُصور الانحطاط صنوف البلاء ثم خرجتْ منها حية سليمة ، وهى

فى لغات العصر الحاضر أقدمها وجوداً، وأصلها عُوداً، وأمجدها تاريخاً، فلا بُد أن تُرسم لبلاغتها طرق التجديد.

ثم نَتى الكاتب المبين الأستاذ عبد العزيز البشرى، وهو أقرب المعاصرين شَبهاً بالجاحظ. جَلجلة أسلوب، ورقة إحصاس، وسطوة حُجة، ولُطف مدخل، نَتى البشرى بمقال ضاف نشره الهلال (يناير سنة ١٩٣٦) تحت عنوان (ثورة على علوم البلاغة) كان خلاصة محاضرة ضافية ألقاها الأديب الكبير فى الجامعة الأمريكية، بدأها بتجربة طريفة له مع زميل درس كتب البلاغة أربعين عاماً ثم أتى بالمضحك الركيك حين تكلف صوغ الشعر، لينتهى إلى أن البلاغة طبع وذوق وفطرة، وليست مصطلحات تُحفظ، ثم مَضى يُحدد السير التاريخى للتأليف البيئى ازدهاراً وانحطاطاً لينتهى إلى أن البلاغة باعتبارها فناً هى أثر الملكة، ومظهر قدرتها. أما باعتبارها علماً فهى عصارة ماخرج بالاستقراء للإحساس والأذواق من دواعى الحسن والقبح فى فنون الكلام. وإذا كان الفن يتطور، والبلاغة فن، فلا بد من تطويرها، لتكون أشبه بالتقَد القائم على الثَقُظن والتذوق، بحيث تنطور مع تطور الأفهام والأذواق.

ولم تذهب صيحة البشرى هباءً، بل وجدت صداها لدى الأستاذ أمين الخولى، فَعَقَّب على مقال البشرى، بمقال كاشف بالهلال يشير إلى أن دعوة الكاتب للتجديد تجد تحقيقها الآن فى كلية الآداب بالجامعة وأن الأستاذ الخولى يدرس البلاغة المتطورة على نحو يُرضى المعاصرة الراعية، وهذا حق لأن للأستاذ الخولى مدرسته الأسلوبية التى خَظَّت بالدراسات البلاغية خطوات سديدة، والبلاغة فى عُرف

هذه المدرسة هي (فنّ القول) وللأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ أحمد الشايب بحوثٌ بلاغيةٌ تؤازر هذا الاتجاه وثيره.

## ( النقد الاجتماعي )

أما مجال النقد الاجتماعي في مجلة الهلال.. فقد نشط فيه علماؤنا الكبار نشاطا يغبطون عليه، وأذكر أنّ الكاتب الاجتماعي الكبير الأستاذ محمود أبو العيون كان صاحب سبق ظافر في هذا المجال، إذ كانت مقالاته الاجتماعية تنصل متلاحقة لتكشف عن هنات يراها المنغمسون فيها يسيرة، وهي عند الله كبيرة، والأستاذ أبو العيون مظلومٌ حقّ الظلم من تلاميذه الذين لم ينهضوا لجمع آثاره الكثيرة في أمهات الصحف والمجلات، فلعلّنا نلفتُ إليه مَنْ يحرصون على تقدير العاملين.

لقد كان الكاتب الاجتماعي جريئاً في كل ما يكتب، وهو بعدُ خطيبُ الثورة المصرية، وصاحبُ الكلمة في منبر الأزهر حين كان الموجه الصادق للأحرار، لقد تحدث (عن الدين ورجال الدين) في مجال التحليل الاجتماعي لما جدّ من أوضاع تخالف الروح الإسلامية، فلم يُغفل إخوانه العلماء من الملامة على تقصير لحقهم بشأن رسالتهم إذ اشتسلم أكثرهم للواقع المحزن، دون اكتراث. وقال في صراحة نادرة (مجلد الهلال سنة ١٩٤٢) «تستطيع أن نجهر بالقول بأن النفوس تبلدت فلم تعد مستعدة لقبول المعاني الروحية السامية، لأن زيف المدينة قد رآنا على النفوس، وزادها تبلداً أنّ عناصر الهداية المستمدة من أصول الدين قد ضُغفت وسائلها، فلم تر من بيننا تلك

القدوة الصالحة .. التى كانَ يتَّسمُ بها العلماء ورجالُ الدِّين من قبل ،  
واختفت وجوهٌ وأولئك الغرّ الميامين من رجال العلم العاكفين على  
إصلاح حالهم ، وحال طلبتهم فى سماحةٍ وكرمٍ .

ويقول فى مجال آخر: (الهلal نوفمبر سنة ١٩٣٣):

«لقد نفذ القحط الخلقى والانحلال الأدبى إلى كَلِّ الجماعات  
والطبقات، فأثَّنا يكون الهادى، وأثَّنا يكون المهتدى، إنَّ العناصر  
الرشيذة التى كانت تنزعم الأقوام، وكانت مصدراً للفضيلة . ومبعث  
هدى للخلق الكريم، تنكبت الطريقة المثلى، وشاركت الطبقة الدنيا  
فما يصدر عنها من المثالب، وليس لها من عاصم، لأنَّ النفوس نشأت  
قاحلةً من أصول التربية الصحيحة ومن الخير لمصر أن يكون بها رجلٌ  
دين على جانب كبير من الذكاء والثقافة اللائقة بمقتضيات عصر  
العلوم والمعرفة . فقد قضى الزمن الذى كان يهيبُ فيه الزعيمُ  
الدينى، فتخضع له الوجوه، وأصبحت المهمة شاقةً مجهدة، تتطلب  
العزم البصير». كما أنَّ أبا العيون نادى بأن تتعلم الفتاة بالأزهر قبل  
أن يتحقق ذلك بأكثر من نصف قرن، فكتب فى عدد نوفمبر سنة  
١٩٣٤ من مجلة الهلال مقالاً توجيهياً يدعو فيه إلى هذا الاتجاه،  
ويعلن أنَّ ذلك ليس غريباً على الأزهر، إذ كانت الفتيات يتقدمن  
فى الزمن القريب إلى نيل شهادة العالمية بالأزهر، وقد سافرت لطنطا  
لجنة علمية سنة ١٩١١ لتمتحن طلبة العالمية، ومن بينهم فتاة دارسةٌ  
تسمى فاطمة العوضية، وكان موضوع امتحانها فى علم الأصول  
مُحددًا فى باب (لا تكليف إلا بفعل) وهو من أغمض الأبواب  
تعقيداً واستشكالاً، والمقال ممتع طريف .

وأبو العيون لم يكن وحده من كتاب الأدب الاجتماعى بمجلة الهلال، بل كان له زملاء كبار من أدباء الأزهر وعلمائه نذكر منهم السيد مصطفى المنفلوطى وعبد العزيز البشرى ومصطفى عبد الرازق، ومحمد أحمد عرفه، وكلهم بارغ اللوحة، صادق النظرة، مستقيم المنهج، ومحاولة الاستشهاد ببعض ماسجلوه مما يضيق به المجال ولكنى أختار جزءاً من كلمة عامرة للأستاذ مصطفى عبد الرازق قال فيها متحدثاً عن المرأة [مجلد الهلال سنة ١٩٣٥م]:

«إن للمرأة خواص تجعل أثرها فى تشييد صرح الحياة وتزيينه أقوى من أثر الرجل، فالمرأة بحكم وظيفتها الطبيعية فى تكوين الجنين تبرز للحياة الإنسان الحى كأنما تقدمه من كيانها، وطبيعتها أن يفيض قلب المرأة بالحب والحنان لهذا العالم الإنسانى الذى تكاد تشعر بفطرتها أنه ثمرة من ثمارها وأن حياته مستمدة من حياتها.

على أن فى فطرة المرأة نوعاً من السحر والجمال والخلابة يسمو بأهل الفن إلى ما يبدعونه من الآثار. ولهم الشعراء روائع الشعر، وإذا كان جلال الحياة فتاً وشعراً، وحباً، فإن المرأة هى التى تبنى كل ما فى الحياة من معانى الجمال».

أعود فأقول، إن مقالاً واحداً لا يبلغنى ما أريد، فهل اكتفى ببعض عن بعض، وإذا اكتفيت فهل يكتفى القارئ الرشيد؟.

\*\*\*

## شاعر يودع الحياة فى صمت

قرأت قصة للكاتب الروسى الأشهر « أنطون تشيكوف » يتحدث بأسف ومرارة عن نصيب العلماء العاملين من الشهرة . وقد برع الفنان الكبير فى تصوير تلك المرارة الأليمة التى يحسها العبقري حين يجد نفسه هباء مضاعفا بين صعاليك أغبياء يتسمنون المجد الذائع والشهرة العالية سواء ، وبطل القصة مهندس مختار يتحدث عن نفسه فيقول نقلاً عن ترجمة محمد السباعى .

« أنا مهندس بارع أتيج لى أن أنشئ فى روسيا ثلاثين قنطرة من أفخم القناطر وأن أزود خمس مدائن بمصانع المياه والغاز، وأن أؤدى أعمالاً هندسية خطيرة فى عدد من عواصم أوروبا ولى تصانيف شتى فى العلوم الرياضية، فأنا فى طليعة من يشتغلون بفن الكيمياء فى العالم وقد اكتشفت عدة من الأحماض والقلويات والجواهر الكشافة ولو شئت ألقيت اسمى منقوشاً على صفحات كتب الكيمياء بمعاهد الدراسة خارج روسيا وقد ارتقيت إلى درجة مستشار هندسى، وهأنذا أصبح قاب قوسين أو أدنى من القبر ثم لا يعرفنى أحد ..

وتابع المهندس المغمور حديثه يقول « إننى منذ بضعة أعوام أنشأت قنطرة عظيمة فى بلدة كذا وأقيم احتفال علقى لافتتاحها فألقيت الخطب والمقالات وجعلت أنتظر إذ ذاك تردد اسمى وأتخيل الأبصار ممتدة نحوى والأعناق متطاولة إلئى . ولو علمت الغيب لأرحت بالى من



كل هذا العناء والقلق ، فقد احتشدت الجموع وجعلوا ينظرون لكل شىء غبرى ثم شوهدت حركة غير عادية فى الجمهور وأعقبها كثير من المهرج والمرج وتهامس الناس وأومضت على وجوههم ابتسامة ارتياح وماج بهم المكان واضطرب فقلت فى نفسى ربما عرفونى ولكنى علمت بعد لحظة أن سبب هذا الالتفات ظهور ممثلة تافهة محدودة الطاقة يتبعها حاشية من أسرى الغرام تشق عباب الجماهير كالبخرة المزينة وراءها الزوارق والعوامات ، والسفهاء المغفلون يشيعونها بألحاظ الصباية والهيام .

وانتهى الحفل وخرجت جميع الصحف تتحدث عن المهرجان وحضور صاحب الفخامة محافظ المدينة وفئة من كبار الموظفين . وكان من بين الحضور الممثلة الطائرة الصيت قرّة الأعين ونزهة النفوس تحتال بين الصفوف فى حالة أرجوانية موشاة تكاد من فرط حسنها تأكلها القلوب وتشرىها الضمائر، أما أنا فعلىّ العفاء وفى سبيل الشيطان تعبى والى جهنم وبئس المصير» .

هذه الفقرات من قصة رائعة ذكرتها فى مقدمة حديثى عن شاعر كبير بفنه ضئيل بسمعته وصيته فارق الدنيا لما سمع به أحد ، وراح كما عاش حزناً متوارياً تاركا وراءه من روائع الشعر وجيل البيان مالم يتركه مئات المشهورين من رواد المحافل ، ومتملقى الصحافة وعشاق الهتاف والضجيج .

منذ أربعين عاما نقلت إلى بعض المدارس الثانوية فى الصعيد الأوسط بجمهورية مصر العربية فى «أبوتيج» وكان الجو غربياً علىّ فأخذت أتقرب إلى من أتوسم فيهم الثقافة والمعرفة ومن بينهم

أصحاب الجرائد المحلية ذات الصبغة الإقليمية الضيقة! وأنا سيء  
الظن بها — ولا أدري لماذا..

ولكن فراغ المكان يجبرني على الإتصال بالناس ، فوقع فى يدي  
عدد من أعداد هذه الصحف لا يزيد حجمه على ثلاث ورقات تحت  
من سطورها قصيدة شعرية ظننتها سلفاً لشاعر مبتدىء يعالج النظم  
فلم أحرص على الاستفادة منها! ولكن الورقات الثلاث لا تحمل غير  
الإعلانات وحوادث الإقليم وقصيدة الشعر فاضطرت إلى قراءتها ،  
وراعتنى بل أذهلنى شهد الله أن أجد غطاءً رائعاً من البيان لو نسب  
إلى شاعر عظيم كعباس محمود العقاد مثلاً ما شك فى نسبته مثقف!  
وكانت القصيدة تصف موكباً جنائزياً لشهيد جندى وقد ابتدأها  
صاحبها الأستاذ محمد عثمان الصمدى بقوله:

طلعوا به ملقى عليه دم	فوق المناكب لفه العلم
حشدت حوالى ركبه زمر	لله محتشد ومزدحم
أبقاهم الموت الزؤام له	أهلاً تؤلف بينهم رحم
ملأوا السبيل فاترى رجلا	إلا له بأخيه مصطفى دم
لم يبصروا للخطو موضعه	فيه فكم من موطىء قدم
حف الجلال بهم فذ طلعوا	طلع الردى المرهوب والعدم
لا ينبسون وفوق أوجههم	حزن على القسمات مرتسم
سبق الركاب على جلانته	جند إلى صفين قد قسموا
يمشون مشى مكبلين وما	عرفوا الكبول ولاها لزموا
لم يطلقوا فى السير خطوهم	لكن بأوضاع الأسى اعتصموا
ألقوا لظهر الأرض أوجههم	فكأنما اعتزموا الصلاة هم

وسرى الذهول إلى مشاعرهم  
 البعض ينقر طبله فترى  
 والبعض يعزف من ملاحنه  
 عجبا للموسيقى استجبت لها  
 قد أيقظت ذكرا مروعة  
 فأحس طورا نوح منتحب  
 وأحس حينما رجع ولولة  
 تعلومروعة مفعجة

فكأنما غشاها وحلم  
 ثكلى تصيح أسى وتلتندم  
 نغما فيغرى بالأسى النغم  
 متأسيا وصحا بها الألم  
 فى النفس نسى لذعها القدم  
 يبكى فيخذل صوته اليم  
 هوجاء تستشرى فتلتزم  
 وترق حينما ثم تحتدم!

كانت القصيدة ذات أثر قوى فى نفسى فاستعدتها مرة ثانية وثالثة  
 ثم سألت صاحب الجريدة عنه - وهو ضعيف الثقافة محدودها - فقال  
 إنها (لخبطة) رجل مهووس (هكذا والله) يغمره دائما بالشعر ولا ينشره  
 إلا حين لا يجد شيئا ينشر. فقلت معتجبا إن هذه القصيدة من أجل  
 ما قيل فى موضوعها. فتضاحك الرجل وقال فى استهتار: إن الناظم  
 (ترزى عربى) لم يتعلم فى مدرسة وهو يبعث بشعره للصحف الكبيرة  
 فترفضه. ولو كان جيدا كما تقول لرضيت به صحف القاهرة. فتأملت  
 كثيرا لما سمعت، وحرصت على أن أقابل الشاعر فى بلده البعيد.  
 ويمت شطره راكبا المطايا وعابرا نهر النيل من أبو تيج حتى وصلت  
 ساحل سليم. وكان اللقاء.

فاجأنى الشاعر بمنظره ودكانه معا، فهو أشعث الرأس مغبر الثوب  
 تحسه صوفيا من أبناء الطريق قد اعتصم بالتقشف والزهد ورأى فى  
 المركب الخشن والعيش الجاف متاعه اللذيذ، أما دكانه الصغير فلا  
 يضم غير ماكينة الخياطة وصوانا خشبيا تتناثر فوقه أوراق الكتب

وأقشّة الزبائن. فأسهبت فى تقريره وجال بنا الحديث كل مجال فلمست اطلاعا دقيقا على شتى ضروب المعرفة العربية من أدب وفلسفة وتاريخ وتصوف، وكان يلقى بآرائه عفو البديهة فيتضح بها من الألفية الثقافية مالا يدرك عند قارئء دارس فحسب. بل ما يدرك عند نايع متطلع وآمنى كثيراً أن أشهد عن ملابساته الاجتماعية وظروفه المعاشية ما يوجع ويسىء.

لقد عاش مع أوشاب من الجهلة ينكرون عليه حقه فى قراءة الصحف ومراسلاتها. ومن شدا منهم بعض المعرفة لسعته عقارب الحقد فأرجف به وادعى أنه ناقل ينسب لنفسه مايقوله للناس. وقد حانت بعض المناسبات لذبوع اسمه نسبيا فى إقليمه لولا أن محاربة النبوغ قد ترصده، فنهضت أمامه عوامل قاسية لم يستطع إزاحتها، ولكنى تأملت موقفه، ووعدته أن أكون عضده الأيمن بجهدى الضئيل فاتصلت بأستاذى الكبير أحمد حسن الزيات ففسح له مجال النشر بالرسالة، وأذكر أنه كتب بها خمس مقالات ثم فاجأه النحس حين احتجبت الرسالة فجأة ومعها الثقافة أيضاً فنهض السد المنيع أمامه كما كان.

وقد قدم لى فى الزيارة الأولى ديوانه الشعرى (فى المحراب) مطبوعا فى نسق مناسب، وذكر لى فى مرارة قاسية أنه أرسل إلى حملة الأقلام فى الصحف الجهرية نسخا تبلغ الثلاثين فما شرفه ناقد بسطر واحد أو تفضل عليه بالشكر فى خطاب خاص. فعجبت لهذا النكران المتأصل يضرب بأسداده حول هذا النابغة فما يتيح له بصيصا من نور، وإذ ذاك عكفت على دراسة الديوان الرائع وكتبت بحثا أدبيا عنه نشرته مجلة الرسالة الغراء بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٩٥٢ وفيه أقول

«ومن الخير أن نكشف عن المميزات التى تظهر فى شعر الأستاذ محمد عثمان الصمدى ، وقد يكون أهمها ما نلمسه لديه من عمق التحليل وقوة التحليق وجزالة الصياغة . وتلك هى الأركان الثلاثة التى ارتفعت بديوانه الجميل وما يزيد فى قيمتها الأدبية أنها تطرد فى سياق واحد ، فلا تختلف ميزة عن أختها فى قصيدة من قصائد الديوان ، بل تظهر ثلاثتها متجاورات متآخيات .

وإذا كان الشاعر فى جميع قصائده متشائماً متضائفاً برما بما حوله من الناس والأحياء ، فهذا مما لا يؤاخذ عليه فى شيء ، لأن لكل إنسان آماله وأحلامه . ومهما أحت السير نحو أهدافه فلن يقرب من مثله وأشواقه ، وهنا تكون الحسرة الموحية بالتشاؤم والقلق لدى أكثر الشعراء ، وقد يكون الحظ التعس مولعا ببعضهم فيقف لهم بالمرصاد ينغص عيشه ويكدر حياته وينقله من الخفض الناعم إلى الجذب الموحش ، ويجسم له أشجانه لتلوح شاحبة قائمة ، وتبيت طيلة ليلة عابرة أمام عينه تشرد نومه وتهيج بلابله . وصاحب الديوان أحد هؤلاء الساهدين الراحين تحت أعباء الشجون . وهو حين يتحدث عن هواجسه الأليمة يريك عجيباً أى عجيب إذ يصف اليوم الذى ينبع فى صدره مولولا ، وسمعتك الصخب الهائج فى ظلمة الليل بين أطواء الضلوع . وقد سكنت حركة الأحياء والأشياء وريك الأشباح المتواكبة أمامه .

وقد ملأت مسامعه بالزمزم والرعود وأسلمته إلى ذكرياته البعيدة والقرية فبعيدها ضعيف الجرس حار الأنة ، وقربها صاحب ملحاح شديد اللوعة والغرام ، والصمدى فى حيرة مقلقة بين البعيد

والقريب، هذه الحيرة التى فجرت شاعريته الثرة فانطلق يقول فى قصيدة كبيرة:

يلف الدجى منى مراح بلابل	ومشوى شجون لا تريح جثوم
لها صخب خلف الضلوع مبعثر	فن ناعب يذكى الأسى ويغوم
كأنى نأى فى يد الليل جائش	بما فى الورى من رائع ودميم
إذا أذهب الليل الحياة أعادها	قيامى على أعبائها ولزومى
ألا شد ما أوقرت نفسى بفادح	أنوء به تحت الظلام جسيم
وأشباح ليل ماتنى فى هتافها	أذنت لها من بعد طول وجوم
ففى الشرق منها هاتف بزمزم	وفى الغرب منها هاتف بهزيم
وطورا يشق الليل داع مرزأ	بصوت من البعد السحيق سقيم
له أنة حرى على ضعف جرسها	كأنة مصدوع الفؤاد كلم
وتصخب طوار حين أصفى لها معا	فأمسى كأنى فى مناحة يوم
من الطارق الملحاح بابى وللكرى	يد فى الدجى ألوت بكل نؤوم

وكثير من الناس يسهرون الليل ساهمين محزونين يفكرون فى حظوظهم العائرة، وسيجدون صورة ما يعتادهم من الشجن والرعب فى هذه الأبيات، ونظائرها من الديوان، وكم للنفس من خلوة رهيبة، تكتنفها الوحشة، وترتعد لها الفرائض الصلاب، ولا فرق بين المسير فى غابة رهيبة نائية، وبين التسرب فى أعماق الشجون، وتذكر المصائب والويلات، والحزين من هواجسه فى مأسدة عالية الزئير، مرتفعة الصباح، فليس عجبا أن يسمع الشاعر فى وحدته الساكنة مناحة البوم، وزنين الأناث، ويرى توائب الأشباح أسرابا خلف أسراب!

وقد استعان الأستاذ الصمدى بخياله المجنح الطائر، فنظم ملحمة طويلة يصف بها يوم البعث كما يتطبع فى مخيلته، ولم يشأ أن يصور حلقات سريعة لما يتخيله من الحوادث والوقائع فحسب، بل أراد أن يبرز فلسفته فى الحياة والناس فى جو من الإيجاء والإيهام، ولم يفارقه تشاؤمه المرير قيد لحظة، بل ظل يطفر بين سطوره من بيت إلى بيت دون أن يخلد إلى الراحة والاطمئنان، بل إن الملحمة تدور حوله رائحة غادية.. فحين نفخ إسرافيل فى الصور، ونهضت الرمم البالية من الأجداث، وهبت هبوب الدبا فوق الموج والأعشاب، ودبت الحياة على الأرض من جديد، حين كان ذلك، فرزت الملائكة فى السماء، وجعلوا يتساءلون عن هذا البعث فى قلق وإشفاق؟ كيف حان على غير أهبة؟ وما مصيره وعقباه؟ ولأى غاية كان؟. ولجأوا إلى إسرافيل يستفسرون عما صنع من جليل الخطوب حين نقر فى الناقور، وقد توجسوا الشر إذ أُنذَرهم ببعث الآدميين من جديد، وظنوا الأظانين بأبناء حواء، واندفعوا يقولون فى حسرة وإشفاق.

أهبوا على الطبع القديم المدابر	رويدا ملاك الصور ماذا تقوله
غلابا على الأخرى غلاب المغاور	إذن سوف ينضون السلاح كعهدهم
يجاذبهم حرص النفوس الغرائر	فلن يجنحوا للسلم والطبع قائد
ورانت على الأبصار فوق البصائر	غرائز غشت تحتها مشرق الحجى
	وليس الحجى كالطبع فيهم مؤصلا

ولكنه للمرء إحدى المفاخر	مضى الناس طرا ما أُلوا بقدسه
سوى نفر منهم قلال عباقر	وسائرهم أسرى الغرائز حظهم
عليهن من مأثوره حظ تاجر	

وهذه النظرة الجاحدة للإنسان تجد ما يبررها لدى الشاعر من واقع عيشه، وظروف حياته، فقد نازعه بعض الموسرين منازعة قضائية، واغتصبوا منه ظلماً مالا يجوز أن يقربوه فى شيء، والتبس الأمر على القضاء فأيدهم بسلطان القانون، ولم يجد الشاعر غير القريض بنفس به عن ذات صدره، وبينه تباريحه ومواجهه، فامتلاً ديوانه بهذه القذائف الصائبات. وقد وفق الاستاذ الصمدى فى ملحمة هذه توفيقاً حميداً، فبرزت ميزته الثانية فى التحليق مع الخيال إلى القمم والأجواز، فلم يبرز يوم البعث، دون مقدمة تمهد له وتؤذن به، فالأثير يدوى بأصداء خفاف عوابر، والأفق موحش يتجاوب فيه الصدى تجاوبا مرهوبا، والسكون الشامل يدفع الأحشاء إلى حركة تؤذن بالانفجار، والأثير يتجاوز الخفق — بعد قليل — إلى الزجرجة والقصف، والضباب يتدجى على الثرى فى تكاثف والتحام، والدخان ينتقل مع الريح كالدخان المتصاعد من المباخر العاليات.. والسحاب والسديم والبحار تأخذ فى مرآة الشاعر صورا مهتاجة فزعة.. تجد هذا كله حين ننصت إلى قوله فى مقدمة ملحمة الجيدة.

<p>أذنت إلى خفق الأثير وقد هفا وللأفق حولى وحشة أولت بصدى سكون تكاد النفس توجس خلفه على صفحته ما بنى نبض منذر لأنست إرهاساً لأمر مروع فلو أن مذباعاً يبين ما انطوى وماهى إلا أن تدجى على الثرى</p>	<p>يدوى بأصداء خفاف عوابر وضوح شهاب عابر فى الدياجر حشا مستفزا بانفجار مخامر كنبض سراج فى السموات ساهر وراء أسارىر الأثير الموائر عليه لأجلى موجه عن زماجر ضباب إلى غيم على الأفق سائر</p>
--	--



وصعدت الأرض الغبار كأنه      على الريح مذروراً دخان المباخر  
هنا السدم قد ذرت هنا السحب بعثرت      هنا طافر ينزرو إلى جنب طافر

وتمضى القصيدة إلى نهايتها فى هذا السياق الرصين .

والقارئ يغتبط كثيراً ، لأن الجزالة لا تصرف الشاعر عن سبحانة  
النائية ، ومهامه الشاسعة ، ونحن نرى عشاق التحليق والطيران من  
الشعراء يسرعون إلى مطارحهم النائية ، ويرتقون إلى أجوازمهم العالية  
فى أسلوب لا يرضى عشاق الرصانة والأسر ، فالتعبير مفكك غير  
متماسك ، والتركيب مضطرب فاتر

واقراً ما لدينا من الشعر الحديث فى الملاحم والأساطير . فلن نجد  
للرصانة أثراً يرضيك ، بل إنها فى مذهب أصحاب الملاحم ضرب  
عتيق من التقليد المظلم ، الذى يتعذر أن يجد سوقه الرائجة فى هذا  
الأفق الطليق وقد دفعهم إلى هذا الاتهام القاسى ما يجدونه – غالباً ..  
لدى أنصار الجزالة من ضيق فى الثقافة والخيال والتحليل ، إذ أن  
قصائدهم – فى الأكثر – تضطرب فى نطاق ضئيل من المعانى  
المتوارثة الشائعة – وإذا جنحوا إلى الابتكار الشائق فلا يتجاوزون  
حدود الاستعارة والتشبيه مما يتعلق بالبيت أو البيتين ، لأن يعم  
الابتكار فكرة القصيدة ، وأغراضها وأوزانها ، فتكون له الدقة والطرافة  
والتوثب ، وقصيدة الشاعر عن يوم البعث محاولة طيبة لتقريب الشقة  
بين المذهبين المختلفين ، وإن كنا ندعو الأستاذ الصمدى إلى التخلص  
قليلاً من بهارجه اللغوية ، التى تبرز بوضوح فى صفحات ديوانه  
فقارئ الشعر لا يصبر على مراجعة الهوامش كقارئ المنطق  
والفلسفة ، ولكنه يريد فاكهة عذبة مريجة ، يلمس فى يديه نعومتها

الشفافة، ويرى بعينه صورتها الخلابية، ويذوق بفمه حلاوتها المشتهية، وهذا ما تحول دونه ألفاظ المعاجم، فى بعض الأحيان، ومعاذ الأدب أن يفهم القارئ من هذا رأى أننا نتنكر للجزالة والأسر، بل نسير معها إلى أبعد شوط وأقصاه، ولكننا لانراها فى حاجة إلى الألفاظ الغريبة عن السمع والعين والفؤاد، وأكثر مالدينا من شعر الديوان سائغ رائق، قد خلص من الغرابة والإيجاش.

وقد لاحظت أن الشاعر— أقر أم لم يقر— متأثر فى بعض قصائده بشاعرية الأستاذ العقاد، فقد أخذ عنه حبه للتعليل والتدقيق، ورغبته فى جدله العقلى المترف الذى يندس إلى أغوار الحياة، فيجد فيها مادة للتفلسف والمقارنة، وهذا لا يعيب الشعر فى شىء — كما يرى السطحيون— مادام ملموساً واضحاً أمام الذهن البصير، بل يرفعه إلى مستوى شامخ تتوالت فيه العواطف والعقول، وقد ظهر هذا التأثير فى كثير من قصائد الديوان، كنجوى الأمل، وعلى رفات البشرية، والله والوجود، وإن لم يلحق الصمدى بأستاذه العقاد فى الدقة والصدق والإقناع، بل وقف منه عن كذب بطارحه وبخاكيه، وقرأ دعوة الشاعر إلى خداع النفس، والهروب من الحقائق، وتناسى الواقع، لتلمس الشواهد الدالة على ماندعيه فى مثل قوله:

قد ضقت بالحق الصراح	فن لنفسي بالهراء
والعيش عيب قاح	إن لم يمويه بالطلاء
أحبب بآلك لامعا	عندي وإن لم ألق ماء
إن كنت لم تنقع صدى	فسواك يغرى بالظماء
حسبى بأنك مالىء	عينى سحرا بالرواء
يا أيها الأمل المنمق	من أفانين الغباء

إنى لقيت بك السعادة      وهى حظ الأغبياء  
لو أن لى لبالما      آنست فى أفن هباء  
أنا لو وثقت بظللها      فعليك يا عقل العفاء

هذا ، وقد عاش الشاعر فى الريف فخصه بكثير من خواطره ، فهو يصف طبيعته الفاتنة وسحبه وبروقه وغمائه ، ويشارك أهله ما يجدون من عواطف وأحاسيس ، فيرثى أقطابه وذوى الوجاهة فيه ، ويرسم ألواحاً بديعة للجمال المشترك الموزع بين المروج والحسان والغدران ، مما يزين جوانب الريف ويجلو حنادسه المتراكمت ، وتعجبنى نظراته الاجتماعية الصادقة ، وخلجاته الإنسانية التى التمعت متوهجة فى آخر قصيدة « من صور الريف » فهو يحدثك عن تمس العقل وشقائه ، حين لا يجد بداً من الخضوع للأوهام والأضاليل ، بعد أن كابد الداء العضال وأعوزه الشفاء عن طريقه الطبيعى للعلاج ، فيلجأ إلى التائم والرقى والتعاويد . على يد أناس جهلة مماسيخ ! رامية بآخر سهم فى كنانته ، وذلك قصارى ما يستطيع .

وجاء شيوخ الحى والكل ناهض      بإبلاله من دائه المتفاقم  
ومسوا بأيديهم يديه وأقبلوا      يلوكون بالأفواه رجع الهمام  
وقال كبير القوم خذ هذه الرقى      فنطها على اسم الله فوق الجماجم  
ونطت بأعلاه ، التائم والرقى      على سوء ظنى فى الرقى والتائم  
ورب فتى لم يعصم العلم نفسه      فيلقى بها ضعفاً إلى غير عاصم

وهذه الوثبات الرائعة نظائر متناثرة فى صفحات الديوان ، وقد يجمع بنا البراع إذا تناولناها ببعض التشخيص فى هذا النطاق الضيق المحدود .

هذا قليل مما نشرته قديماً بالرسالة عن الديوان، والحق أن مأساة الشاعر ترجع بوجه خاص إلى شدة إحساسه بنفسه فهو حاد اليقظة، لملاح النظرة بعيد الغور يرى الضئيل التافه في وضوح ساطع كما يرى الجليل الشامخ. وقد رزق روحاً قوية تعشق المثل العليا وترى في مقترحات الفلاسفة وأمانى الحكماء في الخلوص من الشرور مناخاً لمنازعتها وأهوائها، وقد ساعدته قراءاته على تفهم المدن الفاضلة كما تراءت في أحلام الفلاسفة، واشتد تخيله الجامح حتى تصور هذه المدن الخيالية واقعاً ملموساً، يجنح إليه بفكره حين يكرهه مأزق العيش وتسيره ضرورة الحياة ورغائب الغرائز. إنه ليتحدث عن نفسه الشفافة كما تراءى له فيهتف:

برى الله نفسى من معان رفيعة      وسوى سواها من تراب أديم  
فليس بها كالناس فى الأرض حاجة

— على رغمها — إلا رضاع فطيم

ضرورة حى والحياة مغارم	وإمساك جسم كالهباء هديم
فيالك نفساً موسق الله ذوبها	قصيدة شعر فى السماء نظم
بضوع كضوع الطيب لانستبه	عيون ولكن ملء كل شميم
نسيم الصبا دون الرباح جناحها	فيا لنسيم سائر بنسيم
سمت فوق آفاق السماء وررفت	على أنهر من أنجم وسديم
تشع كإشعاع النجوم على الدجى	وتأفل فى جسمى أقول نجوم
ألا فلتمنى حين يعيك من أنا	لدى عالم ضاحى الجمال وسيم
ففى مثل أفلاطون مهوى منازعى	ومثوى لداتى من أخ وجم
حقائق لا يقتاس هذا الورى بها	ومن ذا يسوى منجباً بعقيم

هذه النفس الحساسة تعاضمها أن تجد الجحود الكافر فى بيئتها الجاهلية! إذ أن صاحبها - وبالأسف - كان يعيش بين أمشاج من الجهلة يقيسون النبوغ الأدبى بشهادات المدارس وإجازاتها العلمية، فكل متخرج فى مدرسة عالية أو كلية جامعية صاحب عقل وفضل، ولو كان آلة صماء حفظت بلا فهم وكتبت فى الإمتحان، كما حفظت ثم خرجت إلى دنيا الناس فى أمية فكرية نكراء! أما صاحب المهنة المتواضعة فى محله الصغير فحال أن يكون نابغة بقرأ كتب الفلسفة وينظم قصائد الشعر!! وقد كان على الأستاذ الصمدى أن يرتفع بمشاعره عن أقيسة هؤلاء - لو ملك من نفسه شيئاً - وهيات! فالشاعر كالزهرة العاطرة عليها أن ترسل الأريج المنعش، ولا عليها أن ينشقه الناس فتى كان إنتاجه الرائع قويا فى نفسه فليس يؤذيه ألا يعترف به الأدعياء!! وهو لاشك يعرف أن السعادة ينبوع يتدفق من النفس، وفى استطاعته لو اتكأ كثيراً على نفسه - أن يفلسف نظراته إلى الحياة فلسفة تهون من أحزانه مها قست البيئة وتعس الحظ، ومالنا نذهب بعيداً، ونحن نرى الرجل الغربى يتخرج فى أرقى جامعات إنجلترا وفرنسا أو ألمانيا أو أمريكا، وشاهد من أسباب المدينة وازدهار العمران ما يجذب كل فؤاد. ثم نراه بعد هذا المنشأ المزدهر يرحل إلى أواسط أفريقية أو استراليا ليقضى زهرة شبابه وكهولته بين أناس لا يعرفون من هو!! فيخضع لتقاليد غير تقاليده ويأكل ويلبس غير ماعهد وهو سعيد بتضحيته!! ولن تكون ساحل سليم - موطن الشاعر - أعظم فداحة من قبائل الهمج فى طبقات الجهل والثنية والضباب. أقول ذلك بلسان الواعظ فقط، وإلا فأنا أعلم أن الذى يعوم فى البحر ويكابد اللجج المائجة

لا يعقل منطق المصطفين على الشواطئ والضفاف!! وكم للحياة من مفاجآت تزلزل معها معادل النصح والإرشاد.

لقد تلقيت نعي الشاعر على غير انتظار، فهرعت إلى ديوانه التمس بعض العزاء بقراءته، ولا أدري لماذا أخذت أثناء قراءتي الأخيرة للديوان أحس ببعض المعاني الخاصة، مما لم يتح لى أثناء قراءته من قبل، إذ أن إحساسى اللاذع بفقده قد نضح على الأبيات صورا ذات طابع خاص! بل إننى حين قرأت قصيدة (على رفات البشرية) (أرثاء أو هجاء) شعرت لأول مرة أن الشاعر يرثى نفسه وحده ولا يعنى بالإنسان فى قصيدته تلك مطلق إنسان يتنسم ريح الحياة! وقد غلبنى هذا الشعور حتى كدت أسمع من وراء الغيب صوت الصمدى يترنم بالقصيدة أو يبكى بها - مراعاة للمقام - جسده الصريع، وهو فى مطلعها يهتف بهذه الأبيات:

أفوضى المطاف إلى غاية	نمتك على الخلد لله جارا
بلى قد طويت إليها المدى	فخضت الظلام وجبت النهارا
لبست الشباب قشيب الالهاب	فأمسيت تزهر به مستطارا
ولم تدر أن الصبا عارة	ترد وشيكا إلى من أعارا
مشى فى عروقك مشى الشوا	ظ على القضب تندى مياها حرا
فا زلت تأثم فى ظله	وتسقى الكؤوس دهاقا غزارا
إلى أن أفقت على وافد	مضى بالعقار وأبقى الخمارا

ثم مضى الصمدى يتحدث عن الشيب بعد الشباب وكيف تتقلب الحياة فى المرحلة الأخيرة إلى سأم ضائق يرى فيه الضحى الساطع

كالظلام الدامس وتظهر فيه البلادة الواهنة وقارا متكلفا، والإنسان متقلب بين شقى الرحى يضل السبيل، وترمى به الطرق عبر الشباب التائهة إلى أن يبلغ المرفأ الأخير فتأكله الحياة لتعيش هى بغيره، وهى فى كل آونة تشيع راحلا تقنات منه فتجعله معبرا مهينا لخلودها الدائم وقد برع الشاعر براعة فائقة حين خاطب ابن الحياة وهو فى رأى أعم من الإنسان فربما شمل الحيوان والجماذ وسائر الكائنات:

ألا ما لأملك ثكلى تبید	كبار بنیها وتفنی الصغار
فلم تنض يوما إزار الحداد	ولم تتبدل سواه إزارا
لقد صدقتنا بلاغ النذیر	لو انا أعرنا النذیر اعتبارا
فیالك أما ولودا ثكولا	ملأت القبور بنا والديارا
أمن أجل خلدك فوق الثرى	أكلت بنیک الضعاف الحیاری
تخذ همومعبرا تعبرین	إلى الخلد فيه الدهور الكثارا
وقوك الفناء فلما قضوا	وقوك بأبنائهم الانهیارا
قذفت بهم فى صحارى الوجود	ففاضت لجینا وسالت نضارا
هو أثلوك وأثلتهم	أفانین فوق رمال الصحاری
وقد آثروك بما توثرین	نفثت لظى فاستجابوا أوارا
سريت بأوصالهم مسعرا	یهج اللهب ویدكى الشرارا

وتلك فلسفة عالية حقاً! لم يتصيدا الشاعر من أقوال الفلاسفة، ولكنها صدى تفكير جواب تندفع خواطره شاردة حتى تكون كياناً بارزاً فى حقائق الوجود فالحياة الأم تبید بنیها كل صباح ومساء وتلك حقيقة ماثلة! وهى تستمد بقاءها من هذه الإبادة المتصلة! إذ أن أولادها يفدونها من العدم، وحين ينقطعون عن الوجود ستقطع بدورها

فتموت! وهم بعد يعمرونها فى كل مجال ، وهم نار الكون ولهيبه ينفثون  
 اللظى ويشبون الأوار ليتقد شباب الحياة فى كل زمان ، على أن  
 أروع ما اتجه إليه الشاعر فى هذه القصيدة هو مخاطبته سليل التراب  
 الفقيد من بنى الإنسان وقد قهر الحياة بلقيا الحمام فأصبح بالموت آمنا  
 طوارق الحدثان وفجاءات الأيام ، إنها لأبيات خالدة مؤثرة يصح أن  
 نوجهها نحن إلى الشاعر بعد أن انتصر على حياته البائسة الجاهدة  
 بالموت فاستراح كثيرا من حقد التافهين ولغو الجاهلين ، وأصبح فى  
 قبره أمتع من أن يصله إنسان بشقاء :

سليل التراب مضى ما تخاف	فخل الحفاظ هنا والحذارا
قهرت الحياة بلقيا الحمام	وأحرزت فوق مداها انتصارا
فقل للزمان برد الجراح	ويثنى الجياد ويطوى الشفارا
لقد بت منه لقى حفرة	أجل وأمنع من أن تضارا
أطل عليها جلال البلى	يرد المغير ويحمى الذمارا
فلوقد علمت بأن الردى	إليه المقادير تعنوصغارا
تبينت كيف هزمت الزمان	وكيف وفاك البلى الاندحارا

صديقى الشاعر الفقيد . لقد عجزت عن رثائك ، فرثيتك  
 بقصيدتك الخالدة . وهى بعد من أجل ما قيل فى باب الرثاء .

\*\*\*



# الطائرة فى خيال العربى القديم

إذا كانت الفتوح العلمية فى العصر الحديث قد أبرزت الطائرة إلى عالم الوجود، تشقّ عباب الجو لتقطع آلاف الأميال فى زمن يسير، فإن الخيال العربى فى الزمن القديم كان يعلم بالطائرة، إذ يراها فى أفق نصوره، ترناد الأفق من شرق إلى غرب، والأساطير اليونانية قد حكّت صور الانتقال فى آفاق السماء، فصوّرت أحلام الشعراء، وأوهام القاصّين أبدع تصوير، وكذلك الأساطير العربية قد أسهمت فى هذا الإبداع الخيالى إسهاماً نجد أثره فى كتب التراث الأدبى، والتراث الشعبى معاً، مما يدلّ على وحدة التصور الإنسانى مها يختلف الزمان والمكان، لأن العقل الجواب يسبح فى ارتياده منتقلا من المعلوم المحسوس إلى المجهول المتخيل، ومضى وقف المتصور عند حدّ. والخيال المجتّح مها شطّ مداه لا ينتقل من فراغ، ولكنه يجعل من الحقيقة خيطاً رقيقاً، يأخذ فى مذه وتقويته، حتى يصير سلماً عالياً يرتقى به إلى أبعد أجواز الفضاء.

## ( الشاعر العاشق )

لن نجد ذا قدرة على الابتكار الخيالى فى عالم الوهم الشعرى أقوى من شاعرٍ عاشق، تنأى عنه حبيبته فى مكان سحيق لا يستطع أن يقاربه، يتمنى لو كان طائراً ذا جناحين يشقّ أجواز الفضاء ليصل إلى ليله فى سرعة البرق الخاطف! لقد كان العباس بن الأحنف

الشاعر العباسي المتنوع ، هائماً بمعشوقته (فوز) وقد انتقلت من بغداد إلى المدينة! ويأبعد ما بين المدينة وبغداد في زمن كانت الإبل وحدها أداة الانتقال ، وقد نظر العباس إلى مجموعة من (القطا) وهو نوع «من الحمام يطير في آفاق بغداد، فسالت دموعه، لأن الحمام يستطيع الطيران كيف يشاء، والشاعر لا يستطيع فاندفع يُخاطب سرب القطا الطائر، يسأله عن التي تعيرُ جناحها إليه، ليصبح طائراً يطير» وكم كان جميلاً من الشاعر أن يتوهم أن الحمامة قد ردت على سؤاله وأظهرت استعدادها للإعارة ، بل اظهرت أن كل السرب الطائر ، مستعدٌ لهذه الإعارة . وأتى قطاة تتوانى عن هذا المطلب ستعيشُ بذلك . وسيُكسر جناحها لثلا تطير، وإذا عرفنا أن الحمام لدى العشاق رمز الشوق واللَهفة فإننا لانستغربُ هذه الإجابة المرحبة من ذات الجناح ! يقول العباس بن الأحنف :

بَكَيْتُ عَلَى سِرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَزَنِي	فَقُلْتُ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
أَسِرْبِ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ	لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ
فَجَاوَبَنِي شَادِ عَلَيَّ خَيْرَ زَانَةٍ	أَلَا كُلَّنَا يَا مُسْتَعِيرُ نُعِيرُ
وَأَتَى قَطَاةً لَا تُعِيرُ جَنَاحَهَا	تَعِيشُ بِذَلِكَ ، وَالْجَنَاحُ كَسِيرُ

## شاعر عالم

إذا كان العباس بن الأحنف شاعراً عاطفياً فحسب، فإن العباس ابن فرناس شاعر عالم معاً، فهو يستمعُ إلى نبضات وجدانه . كما يستمعُ إلى قضايا فكره، فى توازنٍ دقيق، وقد نشأ فى الأندلس فى عهد الدولة الأموية . واتصل بالأمير محمد بن عبد الرحمن الداخل فحظى عنده حُظوة تتركز على مالهيه من مواهب متعددة، لأنه أولُ من ابتكر صنع الزجاج من الحجارة . وقام بتجربة ناجحة شهدها الأمير الحاكم متعجباً مُثنياً، وكأنَّ نجاحه فى صنع الزجاج الحجرى، قد أمَّده بثقة كبيرة فى مواهبه، فاهتدى إلى أن تصنع آلة تُعادل الساعة المائية التى وفدت من الشرق إلى الأندلس وبعد محاولات علمية اخترع آلته البديعة المسماة (المنقالة)، وهى آلةٌ زمنية تُحدد أوقات الصلاة بالنهار، وتقسم الليل أقساماً ثلاثة، حتى يأذن الفجر بالشروق .

ولكن هل يقف عند الزجاج (والمنقالة) . انه طمح إلى أن يطير، والطيور ذات أجنحة تساعد على الصعود والهبوط، فلماذا لا يكسو نفسه بجناحين من ريش يطيرُ بها، لقد حاولَ ذلك فى مسافة محدودة لا تبعدُ عن الأرض قليلاً فارتفع بالريش إلى الأعلى . وهنا توجهَ إلى الأمير محمد وأعلن أنه سيطير فى الجوّ فى موعد حدّده، وانقلبت قرطبة حائرةً فيما تسمع، وتجمّع الناس من كلّ صوب ليرؤا معجزة هذا الذى صنع الزجاج من الحجارة . وحدّد مواقيت الصلاة بالمنقالة ! وكان يوماً مشهوداً حين حرّك العباس جناحيه، ونشر ريشه صاعداً فى الفضاء، وأخذ يرتفع شيئاً فشيئاً والناس منبهرون، يشاهدون

ولا يصدقون، ثم هبط شيئاً فشيئاً، فاختلَ توازنه وسقط مُصاباً برضوض كثيرة، والناسُ بين راحم وشامت. وكان الشامتون أكثر وأضحَب، إذ يَعرِضُ على الخاملين أن يعترفوا بنبوغ النابهين، بل يروُن من واجبه أن يُطفئوا كَلَّ بريق يُومض، ورجع العباسُ إلى منزله خزيناً، ولكَّنه لم يترك التفكير فيما أصابه، فجعل يتقلَّب على فراش المرض، وذهنه ممتلىءٌ بِمَا كان، حتَّى اهتدى إلى أَنَّهُ نَشَرَ الجناحين، ولم يحسب حساب الذيل، لأن الطائر يستعين بريش الذيل في حفظ توازنه ساعة الهبوط، وكان في نيته أن يُعاود الكَرة لو سلم ولكن الأجل سبقه.

على أن فكرته لم تمت. فالذين يتحدثون عن العالم اللغوى الشهير اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب معجم الصحاح فى اللغة. يقولون إِنَّه كان نادرة زمانه ذكاءٌ وفطنةٌ واتقاد خاطر، وقد أصدرَ من المؤلفات العلمية ما بَوَّاه مكانَ الصدارة فى عصره، ولكَّنه فكَّر فى أن يطير، قال ياقوت فى ترجمته: «إِ اسماعيل انتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه. وقال: أَيها الناس، إِنى عملت فى الدنيا عملاً لم أُسبق إليه، وضممت إلى جَنَبَيْهِ مِصرَاعَيْ باب، وتأنَّبْتُهَا بَحْبُل، وصعد مكاناً عالياً من الجامع، وزعم أَنه يطير، فوقع قتيلاً».

وكلام ياقوت يدل على أن الجوهري لم يسمع بما قام به العباس بن فرناس من قبل، لأنه قال: سأقوم بعملٍ لم أُسبق إليه، كما أَنه لو عرف تفصيل ما قام به ابن فرناس لاهتدى إلى ريش الطيور بدل هذا الخشب الثقيل، ولاحتاط فجعل ريشاً لذيله، جوار جناحيه وإذن فالرجل مبتكر، تلاقت خواطره وتواردتْ مع مبتكر سابق بقرطبة!

وطبيعى أن يشمت ؛ من اجتمعوا لرؤيته ، وقد قال ياقوت بصدد هذا الحادث إنه قد اعترته وسوسة ؛ والوسوسة أسهل تفسير لعمل جريء ضخم لا يقدم عليه موسوس بل مفكر خطير.

## بساط الريح

وهل بساط الريح غير طائفة تطير؟ لقد شاق الأقدمين أن يطير إنساك فى الجو مع جنوده وحاشيته فاخترعوا بساط الريح ، ونسبوه لسليمان عليه السلام ، والقرآن الكريم يذكر أن الله — عز وجل — قد سخر الريح لسليمان تجرى رخاء حيث أصاب ، ولكنه لم يذكر بساطا يطير ، إنما ذكر ذلك أصحاب الخيال من القدماء فتصوروا لسليمان بساطاً ، ووصفوه حين قالوا إنه بساط من الخشب له ألف ركن ، وفى كل ركن ألف بيت تحمل جند سليمان من كل نوع ، وتحت كل ركن ألف جنى يحملون ذلك الشئ الخشبى حتى يطير ، ويرتفع فى الجو ، ثم تسير به الريح إلى أقصى البلاد .

خيال رائع ، قام لدى بعض الناس مقام الحقيقة ، وقد وقف أمامه الأستاذ عبد الوهاب النجار مؤلف قصص الأنبياء حائراً دهشاً ، فتساءل ، لماذا يكون للبساط ألف ركن ، وفى كل ركن ألف بيت ؟ لو أن من تحدثوا عنه ذكروا أنه عشرون ذراعاً أو مائة لكان الأمر مقبولاً ، ولكنه فى هذا التصور الهائل يحتل مساحة فسيحة لا توجد فى بيت المقدس ، ونحن نعلم أن أسفار سليمان — عليه السلام — مع جنوده كانت على الأرض لا على الريح ، لأن الله قد قص علينا قول النملة حين شاهدت جنده الكثيف : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم

لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، وما كان سليمان وجنوده  
 ليحطموا التمل وهم محمولون فوق البساط ، ثم قال الأستاذ التجار، إن  
 البساط بهذه الصورة تكفل بها تبرع الناس بذكر الغرائب عن الأنبياء ،  
 وجهم للزيد فى هذا المجال ، وأنا أقول إن تشوق الناس فى القديم  
 إلى اجتياز الأفق كما يجتازه الطير، قد ساعد على تصور البساط  
 تصوراً مقتضباً فى بادىء أمره ، ثم مازال حديثه يعظم ويمتد حتى  
 أصبح له ألف ركن، وفى كل ركن ألف بيت، وتحت كل ركن  
 ألف جتى، والطريف أن أمير الشعراء أحمد شوقى حين أراد أن  
 يصف الطائرة فى عصرنا هذا، بدأ قصيدته بقوله :

قم سليمان بساط الزيج قاما	ملك القوم على الجو الزاما
صار ما كان لكم معجزة	آية للعالم آناها الأناما
قدرة كنت بها منفردا	أصبحت حصّة من جدّ التزاما

ومعجزات سليمان كثيرة، ولكن ليس بينها بساط الريح كما يقول  
 أمير الشعراء .

## ( العفريت الطائر )

ولن ينتهى حديث سليمان بانتهاء حديث البساط ، لأنه سأل  
 عمن يأتيه بعرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس ، فقال عفريت  
 من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقرى  
 أمين ، هذا قولٌ وحده ، بعث خيالاً وثاباً لدى مؤلفى القصص  
 فجعلوا يذكرون مقدرة الجن وأنهم يحملون الناس ويطيرون بهم فى  
 كل أوج .

وكتاب ألف ليلة وليلة كان ذا سهم وافر فى إذاعة قُدرة العفريت على الطيران حاملاً ماشاء من الكائنات ومن أراد من الإنس ، ونحن نعلم أن كتاب ألف ليلة وليلة قد غَدَى الخيالَ الأوربى ، وأمدّه بأجنحة قويّة ، وبذلك أخذ روائيو الغرب ينسجون على منواله ، ويطيرون فى أجواء طار فيها هذا الكتاب ، والحقُّ أنّ مؤلف القصة فى الزمن الماضى كان فى حاجة إلى استهواء القارىء بالغرائب ، ومفاجأته بما يدهش ، ولا يجد شيئاً أطرف من عفريت يحمل مجموعة البشر ليطير بها فى الآفاق ، وقد قلْتُ إن المؤلف فى الزمن الماضى كان فى حاجة إلى المفاجأة بالغرائب ، لأنّ مؤلف القصة اليوم قد تغيّر مفهومه الأدبى كثيراً ، بحيث أصبحت الأسطورة لديه رَمزاً لواقع فحسب ، مع أنها كانت فى الماضى حقاً واقعياً لدى بعض الكتاب والقراء ، ولهم مقدرة عجيبة فى إثبات ما يستحيل وما يتعثر ، ومن الأحداث ، نختار من كتاب ألف ليلة وليلة ما جاء فى الليلة السابعة والخمسين بعد الثلاثمائة ، حيث دارت أحداثها حول رحلة يعتزمُ بها مغامرٌ أن يرحل إلى أرض واق الواق ، وهى جزيرة نائية جداً ، كما أنّها منيعه الحصون ، شديدة القلاع ، ولا سبيل إلى الوصول إليها دون معجزة ، وقد جاءت على يد شيخ يسمّى أبا الريش ، له قدرة على تسخير الجنّ ، فطلب من خدمه أن يحضروا له عفريتاً هو دهنش بن قفطش ، فاقترب الشيخ أبو الريش منه وهمسَ فى أذنه بكلمات لم يسمعه غيرُه ، فتحرّك رأسه دلالة على السمع والطاعة ، ثم التفت الشيخ إلى من يُريد السفر . وقال له اركب على كتف هذا العفريت ، وإياك إذا سمعت تسبيح الملائكة ، وهو مخلّق بك فى أعالي السماء أن تفتح فك مسبّحاً مثلهم ، لأنّ هذا يؤدى إلى هلاك

العفريت، وهلاكك تبعاً لذلك، وسوف يهبط بك فى اليوم التالى وقت السحر فى أرض بيضاء، نقية، مثل الكافور، ثم ينصرف إلى سبيله، فلا تخف من شيء، وامض حتى تصل، فقال سمعا واطاعة، وودّع القوم وركب على كتف العفريت دهنش، فانطلق طائراً مكتفياً بذكر الله بقلبه، ومازال حتى وصل إلى جزيرة واق الواق.

هذا مُجمل القصة والطريف فيها أن العفريت لم يخلق براكبه فى الجو فقط بل تجاوز الجو إلى غيره ولكن شتان بين واقع وخيال .

## ( الرخ الطائر )

ومازال الشوق إلى ارتياد الفضاء يلهب أخيلة الفنانين من الشعراء والقاصين، وأحد من كتبوا قصة ألف ليلة وليلة قد اهتموا إلى ابتكار هذا الطائر الخرافى ليكون طائرة تحمل مئات الناس، وحديث الرّخ عجيب غريب، لأنه يبسط جناحيه فى مساحة شاسعة من المحيط المائى فيختل لراكبى السفن أن أمامهم جزيرة أرضية وسط المحيط، فيسارعون إلى الانتقال إليها، والتنزه فى شعابها، ويقيمون أياماً يأكلون ويشربون وينامون، ثم يحسّون بسخونة محتملة، ثم بحركة تبدأ خفيفة لطيفة، فيتعجبون، وماتمضى لحظات حتى يتهاى للطيران، فيحمل كلّ من جاء من السفن، ويطير به فى أجواز الجو الفسيح حتى يحط فى محيط آخر، فيصبح جزيرة أرضية كما كان من قبل، أما الذين انتقلوا من الشرق إلى الغرب على جناح الرّخ فما أكثر دهشتهم حين يجدون أنفسهم فى مكان جديد لا يعلمون عنه شيئاً، وقد احتال القاصّ ففسح لبعضهم طريق النجاة!



وإذا كان الرخ طائراً خرافياً، فإن بعض كتب الحيوان فى التراث القديم ذكرته على أنه حقيقة، وأنه يقيم فى جزر بحر الصين، ويبلغ طول جناحه الواحد عشرة آلاف باع، وقد ترك بيضةً من بيضاته كبيرة الحجم، فأخذها بعض الناس وشقوها لياكلوا ما بها، ثم جاء الرخ كأنه سحابة عظيمة، فجعل يلقيهم بالأحجار ليهلكوا انتقاماً لبيضته التى تحمل فرخه الصغير، ويعطف صاحب الأسطورة على مشاعر الناس فتنهى القصة بأن الحجر قد وقع بعيداً عن رعوس القوم فنجوا - بفضل الله -.

## رحلة إلى طباق الأرض

وإذا كان الضد يذكر بال ضد، فإننا نتساءل هل فكر الخيال العربى فى رحلة إلى أطباق الأرض السفلى كما فكر فى الارتقاء إلى أجواز الفضاء العليا؟ والجواب أن العربى القديم قد اعتقد وجود (عبر) وهى مئوى لشعراء الجن الذين يُلهمون شعراء العرب، وحديث هؤلاء مشهور تُغنى الإشارة إليه عن التفصيل، أما القصة البديعة إليه تُسمى (التوابع والزوابع) فقد كتبها ابن شهيد الأندلسى متحدثاً عن صديق له من الجن صحبه إلى باطن الأرض ليجول معه فى ديار عبر. وقد قال ابن شهيد إن صاحبه الجنى كان يجتاب الجو فالتجو، ويقطع الدو فالدو، حتى يصل به إلى مقر الملهمين من الشعر، ومعنى هذا ان فى باطن الأرض جوّاً فضائياً، كالجو الذى تطير فيه الطائرة فى السماء عندنا، ثم أخذ ابن شهيد يستمع إلى من ألهمو امرأ القيس وطرفة وأبا تمام والبحترى وأبا نواس. كما استمع إلى من ألهمو الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وبيدع الزمان الهمدانى

من الكتاب، وهذا غريب طريف، لأن الكتاب ليس لهم جنى يلهمهم إلا عند ابن شهيد فحسب، وكان الكاتب ذا قدرة فائقة في تصوير المكان والبيئة وفق من يتحدث عنه. فهو يقول إن الجنى الذى ألهم أبا نواس، كان يجلس فى دير حطة (تحت الأرض طبعاً). وهو دير «عظيم تعبق روائحه. وتفوح نوافحه، وأقبلت نحوه الرهبان مشدودة بالزنانير، قد قبضت على العكاكيز بيض الحواجب واللحى، إذ نظروا للمرء استحيا، مكثرين للتسبيح، عليهم هدى المسيح، فقالوا: أهلا بك من زائر، ما بُغيتك؟ فقال: صاحب أبى نواس، فقالوا: إنه فى شرب المحرم منذ أيام عشرة، وما ستنتفع به.

هذه خواطر متناثرة عن الطائفة فى خيال العربى القديم، أما الطائفة فى خيال الشاعر المعاصر فلها حديث آخر.

\*\*\*

## بن حفنى ناصف وحافظ ابراهيم

لم يكن الأستاذ الإمام محمد عبده أستاذ الأزهرين وحدهم ، فقد كان أرباب البيان فى عصره من فرسان الشعر والنثر يؤمنون ندوته ، ويتلقون عنه دروس التفسير فى الرواق العباسى ، وكان من بين هؤلاء حافظ إبراهيم وحفنى ناصف .

أما حافظ فأشهر من أن نشير إليه بقول ، وأما حفنى ناصف فأحد أئمة العلم والأدب فى مفتح هذا القرن ، تعلم فى الأزهر ودار العلوم ، وتنوعت ثقافته فكان من قضاة المحاكم الكبرى فى مصر ومن أساتذة الأدب وأساطين المفتشين بوزارة المعارف ثم أستاذاً بالجامعة المصرية ، حيث تخرج على يده أكثر المجيدين فى البحث والتأليف ، وقد اشترك مع حافظ فى خفة الروح وحلاوة الفكاهة وذوبوع النادرة ، وحين انتقل الأستاذ الإمام إلى جوار ربه أقيمت له حفلة تأبينية كبرى بمصر ، ألقى فيها حفنى مرثيته التى مطلعها .

لم لاتجيب وقد دعيت مرارا يكفى سكوتك أربعين نهارا

وقد ابتدأها ابتداء مسرحيا ، حيث نادى يا محمد ست مرات قبل أن ينشد قصيدته فلفت الأذهان لفتاً مثيراً ثم بدأ بقوله لم لاتجيب .

وقد سلك حفنى فى مرثيته مسلك العاقل المتزن الذى لم تشغله الكارثة عن متابعة أدوار الإمام فى الإصلاح الدينى والسياسى

والاجتماعى، فأخذ يسردها فى سهولة قديرة، وكانت روح الجد تسيطر على نظره فلم يجنح إلى ما عهد فى شعره من الجناس والتورية والطباق، بل غمره الموضوع الحى بانفعاله الواضح فارفق عن مستوى هذه النكات، وأخذ يتحدث فى اتاد فى حاجة المسلمين للإمام الفقيد إذ يناضل عن شريعة الإسلام مناضلة العاقل المكين فيصون الدين من شبه الأعداء ويذب عن آى الكتاب مدافعاً هجمات المتخرصين، ومفسراً فوائد الآيات بعذب البيان ورائع التأويل، ثم يعمد إلى الخرافات والبدع فيبين بعدها عن روح الإسلام ويدعو العلماء إلى العمل تحت راية الحق مناصرين متآزرين، وملتفتين إلى طبيعة العصر وضرورة الإمام بتياراته السياسية وآرائه العلمية وثقافته الوافدة من بلاد التقدم مجادلاً بالتى هى أحسن، وناهجاً فى التعبير البيانى نهج أئمة الأدب فى أزهى العصور.. حتى أعاد للعربية مجدها وللأسلوب البيانى روعته وتأثيره ونفاذه، هذا إلى جانب مسعاه فى الخير لإعانة أهل المسغبة وقضاء حاجات السائلين والتمسك فى الإصلاح الدينى مسعى الغيور على تحقيقه مرشداً إلى وجوه الإصلاح ومنافذه.

كل ذلك قد جاء به الشاعر فى براعة نادرة إذ كان فى مرثاته القوية مؤرخاً وشاعراً فى آن واحد، حتى لتعجب له كيف اختصر جهود الإمام فى أبيات روائع يصلح كل بيت منها أن يكون عنواناً لباب يكتب فى مؤلف خاص بتاريخ محمد عبده، وإليك بعض ما قاله فى رثاء المصلح العظيم.

من ذا يناضل عن شريعة أحمد      ويدود عن أكنافها الأخطارا  
ويصون دين الله عن شبه العدا      ويرد غارة من به يتمارى

ويجىء فى تفسيره بعجائب  
ويطهر الإسلام بما شابه  
ويذكر العلماء ألا يغمضوا  
ويجادل الأسرار بالحسنى فلا  
ويجدد العربية الأولى وقد  
ويعيد للإنشاء سابق مجده  
ويرد أعواد المنابر جذلة  
ويحث أهل المال أن يتوسطوا  
يقضى حوائج سائله فلا يرى  
ويظل بالاصلاح مغرى كلما  
حتى كأن عليه عهدا للعلا  
إن كان فينا مرشد يقوى على  
أولى فأولى أن تفيض نفوسنا  
لا خير بعد محمد فى العيش إن

أما حافظ إبراهيم فكانت مرثيته أقوى ما قيل فى الامام ، لأن  
عاطفته الذاتية نحو استاذة كانت من الانفعال والتوقد بحيث جعلته  
يرثى بدموعه وزفراته قبل أن يرثى بمعانيه وأوزانه ، وقد قال فيما قال :

سلام على الاسلام بعد محمد      سلام على أيامه النضرات  
على الدين والدنيا على العلم والحجا      على البر والتقوى على الحسنات  
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله

فأصبحت أخشى أن تطول حياتى  
لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا      تجاليدته فى موحش بفلاة  
تباركت هذا الدين دين محمد      أبترك فى الدنيا بعير حاة

تباركت هذا عالم الشرق قد مشى      ولانت قناة الدين للغمرات  
زرعت لنا زرعاً فأخرج شطأه      ونبت ولما نجت الثمرات

وكما قال حفي ناصف :

إن كان فينا مرشد يقوى على      ذا العيب أوسعنا له الأعذارا

فإن حافظاً قد فصل فى القضية ، وجهر بأن الشرق قد أفقر من  
مصلح يسد فراغ الإمام فصاح متحسراً .

مددنا إلى الأعلام بعدك راحنا      فردت إلى أعطافنا صفرات  
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا      فعدن وآثرن العمى شرقات  
وآذوك فى ذات الآله فأذكروا      مكانك حتى سودوا الصفحات  
لقد كنت فيهم كوكباً ذا غياهب      ومعرفة فى أنفس النكرات

والقصيدة جذوة مشبوبة أوقدها حزن حافظ على أستاذه، فقد روى معاصروه أنه كان ينظمها وهو يبكى من حرقة الألم وشجاها المؤثر مما يمنع ماقاله الأستاذ محمود مصطفى فى كتاب (الكلمات) من أن حافظاً أعدها قبل الوفاة بأمد إذ توقع موت الإمام فى مرض ميئوس من شفائه، ولعمري لقد ظلم الناقد شاعر النيل، فثل قوله يصدق على مريئة تقال فى راحل ثرى استرضاء لأولاده وزلقى لديهم بما قال، فناظمها يبذل الجهد مفتعلا شتى المعانى كى يلد أبياتاً وراء أبيات، أما مريئة حافظ للإمام فصرخة رنانة ارتفعت من سويداء قلب جريح لترن فى سمع الزمان أشجى الرنين، وقد توهجت عاطفة حافظ فى كل بيت من أبيات المريئة، إذ تحدث عن جهاد الإمام فى

التوفيق بين الدين والعلم والعقل ( فأطلعت نورا من ثلاث جهات )  
وأشار إلى مواقفه الرائعة من أمثال هانوتو والمتهمين على الإسلام  
حيث أورد .. حججهم مورد التنفيذ والبطلان ، فكم ليلة جافى فيها  
الكرى ونبه صادق العزم ليرصد للمفترين شباة براع ساحر النفثات ..  
ثم يغلب الشاعر حزنه فيهتف صارخاً :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه	لأنت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا	وأذويت روضاً ناضر الزهرات
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفسا	على جمرات الحزن منطويات
رأى فى لياليك المنجم ما رأى	فأنذرنا بالويل والعثرات
ونبأه علم النجوم بحادث	تبیت له الأرواح مضطربات
رمى السرطان الليث والليث خادر	ورب ضعيف نافذ الرميات
فأودى به ختلافال إلى الثرى	ومالت له الأجرام منحرفات
وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها	عن النيرهاوى إلى الفلوات
مشى نعشه يختال عجباً بربه	ويخطربين اللمس والقبالات
تكاد الدموع الجاريات تقله	وتدفعه الأنفاس محترقات

وهى قصيدة تداولها الرواة بمصر حتى طبقت الآفاق، وكان من  
المصادقات العجيبة أن الذين قاموا بتأبين الاستاذ الإمام جاءوا فى  
اللقاء على هذا النسق إذا ابتداء الحفل الشيخ أحمد أبو خطوة وتلاه  
حسن عاصم باشا ومن بعده حسن عبد الرازق باشا فقاسم أمين بك  
لحبنى إبراهيم ، وقد مات الأربعة الأولون واحداً واحداً على حسب  
ترتيبهم يوم التأبين ، وجاء النوبة على حفنى بك فكتب إلى حافظ  
يقول :

أذكرك إذ كنا على القبرسة	نعدد آثار الإمام ونندب
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا	مات على وفق الرثاء مرتب
أبوخطوة ولى وقفاه عاصم	وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم	وعما قليل نجم محياى يغرب
فلا نخش هلكا ما حييت وإن أمت	فما أنت إلا خائفاً تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف	ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجح الهيجاء أعزل آمنا	فإن المنايا عنك تنأى وتهرب

وكانت ملاحظة جذبت انتباه حافظ جذبا قوياً مع ما تخللها من الفكاهة الطريفة، إذ ظهرت خفة روح حفى فى دعوته صاحبه إلى الوقوع تحت القطار والنوم تحت جدار المخرب فى منازل الأوقاف، وخوض المنايا فى الحرب دون سلاح فإنه لن يجد الموت حتى يسبقه إليه، فإذا حقت عليه الكلمة فما هو إلا خائف يترقب، وقد أقيمت حفلة تكريمية لحفى فى بعض مناسبات الترقية الوظيفية بالوزارة، تحدث فيها العلية من الأدباء والشعراء وجاء دور حافظ فقال يمازح صديقه .

أخشى عليك المنايا	حتى كأنك منى
إذا شكوت صداعا	أطلت تسهيد جفنى
وإن عراك هزال	هيات لحدى وقطنى
وإن دعوت لحى	يوما فياك أعنى
عمرى بعمرك رهن	فعرش أعش ألف قرن

وهو بذلك يشير إلى المصادفة العجيبة التى عناها حفى فى أبياته السابقة، ولم ينس شاعر النيل أن يمازح حفى بذكر فقره المدقع أيام



كان طالباً بالأزهر يقرأ الحواشى والشرح ، ويطالع الشمنى وابن  
جنى ، ويأكل العيش والمش مع زميله محمد سلطان ، ويتساءل عن  
مثقال حبة من لحم أو سمن فلا يجد ..

لم ينس حافظ ذلك حين قال :

ولا أقول لحفنى	ما قيل قدما لمعن
لا تنس عيشاً تولى	ما بين شرح ومتن
ولى شبابك فيه	ما بين مد وغن
وذقت من «جاء زيد»	ومن شروح «الشمنى»
ومن حواشى الحواشى	على متون ابن جنى
أيام سلطان يلهو	بمشه وبغنى
يبيت يقطع ما لم	أسمه أو أكنى
أيام يدعوك حفنى	من الحياة أجرنى
من لى بدرهم لحم	عليه حبة سمن

ثم يموت حفنى ، فيتحقق حافظ قرب الكارثة ، ويرى نذر الموت  
تلاحقه ، ويبدأ برثاء صديقه وكأنه يرئى نفسه هو حين يقول :

أذنت شمس حياتى بمغيب	ودنا المنهل بانفس فطيبى
قد مضى حفنى وهذا يومنا	يتدانى فاستثبى وأنيبى
قد وقفنا ستة نبكى على	عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى ففضوا	هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعا ففضوا	باتفاق فى منايهم عجيب
هدأت نيران حزنى هداة	وانطوى حفنى فعادت للشوب

ذاك ما كان من أمر هذه المصادفة بين الشاعرين ، تلك التي خلدها الأدب ، وتناقلها الناس فكانت مثار الذكرى ، وحافظ بعد ممن يقدّرون حفى ، ويؤثرون مودته فى وفاء وإخلاص ، وقد كان شريكه فى سرائه وضرائه يهنئه إذا أصاب الخير ، ويواسيه إذا ألت به الكوارث ، وحين ماتت باحثة البادية كريمة حفى ناصف وهى زعيمة النهضة النسائية فى أيامها وفارسة الشعر والنثر بين الفحول من الكتّابين ، كانت مرثية حافظ لها ثناء عليها وعلى والدها المفجوع وقد جمع بينها إذ ذكر فضل الوالد على الناشئين وفضل (ملك) على الناشئات ، وتحدث عن نثر حفى ونثرها مفصلاً مواقف ملك الرائعة فى الحياة الاجتماعية والأدبية بمصر ، وقد أسال الدموع حين صور فجيعة الوالد فى كرميته تصويراً مشجياً إذ كان :

كالفِرْع هزته العواصف	فانثنى ثم انكسر
ثم لا ترغحه الهموم	إذا تحامل أو خطر
قد زعزعته يد القضا	ء وزلزلته يد القدر
أنال ألم أذق فقد البنين	ولا البنات على الكبر
لكننى لما رأيت فؤاده	وقد انفطر
ورأيته قد كاد يحمر	ق زائريه إذا زفر
ورأيته أنسى خطا	خطوا تخبل أو عثر
أدركت معنى الحزن	حزن الوالدين فأمر
صبرا أباملك فإن	الباقيات لمن صبر

وهو شعر حى يحمل لوعة الشجى ويصور حرارة الحزن فى هدوء نبرة وسماحة تعبير ، وفى المجال متسع لبقية من الحديث عن حفى وحافظ فألى حين قريب .

## الفجر شعب الموسيقى والرقص والرحلة

تقد على القرى فى فترات متباعدة قوافل متنقلة ، تطلق ماشيتها ودوابها ، وتنصب خيامها الساذجة ، وتهىء طعامها على الطريقة البدائية ثم تطلق عقائرها بالغناء ، وتجعل من الرقص والتصفيق ملهاة دائمة لا تكاد تنقطع ، وكثيراً ما يلجأ رجالها إلى الحقول فيختلطون بالفلاحين ثم يرجعون بما ينقل أكفهم وظهورهم من الخير والإحسان بعد سمر طائب . وتفكه جيل ! أما النساء فيتسللن متفرقات إلى الأكواخ المتواضعة والمنازل الصغيرة « فيضربن الرمل » ، وقد يقمن بختان الفتيات ودق الوشم على الأذرع والسيقان ، ولهن لهجة غريبة تميل إليها الآذان ، لا لرخامة صوت أو نعمة جرس ، بل لما توحى به من غموض فى ألفاظها المبهمة ، ومعانيها المحيرة . وسرعتها المتدفقة كأنها شلال يهدر . ثم لما تنطق به ملامح القائلة من ثقة جازمة ، وإيمان عميق .. هؤلاء هم الفجر الذين لا يخلو منهم قطر فى الشرق والغرب على السواء .

والفجر فى أوروبا وآسيا وأفريقيا ليسوا على نظام واحد فى العادات واللغة والدين والتقاليد ، فمنهم المتحضر الذى جذبته مدينة القرن العشرين ، فنقلته من بداوته الساذجة إلى مستوى مشرف مقبول ومنهم البدائي الذى لا يزال يتخبط فى نزواته وجحاته ، دون أن يعصمه عقل راجح . لذلك نجد اختلافاً كبيراً فيما يكتبه الأوروبيون عن هؤلاء . فقد نجد كاتباً يسرد من مشاهداته وتجاربه ما يناقض حديث

كاتب آخر شاهد وجرب وعلل ، والسبب فى ذلك واضح إذ أن كليهما يروى ما شاهد ولا بس . فن رأى الفجر فى أسبانيا مثلاً دون مشاهدات مشرفة ، ومن رآهم فى المجر تحدث عن أكثرهم حديث المستهزئ الساخر، إلا أن الذى لاشك فيه أنهم صائرون لامحالة إلى الرقى والتحضر فى وقت قد يقصر وقد يطول .

والراجع أن الفجر — ويقال لهم النور أيضاً — قدموا إلى أوروبا من أواسط آسيا . ومن الهند بالتحديد .

وقد روى ابن الأثير خبراً يستفاد منه أنهم (الزط) الذين أوقدوا نار الفتنة فى البصرة على عهد المعتصم العباسى فحاربهم وتبعهم ، ونفى منهم نحو ثلاثين ألفاً بين رجل وامرأة وصبى إلى قرية من قرى الثغور المتاخمة للعدو ليكونوا فى الخطوط الأولى للدفاع .

وقد أغار الروم عليهم وأسروهم جميعاً ، فتفرقوا فى أوروبا . هذه الرواية الشرقية تجد ما يظاهرها فى الروايات الغربية ، ولا يهمننا أن نتبع التطور التاريخى لهؤلاء القوم بل نسجل ظواهر ملموسة لديهم فى كل زمان ومكان . فهم — شرقيون وغربيون — لا يعترفون بالحدود الجغرافية . ويموجون فى كل رقعة تنبسط أمامهم ولا يههم أن تختلف عليهم مناطق الحرارة والبرودة ، والخصب والجذب ، أو تباعدهم عن جيرانهم فوارق التقاليد والمثل ، ماداموا طوائف يأنس بعضهم إلى بعض ، ويقتسمون الرزية والفرحة معاً .

وقد تعرضوا فى تاريخهم الأليم إلى اضطهادات متتابعة ، فقررت فرنسا وبعض دول أوروبا نفيهم وتثريدتهم مع التنكيل بمن يتخلف

حرقا وغرقا وذبحا، ونحن نعذرهم الآن إذا اتخذوا لأنفسهم الحيلة فتربصوا الشر من الناس، فدماؤهم المتوارثة تحمل فى عناصرها ما كابده الأسلاف من ظلم واضطهاد، أضف إلى ذلك أنهم كانوا حربا على أنفسهم فى بعض الأحيان، فكانوا إذا نزلوا بلدة - ولا يزالون كذلك - يخطفون ما تقع أيديهم عليه من دجاج وطيور ونبات . وسبب ذلك اختلاف وجهات النظر بينهم وبين الناس، فأكثر طوائف الفجر لا تعترف بالملكية الفردية .

وترى الخبر فى الوجود نها مشتركا بين الأفراد، فإذا مد أحدهم يده إلى ممتلكات غيره فلا يرى - فى اعتقاده - حرجا يكفه عن السطو والإستلاب ! ولقد بدد تطور الزمن هذه المعتقدات من نفوسهم فأصبحوا يؤثرون الحيلة، ولا يسطون على شىء مجاهرة بل ينتهزون الغفلة السانحة، فإذا لم تنهأ الفرصة للسرقة أثروا القناعة بالكفاف، وروح السلب والنهب هذه هى التى جعلت الناس يضربون بهم المثل فيقولون لسيىء المعاملة «نورى» .

وقد لجأوا إلى الحرف المتواضعة فهم يحذقون صنع السلال والقلل والسكاكين والأجراس، وكثيراً ما تكون المواد الأولية لصنع الخيام والأوانى البدائية وتجارة الماشية أبوابا مشروعة للرزق، إلا أنهم - رجالا ونساء - يحترفون التنجيم والعرافة احترافا عجيبا، فالعجربة التى تقرأ الكف لم تنل حظا قليلاً أو كثيراً من المعرفة، ولكنها ذات فراسة فطرية تتغلغل بها إلى الأعماق، فهى تتقدم إلى زائرها فى شجاعة و يقين، ثم تندمج معه فى حديث متشعب، تتوقظ له منافذ تفكيرها . فتفهم من دخائله وأسراره ما يعدها بنصيب وافر من التخرصات

المعشوقة، فتظل تنسج له آمالاً عذبة، وتحدّره من هومو تخديراً لذيذا يفقد به حرصه فيناولها الأجر السخي، ويحرص على التردد عليها كلما حزه أمر أو تطلع إلى مستقبل مجهول، وعلماء النفس في أوروبا الذين شاهدوا هؤلاء المنجحات ودرسوا اتجاههن في التأويل والتحليل يبدون دهشة فائقة لما يلمسون لديهن من براعة وزكّانة، ويعجبون للنظرة الساذجة كيف تمنح أصحابها هذا النظر الصائب دون دراسة وتنقيف.

وبعض الكتاب يجمعون نوادر النور الشاذة ثم يصدر حكمه على الجميع وفق مآجع ويتبع، ونحن نرى في تسجيل ذلك شططا بالغا، إذ أن النور يدينون بدين جيرانهم في الأعم الأغلب فلا بد أن يعصمهم الدين من الحيوانية الساقطة. أو لعل ذلك كان منذ قرون متباعدة لدى فريق منحرف يمثل الاستثناء النادر، ولا يمثل القاعدة الكلية لدى هؤلاء وفوق ذلك فللقوم عادات متوارثة لدى الزواج والطلاق، وتواصل هذه العادات المتوارثة يعصم من الشذوذ الرهيب!

وبمقارنة هذه العادات بغيرها، يتضح لنا شبه كبير بين مسلك هؤلاء ومسلك الزنوج وبعض قبائل الهنود الحمر أيضاً، ففي إنجلترا تتقدم الفتاة النورية إلى الفتى الذي تختاره زوجاً لها، وتقدم له خيطاً أحمر، أو تدفع نحوه بكعكة لذیذة، أو تقدم إليه حلية ذهبية، ولا تفعل ذلك إلا إذا ذهبت إلى كاهنة محترفة فكشفت عن طالعتها، وأكدت لها صحة الزواج ورفاهيته، وللفتى أيضاً أن يبدأ بخطبة الفتاة، فيعلن إليها رغبته بأن يضع في سترته مندبلين أحمرين، ويتقدم نحوها، فإذا أخذت أحدهما، فقد اختارتها، وإذا فرت من وجهه وأرسلت شعرها المسترسل على وجهها فقد رفضته.

وأنت تلحظ من ذلك ما تتمتع به المرأة من حرية وانطلاق ، فهي فى أكثر الحالات تختار من تريد كما تريد ، فإذا وقع الاختيار دون أن تتقدم به ، فهي صاحبة الأمر المطلق فى الرفض والقبول ، ومن الطريف أن الخطيبة تشك إصبعها بإبرة ليتساقط دمها على الأرض ثم تجمع التراب الممتزج به ، وتقذفه إلى النهر ، فيكون كفيلا بدوام السعادة ويمنع ما قد تجيء به الأيام للزوجين السعيدين من شرور وأهوال ، وإذا نسيت إحداهن أن تفعل ذلك فهي تتقرب الشرف فى كل يوم وليلة ، فإذا حدث - ولا بد أن يتكرر الصفويوما ما - أرجعت السبب لهذه اللحظة المنكودة التى نسيت فيها أن تشك إصبعها بالإبرة ! لحظة الخطبة فى أسعد الأوقات .

أما ما يحدث لدى الوفاة فهو أعجب وأمتع ، فإذا مات إنسان ما فى خيمته فلا بد أن يشق جانب منها لتخرج منه الجثة دون غيره ، فلا تعود روحه فزعة مرة أخرى كما لو خرجت الجثة من الباب المعهود ، وإذا تعجل أحدهم الأمر ، ومر بالجثة دون شق جديد فان القلق النفسى يزلزل الأعصاب زلزلة ائمة ، فيتصور أصحاب الخيمة أشباحاً تتحرك ، وطيوفا تروح وتجيء ، ثم تغمرهم الأحلام بأهاويل مفزعة فيذهبون إلى المقبرة ثانية ، وينتزعون الجثة لتخرج من شق جديد !

وقد كان حرق الجثة عملاً شائعاً يوم أن قدم هؤلاء من الهند ونقلوه فى أوساط مختلفة تأثر بها أكثر المدنيين ، إلا أنهم الآن يدفنون موتاهم فى قبور محترمة تكلل بالزهور والورود .

ويتناوب القوم حراستها فى أيامها الأولى لتأتنس الروح فى المثوى الجديد ، والغريب حقاً أن أهل الميت يجمعون بعد وفاته كل ما خلفه

من أموال ومتاع ويقومون بحرقه وإتلافه ليسبقه إلى الدار الآخرة فيتمتع به هناك ، وهنا تطفح الخسائر الباهظة إلى حد مستغرب ؛ إذ أن بعض هؤلاء وبخاصة تجار الخيول والعربات أثرياء وموسرون ، فإذا قام أقرباؤهم باتلاف ما يملكون فلا تسل عن الثروات الضائعة ، والكنوز المبددة أدراج الرياح ؛ وإذا كان الفجرى فى المجر أو إنجلترا أو النمسا متوسط الحال أو رقيقه فالحسارة بعده محتملة ، ولكن ما ظنك بالفجرى الأسبانى المتحضر وهو يمتلك الضياع والقصور؟ وقد نشرت بعض الصحف الأجنبية صورا مؤسفة لعربات فاخرة تحترق أو تهشم قبل الإحراق كما تهشم «قلة» من الخزف أو قدر من النحاس ، وقد لا يكون الأمر فى ذلك شائعا لدى الجميع ؛ ولكنه ظاهرة غريبة تتطلب التسجيل .

وللنور فنونهم الجميلة ، تتضح فيما يصنعونه من الأوانى الخزفية ، والأجراس الحديدية ، والصور للعدراء والمسيح ، أما الرقص والموسيقى والغناء فقد أصبح كل أولئك مجال دراسة فنية لكثير من عشاق الألحان ، بل إن موسيقيى المجر يحرصون على استلهم الموسيقى النورية ، واتخاذها مصدرا للابتكار والمحاكاة ، ولولا ما يديه الفجرى من الصخب والضجيج – كالزنجى – لاستطاع أن يمتع الأسماع بألحان شجية ذات تأثير وتعبير ، على أن الذكاء الخارق الذى يتميز به المنجمون والعرافون من هؤلاء قد فاق كل اعتبار ، ولهم حيلهم الباهرة فى التخفى والتستر عند اجتياز الحدود بين دولة ودولة ، ومن أذكيائهم المهرة من يتخلصون من الجمارك المالية تخلصا يدفع إلى العجب والإعجاب ، وأطرف ما قرأت فى ذلك أن عجريا ماهرا أراد أن يسافر بخزيرين مذبحين دون أن يدفع رسومها الجمركية ،



فأجلسها فى المقعد الخلفى لسيارته وألبس كلا منها قبعة بالية وقيصا رثا، ووضع برقيبتها رباطين للعنق! وحين تعرض له أحد رجال البوليس الأسبانى أفهمه أنها غجريان أكثرا من الشراب حتى فقدوا الإحساس! وقد نظر إليها الشرطى متأففاً! وقال: غجر كالخنازير! والفكاهة الجميلة فى هذه النادرة أن الشرطى يشبهها بالخنازير فقط دون أن يفطن إلى اتحاد المشبه والمشبه به، لما يعلمه سلفا من قذارة الغجرى ودمايته! وفى ذلك من البلاهة والتغفل مالا يجوز على غجرى خنزير! فكيف يجوز على شرطى مدرب نشيط؟ .

إن الغجر مظلومون من الناس جميعاً، وقد قرأنا ولمسنا لكثير منهم بعض المحامد فى دنيا الأخلاق، كالشجاعة والرجولة والكرم والسخاء، فبعضهم يعتبر الضيافة واجبا يوميا فلا يكاد ينقطع عنه الناس! فلماذا لانعترف لهم بالحسنات المجيدة كما نتندر عليهم بالهينات المخرجات .

## شاعرة هندية مسلمة

شاعرة هندية مسلمة، شغلت الدنيا، وفتنت المثقفين فى القرن السابع عشر وترجم ديوانها إلى الإنجليزية فبهر المثقفين فى الغرب، ونقل أكثره إلى العربية فرأى قراؤها غطا رفيعا من البيان يَنْضَحُ بعبير الإسلام، أما اللغة الفارسية فقد سعدت بالشاعرة حقاً، لأنها نظمت أشعارها بهذه اللغة المحظوظة، كانت الشاعرة تلميذة لشعراء فارس العظام، ففتنت بفريد الدين العطار، وسعدى الشيرازى وعمر الخيام، ولكن شاعرها المفضل كان حافظ الشيرازى، فقد استهواها فيما أبدعت من شعر رقيق، ولكن أثر حافظ بترقرق فى شعرها كالشُّكْرِ فى الماء تتذوقه دون أن تراه.

## أسرة ملكية عريقة

زين النساء أميرة نشأت فى مهد التَّعَمَّة، رأت مجد جدّها الامبراطور شاه جهان وحظيت حيناً ما بعطف والدها الامبراطور (أورنجزيب). وهى حفيدة ملوك الإسلام الكبار فى الهند، حفيدة جدّها الأكبر (باير) وحفيدة (جهان جير) وحفيدة (شاه جهان) وكلّهم ملوك عظام هم مجدٌ حافل وكفاح شهير، وقد نشأت فى كنف والدٍ غيور يشتغل بالحروب ويعيش متوتر الأعصاب، غضوباً عنيفاً بمخالفه ولم يكن يتسم إلا حين يخلو بابنته الشاعرة (زين النساء) حيث كانت برق السعادة الذى

يلوح لعينه بين ظلمات الليل المتراكم، وبين جلجلة الرعود الصاخبة، لذلك منحها ماتبتغى من السعادة الماذية، وإن قسا عليها فحرمها أجل ما كانت ترد، وأحلى ماتمنت أن يتحقق، حرّمها الرجل الذى اختارته، ومنعها راحة النفس التى لم تُغن عنها اللاكئىء الثمينة والقصور الشاهقة والحدائق الناضرة الغناء .

## نشأة ممتازة

ظهرت بوادى النبوغ على الأميرة حين استطاعت حفظ القرآن الكريم فى سن الثامنة، وقد ابتهج والدها بما أحرزته من تفوق علمى فى طفولتها اليافة، فأقام احتفالاً كبيراً حضره الوزراء والأعيان، ومنح الدولة أجازة، عطّلت بها المرافق الحكومية والمدارس التعليمية يومين، وسارت الجنود فى مواكب الاحتفال ابتهاجاً بنبوغ الأميرة، ووفد الزائرون الكبار على القصر الملكى مهنيين، وكان هذا التقدير الباهر دافعا للأميرة الصغيرة إلى أن تعكف على الثقافة الإسلامية فقرأت الحديث النبوى، وحفظت سيرة الرسول، وكانت تفهم العربية فهما جيداً، فاستطاعت أن تقرأ أمهات الكتب فى تراثنا العلمى، ونظمت الشعر بالعربية ولكن استاذها الفارسى (رستم غازى) أخذ يهجن شعرها العربى ويقول ان نبوغها سيكون فى الشعر الفارسى، وكانت فى سن الخامسة عشرة، فوفقت تحت تأثيره، وانصرفت عن قراءة دواوين الشعر العربى، على حين حشد لها استاذها عشرات الدواوين الفارسية، وكان البلاط الملكى مليئاً بمن يجيدون الفارسية ويحرصون على قراءة أشعار الأميرة، فأروا من ابداعها الشعرى ما خلّب وفتن، ولكن ثقافتها الدينية قد ظهرت فى انتاجها الأدبى

فَقَالَتْ شِعْراً كَثِيراً فِى مَدْحِ نَبِىِّ الْإِسْلَامِ ، وَفِى الْحَنِينِ إِلَى مَكَّةَ قِبْلَةَ  
 الْإِسْلَامِ ، وَمِنْ حَسَنِ حِظِّ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ أَكْثَرَ مَا قَالَتْهُ الْأُمِيرَةُ تَرْجَةً إِلَيْهَا  
 الْأُسْتَاذَانِ عَبْدِ اللَّطِيفِ النَّشَارِ ، وَحُسَيْنِ مُحَمَّدٍ الْبُشَيْشِ . وَنَحْنُ نَنْقُلُ  
 عَنْهُمَا مَا نَسْتَشْهَدُ بِهِ ، وَكَانَتِ التَّرْجَةُ عَنِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لَا الْفَارْسِيَّةِ ،  
 فَاعْجَبْتُ لِشِعْرِ عَالِمَى تَنَازَعَهُ اللُّغَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ وَتَهَادَاهُ الْمُتَقِفُونَ فِى  
 الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَلَى اشْتِيَاقٍ .

## حنين إلى الحجاز

حِينَ حَتَّتِ الشَّاعِرَةُ الْأُمِيرَةُ إِلَى الْحِجَازِ مَهْدَ الْإِسْلَامِ ، لَمْ تَصْغُرْ  
 حِينَهَا الْوُجْدَانِى صِيَاغَةً تَقْرِيرِيَّةً تَضَعُفُ حَرَارَتَهُ الْمَشْبُوبَةَ ، وَلَكِنَّهَا  
 أَرْسَلَتْ جَذَوَاتِهَا الْمَشْبُوبَةَ فِى رَسَائِلٍ إِلَى الذِّى تَحْدُثُهُ عَنْ أَشْوَاقِهَا  
 الرُّوحِيَّةِ كَمَا بَثَّتْهُ لَوَاعِجُهَا الْإِنْسَانِيَّةِ فَهِيَ تَخَاطِبُهُ بِمَثَلِ قَوْلِهَا :

يَا نَاعِماً بِالْمَنَامِ	جَهِلْتُ شَجْوَ الْغَرَامِ
أَيَّامُ هِمٍّ طَوَالِ	أَوَاهِ مِنْ أَيَّامِى
مَتَبَوِّعَةٌ بِلِبَالِ	مَرِيرَةٍ الْآلَامِ
كَأَنَّهَا فِى سَرَاهَا	تَمُضِى لَغَيْرِ خَتَامِ
هَنَا مَكَانَ صَلَاتِى	وَهَاهُنَا مُحَرَّابِى
فَأَيْسَ مَكَّةَ مِنْى	يَا حَيْرَتِى وَاكْتِنَابِى
هَلْ مِنْ دَوَاءٍ لِدَائِى	وَهَلْ شِفَاءٌ لِمَا بِى
مُوجَعِى وَهَمُومِى	كَثِيرَةِ الْأَسْبَابِ
وَرَحْلَةُ يَاحِبِّيبِى	تَقُودُنِى أَنْتِ فِيمَا
لَقَدْ طَوَيْنَا صَحَارِى	وَلَمْ نَزَلْ نَطْوِهَا

إلى الحجاز فهذى      نـايـةً تشتهـيا  
شقت علينا ولكن      هى التى نبتغيها

وأمثال هذه الجذوات المشتعلة مما يتوهج فى ديوان الشاعرة حيناً  
إلى مكة، ولك أن تدرك سموها النفسى، حين لم تنس فى عهد  
الصبا والأحلام أشواقها العالمية إلى مواطن الإلهام والهداية، وقد  
درست الفتوح الإسلامية فبرها أن تمتد راية الدين إلى آفاق المعمورة  
ثم عادت إلى ماروى من خطب الرسول وأحاديثه فرأت قبضاً من  
الحكمة النبوية نفع غليلها ومحا ظمأها فهتفت بما تحس حين قالت:

يا نبياً ظَلَلْتُ رايته	هذه الدنيا طوال الحقب
دينك السمح حوى فى لحظة	سؤدد الفرس ومجد العرب
شفأ المبعوث لما افترتا	كافترار الورد عن نفح بضوع
جرت الحكمة من بينها	منطقاً عذبا بترجيع بديع
لم تخصّ الناس لابل فتنت	طائر الروض فغنّى وطرب
أنى حسن وجمال باع	اترى الألفاظ صيغت من ذهب

وفى هذا الأفق المشوق، طار جناح الأميرة الشاعرة فاستشرقت  
أجواء عالية ذات سنى وسناء، وكان الامبراطور شاهجان والد  
(أورنجزيب) قد خطب حفيدته الأميرة الشاعرة زين النساء إلى ابن  
عمها الأمير (دارا) وكان الأمير من علو الهمة ورهافة العاطفة، ورقة  
الشمائل بحيث أحبته الأميرة وجعلته فارس أحلامها، ونظمت فى حبه  
قصائد رقيقة تنفح بعير الشوق وكان مما قالته مترجمة عن أثر هذه  
العاطفة الخفاقة فى قلبها.

فِيكَ يَا قَلْبَ وَحْشَةٍ	وَحْشَةُ الْبَيْدِ فِي الْغَلَسِ
طَافَ بِي الْحُبُّ فَانْجَلَتْ	وَحْشَةُ الْقُلُوبِ وَانْتَسَنَ
أَصْبَحَ الْقَلْبُ جَنَّةً	عِنْدَهَا الْأَنْسُ يَلْتَمَسُ
لَوْ تَحَوَّلْتُ يَا أَحَا	سَيَسُ قَلْبِي أَغَانِيَا
لَفَدَا الْحُبُّ نَفْمَةً	تَتْرَكَ السَّمْعَ صَابِيَا

غير أن الريح قد جاءت بما لا تشتهي السفن ، إذ كان والد الأميرة قاسيا جبارا ، يظن الظنون السيئة في أقاربه جميعا وقد قتل أخاه وسجن أباه ، وأحسن أن ( دارا ) خطيب ابنته ذو تطوع إلى الرئاسة فخافه على ملكه ، ولم يكن في احساسه صادقا إذ كان في استطاعته أن يجذبه لنفسه فهو صهره وابن أخيه ولا مانع أن يرث العرش من بعده مادام قد حرم الأبناء ! وأتى لطاغية مثله أن يفكر هذا التفكير إذ أنه استجاب إلى هواتف الشر قد بر مكيدة للأمير الشاب ، وذهب صريعا إثر سم قاتل شربه بتدبير الامبراطور ، وعرفت ذلك الأميرة فجن جنونها ، واعتزلت الناس حقبة طويلة ، وحاول والدها استرضاءها فكانت تنفر من لقائه ، ولكن الأيام تُبرئ الجراح ، فبعد شهور تفرغت زين النساء إلى تنسيق حديقتها وأمرت باستحضار شتى الزهور المختلفة والاشجار المتنوعة والطيور المتعددة لتملأ فراغها في هذا الفردوس الذي اصطنعته اصطناعا ليملا وقتها بالنهار ، فإذا جاء الليل خلت إلى دواوين الشعراء لترى في مآسى السابقين وأنين المقجوعين ما تنأسى به ، فالحزين يتأسى بالحزين وقد تحدثت عن حديقتها التي خلبت المشاهدين بمنظرها البهيج فقالت ، وكأنها تحلم مخاطبة حبيبها البعيد .

أَسْأَلُ اللَّهَ لَا الشَّرَاءَ وَلَا الْحُبَّ	وَلَكِنْ حَدِيقَةَ مَكْنُونَةٍ
أَشْتَهِي أَنْ أَعِيشَ فِيهَا وَيَا	لَكَ قَرِينَا فِي الْحُبِّ لَا قِيَّ قَرِينَةٍ

ثم حلت المأساة الثانية حين ذهبت إلى (لاهور) مع والدها، وكان حاكم المدينة (عقيل خان) فارساً شاباً شاعراً، عرف أنباء الأميرة، وروى شعرها، وتَسَامَعَ بحديث جمالها، فاشتاق أن يراها وحالفه التوفيق فلمحها على سطح القصر قبيل الفجر في غلائلها البيضاء تكتب الشعر تحت مصباح أخضر جميل فجن بها شوقاً، ثم علم بخروجها إلى بعض البساتين لترى مظلة من الرخام، أقيمت على نسق ظريف، فتخفى في زى بستانى أجير، وحمل الفأس والمكتل وأخذ يشذب الزهور ويرمقها من بُعد في شوق عارم ثم تجرأ وراسلها بالشعر، وقد أعجبت به الأميرة فردت عليه من البحر والقافية، ولابد لمثل هذه العلاقة أن تشيع، ولابد أن ينشط الواشون إلى الامبراطور الجبار، فأقام الأرصاد حتى داهمه مع الأميرة يتناقشان في الأدب لافى أمور القلب، وكانت هذه كبرى الجرائم لدى الوالد فقتل الحاكم شر قتله، اذ عذبه عذاباً شديداً حتى لفظ أنفاسه، ولم يعبأ بدموع ابنته التى يئست من حياتها، وأغلقت الباب عليها شهوراً طويلة مستسلمة للدموع، وقد نظمت هذه الحقة أفجع ما نظمت من أشعار الألم والأسى! وحقّ لها! فقد تعددت المأساة، وضاعف الجرح الجديد أحزان القلب الذى لم يكن يلتئم به جرحه القديم، ولم تنكسر النصال على النصال، بل توغلت جميعها فى أعماق الأعماق.

## محاولة فاشلة

كانت لزين النساء مربية فاضلة ذات أدب ودين وحياء وقد ترعرعت الأميرة على يديها معتزة بتوجيهها الأدبي، وسلوكها الخلقى،

فرأى الامبراطور أن تذهب (ميايى) وهو اسم المربية إلى تلميذتها لترغبها فى الزواج من إنسان اختاره الامبراطور دون أن يجوز قبول الأميرة، وأن تحدثها عن طاعة الوالد وضرورة الاقتران، وأن تعلمها أن عصيان هذا الأمر يثير غضب الله، وكانت الأميرة من الفصاحة بحيث علمت أن المربية مأمورة تمثل دوراً فرض عليها، دون أن تعتقده فهشت لها فى أدب ثم كتبت لوالدها تقول إنها تفرغت لرضا الله حقاً، إذ تبرعت بكل ماتملك من حلى للفقراء، وأنها خصصت دخلها السنوى وقدره ٤٠٠,٠٠٠ روبية للنفقة على المحتاجات وتهيئة من يردن الحج ممن لا يقدرون على نفقة الارتحال. كما جعلت رواتب شهرية لأسر فقيرة تشمل الأراامل والأيتام، وقد ثار الوالد الذى لم يعهد أحداً يخالف أمره، فأمر بسجن الأميرة، واعتقلها سريعاً فى موضع لا يبعث على الارتياح، ولكنها قضت شهور السجن دون اعتراض حتى يش والدتها فأطلقها وفى نفسه شجون فاستسلمت لترتيب مكتبتها العامرة وجعلت تطلب ما تسمع عنه من المؤلفات، وتأنس حين ترى المكتبة تنمو وتزيد وكأنها وجدت فى متعة العقل شفاءً لأسى القلب أو هكذا تخيلت، غير أن ذكرياتها كانت تهيج وتحتدم فلا تجد غير الشعر يطلق ما تجمع فى صدرها من أوار محتبس ولولا ما نظمته لاحتقرت بما يتأجج فى جوارحها من تباريح ولعل الأميرة كانت تتخيل حبيبها الراحل مائلاً بين عينيها فتناجيه قائلة :

يا جالاً مثله ما شهدت	أعينَ العالم فى دنيا الشباب
أينَ لا أينَ طريقى أفتفى	أثر الأقدام فى داجى التراب؟
قلبى المجرؤ أدماه الهوى	فتنزى قطرات من دم
فانظر الآن تشاهد عجا	زهرا أنتج تحت العندم



زهرات يافعاك نبئت      من عروق فجرتها الحشرات  
موضع الأشواك لَمادسته      نبئت الزهر مكان الخطوات

## الخاتمة

وكان لابد أن تمرض الأميرة الحزينة رازحة تحت وطأة الآلام،  
وقد اهتم والدها بما تقاسى من أوجاع النهاية، فأحضر لها خير  
الأطباء، ولكنَّ أجل الله لا يؤخر إذا جاء، ففاضت روحها الطيبة  
وأصّر والدها على أن تدفن في حديقة الزهور.. لتكون وردةً بين  
الورود، وبالع فشيّة لها قبراً من المرمر تعلوه قبة من ذهب! وليست  
في آخرتها تحتاج إلى شيء من هذا المعدن النفيس، انما احتاجت في  
حياتها إلى العطف الحنون فحرمته! حتى إذا قضت عمرها فاضت  
دموع الوالد القاسى حين لا يجدى البكاء! وجادت بوصل حين  
لا ينفع الوصل.



## من غزل المرأة قديماً

شعر المرأة فى مجموعه قليل ضئيل ، فأنت تجد الموسوعات القديمة تزخر بأشعار الرجال فى شتى الأغراض ، دون أن تطالع — إلا ماندر — للمرأة غير البيتين أو الثلاثة فى الفصل الطويل ، ولا يرجع ذلك إلى غبن أو تقصير فى جنب المرأة كما يتوهم فريق من الناس ، بل لأن المؤلف يحرص على أن يختار لقرائه أنفس ما وقعت عليه عينه من رائع الشعر، وبديع القول ، والمرأة وإن أجادت فى كثير من الأغراض الشعرية فالرجل بلا شك أكثر منها إجادة ، وأكمل توفيقاً ، فالمؤلف حينئذ معذور..

والغزل بنوع خاص لم يظفر فى القديم بنصيبه الذى يستحقه من المرأة بل كان غرضاً عزيز المنال قامت دونه العوائق ، وتكاثفت أمامه السدود ، وذلك طبعى إذ نظرنا إلى البيئة الشرقية القديمة التى ترعرعت فيها الفتاة العربية ، وعلمنا أن من الواجب إذ ذاك عليها أن تقف إزاء عواطفها القلبية صامتة مفحمة مها اعتلج صدرها بالشوق ، واستعر فؤادها بالحنين ، وإلا فنحن نرى من السابقات من تَظَلَمْنَ القلائد البديعة فى مختلف أغراض الشعر ما عدا الغزل ، فقد أمسكت عنه حواء أو كادت ، ولم تحلق بجناحها الشاعر فى أجوائه الفسيحة لأن الرقابة القاسية من العُتْر قد أخرست الألسنة الشادية ، وألجمت الطيور الصادحة ، رغم ما نعرفه عن المرأة من شعور دافق وإحساس مشبوب ! ولنا أن نستدل على ذلك بما نجده الآن من روائع الغزل

النسوى فى عصرنا الحديث بعد أن تبدلت الأوضاع ، وأصبحت المرأة المثقفة تثبت وجودها فى دنيا العلم والأدب والفن ، إذ عفى على التقاليد الصارمة روح من التفاهم المتعاطف ، المقدر لرغبات النفوس المحلل لمنازع الغريزة ، الشارح لخوارج العاطفة ، مما كان معه غزل المرأة استجابة قوية لنداء الطبيعة ، وحصاداً ناضجاً لبذور الحياة ! ونحن فى هذا المجال لن نتعرض إلى شاعرات هذا العصر . فروائعهن ذائعة مشتهرة ، ولكننا نرجع الفقهري إلى ألحان بعيدة ترددت فى همس ناعم ، وبقيت أصدااء منها على خفوتها الرقيق تنتقل فى رحاب الزمن من جيل إلى جيل .

ونحن نعلم جيداً أن بشينة صاحبة جيل ، وأميمة فاتنة ابن الدمينية ، وليلى معشوقة قيس ، قد كن شاعرات مجيدات ، فليت شعرى أين ما نظمته من الغزل الرقيق ؟ مع ما يعترف به التاريخ من تقائهن فى العشق ، وجنونهن فى الحب ، اللهم إلا أن تجد لكل واحدة مقطوعة ضئيلة لا تتناسب مع ما يتأجج فى صدرها من لهيب !

وإذا كان الطائر يجنح إلى الترم فى خلصة موالية مهما نصبت حوله الشباك الوثيقة ، وقامت فى وجهه الموانع المتراخمة فإن الأسفار الأدبية قد حفظت لنا جرات مشبوبة من غزل المرأة الرائق وهى — على قلتها — تعطيك فكرة تامة عن القيمة العقلية للمرأة ، وتوقفك على كثير من الإنفعالات النفسية التى تكابدها الفتاة إذا احترقت فى سكير الغرام . والواقع أن المرأة فى كثير من أحوالها لم تلج باب الغزل صريحة سافرة بل تلتصت بكل ما ملكته من براقع . فكان غزلها فى الغالب تلميحا يهديك إلى الطريق ويجعلك تسير فيه وحدك دون

أن يرافقك فى خطواتك ، وقد تجد من يسلبها الوجد رشادها الناصح .  
فتنطق بما يجيش فى صدرها واضحا سافراً دون أن تتلم بلثام عائق  
ولها من شعورها الدافق ، وغرامها المتقد ما يبرر لها الغزل والتشبيب  
لدى نفسها – وإن أنكرتها التقاليد – .

وصاحبة التلميح أدبية ذكية تعرف من أين تؤكل الكتف ، فقد  
استغلت عنصر الحنين إلى الوطن أثمر استغلال . فاعتمدت عليه فى  
التنفيس عن صدرها ، والتعبير عن خوالجها ، لما تعلم من الصلة الوثيقة  
بينه وبين الغزل وهى بذلك قد أخذت الفتنة الثائرة ، وأغمضت  
العيون المنتمرة ، ثم – هى فى الوقت نفسه – قد أفهمت حبيبها كل  
شئ فأدرك من حنينها الذائب ما يتقد فى أحشائها من شوق .. وهذا  
فى الواقع مطلب عزيز ، تبذل العاشقة جهدها الجاهد فى تحصيله ،  
فَلِمَ لاتصل إليه عن طريق الحنين .

ونحن نرى أيضاً عاشقات مدنفات قد اشتهر فى الملام شوقهن  
العارم ، فما احتمله قريب أو صديق ، بل عمد كل والد إلى فتاته  
فحملها إلى وطن غريب ، وعقد قرانها فى بلد نازح ، وهنا ترسل  
النائية حنينها إلى الشاعر لمسارح الصبا وملاعب الشباب ، وأنت حيث  
تقرأه لاتجد غير غزل مقنع قد أهدى إلى الحبيب الأول ففهم منه كل  
شئ ولك أن تعتبر من هذا النوع قول القائلة :

عَلَيْنا فَقَدْ أَضْحَى هَوانا يمانيا	ألا أيها الركب اليمانون عرجوا
وحب إلينا بطن نعمان واديا	نسائلكم هل سال نعمان بعدنا
به نقع القلب الذى كان صاديا	فإن به ظلا ظليلا وموردا

فهل صحيح أن الشاعرة تقصد ماء نعمان، وظله الظليل ومورده  
الرائق؟! لو كان ذلك وحده ما أحست بهذه الحسرة المتأججة،  
واللهفة المشتعلة، وما اهتدت الشاعرة إلى قولها الرائع «به نفع»  
(القلب) الذى كان صادياً!.

ونظائر هذه الأبيات تدلنا على فطنة المرأة، وذكاؤها اللامح،  
وتؤكد لنا أن الحب كالزهرة الناضرة، لا بد أن يعبق أريجها فى كل  
مكان تحل به وهل كان الحنين غير عبير فاتن ينعش الأفتدة ويبهج  
النفوس؟!.

وكثيرا ماتفر المرأة من الحنين إلى الكناية والرمز، وهى فى ذلك  
تقتدى بالرجل فتسير وراءه خطوة خطوة، ولكن أى رجل تتبع؟؟ إنها  
تعتمد إلى شاعر سدت أمامه المسالك، وصلصلت فى كفه القيود،  
فتتجه معه فى اتجاهه، مادامت ظروفه القاسية كملاساتها العنيدة،  
وإذا كانت المرأة تعتقد فى قرارة نفسها أن الرجل أحزم منها وأعقل،  
فإنها تسلك طريقه مطمئنة إلى السلامة واثقة بالنجاة..

ولعل أصدق مثال نقدمه للقارئ، هو حميد بن ثور الهلالى فقد  
كان ممن برح بهم العشق فأرسل قصائده الغزلية سافرة عارية، ولكن  
الحاكم يقف فى وجهه منذراً مهدداً، فيمنعه من التغريد الساحر،  
وهنا يلجأ الشاعر إلى الكناية المقبولة فيتغزل فى السرحة مطنبا فى  
محاسنها الفاتنة وقد وفق فى اختياره، فالسرحة ذات منظر جذاب،  
وثمر شهى، ونسيم منعش مريح وكل ذاك مما يذكر العاشق المدنف  
بمعشوقته فيتمثلها أمام عينيه إذ يقول:

أيا طيب رباها ويا حسن طعمها إذا حان من شمس النهار شروق  
وهل أنا إن عللت نفسى بسرحة من السرح مسدود على طريق

والشاعر بذلك التلميح قد نفس عن صدره ولم يجعل لأحد سلطاناً  
عليه، ثم هو قد فتح الباب على مصراعيه لكثير من بنات حواء فعلية  
بنت المهدي شقيقة الرشيد قد علقت غلاماً لها يسمى طلاء، ونظمت  
فيه من الرقائق الأنيقة ما هو جدير بأمثالها من المثقفات الناعمات،  
ولكن هرون يقف أمامها وقفة يتحدى بها الفن، فلجأت إلى التغزل  
فى السرحة مقتدية بحميد إذ تقول:

أيا سرحة البستان طال تشوقى ومالى إلى ظل لديك سبيل

ثم تظنب فى وصفها الساحر فتجلس على ناصية الإبداع والإفتنان  
وذلك منها طيب جميل.. وفى رأى أن هذه الحيلة جميلة مقبولة تسير  
مع الأخلاق النبيلة فى مهيع واحد، وإن كان من الشاعرات السذج  
من تبالغ فى الحذر والحيلة، فتعلن لك أنها قد أمنت بذلك ما عسى  
أن يوجه إليها من ملامة أو نقد ثم تصرح بما يثير حولها الشكوك،  
ويجعلها مضغة تلاك فى الأفواه، ودونك قول أم ضيغم البلوية.

وبتنا خلاف الحى لانحن منهمو ولانحن بالأعداء مختلطان  
وبتنا يقينا ساقط البرد والندى من الليل بردا يمينة عطران  
نذود بذكر الله عنا من الصبا إذا كان قلبانا بنا يجفان  
ونصدر عن أمر العفاف وربما نقعنا غليل القلب بالرشفان

وأنا لا أدرى ماذا يفيدها ذكر الله بعد أن نقعت غليل القلب  
بالرشفان؟ وماذا يغنى العفاف بعد أن باتا فى مكان قاص خلاف

الحى؟ اللهم إن هذا احتراس أدى إلى افتضاح ولكن فيه رائحة  
الطمأنينة على كل حال .

ومن العاشقات من تصرح للملأ فى حنينها الوجدانى بتقوى الله  
عز وجل واستحياء بعض العواقب، ولكنها تعتصم بالعقل فلا تتورط  
فيما تورطت فيه أم ضيغم، بل تسير فى سبيلها المملوءة بالشوك بقطعة  
محاذرة، تتجنب العواقب، وتتجافى عن المزالق حتى تنتهى من المسير  
بسلام، والتفت معى إلى قول عاتكة المريّة :

وما طعم ماء أى ماء تقوله	تحد من غرطوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت	عليه رياح الصيف من كل جانب
نفى جربة الماء القذى عن متونه	فإن به عيب يتاح لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه	تقى الله واستحياء بعض العواقب

ثم صارحنى رأبك هل لاحظت عليها تورطاً وانزلاقاً كأم ضيغم أو  
وجدت فى قولها ما تشم منه رائحة الرب الآثم، الحق أنها كانت لبقّة  
ماهرة فيما نظمته، وأنا لأدري لماذا تذكرنى أبياتها بأبيات أخرى  
تتفق معها فى الطريقة، وتخالقها فى التفكير. ونحن لا يهمننا أن يكون  
الإطار من نوع مألوف بل نحرص على أن تكون الصورة جديدة  
والريشة بارعة كما جاء فى قول صاحبة الهلالية :

وما وجد مسجون بصنعاء عضه	بساقيه من صنع القيون كبول
قليل الموالى مستهام مروع	له بعد نومات العشى عويل
يقول له السجان أنت معذب	غداة غد أو مسلم فقتيل
بأكثر منى لوعة يوم راعنى	فراق حبيب ما إليه سبيل

فأنت ترى أن الطريقة الأولى هى الطريقة الثانية، ولكن معنى عاتكة مكرر معاد. أما أبيات ضاحية فذات تصوير مبتكر لا تستطيع أن ترجع بها إلى قائل متقدم، ثم هى تصور لك جزع المرأة من السجون ورهبتها من القيود، وليت شعرى إذا لم نلمس إحساس المرأة فى شعرها العاطفى فن أى نبع دافق نستقيه؟ أما قوة التعبير فبارزة بوضوح فى كلتا المقطوعتين.

هذا نزر قليل يشير إلى الغزل المقتنع فى شعر حواء، فإذا تركناه إلى الغزل السافر، هذا الذى قالته العاشقة لتذيع غرامها على رؤوس الأشهاد فينقله عنها البعيد والقريب، دون أن تخشى ملامة أو مسبة، بل تقدم جريئة على تحل ما يتهددها فى موقفها الجريء. فإننا نجد منه الرائع الطريف.

ونحن فى هذا المجال لن نتعرض إلى غزل الجوارى مما تناقلته أمهات المصادر، لأننا نبحت عن النسب الصادق الذى يضطرم بالعاطفة المشبوبة، ويتأجج باللوعة المشتعلة، وأكثر ما بأيدينا من غزل هؤلاء لا يهدف لغير الإغواء والتغريب، بل كثيراً ما يهبطن إلى مستوى لا يرضى عنه خلق.

فأنت لا ترى فى أكثر شعر الجوارى مواربة أو كناية، بل نجد نفسك أمام صراحة فاضحة، ومنطق مكشوف — إلا فيما نذر — كأن تقول إحداهن وهو أهون ما يمكننا أن نستشهد به:

إنى لأرجو أن تكون معانقى	فتبيت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بن خلا خلى ودماجلى	وأراك دون مراجلسى ومجاسدى



وأنا لأنكر أن هذا تصوير صادق لما تنشده الجارية من أمل  
لذيد، فهو من هذه الناحية قول صادق يرتكز على الإحساس الآمل  
والشعور المتمنى، ولكن أدعو الشاعرة أن تبرز عاطفتها تلك، فى سياق  
فنى، يعتمد على اللمحة الموحية، حتى تطرب قارئها بروعة الإيجاء،  
لأن تمضيه بوقاحة التصريح.

وقارىء الغزل النسوى يرى التصريح فى نسيب المرأة فى مجموعته  
أقل من التلميح، فقد قرأت فى هذه الأيام أكثر ما روى قديماً لحواء  
من رائق التشبيب، فلم أجده التصريح إلا فى حالات خاصة تخفف  
من حدته، وتشفع لقائلته أتم شفاعته، وهى فى جلتها لا تكاد تخرج  
عن حالات ثلاث:

الحالة الأولى — وهى الجديرة بالإشفاق — تكون غالباً عندما تفقد  
المرأة صوابها الراشد، وفكرها المتيقظ — فتندفع فى تيار الحب أعنف  
اندفاع وأقساه، ولا تعود تفكر فى غير الشخصية المسيطرة على منافذ  
إحساسها، القابضة على زمام فؤادها، وما ظنك بمن ترسل أشعارها  
الذائبة ناطقة بجنونها الشقى، غير عابئة بما يلقاه بها الأقربون، من  
صنوف الإيذاء والتعذيب كشقراء بنت الحجاب فقد قاست غرامها  
الطائش أبرج المقاساة وطالما انهال عليها والدها بالسياط المحرقة تشوى  
الإهاب، وتمزق الأعضاء وهى بعد لا تنسى فى جحيمها المشتعل  
حبيبها يحى بن حمزة بل تهتف:

أضرب فى يحى ويبنى وبينه      مهامه لوسارت بها الريح كلت  
ألا ليت يحى يوم عيهم زارنا      وإن نهلت منا السياط وعلت

وكأنى بوالدها وقد رحها بعض الشيء فبعث إليها صواحبها  
لائمات، عاذلات راجياً أن يثوب رشادها العازب إلى وكره، فتنسى  
ما تذر به للغادى والرائح، ولكن أمل الحباب ينطفئ خابياً حين يجد  
ابنته تصبح فى آذان اللائمات:

سأرعى ليحىى الحب ما هبت الصبا وإن قطعوا فى ذاك عمداً لسانيا  
فقد شف قلبى بعد طول تجلدى أحاديث من يحىى تشيب النواصيا

وهناك من المدنفات من لا تفرق بين النافع والضار، فهى إذ  
تصطلى بحجم الشوق اللافح، لاتجد من تطلعه على خبيثة سرها غير  
والدها العنيف مع أن الأب - لو عقلت الفتاة - أول من ينبغى أن  
يكنم عنه هذا النبأ المزعج، وخاصة إذا كان من قساة البدو، وجفاة  
الأعراب، كوالد الخنساء التيجانية، تلك التى علقت شاباً من بنى  
خفاجة يدعى جحوشاً، وقاست فى حبها العارم ما أقض مضجعها،  
وشرد نومها، فكتمت أمرها عن صواحبها وبعثت إلى أبيها التيجان  
نقول فى غير اكتراث:

وإن لنا بالشام لونسطيعه حبيباً لنا «ياتيخان» مصافياً  
نعد له الأيام من حب ذكره ونخصى له «ياتيخان» الليليا  
فليت المطايا قد رفعنك مصعدا تجوب بأيدها الحزون الفياfia

وكأنها لا تكفى بإزعاج والدها، بل تتمنى أن يقود بنفسه مطايا  
مصعداً إلى جنوب الشام، ليكون رسولها الأمين إلى جحوش الحبيب،  
والغرام جنون فاضح، يولد الغرائب، ويأتى بالمتناقضات!!

أما الحالة الثانية : فلها من الظروف والملابسات ما قد يبررها لدى  
المنصف إذ تكون العاشقة ثيباً مطلقة ، فلا تؤاخذ على هيامها مؤاخذه  
غيرها من العذارى الناهدات ، بعد أن انخرطت فى سلك الزوجات ،  
ولديك أم الضحاك المحاربة التى أمسكت عن الشعر الغزلى ، حتى  
طلقها زوجها ، وارتحل عنها إلى مكان نازح ، فهاج بها الشوق واندفعت  
تقول :

سألت المحبين الذين تحملوا      تباريح هذا الحب فى سالف الدهر  
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما      تبوأ ما بين الجوانح والصدر  
فقالوا شفاء الحب حب يزيله      على الفور أو نأى طويل على الهجر  
وما الحب إلا سمع أذن ونظرة      وحنة قلب عن حديث وعن ذكر

وهذا قول هادىء متئد ، ولكن صاحبه لا تلبث أن تكشف نقاب  
الحياء دفعة واحدة بعد أن يستبد بها الهجر فتعبر عن الحقيقة المكظومة  
بشعر عذب رقيق .

وإذا كنا نعلم أن الشعر مرآة صاحبه ، ونعلم ثانية أن النفوس  
مخلفات متشابهات ، فهناك المتئدة الصابرة ، والعجول المتسربة ، ثم  
هناك من صارعها الأزمان واكتفتها المحن ، فأجبرتها على الاستهتار  
والترق .. إذا كنا نعلم ذلك فغير عجيب أن نرى أم الضحاك المحاربة  
تنطق بلسان الغريزة الفاضحة عن أهوائها العارمة ! وهى بعد مطلقة  
مجهوة هانت على زوجها الأول فهانت كذلك على الناس .

ونعرج على الحالة الثالثة، وهى كثيراً ما تكرر أمامنا من حين إلى حين، فقد تكون المرأة عاشقة صبة، فتجاهد نفسها فى إخفاء ماتكابه مجاهدة قاتلة، ثم تمر الأعوام وراء الأعوام فإذا الشابة العاشقة تصير عجوزاً شوهاء ذات أولاد وأحفاد، وإذا ذاك لا تبالى بنقد، أو تحفل بتجريح، بل يطيب لها أن تجلس مع العذارى الناهدات، قارئة تاريخ قلبها الحافل بالعجائب والفرائب، دامعة على صباها الغارب، وشبابها المرحوم، ولا عليها فى ذلك مادام الجميع يتهمها بالهتر والتخريف، وما دامت قريبة من القبر؛ فهى هامة اليوم أو الغد، وأى نقد يوجهه إلى شمطاء شهيرة، تدب على العصا، وتمشى بها مشى الأسير المكبل كعشقة البدوية إذ تقول:

جريت مع العشاق فى حلبة الهوى	ففقتهموسبقاً وجئت على رسلى
فما لبس العشاق من حلل الهوى	ولا خلعوا إلا الشياب التى أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب حلوة	ولا مرة إلا شراهمو فضلى

ومع مافى هذا القول من الصراحة التامة، فإذا إذا قيس بشعر الرجل كان جيل الأثر طيب الوقع؛ فنحن نرى الإباحيين من فساق الشعراء كامرىء القيس والفرزدق وشار يطنبون فى ذكرياتهم الماجنة، إطناباً غير حميد، ولولا أننا لا نريد أن ننشر هذا اللون من الإفك، لذكرنا على سبيل الموازنة بعض ما قيل وقد تكون الشاعرة مضطرة إلى التصريح بما يعجز عن بيانه اللفظ ويقف دونه الريق، فتأتى بالمعنى الجلى، فى تركيب قوى، دون أن يصددها المسلك الوعر، ويجهها الواقع المرير، فقد راود توبة بن الحمير الخفاجى صاحبه الأخيلية فأشاحت عنه غاضبة، ثم أرادت أن تفهمه موقفها

النبيل ، فلم يستعص عليها القول المخرج حين قالت :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها      فليس إليها ما حبيت سبيل  
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه      وأنت لأخرى صاحب وحليل  
نخالك تهوى غيرها فكأنما      لها فى نظنها عليك دليل

ولعمري قد بلغت من التأتى الهادىء شأواً لم يصل إليه معن بن  
أوس ، حين اصطدم بصخرة كصخرتها العاتية . فقد كان فى جاهليته  
على صلة بأمر مالك خليلته ، فأنت كعادتها إليه بعد إسلامه فقال من  
أبيات :

ولست كعهد الداريا أم مالك      ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل  
وعاد الفتى كالكهل ليس بفاعل      سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل

شأن ما بين القولين وإن اتفق المراد !! وليلى هذه مرث جيدة  
فى توبة كانت تصلها بقليل من الغزل الرائق فتطرب النفوس فى  
موقفها الحزين ، ويهمن أن نعرض مثلاً لنسيبها الدامع إذ تقول فى  
معرض الرثاء :

هوالمسك بالأرى الضحاكى شبتة      بدرياقة من خُمر بيسان قرقف  
فيا ألف ألف يوم تأتى مسلماً      فألقاك مثل القصور المتطرف

وهناك من العاشقات غيرها من أبدعت كثيراً حين نهجت نهجها  
الجلذاب فقالت فى معرض الرثاء الغزلى :

هوالأبيض الريان لوضربت به      نواح من الريان زالت هضابها

وهكذا تكون الدموع مسرحاً للتشبيب البهيج!!

(وبعد) فهذه شذرات خاطفة تجلو لنا طرائف من الغزل النسوى  
القديم . وهى جذور قوية لدوحة سامقة نراها اليوم فى شعرنا النسوى  
المعاصر دانية القطوف ممتدة الظلال ..



## نابليون بونابرت والتاريخ العباسي

لم تكن عبقرية نابليون بونابرت وقفا على معاركه الحربية، وانتصاراته السياسية وحدها، ولكنها تمتد إلى ابداعه الأدبي الذي اتجه إليه في مطلع حياته كاتبا، ثم شغلته مطامحه السياسية عن الكتابة دون القراءة، إذ كان لا يترك الكتاب في فترات راحته، بل ربما كان الكتاب الأدبي واحته الخضراء في صحراء الحياة، وقد يستبعد القارئ أن تكون الحياة صحراء بالنسبة لنابليون، ولكن واقعه النفسي يؤكد أنه كان مع ضحيجه الصاخب يعيش في وحدة نفسية لا تملؤها أبهة المجد. وعظمة السلطان، وفي ذلك عزاء أى عزاء للذين يقاسون فى أعوامهم المديدة لفح الهجير، ظانين أنّ ذوى المكانة يتفياؤن وارف الظلال وما دروا أن الإنسان الظامح من آماله الشاسعة المتجددة فى ظما لا يرتوى، وسغب لا يشبع، لقد قربت الشقة كثيراً كثيراً بين المحظوظين والمحرومين.

وقد ترك نابليون فيما ترك من آثار أدبية ثلاث قصص كتبها فى مطلع حياته، وظلّ حريصاً على بقائها فى حوزته دون أن يسمح باذاعتها حين ضجت الدنيا بأعجاده، وحين آذنت شمسُه بالمغيب أسلمها إلى الكردينال فيش فى طبعتها الأولى المحدودة، ثم ظهرت قصة رابعة عثر عليها أديب بولونى، فاكتمل انتاجه الفنى بقصته «كليون وأوجينى»، وقد فُكِّرت متسائلاً كيف أهمل نابليون هذه

القصة عن عمد، فلم يضّمها إلى ما حرص على إبداعه لدى «فيس» ثم أدركت من مطالعتها أنها تكشف أسرار إخفاقه العاطفى، إذ صورت غراماً عاصفاً كان البطل فيه صاحب الكلمة، وهو إيماءٌ عكسى لما أخفق فيه قلب القائد حين أحبّ لأول مرة «أوجينى» فى «مارسيليا» وتوسّل إليها بما يملك من أرق المشاعر ولكنها تأبّت عليه، فكتب هذه القصة، لاليدكر إخفاقه بل يمحوه فى دنيا الخيال حين عزّ عليه أن ينتصر عاطفياً فى أرض الواقع، وقن كان ذا نفس متعالية ك نابليون لايسهل عليه أن يعترف بإخفاقه، ولكنه نسى أنّ رسائله العاطفية قد كشفت حيلته اذ سجّلت مثل قوله لأوجينى:

«إنّ الحياة حلم رقيق، لا يلبث أن يذوب كالضباب، وإنى أشعرُ بهياج عاطفى، وما شعرتُ بمثله قبل هذا اليوم، ولئن طال الهجر لاقتلن نفسى، ولا رميتُ بهذا الجسم تحت عجلات العربات».

ومقال اليوم يقصر على قصة واحدة من القصص الثلاث الّتى حرص نابليون على بقائها، تلك هى القصة التاريخية الّتى تتحدّث عن تأثير خطير، ظهر فى عهد الخليفة «المهدى العباسى». فادّعى الزعامة، وجمع الحشود الهائلة فى بلاد فارس ليُرزل الخلافة العباسية، وقد نازلته جيوش متوالية فانتصر عليها، ثم عبأت الدولة كلّ جهودها الجبارة حتى انتصرتُ عليه تلك هى قصة المقنع الخراسانى الّتى كتبها نابليون فى مطلع شبابه، وإذا تركنا الحكم على أثرها النفسى الفتى، فإننا لا نفعل دلائلها الخطيرة على اتّجاه نابليون الطامح إذ اختار شخصية جبارة تخطت حدود العقل حين ادّعت الزعامة مترفعة عن



حقيقتها الإنسانية، ثم جمعت حولها آلاف الآلاف من الناس مستسلمة طائعة، أ يكون تسجيلُ هذه الظاهرة بقلم ضابط عسكري ناشئ مؤشراً يُحدد اتجاهاً نفسياً تنمو بذوره الأولى في لفائف الغيب، وإذا كان المقتنع قد أخفق، فلبس الإخفاق فرضاً محتوماً في منطق شاب مندفع. إذ يستطيع أن يتجنب الخطأ في طموحه المشرب. وليس معنى ذلك أن كل قاص يتحدث عن بطل تاريخي يكون معبراً عن نفسه، ولكن الناقد الذي يربط البدايات بالنهايات يستطيع أن يستغل من الملاحظات ما يجد محله من التقدير والالتفات.

## الحدث التاريخي

أما الحدث التاريخي في واقعه المروي بكتب التاريخ الإسلامي خاصاً بالمقتنع الخراساني. فوجزه أن هذا الآفك الوصولي قد انتهر مقتل أبي مسلم الخراساني ليؤثب الجموع بالمشرق، كي يأخذوا بثأر البطل الصريع لاحقاً لأبي مسلم. ولكن محاولة استغلال مُفرض لشعور غاضب، تضطرم بجذوته النفوس، إذ لم تُعرف بها شم بن حكيم، وهو الملقب بالمقتنع صلة شخصية بأبي مسلم من قبل، ومن هو أبو مسلم في منطق المقتنع؟ إنه إنساك حلت فيه الروح التي حلت من قبل في آدم، ومن تلاه من الأنبياء، فأبي مسلم الخراساني، فالمقتنع الخراساني!! واذن فالنائر الوصولي في بدء أمره يحمل من روح الإله، لقد صدقت العامة من أتباعه ما حكاؤه عن تسلسل هذه الروح منذ آدم، ثم رأى بعد أن تزايد خطره أن يقفز قفزة أخرى، وقد كان أبرص أغور، دميماً، فاتخذ لوجهه قناعاً من الفضة لا يفارقه في اجتماعاته، فترسم صورته البيضاء في صفحة الأفق، ويقول الناس

إن هذا المرتسم هو بدر المقتع، وهو نظيرُ بدر السماء، وكأنه اهتدى بذلك إلى معجزة خارقة شلت وجوه التفكير لدى قوم سدج فاعتقدوها مؤمنين، وقد عناها أبو العلاء المعري حين قال:

أَفِيقْ إِنَّا الْبَدْرُ الْمَقْنَعُ رَأْسُهُ ضَلَالٌ وَغَيٌّ مِثْلُ بَدْرِ الْمَقْنَعِ

ثم التفت حوله الجموع من الصغد، وبخارى وسمرقند، وقزوين، وأمرهم، فخوروا طائعين، وطبعي أن يفرغ الخليفة المهدي لما بلغه من شأنه، فسير له الجيوش بقيادة أربع قواده، ولكن المارك تدور فتَهَزَّمُ جيوش الخلافة مرة تلو مرة، وكل انهماك يؤكد لأتباع المقتع صدق زعمه فيتزايدُ الخطر، وتنتشرُ الآراء الضالة التي تُبيح سلب الأموال وهتك الأعراض، فتفاقمُ اللهب اشتعالاً، حيث يضطر الخليفة إلى إرسال جيش يضم «٧٠٠٠٠» مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم فيضرب الحصار على قلعة كَشْ، التي يعتصم بها المقتع، ويوالى الفتك المستبشِلُ بجنود المقتع حتى يعجزوا عن المقاومة، فضجر أكثرهم، وطلبوا الأمان وفروا سالمين ليركوا الطاغية معتصماً بقلعته مع نفر من ذويه.

قالت كتب التاريخ، ولما شعر المقتع بالهزيمة أشعل النار في القلعة، وأحرق كل ما فيها من الذواب والمتاع والثياب كيلا تكون عوناً للمهاجرين، إذا احتلوا الحصن واستولوا على نفائسه، ثم أمر بحفر خندقٍ وأشعل به النار، وأذاب ما لديه من معادن الذهب والفضة والتحاس، ثم جمع أصحابه ونساءه، وأهله وسقاهم السم لتصعد أرواحهم إلى السماء فاتوا جميعاً، وألقى بهم في النار المشتعلة كيلاً يمثل أحدُ مجتثهم وكان آخر من شرب السم بعد تابعة، وهكذا انتهت

حياة هذا الآفك، دون أن ينتهى صدى دعوته إذ انتشر من أتباعه من زعم أنه قد أباح لهم ما قد حرّم الاسلام، وتكونت فرقة تالية من فترات مختلفة لثرق الدولة بحاربها، متخذة اساء جديدة وكلها ذات زندقة والحاد.

## قصة بونابرت

اشتهرت قصة المقتع الخراسانى فى أوروبا فيما ذاع من أحداث الشرق العجيب بطرائفه ونوادره، وقد كانت مجالاً لوحى الشاعر الانجليزى الشهير توماس كور، حيث عبر عنها فى بعض ماروى من شعره، وإذا كان نابليون قارئاً واعياً فقد عرف هذه القصة قبل أن يعرفها توماس إذ كتبها سنة ١٧٨٧م وتوماس طفل فى الثامنة من عمره. ولعله اهتدى إليها بوحى نابليون لأن طبعها قد تمت سنة «١٨٢١م» فى عام وفاة نابليون، ولابد أن تدبج شرقاً وغرباً بذبوع الحديث الممتد عن القائد الكبير، تأليفاً وتحليلاً واستيعاباً، وسنورد ترجمة القصة ببعض التصرف عن مجلة الرسالة ١٦/٣/١٩٤٢، حيث عربها الاستاذ/ ابراهيم عبد الحميد زكى.. تعريباً يجيز لنا أن نعتمد على جوهره الخالص، خشية الإطالة ليتضح مدى تأثير نابليون بتاريخ الشرق العربى، كما تأثر بتاريخ الغرب الأوروبى دون أن ينحصر فى حيز خاص.

قال نابليون.. وكان الرجل طويل القامة، فصيح اللسان فادعى أنه صوت الله على الأرض، وقال إن الواجب أن يكون الناس جميعاً من حيث المراتب والثروة سواء، واستهوى هذا، القانون أفئدة الدهماء فهرع إليه ألوف من الناس، ولما رأى الخليفة خطر هذه الثورة عقد

على خنقها فى المهد ولكن جيوشه كانت تلقى الهزيمة، فازداد بذلك أنصارُ (حكيم) يوماً بعد يوم، وبينما كان هذا الدعى فى أوج مجده، إذا به يُصاب بمرض شديد نتيجة الجهد الذى بذله فى المعارك التى خاضها، فلما خفت وطأة المرض، ونال الشفاء أيقن أن حُسنه قد ذهب ولم يَعدْ خير الرجال وأوسمهم، إذ كان قد عمى وخبا إلى الابد ضوء عينيه الرائع، ولما أحس بأن هذا التشويه الطارىء قد يفقده السيطرة على أتباعه والتأثير فيهم، رأى أن يحجبه عن أعينهم بقناع من فضة وضعه على وجهه، وجعل يخطب مؤثراً بفصاحته. فظل الناس مأخوذِينَ بعدوية بيانه وكان يعلل لهم إخفاء وجهه عنهم بأنه يخشى عليهم أن تهر أعينهم ذلك الضوء الفياض الخارق للطبيعة، ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً إذ أصيب أتباعه فجأة بهزيمة منكرة على أيدى جيوش الخليفة، فكانت الهزيمة صدمةً عنيقةً له، حين هجره كثير من أنصاره، وتراجع مع من بقى معه إلى مدينة محصنة ذات أسوار عالية، ولكنه لم يلبث قليلاً حتى أحرق به الجيش البغدادى فكان تجاهه موقفين، إما أن يموت، وإما أن يحدث له ما هو أسوأ من الموت وهو الأسر. فجمع أتباعه وخطبهم قائلاً:

«أيها المؤمنون لقد اختارنا الله لإعادة بناء هذه الأمة، واسترجاع مجد الإنسان، فلماذا إذن يَبْط من عزمنا، ويلقى اليأس فى قلوبنا، فى الليلة البارحة والناس نيام سجدت لله طويلاً ودعوته فى حرارة، قلت لقد رعيتنى وحيتنى هذه السنين الطوال، فهل أنمت أو أتم أحد من أتباعى حتى تتخلى عني، فسمعت صوتاً يقول يا حكيم. إن أتباعك الذين حافظوا على عهودهم، وظلوا معك ينصرونك فى ساعة الحرج، أولئك الذين سأنجيهم وأنصرهم، وأولئك هم الذين

سيقاسمونك غنائم أعدائهم انتظر حتى يزيغ القمر الجديد ، فإذا بزغ  
فرهم فأمرهم أن يحفروا خنادق فى الأرض ليسقط فيها أعداؤهم ،  
ويهلكوا» ففعلوا ، وحفرت الخنادق ، وقُلت بالمعادن المصهورة  
والزبوت والنيران ، وعندئذ أقام حكيم حفلاً كبيراً دعا إليه أنصاره ،  
فأكلوا وشربوا ، ثم وقعوا صرعى بتأثير ما شربوا من السم الزعاف ،  
فرميت جثثهم فى الخنادق لتلتهمها النيران ، وحين تصاعدت أعمدة  
اللهيب قفز حكيم وأتباعه فاحترق معهم ، وتقدمت جيوش الخليفة فلم  
تلق من أثر ، غير حظية واحدة من نساء حكيم بقيت على قيد  
الحياة» .

## موازنة بين الواقع والقصة

لاندري أقصد نابليون أن يكتب قصة المقنع الخراسانى بلسان  
المؤرخ أم يكتبها بلسان الأديب ، لأنه لم يلتزم النص التاريخى المتداول  
حتى يُعدّ مؤرخاً؟ كما لم يُفسخ مجال التحليل والتخيل والتصوير حتى  
يعدّ أديباً ، على أننا لانعرف أى نص ذاع فى أوربا حيث كُتب  
نابليون قصته حتى نعرف إذا كان التصرف فى النقل من عنده أم  
سبق به سواه ممن رافقهم أن يحدثوا بعض التبديل فى الأحداث . لقد  
جعل نابليون عنوان قصته (المقنع) وهو فى الأصل العربى ، لم يقف  
عند حد الادعاء بل تجاوزها إلى ما هو أكبر ، أتكون دعواه غير معقولة  
فى رأى نابليون؟ حتى يتجرأ عليها المقنع؟ كيف وقد ذكر الكتاب  
المقدس فريقاً من البشر ساقهم التجبر الطاغى إلى هذه الدعوة  
كالتمروذ صاحب إبراهيم ، وفرعون صاحب موسى ، فهى إذن غير  
مستحيلة استناداً لمنطق التاريخ ، ولكن الكاتب الأديب قد ادعى أن

المقنع صوت الله فى الأرض فحسب، ثم إن الرواية التاريخية أثبتت أنه كان أعور أبرص دميماً منذ نشأته، وكلّ ذى عاهة تجبار، فما ظنك بذى عاهات معدودات، ولكنّ نابليون جعل صاحبه يُصاب بالمرض بعد أمدٍ ما نتيجة للجهد المضنى الذى بذله فى المعارك التى خاض غمارها، وهذا المرض أفقده حسنه ومظهره، بل اذهب نور عينيه فصار أعمى، مما دعاه أن يلبس قناعاً من فضة يضعه على وجهه معللاً لذلك بأنه يخشى أن يهرجاله الأبصار فتعشى العيون انهاراً مما تشهد من الضوء الخارق للطبيعة، مع أن الثابت تاريخياً أن القناع كان شغوفةً وتديلاً، حيث يصعد به ليلاً على الجبل لينعكس ضوءه على صفحة الافق، ومن هنا ضرب المثل فى التموه بيدر المقنع كما ألح لذلك أبو العلاء المعرى، لعلّ نابليون قد استبعد أن تنطبع صورة القناع من فوق الجبل على صفحة الأفق فتحاشاها لتكون الحادثة أقرب إلى التصديق، كما أنّ الكاتب قد أجرى على لسان المقنع خطبةً لم ترد فى كتاب، إذ ذكر أنه قد اختير لإعادة بناء الأمة، واسترجاع مجد الإنسان، فمن ذلك الذى اختار المقنع؟ إنّ قول المقنع فى خطبة نابليون مخاطباً ربه، إنما هو تصوّر مسيحى، وإن كان المقنع قد قال كما أرادنا بليون مخاطباً ربه، لقد رعيتنى وحيتنى هذه السنين الطواله فهل أنمت أم أثم أحد من أتباعى، حتى تخلّيت عتاً، فإنّ الثابت التاريخى أنّ المقنع لم يستمر فى دعوته سنين طوالاً لأنّ مُدته الزمنية فى دعواه أو مادونها لم تصل إلى تمام الثلاث من السنوات فأين هى السنوات الطوال.

لقد ختم نابليون قصته بقوله (فَصّة لا يكاد يصدّقها العقل لغرابتها وهى تبين المدى البعيد الذى يذهب إليه الناس أحياناً طمعاً فى

الشهرة ويُعد الصيت). وهو ختامٌ يدل على أن الكاتب كان مؤرخاً لحادثٍ وتحدّ فرأى فيه ما يُستغرب ويهول، ولعلّ التحوير الذي وقع في رواية نابليون لم يكن من تصرفه الشخصي، بل أوجده تضارب الروايات الأوروبية قاتلاً عن قاتل، حتى ابتعد عن الحقيقة في بعض النقاط، وذلك يعنى أنه كان ملتزماً بما انتهى إليه كل الالتزام، وذلك مجرد احتمال.

## أدب كبير

قرأت أن الناقد الفرنسي الكبير (سأنت بوف) يُعدّ نابليون أكبر خطيب عرفه عصره، محتجاً بروائع خطبه التي دفعت جنوده إلى الهجوم على أضعاف أعدادها عدة، وعدداً، وبأنه خاطب الهرم في مصر خطاب الشاعر الأديب لا القائد المغامر، كما قرأت أن الكاتب الفرنسي (جاك نفيل) سطر صفحات تشيد بأدب نابليون، وامتد إعجابه إلى كلّ آل بوناپرت جميعاً إذا كانوا في رأيه أرباب بلاغة وفرسان بيان، وحياء نابليون الحربية كانت عائناً لانتاجه الفنى، وإن لم تُعق قراءته الأدبية لروائع الآثار العالمية شعراً ونثراً، ولولا هيامه الذاتى بالأدب لما كانت هذه الروائع رفيق خلوته، وزاد وحدته، وتلك عجيبة حقاً، لأنّ وحدة هذا المغامر المتوثب من ميدان إلى ميدان، لا تتسع للأدب بجال، إذ يجب أن تكون مجال تخطيط حرّتى، وتدير سياسى، إلا إذا كان الشعور الأدبى من القوة بحيث يقهر الضرورات الحافزة لتفصح المجال لترويح نفسى يكون نسياً منعشاً فى أشد لفحات الهجير، هذا إلى أنّ الإمبراطور قد فقد الصديق المخلص الذى يستحق ثقته الغالية حين تفيض همومه فى جنبات صدره،

ونتطلب أذنا نعى ، ولساناً أميناً يشير ، فليكن الكتاب صديق الوحدة  
ونديم العزلة فى أوقات تمرّ سريعاً كبرق يلمع بين متكائف الغمام ،  
وقد ظلّ نابليون محتفظاً بنتاجه الأدبى طيلة حياته لأنه فى رأيه قطعة  
حيّة من نفسه وفورة ساخنة من دمه ، فهو إذن جدير بالصون  
والاعتزاز.





## عثمان زناتى شاعر مجهول

كنا نقرأ فصلاً أدبياً من فصول رحلة الأندلس التى كتبها البحاثه  
المغفور له الأستاذ محمد لبيب البتانونى بك فوجدناه يستشهد بقول  
القائل :

إذا ما التقى ذو شملة عربية      بدى عجمه فالكل فى النطق أعجم

فحسبنا الشعر لقائل من شعراء العصور الأولى ، لأن أمثال  
البتانونى بك لا يستشهد بشاعر معاصر إلا إذا كان شعره ذائعا غير  
مغمور ، وقد أخذت أساءل عن الشاعر فأخبرنى المغفور له الأستاذ  
محمد هاشم عطية مؤرخ الأدب الجاهلى وأستاذه بدار العلوم وكلية  
اللغة العربية لمناسبة طارئة أنه صديقه القديم الشاعر عثمان زناتى ،  
فألححت عليه أن يقول شيئاً عنه فلم يتفضل ، إذ كان يشرح لنا  
حيثند دالية طرفه بن العبد ، وكأنه آثر ألا تنتقل فى الدرس من قائل  
إلى قائل .

ومرت أيام فوق بن بدى شعر جميل للأستاذ أحمد الزين ، يذكر  
فيه شعراء عصره ، ويخص كل شاعر بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، تشرح  
اتجاهه الشعرى فى نصاعة ووضوح ، فطربت حين وجدته يذكر عثمان  
زناتى ويقول عنه :

ولا تنسيا عثمان إن قريضه	يعيد لنا عهد البداء ويذكر
يؤرقه برق الغضا ويشوقه	نسيم على أزهار (توضح) يخطر
فذاك أمروأهدته أيام وائل	لأيامنا فالجيل للجيل يشكر

وإذن فعثمان كلاسيكى ينحو نحو المتقدمين فى إثارة الجزالة العربية، واللهج بأماكن البادية التى ترددت فى التراث العربى القديم، فهو قريب من عبد المطلب والكاظمى، وحمة فتح الله على اختلاف فى الصياغة يختلف غرابة وسهولة عند هؤلاء، ولكن طابعه العام متحد فى حنينه إلى آفاق العربية وأمجاد الإسلام السالفة، لقد كنا على شىء من الحق إذن حين حسبنا الأستاذ محمد ليبب البتانونى بك يستشهد بشعر قديم.

ومرت الأيام مرة أخرى، فوقع فى يدي عدد الرسالة (٤٠٩) فوجدت الدكتور زكى مبارك يكتب مقالاً عن شاعر العراق وعالمه (السيد محمد سعيد الحبوبى)، ثم يختتمه بعنوان جانبى هو (زناتى) يقول إثره.

مرت إشارة «فى مقاله عن الحبوبى» إلى الشاعر زناتى عند الحديث عن الشعراء الذين عجز عن مجاراتهم الحبوبى، فن هذا الشاعر المصرى المجهول؟ هو الشيخ أحمد زناتى أحد أساتذة اللغة العربية، وكان الشاعر الثانى بعد شوقى فى نظر أستاذنا الشيخ محمد المهدي (أستاذ الأدب بالجامعة المصرية القديمة)، وكنا نحفظ له فى عهد الحداثة قصيداً نخاله مبتدأ بهذين البيتين:

أرقت وأصحابى خليون نوم      وما أنا ذو شوق ولا أنا مغرم  
ولكن هما بين جنبى شبه      على ذوى القربى عفا الله عنهم

وقد أرجع إلى البحث عن آثار هذا الشاعر بعد حين، الشاعر الذى عرفه العراقيون وجهله المصريون، هذا ما قاله مبارك، ولكنه

جعل الشاعر أحمد، لاعثمان، فهل هما شخصان شاعران لا شاعر واحد؟ لقد بدأت المسألة تتعقد بعض الشيء، ولكن الدكتور وعد بالحديث عنه فى مقال مفصل.

فلأتابع أعداد الرسالة فقد ينجلي على صفحاتها بعض الرأى، وكان ما توقعته، فقد بادر الأستاذ الكبير أحمد العوامى بقول بالعدد التالى مباشرة (٤١٠) تحت عنوان زناتى مانصه:

(فى العدد ٤٠٩ من الرسالة الغراء مقال للدكتور زكى مبارك ذكر فيه «الشاعر المصرى المجهول الشيخ أحمد زناتى» الشاعر الذى جهله المصريون وعرفه العراقيون». فليأذن لى حضرة الدكتور أن أنبهه إلى أن الشاعر الذى يعنيه هو الشيخ عثمان زناتى الذى درس فى الأزهر وسلخ وقتاً غير قصير من حياته مدرساً للغة العربية بالمدرسة الحربية، ولا يزال كثير من أصفياه يتحدثون بمناقبه ويروون شعره ويتمثلون به وكان -رحمه الله- بين الفئة الممتازة من شعرائنا الذين ازدانت بهم أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، ولم يبالغ الشيخ محمد المهدى فى أن عده الشاعر الثانى بعد شوقى، قد رويت لى منذ حقبة طويلة بعض قصائده ومقطوعاته فأحسست من الرصانة والجزالة شيئاً كثير الشبه بشعر المتنبى والبحترى وأبى تمام.

وليتنى كنت قد دونت إذ ذاك ما سمعت فإنى والله لشديد الأسف على أن أفلتت منى الفرصة، على أنى عظيم الرجاء أن يتاح لأنجاله، وهم على ما بلغنى من صفوة المثقفين، أن ينشروا هذا التراث حتى يضيفوا إلى ثروتنا الشعرية فى تلك الحقبة من تاريخ الأدب فناً ممتازاً، أما الشيخ أحمد الزناتى بك فأخو شاعرنا.. الخ).

هذا بعض ما ذكره الأستاذ العوامرى . وقد أكد أن عثمان الزناتى من كبار الشعراء فى العصر الماضى ، وأن الأستاذ محمد المهدي لم يبالغ فى شىء حين جعله الشاعر الثانى بعد شوقى . ومثل هذا الشاعر الأزهرى الكبير جدير بقراءة شعره واستظهاره ، ولكن متى؟ وكيف؟ لقد صمت أنجاله فلم يجيبوا دعوة العوامرى إلى نشر تراث الشاعر؟ أتراهم لا يقدرّون على نشره ، وهم من صفوة المثقفين ؟ أم أن الشاعر نفسه قد ساعد على ذلك حين أهمل جمع الديوان فغاب فى خضم النسيان ؟

ومن حسن الحظ أن أجد بعض شعر الرجل إذ وقع فى يدى الجزء الثانى من مجموعة شعرية تحت عنوان شعراء العصر جمعها محمد صبرى سنة ١٩١٢ — ولعله الدكتور محمد صبرى السوربونى فيما بعد — وقد ضمت نماذج جيدة لبعض شعراء العصر من أمثال الزهاوى والكاشف ، وحسن القاياتى والشيبى وعثمان زناتى وعبد المحسن الكاظمى واليازجى والحداد ، وقد لزم صاحب المجموعة أن يقدم لكل شاعر بتعريف موجز ، وكان مما قال عن زناتى ص ٨١ من المجموعة :

« هو عثمان بن زناتى بن سراج بن مدين ، ينتهى نسبة إلى الحسن بن على رضى الله عنها . ولد فى ذى الحجة سنة ١٢٧٩ هـ حفظ القرآن فى بلده : بنى عبيد ، وهى قرية من أعمال مديرية المنيا ، وهاجر إلى القاهرة سنة ١٢٩٢ لتلقى العلوم بالجامع الأزهر ، وكان له ميل فطرى إلى حفظ أشعار العرب ، وأبتدأ بقول الشعر بعد هجرته إلى القاهرة بثلاث سنوات تقريبا ، ولم يهج أحداً قط ، ومدحه قليل وترك الشعر بعد الثلاثين إلا مادعت إليه الضرورة ، وتعين مدرساً للغة

العربية فى مدرسة باب الشعرية الأميرية، ثم نقل منها فى ١٨٩٨ م إلى المدرسة الحربية ومازال بها إلى اليوم (يعنى سنة ١٩١٢ وهى التى طبعت فيها المجموعة) أما شعره فلا يحتاج إلى تقريب، وقد أفادنا هذا التعريف الموجز أشياء هامة، فالشاعر عربى صريح النسب إلى الحسن بن على وكل ثقافته الأدبية أزهرية محضة، أصلها فى نفسه هيامه الفطرى بحفظ أشعار العرب، وقد ترك الشعر بعد بلوغه الثلاثين، وإذن فجل ماترك من تراث سامى به الفحول حتى عد عند المهدي والعوامى معا ثانى الشعراء بعد شوقى، قد صاغه فى طور شبابه الأول، فكيف به إذا تأبر على الشعر، وأعطاه حظه الوافر من الاهتمام وهو بهذه المنزلة العالية فى البيان؛ أما أخلاقه النفيسة فذات شمم نادر إذ لم يهيج أحداً، ومدحه قليل فى عصر كان المديح فيه باب الشهرة والذبيوع والمنصب والمال. ويخيل إلى أن ترفعه الخلقى قد صدف بنفسه عن قول الشعر، إذ رآه لدى كثير من زملائه مطية الملق والتزيف، وكأنه آثر ألا يذكر مع قوم يسيئون لفهم فى رأيه أكثر مما يحسنون، وإلا فكيف استطاع أن يسكت أحاسيسه النابضة بالشاعرية الجزلة؟ أ يكون قد أصيب فى حياته بما أورثه الزهد فى كل شىء حتى فى الشعر، والصيت والتأليف وما يتوهمه الشعراء من بقاء الذكر وخلود الحديث؟! إن ماروته (المجموعة الشعرية) من قصائده ليوحى بغضب حبيس يشتعل فى صدره ويصور نقمة مريرة على ملاء من مخاطبيه، ومنهم ذوو قرباه الذين يتحدث عنهم فيقول:

أرقت وأصحابى خليون نوم      وما أنا ذوئار(١) ولا أنا مغرم

(١) روى الدكتور مبارك أنه قال: «وما هو شوق ولا أنا مغرم» وهو تحريف ظاهر لأن الشوق هو الغرام فقيم التقسيم؟

ولكن هما بين جنبى هاجه  
 فإن بك حلمى مد أعناق جهلهم  
 هم ثلموا عرضى لغير جريرة  
 يطول على الليل إن طال ليلهم  
 إذا أنا أتهمت استقلوا فأنجدوا  
 وضعت دوائى فوق موضع دائهم  
 إذا كان لا يرجى شفاء لعله  
 ولم أرقى الدنيا شقيا بأهله  
 وما أسفى أنى بنيت فقوضوا  
 بل أسفى أنى إذا مت قبلهم  
 يحول الثرى بينى وبين دعائهم  
 بنى أمنا لا تنكرونى وأجلوا  
 فلا رحم موصولة قد قطعنها  
 وإنى لسيف تضربون بحده  
 حللت لكم فى ندوة المجد حبونى  
 ويوأتكم من صهوة العزم مقعدا  
 أعيدكم بالله أن يغلب الهوى  
 سأضرب فى الآفاق شرقا وغربا

على ذوو القربى عفا الله عنهم  
 فلا زلت فيهم يجهلون وأحلم  
 سوى أنهم منى وأنى منهمو  
 ومها يطل ليلى فهم عنه نوم  
 وإن أنا أعرفت استقلوا فأشاموا  
 ولكن من الأدواء ما ليس يحسم  
 فترك التداوى بالعقاقير أحزم  
 كان لهم مجدا إذا تم هدموا  
 وأنى إذا أعربت فى القول أعجموا  
 أضيما ولم أسمعهم إن تظلموا  
 ولا يؤذن الموتى بأن يتكلموا  
 فإنى وإن أنكرتمونى أخوكم  
 ولا رحا مقطوعة قد وصلتم  
 فإياكمو أن تغمدونى فتهزموا  
 فهل كان ذنبى أن شهدت وغبتمو  
 فلما تبوأتم سهرت وغتموا  
 على أمركم أو تقطعونى فتندموا  
 وأنجبر حللى حيث لا الحريهضم

وهى صرخة لاهبة تذكرنا بصرخة المقتنع الكندى التى يقول فيها :

وبين بنى عمى لختلف جدا  
 وإن ضيعوا عهدى حفظت لهم عهدا

وإن الذى بينى وبين بنى أبى  
 إذا أكلوا الحمى وفرت لحومهم

واتفاق التجربة بين شاعرين لا يعنى تقليد اللاحق للسابق كما يتوهم قوم يقعدون للاتفاقات النفسية كل مرصد، إذ أن توارد الخواطر النبيلة أو الهابطة على ما يناسبها من المعانى حقيقة ملموسة، وأقول ذلك تمهيدا لعرض ما أفاض الزناتى من انتوائه هجرة الناس فى مجتمعاتهم المغرصة لاجئا إلى صحراء قاحلة تقفز من الإنس، وتعمر بالوحش. فقد يظن بعض الناقدین أن الشاعر يسطو على الشنفري فى لاميته المعروفة حين ترك الناس وأنس بوحوش البادية فجعلها أهلا وأصحابا؛ وليست المسألة سطواً ينقل فيه شاعر عن شاعر ولكنها أحلام تتشابه وتمائل، فقد ضاق الزناتى بمجتمعه الذى يتألب فيه ذوو قرباه عليه فكيف بالبعداء من الناس؟ إنه ليجنح إلى عالم ناء عن كل إنسى، ولن يكون ذلك فى غير الصحراء القاحلة ذات الوحوش والطيور، فهو إذن شعور يعتاد كل ضائق بأهله وذويه، وإذا أفصح عنه شاعر كبير فلا يوصف بالسطو لأنه أعاد تجربة قد عاناها سواه، كما يعانها هو ساعة جاشت خواطره بالنقمة وحب الفرار، وإذا كان الشاعر ممن يعيشون بعقولهم الفكرية فى عهود البداوة، يصدرون عن دواوينها وتعمقون صورها وأخيلتها، فلا بد أن ينسج على منوال ما يحب ويألف، لا لأنه يقلد، ولكنه يتنفس فى أفق خاص، وشم عبيراً يرتضيه فى زهور معينة لا يبلغ سواها مبلغها من نفسه، فالزناتى إذ يصور اعتزاله الناس إلى مراعٍ الوحش فى البادية إنما يعبر عن أحلام البقطة التى ترسم فى الخواطر، وإن لم تتحقق فى عالم الواقع، فهو صادق أتم الصدق بالنسبة إلى شعوره الخاص حين يقول:

وما العز إلا ظهر مخطومة لها      بعرض الفيافى جولة وتوسم  
وليس لنا حاد سوى رجع صوتها      كفى بصداها حاديا يترنم

فأونة أهوى بجنبى للحصى  
وخير الحشايا فى الجبال حشية  
أخوض بها لج السراب وحولنا  
وذى لبد ملء الفجاج زئيره  
رأى رجلاً قد لبد الجهد شعره  
فأشك أنى ضيغم غير أننى  
إذا ما التقى ذو شملة عربية  
وللرمل أخرى إننى لمنعم  
من الرمل يستلقى عليها المهوم  
من الوحش أسراب روائح هوم  
تكاد له أصلابه تنقصم  
وأظفاره مشحودة لا تقلم  
إذا قلت لم يفهم ولو قال يعجم  
بذى عجمة فالكل فى النطق أعجم

وقد أضيف إلى هموم الشاعر بذوى قرباه همومه بأمانيه ، فقد  
كان كما يلوح من أشعاره الباقية ذا آمال فى الرخاء والسعة ليرضى  
حاجة الكرم فى نفسه ، وليكون دوحة يستظل بها زائروه وقاصدوه ،  
ولكنه موظف محدود الراتب ، يؤمه القاصدون فلا يبرهم بما يتصوره من  
أجناد الأريحية وشمائل الفتوة ، فيستشعر مرارة أليمة تتجسد فى وهمه  
حتى تكدر صفوه وتورن خاطره ، وقد أبان عن بعض ذلك فى قوله  
من قصيدة طويلة روتها المجموعة الشعرية أيضاً مع قصيدتين أخريين :

حلبت الدهر أشطره إلى أن  
سأسعى ما استطعت فإن غنياً  
وإن أحرم وما قصرت جهدى  
ولكن حاجة الأحرار عندى  
إذا أنا لم أكن همومنا  
وقائلة وقد أودى بالى  
بسطت يديك بالجدوى إلى أن  
وما يدريك أن غداً سيأتى  
ملأت من التجارب الوطابا  
رجعت حمدت للمسعى الإيابا  
فلا لوما على ولا عتابا  
تكلفنى التأوب والذهابا  
( فلا كعبا بلغت ولا كلابا )  
سخاء قد ملكت به الرقابا  
قبضت يبسط كفها الترابا  
بما لا تستطيع له غلابا



أمعنذر إذا استجدالك قوم      أناخوا دون ساحتك الركابا  
يشق عليك جويهمو الفيا فى      وقد رجعوا وما ملأوا والعبابا  
فلا أنت امرؤ مثير فتسسخو      ولن تستطيع دويهمو حجابا

وهى أخلاق هتفت بها أعراقه العربية العلوية، وغذتها أحاديث  
الكرم البطولى عن أجواد العرب فى الجاهلية والإسلام، مما يؤكد أن  
من تراث العربية ما يدفع إلى النبل السخى والهمم البعيدة، ولو شئنا  
أن نستطرد فى تحليل ما بقى من شعر الزناتى لامتد القول دون  
انقطاع، ولكننا نجتزئ هنا بما يشير إلى موهبته، ولا نعلم إلى الآن إلى  
أى مدى تنفس به العمر، ومتى ودع دنياه؟ ولكن شعره يؤكد أنه  
تجاوز مرحلة الشباب إلى الشيب، حيث يقول من أبيات نختم بها هذا  
المقال:

ألا رحم الله الشباب فطالما      ركبت به فحل الهوى وهو مكرم  
فكم هتكت عذراء أستار هودج      لتنظر من هذا الفتى المتلثم  
ومحصنة ودت، على حب بعلمها      وقد أعجبنا متى، لوتؤم  
فأصبحت لا أرجو مودة عانس      وكانت قبيل الشيب باسمى تنعم

\*\*\*

## أَوَّلِيَّاتُ الشَّعْرِ الحَلَمَنَتِيشِي

ازدهر هذا النوع من الشعر ازدهارا خصبياً فى النصف الأول من هذا القرن، ثم خبا شعاعه بعد رحيل عميده المغفور له الأستاذ حسين شفيق المصرى دون أن يترك ولّى عهد يقوم على إمارة هذا الشعر، ونحن نعرف أن الأستاذ المصرى لم يكن وحده الكوكب الساطع فى هذا الأفق إذ كان يزاحمه الاستاذان الكبيران محمد المهياوى ومحمود بيرم التونسى مزاحمة النظراء، وما منها إلا له مقام معلوم فى هذا اللون الفقير، وكان هؤلاء الكبار تلاميذ ممتازون نذكر منهم محمد مصطفى حمام وطه حراز وعبد السلام شهاب ونقرأ من شعراء مجلة البعكوكة التى كان يقوم على رئاستها محمود عزت المفتى!! ولو جُمع المختار ممّا قال الأستاذ والتلاميذ لكان لنا عدة دواوين شعرية تصوّر جوانب هامة من الناحيتين السياسية والاجتماعية. لأن الشعر الحلمنتيشى ألصق بأهواء العاقّة من الشعر العربى المترف، وقد صاغه قائلوه ليرويه المثقف والأُمّى معاً، لهذا كان له تغلغل فى نفوس البسطاء ممن لا يستطيعون الارتقاء إلى أوج شكرى ومطران والعقاد، من كبار شعراء التجديد ومازال المعاصرون لنهضة هذا الشعر يروّون بعض ما راج منه وازدهر على صفحات مجلات الكشكول والسيف والفكاهة والمطرقة والاثنين والبعكوكة. بل لا يزالون يحنون إلى أن يظهر نابغة من طراز الأستاذ حسين شفيق مصرى ليعيد الكرة ثانية وما ذلك ببعيد.

## تسمية غربية

ولأدري كيف اشتهر هذا اللون من الشعر بهذه التسمية التي لا أعرف على وجه اليقين مأتاها، وإن كنا نعرف جميعا مدلولها، والذي أظنه ظناً لا يصل إلى الاطمئنان المستقر أن الأستاذ حسين شفيق المصرى قد نسب هذا الشعر إلى ندوة (الحلمية) نسبةً على غير قياس عربى. وقال إنها نسبة تجمع بين العربية والعامية معاً فى لفظ واحد، وهو ما يدل على مضمونه، وندوة الحلمية كانت مأوى الكبار من شعراء هذا العصر إذ كان يؤمها الأستاذ محمد الهراوى وهو عمدة الندوة بعد رحيل الشيخ محمد عبد المطلب أما حسن القاياتى فصاحب الجاه الكريم، إذ كان يسقى الرواد جميعهم على حسابه ومن بينهم حافظ إبراهيم وأحمد الزين وحسين شفيق المصرى وزكى مبارك ومحمد الأسمر، فى هذه الندوة كان الشيخ عبد المطلب يروى الشعر البدوى الجزل، ويرفض أن يروى السهل الهين من شعر العربية نفسها، على حين كان الأستاذ حسين شفيق المصرى على أصالته فى الشعر العربى يعابته بنظم هذا الشعر المطعم كما سقاه صديقنا المرحوم الدكتور كامل شاهين، وهى تسمية موفقة لم يقدر لها أن تذيع. وأخذ حسين شفيق المصرى ينقل ما يذيعه فى هذه الندوة إلى صحف الفكاهة.. تحت عنوان (الشعر الحلميتيشى) هذا ما أظنه بصدد هذه التسمية، ويحضرنى ما ذكره الأستاذ محمد الهراوى عن ندوة الحلمية فى رثاء صديقه واستاذه الشيخ محمد عبد المطلب حيث قال:

فليله بالحلميتين مجالس	تضم شتات الفضل والأدب العذ
وأنت تغنيننا حذاء كأننا	على النوق فى بطحاء مكة أو نجد
وتهتف بالأشعار من حضرة	إلى عهد فهر فى البداوة أوفهد

وتلقى علينا الشعر منك نعمة      تحذّر من عليا معة ومن أزد  
وحين رحل الأستاذ محمد الهراوى أشار الأستاذ أحمد الزين فى  
رثائه إلى ندوة الحلمية قائلاً:

كأنك اليوم بالحلمتين على      ما قد تعودت لا خلف ولا ملل  
نظّل بين وفود الزائرين بها      وفد يحلّ وفدٌ بعد يزحل  
تُصفى إخاءك من عفا ومن حفظوا      وتمنح الود من ضئوا ومن بذلوا

## أولى هذا الشعر

حين نريد أن نعرف البذور الأولى لهذا الشعر فى حقل الأدب،  
نجد أقوالاً غار فى تأكيدها. وأذكر أن أخى الأستاذ الكبير كمال  
النجمى وكان رئيساً لتحرير الهلال ذكر فى مقال له بعدد أغسطس  
سنة ١٩٦٦م. من مجلة الهلال تحت عنوان (الضحك فى الشعر  
الحلمتيش) ما يميل به إلى أن البذور الأولى لهذا الشعر قد نبتت  
فى العصر المملوكى والعثمانى، ولكنى أحب أن أرتفع بهذه البذور  
إلى الحقل العباسى فى عصر أبى نواس؛ ومعلوم أن عصور الجاهلية  
وصدر الإسلام وبنى أمية لم تكن ذات لغة عاقية تختلف عن  
الفصحى فى شأن، بل كلّها ذات لغة واحدة هى لغة الحديث  
والأدب معا فليس من المعقول أن يوجد الشعر المطعم فى حقل  
يشتمل على نبات واحد ولكن المعقول أن يبدأ التطعيم عند اختلاط  
الأسنة وجريان العربية على أسنة الأعاجم من فرس وذيئلم وهنود،  
وقد جرت العربية مختلطة بغيرها فى العصر العباسى الأول. وكُتِبَ  
الجاحظ وأضرابه حافلة بالأسماء الجديدة لمستحدثات الحضارة، وفى

مجال الشعر نجدُ البذور الأولى لهذا اللون من الأدب عند أبي نواس وشركائه .. من ذوى التبذل ، حين يُحاكون لغات الجوارى ، فى غزلياتهم الماجنة فيتظرفون بمحاكاة بعض الحروف ، حين تنقلب السنين (ثاء) والظاء ذالاً ، وهو تحريف مقصود ، يدخل العامية فى الفصحى دخولاً مُستَمَلحاً بين شعراء هذا المنحى . وللحسين بن الضحاك مشابهُ فى هذا المنحى ، أمّا الشاعر الماجن المعروف بالكندى المنجى فقد مرّ بدير (مارمعاوث) ووجد من مال إليه ، وعشق مُنادمته فأخذ يقلّد لهجته ، وينطق الطاووس بالثاء لا بالسين ، ويقول عن الناقوس «الناقوث» وسجل ذلك فى مقطوعاتٍ ذائعة .

والشعر المطعم على ضربين ضربٌ يقتصر فيه الشاعر على بعض الألفاظ العامية دون أن ينظر إلى أصل يحتذيه ، ونوعٌ يهدف فيه الشاعر إلى قصيدة فصيحة مشهورة فيأريها بقصيدةٍ مطعمة تختلط فيها العامية والفصحى ، وهو النوع الأعم الأغلب ، وسنختار لكلّ نوع منها ما يدلّ عليه ، واختيارُ قصيدةٍ لمباراتها لا يَغْنى شيئاً من مفهوم المعارضة ، إذ المعارضة الشعرية اصطلاحاً لا تكون إلا فى الشعر الفصيح أصلاً وفرعاً . أما المباراة فهى أقرب الألفاظ لما نُريد من مناظرة الشعر الأصل بالشعر الهجين .

## البهاء زهير

أفلح البهاء زهير حين جعل الفصحى من الطواعية واليسر ، بحيث تجذب كل قارئ إليها ، إذ جاء بضرب من السهل الممتنع ، يعبر عن أدق الخوارج فى سطوع وشفافية ، وهو بذلك قد ألقى الفوارق بين لغتين تقتربان حيناً وتبتعدان حيناً آخر . ولو وجد البهاء من يخلقه فى

أسلوبه التعبيري لوجد العامة في الشعر المصري ما يجذونه في الزجل العامي، لأن الجدار الناهض بين اللغتين قد ارتفع على يد البهاء ارتفاعا أزال الحدود، ومحا الحواجز، وأتى قارئه لا يفهم مثل قول البهاء :

وَنَظَّوْى مَا جَرَى مِنَّا	مِنَ الْيَوْمِ تَعَارَفْنَا
وَلَا قُلْنُم وَلَا قُلْنَا	وَلَا كَانْ وَلَا صَارَ
مِنَ الْمُتَبِّ فَبِالْحُسْنَى	وَأَنْ كَانْ وَلَا بَدَ
كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا	فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ
فَقَدْ ذُقْتُمْ وَقَدْ ذُقْنَا	كَفَى مَا كَانَ مِنْ هَجَرٍ
لِللَّوْذِ كَمَا كُنَّا	وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ

والذى نغنيه من حديثنا في هذا المجال، هو أن البهاء قد استأنس العامية فجرت على لسانه في مثل قوله (ولا كان ولا صار) (وإن كان ولا بد) وأعنى بعامية هذا اللون، جريانه على ألسنة العامة مع أنه عربى فصيح، وللبهاء نظائر شجع فيها الناظمين على افتتاح ما يدور على ألسنة العوام، نجد ذلك في مثل قوله :

إياك يذرى حديثا بيننا أحد فهم يقولون «للحيطان آذان»

وقوله :

كل ما يرضيك عنى «فعلنى عينى ورأسى»

وقوله :

حاشاك أن ترضى بأن أموت فى الحب «غلط»

وقوله:

وكانت بيننا طاق      فها نحن سدناها  
«سند كقولى والزمان طويل»

ف عبارات «للحيطان آذان» و(على عيني ورأسى) و(أموت فى الحب غلط) و(الزمان طويل) و(فها نحن سدناها) من ألفاظ العامة المشتهرة، ولأدلة عليها من قوله أيضا:

كلما قلت استرحنا      جاءنا الشيخ الإمام

والبهاء زهير بما قدم من أمثال هذه العبارات قد أسهم — دون قصد — فى تنمية الشعر المطعم، إذ قرب اتجاهها من اتجاه.

## ابن سودون المملوكى

وابن سودون مثل «آخر لمن تعمّد العاقية فى شعره، دون أن يقصد محاكاة قصيدة سابقة، وهذا الرجل الهازل الذى ألف كتاب (نزهة النفوس ومضحك العبوس). وحشاه بما يميل إلى الإسفاف كان فى نشأته الأولى طالب فقه وحديث وتفسير، ثم اختير إماماً لمسجد يخطب الناس ويعظهم، ولا أدرى كيف حاذ عن طريق الجدة الصارم إلى الهزل العابت فانقلب متطرفاً يضحك الناس ما استطاع، وقد اشتهرت له أبيات يقول فيها:

عجب عجب عجب عجب      بقرّتمشى ولها ذنب  
ولها فى بزيها لبن      يبدو للناس إذا حلبوا  
والنخل يرى فيه بلح      أيضاً وُرى فيه رطب

والمركبُ مع ما قد وسقت      فى البحر بجبل تنسحب  
والناقة لآمنقارها      والوزة ليس لها قتب

وقد أضحكت هذه الأبيات مجتمعها الذى قلت فيه . ومفوضُ  
المفارقة فيها أنّ الشاعر يتعجب من الشيء الطبيعى الذى جاء على  
أصله ، إذ كان العجب غير مستغرب مثلاً — مِنْ بقرٍ لا ذنب لها  
ولابن ، ومن نخل لا يثمر ، ومن مركب لا تسير فى البحر ، أما أن  
يتعجب الشاعر فى غير موضع العجب ، فلا أدرى أى براعة فيه إلا  
أن يكون الشاعر أخا حماة يُخاطب الحمقى ، وقد أسهم فى الشعر  
المهجن حين جاء بأشعار حشاها بالعاقبة ، ويظهر أنّ تأثيره قد امتدّ  
إلى ما بعد وفاته ، لأن الشيخ يوسف الشربيني وهو هازل آخر قد أشاد  
به فى كتابه ( هز القحوف ) وأشار إلى طريقته ، واختار له أبياتاً من  
الشعر المطعم تدل على أن لها نظائر نُسبت إلى ابن سودون ، ولم  
تصل إلينا بعد ، وما أختاره من شعره المطعم قوله من رثاء يبكى فيه  
والدته بكاءً هازلاً ، وأنا أفهم أن يكون الهزل فى الهجاء أو فى  
المداعبات الإخوانية أو فى الغزل عند أرباب السجون ، أما أن يكون  
الهزل فى الرثاء ، وفى رثاء الأم بالذات فهذا لا يقبل حتى فى مجتمع  
الذى يرفع حرمة الأم مهما عرفت السخف عن نجلها وكأنتى بابن سودان  
وقد نظم الرثاء ليعبر عن شعور حزين بل ليضحك من ينتظرون منه  
الإضحكاك فتم عن عاطفة بارة . وإذا كان الشاعر ممن يجيدون الشعر  
الفصيح ، فإن من الأحرى أن يرتفع بوالدته عن مستوى الإضحكاك  
ساعة الرحيل ، وقد قدم الناس للعزاء ، وفى ظنهم أن الهازل سيجد  
إذ وقعت الواقعة وأزفت الآزفة ، ولكن سار على غطه الهازل حين  
قال :



لموت أُمِّي أَرَى الْأَحْزَانَ تُغْنِينِي      فطالما لَحَسْتَنِي لَحْسَ تَحْنِينِ  
وطالما دَلَعْتَنِي عِنْدَ تَرْبِيَتِي      حَتَّى طَلَعْتَ كَمَا كَانَتْ تَرْبِيَتِي  
إِنْ قُلْتُ (نَعْمَ) تَجِيءُ بِالْأَكْلِ تُطْعَمُنِي      أَوْ قُلْتُ (أَنْبَى) تَجِيءُ بِالمَاءِ تُسْقِيَنِي

وهذا الضَرْبُ من الشعر، هو الشعر المهجَّن بعينه، وهو عند ابن  
سودون متواضع لا يرتفع إلى مستوى اللمحة البارقة، والروعة الآخذة،  
ونظلمه حين نطالبه بأن يشذ عن طبيعة عصره لأنَّ الشعر جميعه إذ  
ذاك عربيّه وهجيّة كان في مستوى يستدر الإشفاق فقيم الملام؟

أَمَّا الَّذِينَ قَصَدُوا والمحاكاة تقليداً واحتذاءً لقصيدة مشهورة  
فكثيرون، ولعلَّ أول من بدأ هذا الضرب من التقليد شاعرٌ يعرف  
(بصريع الدلاء) واسمه في أكثر الروايات محمد بن عبد الواحد. وهو  
معاصر لأبي العلاء المعري وقد حاز قبوله وقال عنه الشاعر الفيلسوف  
بيئاً لا يخلو من تعاطف وهو:

دُعِيتَ بِصَارِعِ فَنَدَارَكُنَّه      مبالغَةً قَرَدَ إِلَى صَرِيعِ.

وأبو العلاء لا يترك عبثه بقضايا النحو، ونرجو أن يكون صريع  
الدلاء قد فهم ما يقصده شيخُ المقرّة من انتشاله من الانحدار إلى  
الارتفاع. وقد كانت لِمَقْصُورَةِ ابن دُرَيْدِ العالم الشاعر الراوية شهرة  
مدوّية فتداولتها الألسنة لما حوت من روائع الحكمة، وغرائب الأمثال،  
ودارت حولها الشروح والمحاضرات، وقد نحا فيها ابنُ دريد مَنحَى زُهير  
في حِكْمَتِهِ، لولا أَنَّهُ أفرط وبالغ حتى قلب المَقْصُورَةَ إلى وعظ  
ناصح، والناس دائماً يلهجون بأبيات الحكم، ذات التجارب الدالة،  
فلا عجب أن اشتهرت المقصورة، وتحدث الناس بمثل هذه الأبيات،  
منها:

وعزّ عنهم جانباه واحتمى  
راح به الواعظ يوماً أو غدا  
كان العمى أولى به من الهدى  
إليه عين العزّ من حيث رنا  
وواحد كالألف إن أمر عني

من ظلم الناس تحاموا ظلمه  
من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما  
من لم تفده عبر أيامه  
من عارض الأطماع باليأس رنت  
والناس ألف منهم وكواحد

هذه الحكم العاقلة شاء صريع الدلاء أن يُحاكيها في مقصورة هزلية قال فيها :

يحملها بكفه إذا مشى  
فاستأله من ساعته عن العمى  
وصار صحن خده مثل الدجى  
أن يصفعوه فعليهم اعتدى  
طار من القدر إلى حيث يشا  
أطال ترديداً إلى بيت الخلا  
وسأل من مفرقه شبه الدما

من لم يُزد أن تنتقب نعاله  
من دخلت في عينه مسألة  
من أكل الفحم يُسوّ قمه  
من صقع الناس ولم يدعهم  
من طبخ الديك ولا يذبحه  
من شرب المُسهل في فصل الشتا  
من ناطح الكباش يفجر رأسه

ثم ختم القصيدة ببيت كربه يذم به مقصورة ابن دريد ، وكان  
أولى بما قاله صريع الدلاء أن يموت لساعته ولا يرويه أحد ، ولكن  
الناس يحفلون بالساقط الهابط ، كما يحفلون بالسامق المخلق ، فطارت  
لأبيات صريع الدلاء شهرة ، وترجم له المؤرخون مثل ابن خلكان وابن  
شاعر والتعاليى والذهبي وابن كثير والسيوطى ، وكلهم تحدث عن  
مقصورته الهزلية ، والعجيب أنّ له شعرا فصيحاً جاداً أرفع مستوى من  
شعره الهازل ، ولكن قُبِعَ في الصحائف المحقّقة لا يرويه أحد واحتشد

المرجون لمقصورته ، فطارت شهرتها طيرانا ، وهكذا نجد حسناء تختفى ،  
وشوهاة تنألق !

ومها يكن من شيء فقد كان صريع الدلاء أول من هجن الشعر  
القَصيح ، وإذا لم يستعمل اللفظ العامى فقد قَرَب منه حين أهمل  
بعض قواعد النحو، وحينَ أنحدر بمعابثه إلى مستوى سطحي قريب .  
ونغم حديثنا بشاعرٍ كبير، احتفل بالشعر المطعم عن أصالة ، وأفرط فيه  
إفراطاً لفت إليه الأنظار، وقد انفردَ بين شعراء جيله بهذا اللون  
الأدبى ، وأكاد أجزم أنَّ حسين شفيق المصرى وأضرابه من رواد  
الشعر الهجين فى هكذا العصر، قد تأثروا بعامر الأنبوطى حين قرءوا  
تاريخ الجبرتى ، وعرفوا اتجاه هذا الأديب المقتن ، فالأنبوطى ، من  
شعراء العهد العثمانى الأخير، وقد مات قبل الحملة الفرنسية بثلاث  
قرن، ولكنَّ الجبرتى ضمن له الذكر بما نشره من شعره فنبه الناس  
إلى فنّ طريف، لقد حاكى الأنبوطى قصائد مشتهرة فى عصره،  
فنقلها من غرض إلى غرض، ونكتفى بمثالين مما قاله معارضا  
الطفرائى، وابن الوردي، إذ لكلّ منها لامية رائعة .. حازت شهرة  
مدوية فسَمَت همة الأنبوطى إلى تقليدها، ويطول بنا القول لو  
استشهدنا بالأصل والفرع، ولكننا ننقل عن الطفرائى من قوله فى  
لامية العجم :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل	وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
فيم الإقامة بالزوراء لاسكنى	بها ، ولا ناقتى فيها ولا جلى
ناء عن الأهل صفر الكف منفرد	كالسيف عرى متناه عن الحلل
فلا صديق إليه مشتكى حزنى	ولا أنيس إليه منتهى جذلى
أريدُ بسطة كف أستعين بها	على قضاء حقوق للعُلا قبلى

ونقارن ذلك بقول الأنبوطى من قصيدة طويلة :

أنا جر الضأن تريباق من العِلل	وأصحن الرزّ فيها منتهى أملى
فيمّ الإقامة بالأرياف لا شعبي	فيها ولا نُزهتسى فيها ولا جذلى
ناء عن الأهل خالى الجوف منقبض	كمُعدم مات من جوع ومن فشل
فلا خليل بدفع الجوع يرحمنى	ولا كريم بلحم الضأن يسمح لى
أريدُ أكلاً سميناً أستعينُ به	على العبادات والمطلوب من عملى

فإذا تركنا الظغرائى إلى لامية ابن الوردى نجد بقول فى مطلعها :

أعترزل ذكر الأغانى والغزل	وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا	فلأيام الصبا نجم أفل
واهجر الخمرة إن كنت فتى	كيف يسعى فى جُنون من عقل
لا تقل أصلى وفصلى أبداً	دائماً أصلُ الفتى ما قد حصل

ونجد عامر الأنبوطى يقلدها فيبدأ بقولة من قصيدة :

اجتنب مطعموم عدس وبصل	فى عشاء فهو للعقل خبل
ودع البيسار لا تُغن به	تُمس فى صحة جسم من علل
واحتفل بالضأن إن كنت فتى	زاكى العقل ودغ عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت	مَضُغها يَنفى عن العين الرّغل

وبعد : فقد جعلتُ هذا المقال توطئةً لا بد منها للحديث عن الشاعر الأديب الفنان حسين شفيق المصرى ، لتعرف كيف جرى بهذا اللون إلى مدى فسيح فياح .

## نخلتا حلوان

للشعراء إلهام خفى يعرج بهم إلى ملكوت رفيع ، فهم يرون الكائنات الماثلة في صور حية متخيلة . وقد يقف الشاعر أمام رسم ماحل فيحاوره ويجادله ، ويجعل منه إنسانا يفصح عن شكاته ، ويبين عن طواياه ، وإذا كنا نحمد الكاتب الذى يصور مشاعره تصويرا صادقا فيعرض لقرائه ما يختلج في صدره من إحساس فى أسلوب مرسل طليق ، فنحن بلاشك نعجب بالشاعر الذى يتصور عواطف غيره فيفصح عنها إفصاحا مشرقا ، وقد يدقّ تصوره فيتغلغل فيها حوله تغلغلا عميقا ، فإذا مر بقصر سامق ، أو شاهد دوحة باسقة ، منحهما جانبا من الإحساس البشرى الدافق ، ثم يعبر عما يتخيله من شعورهما المزعوم فيجمع إلى خفة الشعر غرابة التشخيص وطرافة التفكير .

والحقيقة أن الشاعر يخلع إحساسه - فى أكثر مواقفه - على ما حوله ، فإذا كان مبتهج النفس ، منبسط الأسارير ، تصور ما أمامه من نبات أو حيوان كذلك ، فرسمه فى صورة مرحلة سارة ، أما إذا كان ملئ الفؤاد منقبض الصدر ، فإنه ينقل عن شعوره لوعة الأسى وبرم الانقباض ، وقد تهتف حماسة على فنن ناضر فيسمعها شاعر حزين فجعه البين فى أحبائه ، فيتصور هتافها نوحا مريرا ، وقد يسمعها شاعر مرح ممتع بأصفيائه ، فيتصور هتافها غناء ساحرا ينعش الأفئدة ويسرى عن النفوس .

وستحدث عن نخلتين عجيبتين بسقتا فى ناحية متواضعة بحلوان (فى آخر سواد العراق) ، وقد لبثتا حيناً من الدهر يمر بهما الناس فى الغدو والرواح ، فلا يسترعيا انتباه إنسان ، حتى نزل بهما مطيع بن

إياس الليثى ، وكان شاعرا متمكنا يسلك بقرضه فجاجا متشعبة ،  
فتحدث عنها حديثا جازت به الركاب ، وتناقله الرواة ، فتسامع به  
الوزراء والخلفاء ، وقد دارت الأيام على النخلتين فطوتها عن  
الوجود منذ ألف ومائتى عام ، وبقي حديثهما فى شعر مطيع معطرا  
بعبير الهناء !

لم يكن مطيع هداراً لجبا يجذب بروعته الأبصار.. كالإقيانوس  
الصاخب بل كان شعره ينحدر رقيقا عذبا كالغدير المترقق ، وذلك  
شأن من يقصر فنه الشعرى على الغزل الرقيق والطريف ، فلا يجيد  
عنها إلى المدح إلا فى ظروف، خاصة تفرضها المحابة ، وتقتضيها  
الطاعة فى عصر تطلع فيه الأمراء إلى المدح والإطراء . وكانت حياة  
اللهو والمرح قد غمرت مطيعاً بمباهجها الفاتنة ، فاصطحب الجلساء ،  
ونادم الظرفاء ، وتحفز إلى أسراب الكعاب يسارقهن البسمات ،  
وخالسهن الصبوات ، غير أن الدهر لم يفلته من كيدته ، فقد أوقعه فى  
غرام جارية فاتنة تحت يده ، فلكت عليه فؤاده ، وتخطفت أزمه  
رشاده ، ثم حزبه الخطب الملم ، فاضطر إلى بيعها اضطراراً ، وهام فى  
الآفاق على وجهه ، فقذفت به النوى إلى حلوان ، ثم برج به الشوق  
إلى حسنائه ، واشتعل الحنين فى أحشائه ، فنظر فيما حوله ذات اليمين  
وذاوات الشمال ، فرأى عن كئيب نخلتين متجاورتين ترتفعان فى الأفق  
إلى مدى شاق ، وقد هبت بها رياح منعشة ، فرنحت عطفها ،  
وحاولت أن تضمها ضمّاً ببرد الغلة وينقع الشوق ، فاشتبكت فروعهما  
السامقة فى أجواز الفضاء وقتاً غير قصير !

منظر عاطفى أخاذ ، عصف بالشاعر عصفاً عنيفاً ، فتذكر ملاعب  
الصبوات وعهود المسرات ، وحسد النبات على التئام شمله ، واكتمال

صفائه، وكأنه تصور للنخلتين آذانا تسمع، وعقلا يفهم، فأخذ يحدّثها عن تقلبات الدهر، وفتكات الأيام، ثم استشهد بنفسه على صحة ما ادعاه، فذكر جاريته الحسنة، وكيف كانت تذهب شجونه وتسرى همه، غير أن الزمان لا يبقى على أنس، فاستل روحه من يده، ووقف له بالمرصاد أنى سار، وهو لا بد سيقف للنخلتين موقفه منه فتبدلان وحشة بعد أنس، وثنائياً غب لقاء. وهكذا يتشامم تشاؤما يرفه عن خاطره، ويرد من لوعته، وفي النفوس من يلحقها الألم الممض فتشتعل من الغيظ اشتعالا، حتى إذا لحق بغيرها من الأشياء سرى عنها بعض الشيء وأخذت تعتبر وتتأسى بالمصاب الجديد. ولقد علل مطيع نفسه بما سيلحق النخلتين — قبل وقوعه — فبردت جوانحه، وطلق يصف شجونه المتحاربة، إذ يقول:

أسعدانى يا غلتي حلوان	وابكيالى من رب هذا الزمان
أسعدانى وأيقنا أن نحساً	سوف يأتكما فتفترقان
ولعمري الودقتما ألم الفر	قة أبكما الذى أبكاني
كم رمتنى صروف هذى الليالى	بفراق الأحباب والخلان
جارة لى بالرى تذهب همى	ويسرى دنوها أحزانى
وبرغمى أن أصبحت لاتراها	العين منى وأصبحت لاترانى

وإذن فقد رّج الشاعر عن نفسه، وأزال بوعيده المنكود، ونحسه الأشياء بعض ما يغاديه من الوسواس. وكأن النخلتين قد أصاختا لشعره فأسعدناه بما يريد، أو هكذا تخيل ذلك، فخف إلى بغداد بارد الصدر، وقابل صديقه حماداً فأسمعه ما قال فى النخلتين من الشعر، وعبر عن سروره مما تخيله من الإسعاد والعون. وتمضى الأيام فى سيرها الرتيب، فيجيا قوم بالرفاهية والأمن، وآخرون --- بسياط

ملتهبة، فنصهر الأفئدة، ونحرق الجلود، ومنهم حماد صاحب مطيع، فقد ثارت به عاصفة هوجاء كادت تطيح بجيائه، فتذكر شعر صاحبه، وخف إلى سدرتين مائلتين بقصر شيرين، وهو يظن كل الظن أنها ستسعدانه، وستمثلان دور النخلتين. وينظر حماد إلى السدرتين الشاخصتين فلا يحس براحة، فينقلب إلى منزله ساخطا ناقما، ويجمع بحروف حزينة تألف منها هذان البيتان:

جعل الله سدرتى قصر شير      ين فداء لنخلتى حلوان  
جئت مستسعداً فلم تسعدانى      ومطيع بكت له النخلتان

والواقع أن مطيعاً رغم تحامله على القرينتين الآمنتين، قد أسدى إليها يداً بيضاء، فقد نبه من خوفها المستكين، وذاع شعره فى الناس فأخلصها من أزميتين حادتين، فقد مرّ الخليفة الباطش أبو جعفر المنصور بالعقبة ذات يوم فوجدهما ترحان الطريق، وتعوقان القوافل المحتشدة عن السير بضع ساعات، فأمر باستئصالها فى غير هوادة؛ ولكن أبيات مطيع ترنّ فى أذنيه، ويتقدم إليه أحد أعوانه فيقول فى تضرع ذليل: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون النحس الأشأم الذى عناه مطيع فى قوله:

أسعدانى وأيقنا أن نحسا      سوف بأتيكما فتفترقان!

فيتراجع المنصور الجبار عن قصده، يخشى أن يزيل النخلتين فيتناقل الناس أنه النحس الأشأم. ثم يستعيد الأبيات فيثنى عليها فى لباقة ويهش لذكرى مطيع فيخصه بجانب من الاطراء، وذلك ظفر عظيم للنخلتين، وكسب هائل لشاعر مستكين.



وسيعجب القارىء حين يعلم أن خليفة جباراً كالمنصور يرتاح إلى ماجن خليع كمطيع.. مع أنه فوق سيرته الداعرة قد صاحب الخلفاء الأمويين، وغرق فى لجج من نواهم الجزيل، مما يهيج عليه أبا جعفر، بل يوجب أن يلتبس من جنونه العاثر مقتلاً يرديه، فيمحق نديم أعدائه ونجى خصومه، ولكن أتيح للشاعر فرصة مكنته من التزلف للمنصور، فاستل سخائم صدره، وبدد غياهب مقته، فقد اختفى الشاعر حقبة طويلة فى مطلع العهد العباسى، حتى إذا علم بما اعتزم عليه المنصور من مبايعة ولده المهدي بالخلافة، كشف عن نفسه اللثام، ودلف إلى الحفل الحاشدة فى جراً، ثم صاح فى الناس بأضخم صوت وأعلاه، فزعم أن بعض المحدثين روى أن رسول الله ﷺ قال: «المهدي منا محمد بن عبد الله، وأمه ليست عربية» والجمهور فى كل زمان ومكان كالأطفال يؤمن بالترهات ويدن بالأباطيل، فصفق للراوى الآفك، وصدق ماقاله بدون تمحيص. ولم يخف على أبى جعفر افتراء مطيع، ولكنه وجد لكلامه ثمرة نافعة، فغمره بعطفه وأمنه على نفسه، فقر القلب الواجف، ونام الطرف الساهد، وأنس الهائم الشرير.

ولقد مات أبو جعفر، وقام بالأمر من بعده ولده المهدي، وكان ذا شغف بالرحلات المتنوعة، فوصفت له حلوان، فأصدر أمره بالمسير إليها، فأخذت زينتها ولبست من التنميق حلة زاهية، وبالعالم والصناع فى زخرفة المكان زخرفة تليق بالزائر العظيم، ثم حانت ساعة القدوم، فحضر الخليفة فى ملأ من سماره وندمائه، وامتد بساط الأنس فصدحت المظاهر وعزفت القيان؛ وكان فى المغنيات جارية أدبية تدعى «حسنة» فجالت ببصرها فرأت عن كئيب غلختى حلوان،

وقد بقيتا على العهد متجاورتين متصافيتين فلما جاء دورها فى الغناء انطلقت تصدح بقول ابن أبى ربيعة:

أيا نخلتى وادى بوانة حبذا — إذا نام حراس النخيل — جناكما

ودار الخليفة ببصره فرأى نخلتى حلوان ، فعلم أن جاريته تعنيها من طرف خفى ، فأراد أن ينقص عليها صفاء الحفل فقال . لقد خطر لى أن أقطع النخلتين فإنها يزحمان الطريق ، فصاحت الجارية « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون النحس الأشأم الذى تنبأ به مطيع » . فتبسم فى عجب وقال لمغنيته الجميلة : أحسنت فى رأيك ، والله لا أقطعها ماحييت ، ولأوكلن بها من يتعهدهما بالسقيا والإنعاش ثم عين لها ساقيا مخلصا ، فما زال موكلها بها حتى مات أمير المؤمنين .. وانتهت الأزمة بسلام . ولكن أى شىء يبقى على الأيام ؟ . لقد عصف الدهر بأطواد شائخة رسخت أصولها فى باطن الأرض وناطحت قتها الجوزاء ، فهل يبقى على نخلتى حلوان ؟ لقد فاجأهما النحس المشؤم على يد الرشيد ، حيث هاج به الدم مرة فى حلوان فأشار عليه طبيبه أن يأكل جوار نخله فارعة ، فبحث أعوانه لدى الدهاقين فما تيسر لهم الدواء ، ففزعوا إلى إحدى النخلتين فقطعوها فى عجلة وأتوا بالدواء للرشيد . ومَرَّ الخليفة بالنخلة الباقية فى إحدى روحاته فتذكر أبيات مطيع ، ووقف فى مكانه واجبا ساهما ، كمن ارتكب محظوراً خطيراً لا يمكن تلافيه ، ثم قال فى حسرة كظيمة : عزيز على أن أكون النحس المفرق ، ولوددت أنى لم أذق الدواء ولو قتلنى الدم بحلوان .

وانها لمطيع!! لقد جعل الرشيد يتحسر على استئصال نخلة

واحدة، وكأن قتل - بدون جرم- إنسانا ينبض بالحركة، ويجيش بالحياة كما أتاح للنخلتين حديثا يروى مدى الأحقاب، وجعل منها مادة دسمة للشعراء، فنظم أحمد بن ابراهيم الكاتب فى رثائها أبياتا دامعة، وارتفع بها شاعر آخر إلى مرتبة عالية؛ فوازن بينها وبين عاذلين من بنى الإنسان، واتمس لها العذر فى رفق ملموس (١) فهل كان يدرى مطيع حين نظم أبياته أى قصة عجيبة مثل فيها الفصل الأول وختم الرشيد فصلها الأخير؟.

أجل لقد كتب الشاعر لنخلتيه تاريخا يطالعه القراء كما يطالعون ترجمة عظيم مثل دوره ثم لقى حتفه فترحم عليه الجميع.

ارحم الغصن لاتنله بسوء قد يحس النبات كالإنسان

\* \* \*

---

(١) يقول بعض الشعراء :

ودعائى من الملام دعائى  
منكا بالبكاء أن تسعدانى  
من مطيع بنخلتى حلوان  
من هواه وأنها تعلمان

أيا الماذلان لاتعدلانى  
وابكىالى فإننى مستحق  
إننى منكأ بذلك أولى  
فها تجهلان ماكان يشكو

# مصطفى كامل والجامعة المصرية

تابعت ما قيل وما نُشر عن احتفال جامعة القاهرة بعيدها الماسي ، فسرتني أن تُعرض هذه الصفحة الوطنية من تاريخ النهضة العلمية في مصر، كما فرحتُ بما لمسْتُ من إنصاف القائمين على تأسيس الجامعة من أمثال الأميرة المحسنة فاطمة إسماعيل تلك التي تبرعت بِحُلِيِّها الذهبية ، وبالمسافات الشاسعة في أرقى موضع من أماكن البلاد، لكن ينهض الصرح الجامعي في أعظم مكان، وكانت الاشادة بها في هذا العهد واجبا مفروضا تحثمه أخلاق العلم، ودافعا حافزا لهمم من لدينا الآن من كبار الأثرياء الذين يجمعون قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، ثم لا تَسْمَحُ أيديهم الكثرة بزادٍ قليل يُضَيء منارة العرفان كما سمحت الأميرة الكريمة بوابلٍ دافق صاب الأرض فأنتى أكله ضعفين فاستحقت أن يقول أمير الشعراء في رثائها :

يا جِرْعَ العلم على	(سكينة) الموقرة
من ذا يُواسي هذه	الجامعة المستعبرة
لو عشتِ شدي مثلها	للمرأة المحررة
قرنت كل حجر	في أسها بجوهره
مفخرة لبيتكم	كم قبلها من مفخرة

لكنّ إنصاف هذه الأميرة قد قابله إجحافٌ بجهد الزعيم الوطني الكبير مصطفى كامل ، حيث كان الرائد الحقيقي للجامعة المصرية

حين صدع بالدعوة إلى إنشائها قبل أن يفكر الرسميون فى إيجادها .  
ولا أنكر أن اسمه الكريم ترد مرة واحدة على لسان إنسان عظيم ،  
ولكن أنكر أن يغلف الصمت السنة وأقلاماً خاضت فى تاريخ  
الجامعة وتعدت مصطفى كامل فلم تذكر فضله الأثير فى صفحات  
من المجلات والجرائد امتلأت بالغث والسمن ، وكان من حق التاريخ  
أن يشاد بفضل الزعيم الشاب وأن ندون مآثره فى سبيل الجامعة ، وأن  
تشرق الصحف بنور وجهه جزاءً وفاقاً لبطل جاد بنفسه فى سبيل  
مصر ، والوجود بالنفس أقصى ما يستطيع بطل أن يفعل حتى لقد صدق  
فيه قول شوقى :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها هذا نرى مصر فنم بأمان

## بن محمد عبده ومصطفى كامل

إذا افترقت مناحى الجهاد بين الرجلين العظيمين .. فى أكثر من  
موقف ، فقد إلتقت فى الناحية التعليمية حيث ذهب المصلحان إلى  
أن تربية الشباب تربية علمية هى أقوى مراحل الاستقلال الحقيقى  
قدعا كلاهما إلى إنشاء المدارس الحرة بعيدة عن سطوة المستشار  
الانجليزى فى وزارة المعارف ، ولم يترك مصطفى كامل مناسبة تحين  
دون أن يكتب ، وأن يخطب منادياً بتأسيس المدارس من علمية وفنية  
حتى لبي دعوة نفر من كرام الأثرياء ، وقد انتهر الفرصة حين تبرع  
حسين القرشوللى بإنشاء مدرسة الحلمية سنة « ١٨٩٩ » فحضر حفل  
افتتاح المدرسة ليلقى خطبة رنانة فى تمجيد هذا العمل الكبير ، وأخذ

يعرض تاريخ المدارس من عهد محمد على، ويبين أثر النهضة العلمية حينئذ في قوة البلاد السياسية، وبأسف على ما قام عباس الأول من تعطيل مدارس الوطن، جهلاً بدورها الحساس، داعياً الأغنياء إلى استدراك ما فات بالافتداءِ بُمنشئ هذه المدرسة فاستجاب له نفرٌ من كرام المواطنين، وأنشأوا بباب الشعرية مدرسةً مماثلةً رأوا أن تُسمى المدرسة باسم مصطفى كامل، وبعد ثلاثة أشهر من افتتاحها تركوا رعايتها إلى الزعيم الشاب، فلم يشأ أن يتخلى عن مسئولية تُضاف إلى أعبائه الكثيرة، ونشر في جريدة المؤيد مقالا يقول فيه:

«إني أعلم أن حِمل المدرسة ثَقيل، وأتعبها كثيرة، ونفقاتها طائلة، ولكني قبلت القيام عليها بكل ارتياح أملأ منى في خدمة الوطن العزيز وترقية لمدارك الناشئين ثم اتجه الزعيم وجهةً صريحة حين أعلن أن مدارس أوروبا تهتم اهتماماً بارزاً بالدين المسيحي، ولذلك فإنَّ مهمته الأولى لأنَّ ينهض بالدين الإسلامي في هذه المدارس لترقية العاطفة الدينية.. عند التلاميذ، كما يجب النهوض باللغة العربية، وتقديماً عن كل لغة، ولا بدَّ من نفع أبناء الفقراء بأن يكون ثلث القلاب منهم يتعلمون بالجمان، وقد هتف حافظ ابراهيم بجهود مصطفى التعليمية وألقى قصيدةً في الاحتفال العلمى بنهضة مدرسة الزعيم قال فيها:

فيا أيها الناشئون اعملوا	على خير مصرَ وكونوا يدا
ستُظهر منكم ذوات الغيوب	رجالاً تكون لمصر الفدا
لك الله يا مصطفى من فتى	كثير الأبدى كثير العدا
سهنف باسمك أبناؤنا	إذا آن للزرع أن يُحصدا

وكان من الطبيعي أن يُفكر مصطفى كامل فى التعليم العالى، بعد أن رأى جهوده فى إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية تُؤتى ثمارها، وهو يعلم أن الاحتلال سيُحارب إنشاء هذه الجامعة، لأنه يريد موظفين من حملة الابتدائية والكفاءة لشغل المرافق الحيوية فى الإدارات والمصالح فحسب، ولا يريد جامعة تعود الطالب المصرى على استقلال الفكر وتلهمه مبادئ الحرية والفرقة والاستقلال، وتوقفه على التجارب العلمية فى المعامل ليغدو مُسلحاً بذخيرة العصر. لا يريد الاحتلال هذه اليقظة الفكرية لأبناء مصر، ولكن زعيم الشباب يرى حيوية الجامعة وضرورتها المحتومة لمن يريدون الجلاء التام، والاستقلال الحرّ فارتفع صوته فى ٢٦/١٠/١٩٠٤ منادياً بالتبرع لإنشاء الجامعة. ثم اهتبل ساحة الاحتفال بالذكرى المثوية لمحمد على باشا فدعا إلى إنشاء كلية محمد على، ولفظ الكلية مطلب متواضع تحتمه الظروف المحدودة لواقع البلاد، إذ كان يرجو أن تكون الكلية نواة لأخوات لها تتبعها واحدة واحدة، وهذا ما كان من بعد - حين بدأت الجامعة بكلية الآداب، لتضم إليها المدارس العالية الأخرى تحت أساء جديدة تُشارك فى نهوض البناء الجامعى، وقسح المجال فى جريدة اللواء لمناقشة المشروع، وقد أبدته الكبار من أحرار الرجال، ونهض الموسرون للتبرع فجمعوا ثمانية آلاف من الجنيهات. وهذا المبلغ فى أول القرن كاف لبناء قصر عظيم، ولكن دسائس الاحتلال قد نصبت حبالها للعاملين، فوقف مشروع الاكتتاب فجأة، وأخذ الزعيم يحثّ الهمم دون يأس، وفى هذه الأثناء وقعت (حادثة دنشواى). وانصرف مصطفى كامل للتنديد عالمياً بمأساة هذه القرية كشاهد فظيع على مساوئ الاحتلال، وبذل من الجهد الجبار ما كان له

مُوضَع الزلزال فى مقاعد الاحتلال ، حتى سقط كرومر، ورأت انجلترا  
أن تُبدل سياستها باستدعائه غير مأسوف عليه، وأجمعت البلاد على  
تكريم مصطفى كامل لما بذله، من جهد جبّار، حتى أسقط الطاغية  
المتجبر، وتدافعت التبرعات الغريزة لاقامة حفلة تكريم له على نحو  
مثالى يُصَبِّح حديث الناس، وتواترت الأنباء إلى مصطفى وهو فى  
باريس فرأى أن تتوفر الجهود الواسعة لالتكريمه بل لانشاء الجامعة،  
بحيث تكون التبرعات الجديدة مضافةً إلى التبرعات السابقة فتكون  
منها ما ينهض انشاء الجامعة التى هى مطرح آماله ومنطلق أمانيه،  
لذلك كتبَ إلى زميله الزعيم المجاهد محمد فريد بك خطاباً مؤثراً  
بتاريخ ١٩٠٦/٩/٢٤ يقول فيه بعد المقدمة:

«ما شعرتُ لحظةً واحدةً فى حياتى بأننى مستحقٌ لشيءٍ من  
الألتفاف أو الشكر لدِفاعى عن حقوق مصر ومطالبتى باستقلالها،  
لأننى أقوم بغرض مقدس وما خطوتُ إلى اليوم الخطوة الأولى فى  
سبيل إسعاد مصر التى امتلأت رحابها بعظام الأباء والأجداد، وأتى  
فضلٍ لى، وأصغر جندى فى الجيوش يُلقى علينا أكبر درس وأسمى  
عظة، لأنه الحامل الراية الوطنية المدافع عن شرف مجده، فإذا كانَ  
هذا شأن كل فردٍ من أفراد الجيش، فكم تكون واجباتنا نحن نحو  
الوطن عظيمة جسيمة» إلى أن قال رحمه الله من خطابه الطويل :

وخيرُ هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والامة المصرية  
المحبوبة، هى أن تقومَ اللجنة التى سُكلت بدعوة الأمة كلها، وطرق  
باب كل مصرى لتأسيس (كلية) أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء  
على السواء ونهيهىء للأمة الرجال الأشداء الذين يكثرُونَ فى عداد



خدامها المخلصين ممن لا يخافون في الحق لوما ولا اعتبارا. هذه هي الهدية الوحيدة التي يليق بالمواطنين الصادقين أهداؤها لمصر، وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور رءوساً لو تحلّت بالعرفان لكانت فخر مصر على وجه الزمان. إن الكلية الجامعة هي البناء الذي أدعوا المصريين جميعاً إلى تشييده. وما أكبر سعدى لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه.»

## العمل الحاسم

وقد قوبل خطاب مصطفى كامل بحماس متدفق، وأخذ الناس يفكرون جدياً في ضرورة إنشاء الجامعة، لأن الخلاص من الاحتلال لن يتم بدون رءوس مفكرة تحارب سلاح العلم والمعرفة، وكانت مأساة دنشواي أكبر حافز على التفكير في إنشاء الجامعة، فتألفت لجنة لتأسيسها، واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له الزعيم سعد زغلول، وكان مستشاراً بحكمة الاستئناف، وتبرع مصطفى بك الغمراوي بمبلغ كان النواة لما تلاه، وكان سعد وقاسم أمين هما الرأس المفكر للمشروع. ثم عُين سعد وزيراً، فقام قاسم أمين مقامه في الدعوة إلى المشروع حتى خرج من ضيق الخيال إلى فضاء التنفيذ.

لم يستطع الزعيم سعد في منصبه الرسمي أن يعمل على إتمام المشروع لأن المستشار الإنجليزي يثاوته ويضع في وجهه العراقيل، ومن وجهة نظر سعد أن يحد في إصلاح المدارس، وهي حقيقة واقعة، ليرتك أضدقاؤه في حرّيتهم المطلقة يواصلون جهدهم في تأسيس

الجامعة. وهذا ما اعترض عليه مصطفى كامل حين وجه نقداً صريحاً إلى وزير المعارف يتعجب فيه كيف يتحمس لتأسيس الجامعة وهو مستشار في محكمة الاستئناف. ثم يترك حماسه فجأة بعد أن يصبح وزيراً للمعارف وهو بمنصبه الجديد أشد قرابةً وأمثه آصرةً بالدعوة إلى إصلاح التعليم، وهو عجبٌ له ما يبرره، لو كان سعد وزيراً في حكومة حرة مستقلة. ولكنه في رأيي ينقذ اليوم ما يستطيع إنقاذه، ويترك لأبناء الغد أن يستكملوا المسير على أنه بذل جهده قدر المستطاع كما سيلي.

وَأعجب ما يدهشني من ذوى الانصاف والإصالة أن يغمطوا جهود ذوى العمل الجاد، والحمية المخلصة. وقد وضع هذا الغمط المححف فيما كتبه بعض المؤرخين عن نشأة الجامعة إذ تجاهلوا الحديث عن جهود الزعيم الشاب مصطفى كامل تجاهلاً تاماً، بحيث أُلْمُوا بكل صغيرة وكبيرة في دور التكوين، وتركوا من رفع الراية، وناذى بالبدء، وجمع التبرعات، وشجع المكتتبين، وأنا أعهد في الدكتور محمد حسين هيكل إنصافاً وحيدة أكثر فأكثر، ولكنى أراه من وجهة نظري - في ما يكتبه عن مصطفى كامل وسعد زغلول معاً يسلك سبيلاً أعذره في الاتجاه إليه، لأن الكاتب بحكم بيئته وثقافته واتجاهه الغربي يُصدر عن وجهة نظر تجد المعارض، وإن لم تعدم المؤيد، وقد ألمّ بحديث انشاء الجامعة في الجزء الأول من مذكراته السياسية، فقال في حديثه عن وزارة مصطفى فهمي التي سلخت من عمرها ثلاثة عشر عاماً خاضعةً لمشية الاحتلال وجده: «إن الطبيعة المستنيرة بدأت تملّ هذه الحالة من الركود، وجعلت تدعو إلى إصلاح جوهرى، رأت القيام به ضرورةً به للارتفاع بالمستوى القومى

إلى حيث تُكَاتِفُ البلادُ غَيْرَهَا من الأمم المتحضرة، كان قاسم أمين قد دعا إلى إنشاء جامعة مصرية أهلية، إيماناً بأن التعليم العالى الصحيح هو الوسيلة الأولى والأخيرة لرفقِ الأمة، وكانَ على يوسف قد دعا إلى أن يكون التعليم بمراحله المختلفة باللغة العربية، وكانَ تعبيره الذى تناقله الناس هو أنَّ تعليم العلم بلغة أجنبيَّة ينقلُ العلم إلى طائفةٍ من الأمة، وأنَّ تعليم العلم بلغة الأمة ينقلُ الأمة كلها للعلم، وينقل العلم إلى الأمة كلها».. وكانَ أول وزير رَحِبَ المصريون بدخوله الوزارة سعد باشا زغلول، إذ كان مستشاراً فى الاستئناف وكانَ صديقاً حميماً لقاسم أمين بك، وكانَ قاسم قد اختارَه رئيساً للهيئة التى تألفت لإنشاء الجامعة المصرية الأهلية، وكانَ لورد كرومر يرى فى إنشاء هذه الجامعة مالا يتفق مع سياسته.. فى أن الغرض من التعليم فى مصر هو تخرج موظفين للحكومة، لكنه لم يستطع التصريح بهذه المعارضة من غير أن يجد مسوّعاً لتحويل التيار إلى ناحيةٍ قوميةٍ أخرى، لذلك بدأت أبواقه تذيع أنَّ نشر التعليم الأولى بن طبقات الشعب أجدى على البلاد من إنشاء الجامعة وأخذتِ الحكومة تشجّع إنشاء المكاتب، فلما عُيِّن سعد زغلول وزيراً للمعارف. فقبِلَ أن الغرض من تعيينه أن يترك رئاسة مجلس الجامعة اضعافاً لهذا المشروع «ص ٢٢ ج ١».

وهذا الكلام قد ظلم مصطفى كامل حين أغفل أقلَّ إشارة إلى جهده، وقد واصلَ الدعوة إلى إنشاء الجامعة ثلاث سنين دأباً، كما ظلم سعد زغلول حين جعله فى مظهر من يُحارب إنشاء الجامعة، وإنَّ جعل الكاتب ذلك بصيغة التمرىض وهى (قيل) فهو أخف لهجة من الاستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى رحمه الله، إذ جزم بهذا الأمر جزمًا

كان مدعاة العجب حين ذكر في ص ٤٠١ من كتابه عن مصطفى كامل قوله عن سعد زغلول :

« وقد تبين أن انسحابه من رئاسة اللجنة (لجنة انشاء الجامعة) ، كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال لكى يهبط المشروع ، وقد أصابه الركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة وبخاصة لأن الحكومة خلقت فى هذا الحين بإيعاز من الاحتلال حركة إنشاء الكتائب فاستحث الأعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها معارضاً بذلك مشروع الجامعة » .

### ردّ حضيف

وإذا كَانَ الواقع الصريح يُنصف مصطفى كامل ممّن أهملوا جهاده الحاث فى سبيل إنشاء الجامعة ، فإن سعد زغلول وقئد تبتى الدعوة إلى إنشاء الجامعة وترأس لجنة التبرعات قدّ وجد من يُنصفه فى قلم مؤرخه الكاتب الكبير الأستاذ العقاد حيث قال ردّاً على ما قاله الاستاذ/ عبد الرحمن الرافعى فى مقال جيد نشره بمجلة الرسالة ١٩٣٩/٢/٢٠ م .

« أما الحقيقة فهى أن الحكومة تبرعت بالمال واعترفت بشهاداتها ، شهادة الجامعة — كما تعترف بشهادات المدارس الأميرية ، وسألنا سعد فى ذلك فقال فى بيان نشرناه فى كتابنا عنه : « كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون فى أنحاء القطر المصرى بأجمعه ، وليس هذا كلّ ما أمّدت به الحكومة هذه الجامعة ، فإنّ اعتبارها مدرسة منتظمة ، وقبول شهاداتها بين بقية الشهادات المدرسية

يُنشِط الناسَ في الاقبال عليها إقبالاً لا تنظر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا تنسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة إعانة المشروع مادياً ، فرفضهم الآن إشرافها عليه ، بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها عن الغرابة بمكان» .

هذا بعض ما يقال عن الجهود المباركة في إنشاء الجامعة ، وقد أردنا بهذا المقال أن نُنصف جهد الزعيم مصطفى كامل في تأسيس الجامعة ، فاطرّد الحديث إلى إنصاف زعيم ممثلي هو سعد زغلول . ولكل منها مكانه المرموق ، وجهده المشكور .

وإذا كان تاريخ الجامعة في مدى خمسة وسبعين عاماً في حاجة إلى كتاب علمي موثق لا يكتفي باللقطات الصحفية والصور الرسمية ، فإنّ على من يتصدرون لتأليف هذا الكتاب أن يرصدوا كلّ خطوة من خطوات البناء الأساسي ، وهم حينئذ لا يغفلون جهد مصطفى كامل ، ولا يحفون بسعد زغلول .



# أديبة فرنسية تناصر تقاليد الشرق

## « مدام دي سان بوا »

نذكر كثيراً من كاتبات الغرب، ونَبَاهِي بَيْنَ إِذْ رُزِنَ مِصرُ أَوِ العراقِ أَوِ المغربِ، وَكَتَبْنَ بَعْضُ المَلاحِظَاتِ المِسمُوعَةِ عَنِ المِراةِ الشَّرِقيَّةِ، وَإِنْ شَتَّ قَظْلٌ عَنِ المِراةِ المِسلِمةِ، وَلِيسَ المِهمُّ لَدِينَا أَنْ يَكْتَبْنَ الزُّورَ وَالإفْكَ عَنِ عَالَمٍ لَمْ يَعْرِفْنَهُ، فَهَذَا مَا تَتَقَبَّلُهُ بِالتَّرحِيبِ وَالإبتِهاجِ، جَرِيّاً عَلَى سَنَنِ مَنْ قَال:

لئن ساءنى أن نلتينى بمساءٍ      لقد سرنى آتى خطرت ببالك

ولذلك نُكثِرُ مِنَ الحديثِ عَنَّهُنَّ، وَنَظْهَرُ الصَّحْفَ وَالْمِجَلَّاتِ حَافِلَةً بِأَخْبَارِهِنَّ، وَصُورِهِنَّ، وَمَآدِبِهِنَّ وَأَحَادِثِهِنَّ، حَتَّى يَنْقَضِيَ المَوْسِمُ وَتَعُودَ الزَّائِرَةُ مودَعَةً بِأَسْمَى مَظَاهِرِ الإحتفَاءِ، وَكَأَنَّ زيارَتِها كَانَتْ وَساماً يَلْمَعُ عَلَى صَدْرِ، أَوْ أَكْليلاً يُضِيءُ فَوْقَ جَبِينِ!

ولكن! نَرى فِي الجِهةِ المِقابِلَةِ، أَدِيبَةً كَبِيرَةً، ذاتَ إِلهامٍ جاذِبٍ فِي آفاقِ الشَّعْرِ والرَّسْمِ والأدبِ، تَقْدُ إِلى مِصرٍ مُعْجَبَةٍ بِروحِ الشَّرقِ، فَتُنشِئُ مُجَلَّةً رَاقِيَةً تُشِيدُ بِعَظَمَةِ المِراةِ العَرَبِيَّةِ، وَتَفْتَحُ مَنزِلَها الرَّحْبَ لاسْتِقبالِ الزَّائِرِينَ والزَّائِرَاتِ مِنْ بَنى جِنسِها، لَتُظْلِعَهُمْ عَلَى ما يَجهَلُونَ مِنَ شِيعِ العَرَبِ، وَتَقالِيدِ المِسلِمينَ، ثُمَّ لا يَنْقَضِي يَوْمٌ مِنْ أَيامِها الحَافِلَةِ دُونَ أَنْ تَشْغَلَ بِقَصِيدَةٍ عامِرَةٍ، أَوْ لُوحَةٍ مِصوَّرةٍ، أَوْ تَاريخٍ صَادِقٍ، أَوْ

تحليل اجتماعي لبعض الظواهر التي تجذب الانتباه، وهي تصدر  
 المجلة على نفقتها، وتستقبل الزائرين بأزيجيتها ونواصي الراجين بماها،  
 ثم تنقضي الأعوام، وترحل إلى ديارها فلا تجد من يذكر جهادها  
 الحافل، ومآثرها البيض! لأن مجلتها كانت عربيّة الروح، فرنسيّة  
 الحروف، ولو كتبت بحروف عربيّة لظنها القاريء صادرة عن جمعية  
 إسلاميّة، أو كليّة أزهريّة! وهذا وحده هو الذي جعل ذكرها منديراً،  
 وتاريخها مهملأ،! أقلو كانت مجلتها تسبر على التقيض المعارض! أن  
 أفيمحوا النسيان أثرها لدى النقاد في الشرق والغرب!؟ إننا حينئذ نؤخذ  
 بدوي الرد، وقزح الطبول!

## حفيدة لامارتين

لم يكن لامارتين من شعراء فرنسا فحسب، بل كان من شعراء  
 العالم، لأنه رزق من رهافة الحس وقوة الشعور ما استطاع به أن يرسم  
 الطبيعة في لوحات شعرية لا توجد عند سواه، كما تغلغل بهذا الحس  
 المزهف إلى أدق الخلجات المستترة في أعماق الأعماق ليجعلها سافرة  
 الملامح وضيئة القسمات، وقد فتن بالشرق، وهام بربوعه فانطلق عدة  
 مرات إلى لبنان وسوريا، ونزل في ضيافة الأمير اللبناني بشير مكرم  
 مبعلاً، وأقطعته السلطان عبد المجيد أرضاً بالأناضول، وقد اعترف بأنه  
 من أصل عربي إذ أن أجداده من عرب الأندلس.. الذين نزلوا  
 جنوب فرنسا، وأقاموا بها، ثم اختلطوا فيما بعد بمن جاءوا من أسرى  
 العرب في الحروب الصليبية، فبنوا لآل مارتين قصرأ على الطراز  
 العربي، وكل ذلك عرفته حفيدته (مدام دي سان بوا) التي عشقت  
 الشرق، وفنتت بتقاليد العرب، وقد هبطت إلى شتى الربوع العربيّة

زائرة متطلعة، وهامت بآثار القرب فى الأندلس، فرسمت مشاهدتها  
 فى لوحاتها، وترجئت عن عواطفها الصادقة فى شعرها، ثم رأت أن  
 تستقر بمصر، لأنها فى رأيها أولُ قطرٍ يمثل الروح العربية المتوثبة،  
 واتخذت من حلوان مقراً دائماً حيث نزلت فى قصر محمد بك أنسى  
 بشارع سيد أحمد باشا، وجعلت منه سفارةً أدبية للتعارف الأخرى بين  
 مثقفى فرنسا، وأدباء مصر، وقد نزل ضيفاً عليها الدكتور (مارد  
 ريس) المستشرق الفرنسى الذى نقل (ألف ليلة وليلة) إلى  
 الفرنسية.. فقرأ فصولاً كثيرةً من ترجمته عليها، واستمع إلى ملاحظاتها  
 فى إعجابها، وهى بعدُ زوجة وزير مرموق من أشهر وزراء فرنسا  
 وأثريائها، وقد أتيج لها من الثروة ما أقدمت به على إصدار مجلة  
 شهرية فى مصر تُسمى (فينكس) لتكون دفاعاً مخلصاً عن حقوق  
 الشرق المهضوم، ومجاهةً سافرةً للاستعمارين الانجليزى والفرنسى،  
 اللذين كانا يحتلان ربع الشرق العربى فى عُدوان لا مبرر له، ولولا  
 تدهور الحالة الاقتصادية بفرنسا، الذى ضاءت من محصولها المادى  
 هناك، لاستمرت المجلة فى تأدية رسالتها، وقد عطفّت على كثير من  
 أدباء مصر.. الذى ينظمون الشعر بالفرنسية ويكتبون القصّة كذلك،  
 فقدّمهم إلى دور النشر الفرنسيّة، ومن أظهر هؤلاء الشاعر فولاذ يكن  
 نخل الشاعر الكبير ولّى الدين يكن، حيث زكّته لدى القائمين على  
 النشر بباريس، فنشر ديوانه (أغاريد شاب شرقى)، وكتبت عنه  
 الصحف المتخصصة مشجعة، وقال عنه الكاتب الفرنسى (بول ريبو)  
 إنّه نظير بيرون، كما نشر فولاذ بوساطة (مدام دى سان بوا) كتاباً عن  
 (سعد زغلول والد الشعب).. حين انتقل الزعيم إلى جوار ربه سنة  
 ١٩٢٧، وكلّ ذلك يتضاءل جوار كلماتها القوية عن المرأة المسلمة،



وموازاتها الناقدة بينها وبين المرأة الغربية، التي اندفعت إلى التيار الصاخب، حيث حملها الموج الهادر بعيداً عن الاستقرار العائلي، وتوشك.. المرأة المصرية أن تفعل ذلك!! هذا ما قالته الكاتبة سنة ١٩٢٧ وكرّره على مدى أعوام، حيث سجّلت آخر صيحاتها الناقدة بمجلة المعرفة سنة ١٩٣٣، أما أنّ المرأة المصرية توشك أن تفعل ذلك، فما أسرع ما فعلت، بل ما أكثر ما باهت بما فعلت، ولعلّ القارئ في شوق إلى بعض آراء هذه الكاتبة ذاتِ النظر الإنساني البعيد.

## بين الشعر والنثر

تفرّق جيّداً (مدام دي سان بوا) بين اتجاهيها الأدبيين، نثراً وشعراً، فهي في قصائد الشعر تميل إلى الرّمزية الغامضة، وتُغلّف أفكارها بضباب يحجب كثيراً من المعاني، وقد ذكّر ناقِدوها أنّ هذا الغموض وليدُ اتجاه صوّفى يجعلُ الرّمز دليلاً يُوَمِّىء إلى ما يتعذّر كشفه من الأفكار البعيدة، لذلك لم يَجِدْ ديوانها الشعريّ ذبوعاً على المستوى العام، إذ اقتصر تداوله على مجموعة خاصة، ترى أنّ الشعر لا يُسرّ عن وجهه، بل يُومضُ معانيه بين الآونة والآونة، كما يلتصق البرق الخاطف وسط غيم متكاثف، والشعر في هذا الاتجاه ينقلبُ إلى أحجية، ومعلومٌ أنّنا نقرأ الشعر لنستمتع، لالنفكّ الألغاز، ونستوضح الأحاجي! أما أسلوبُها الكتابي فقد آثر الوضوح الساطع، لأنّها في مقالاتها الصحفية كانت مُصلحةً هادية، ومناقشةً بارعة، ولن تبرزَ وجهاتُ الإصلاح اجتماعياً وسياسياً إلا في ضوء المنطق الصريح،

والحجة الكاشفة، فدام دى سان بوا، تتحدث مثلاً عن حرّية المرأة فى الإسلام فتجابه الموضوع فى لبابه الصريح، إذ تبدأ بتحليل المراد من كلمة (الحرية) التى خدعت الأبصار بلفظها المعسول، حتى إذا ذهب الخداع فى ضوء التمهيص الهادف، رأينا الكلمة الخادعة قد فقدت مدلولها، إذ انتبشت كلمة الحرية فى الغرب ليرتكب تحت ستارها أبشع المظالم المروعة.. وأفدح الأخطاء المهولة ماتقشعر له الأبدان، والغرب هو الذى نقلَ هذا الزيف الخادع إلى الشرق، فانطلقَ الأغراؤ من بنيه يحاربونَ تقاليده الأصيلة باسم هذه الحرية، وكانت النتيجة أن اندفعت المرأة المسلمة إلى محاكاة الأزياء الخليعة فى الملابس، والمبالغة فى ارتياد أماكن اللهو. وإقامة موائد الإسراف الذى لا يخلو من تبدل، مع أنّ المرأة الفرنسية الصميّة لا تذهب إلى هذه الأماكن إلّا فى مناسبات محدودة، تذهب مع أسرتها للترويح، لا للهو العابث وإثارة البطالات!

تقول الكاتبة الفرنسيّة : إنّ مسألة السفور ليست بذات قيمة فى نفسها، أمّا الشىء الأكثر أهمية فهو رُوح التعليم التى تأمرُ بارتداء الملابس المحتشمة، وتلك هى النقطة الجوهرية، فقد تكون هيئة المرأة. ومشيئتها الخليعة، ونظرائها المثيرة، أكثر أهمية من الملابس المثيرة. وهذا ما يشاهد كثيراً.

لقد افتتنت المرأة المسلمة بمظهر الحرية الكاذب، ولو حاولت أن تفكر جدياً، لعلمت أنها تملك قسطاً وافراً من الكرامة لم تبلغه المرأة الغربية، فهى بفضل تعاليم الإسلام أصبحت بعيدة عن متاعب الحياة ومقاصد الرجل العابث!

يقولون إن المرأة الغربية لها الحرية الخالصة في اختيار زوجها، وهذا أمرٌ يحتاج إلى وقفة متأقمة، لأن هذه الحرية في الغرب لا تقع إلا في النادر! إذ أن أمر الزواج في العائلات الأوروبية تحكمه العلاقات الأسرية، والثروة المادية، والمركز الاجتماعي، وفي ضوء ذلك يتم الاختيار، وإذن فالغربية محكومة بالأوضاع الملزمة في اختيار الزوج! وما يتم عقده سريعاً في غفلة الأسرة لا ينتهي إلى سعادة، بل ينتهي إلى تأزم مثير، لأن الزواج في المسيحية رابطة مقدسة، والطلاق متعسر! فكيف يتم الهناء مع الشقاق؟

أما تعدد الزوجات فليس الأصل في الإسلام، ولكنه الملجأ عند الضرورة، وإذا لم تعرف المجتمعات الأوروبية هذا التعدد بطريقته المشروعة، فإنها للأسف قد عرفت ما هو أشدّ ألماً وأنكى عاقبة، لأن العلاقات غير الشرعية بين الرجل والمرأة في أوروبا شائعة، يراها المجتمع ذات حق في الوجود، حتى أن رجال الأخلاق هناك لا ينكرونها، بل يعتبرونها حقاً مشروعاً للمرأة، وبناءً على ذلك فالأطفال غير الشرعيين يُعتبرون من أبناء الأسرة! وإذن فأياهم أكرم؟ أن نعترف بالتعدد، أو أن نلجأ إلى الخليلات؟

## (عمل المرأة)

ومن حق الكاتبة الاجتماعية أن تُوضّح آراءها، وإن وجدت مجالاً للخلاف في بعض اتجاهاتها، فلا يمنع اختلاف وجهات النظر أن تُسجل لكل ذي رأي رأيه كما قرره وكرره، وقد أكدت (مدام دي سان بوا) أن عادات الشعب الأمريكي قد تغلغلت في أوروبا، لأن

الفرق كان ضئيلاً جداً بين المرأة الغربية والمرأة المسلمة قبل الحرب العالمية الأولى، إذ لم تكن المغالاة في الأعمال المهنية من طبيعة المرأة الأوروبية حين ذاك، كما لم يكن انتشار صالات الموسيقى والسينما والرقص، والملابس القصيرة الفاضحة كما هو الآن في زيادة نموه، وسعة اطراده، وكل ذلك ترف مادي لا ينتمي إلى الجمال الروحي في شيء، ولا شك أنّ جشع النفس ورغبتها الشديدة في المال لها اللذان دفعا المرأة المعاصرة إلى العمل خارج البيت، ففترت من قيود الزوجية الرقيقة إلى قيود ثقيلة، يُحكمها صاحب المصنع، ورئيس العمل إحصائياً لا انفعالات منه، ولأجل أن يستر المجتمع هذا الرق الجديد اختَرع ماسماه (شرف العمل) وأتى شرف في الانكباب على الآلات الحديدية في المصانع في حذر تام، خيفة أن يقع التقصير، فتعاني المرأة من التفرع مالا يُمكن أن تراه مع الزوج مها احتدة واشتَظ، على ما في ذلك من إجهاد للقوى الجسميّة للمرأة، وهي بطبيعتها غير مهياة للنهوض بهذه الأثقال، ثم عليها بعد ذلك كله أن ترجع في المساء إلى المنزل لتبدأ عملها كزوجة في إعداد الطعام، وتنظيف الملابس، وغسل الأطباق، لقد كانت القسمة طبيعيّة بين المرأة والرجل، حين وُكِّل إليه أن يكسب خارج المنزل ووُكِّل إليها أن تعمل داخله، أما الآن فنّ الذي كسب؟ الزوج أم الزوجة!! وحتى لو لجأت المرأة إلى الأعمال الخفيفة نسبياً مثل الكتابة.. على الآلة الكاتبة. أما تشعرُ بالسأم المفرط في الانزواء ساعات متوالية في مكتب ضيق.. لتكرّر عملاً لا لذة فيه، لقاء أجر يضيع أكثره في ضروريات هذا العمل نفسه!! والصدّاق! الصدّاق الذي تأخذه المرأة المسلمة عند زواجها! قد عدّه كتاب الغرب ثمناً مُستتراها،

فهى إذن تُشترى به ، وكأنها سلعة تجارية ! وهذه مغالطة إذ لو جاز لنا أن نعتبر الصداق ثمناً تجارياً ، بالنسبة للزوجة ، لطبقنا الأمر على المرأة الغربية حين تُقدم (الدوطة) للرجل عند الزواج ، فكأنها بهذا المنطق تشتريه وتعتبره سلعة أيضاً ، والحق أن كلا الأمرين باطل ! والرجل هو المؤهل للكسب المادى ، فمن الطبيعى أن يُقدم الصداق دون اعتراض ، وإذا كانت المرأة الغربية تُقدم الدوطة على أن تكون ملكاً لها إذا تمّ الفراق ، فهذا الشرط غير متحقق ، لأن الزوج يدعى أنه بذله فى حاجات الزوجة ، وهو غير ملزم ، بأن يشرح فى أى شىء بذل هذا الصداق ! ولكن المرأة المسلمة تبقى فى ذمة الزوج ما يُسمى بمؤخر الزواج ، وهو مُلزم بالوفاء ، ويُحاكم إذا تأخر على وجه السرعة ، فكيف تجوز المقارنة بين المسلمة والغربية فى هذا المجال ؟ .

وتنصح الكاتبة المرأة المسلمة فتقول :

«على النساء الشرقيات أن يدُرّسن علم التاريخ بتوسّع ، وحينئذ يعرفن تمام المعرفة أنّ الشعب الذى كانت له هذه العظمة ، وذلك التاريخ المجيد ، يجب ألا يجعل نفسه مطيّةً لمدينة أخرى .. أقلّ من مدنيته ، أو يقتفى أثر حضارة فقدت مثلها الأعلى منذ آخر العصور الوسطى ، وصارت متميزة بتغلب الروح الفردية الشريرة ، التى نشأت من انتشار العلوم التجريبية المادية ، فكانت أقرب إلى أن تكون مِغولَ هدم» .

## ( وراثّة الميول )

كانت (مدام دى سان بوا) تصف نفسها بأنّها حفيدهُ الشاعر لامارتين ، مع اعترافها بأنّها ابنة ابنة أخته ، وليست ابنة ابنته ، إذ ترى

أن درجة القرابة واحدة بين بنت البنت، وبنت الأخت، على آتيا وحدها دون ذوات الدرجة المتفق، هي التي ورثت طباع الشاعر وميوله، فقد هامت بالشرق كما هام، وإذا كان الشاعر الكبير قد تنقل فى بادية الشام، وعاشر العرب والأعراب.. مصطحباً كلبه الوفى، فإن (مدام دى سان بوا).. حين سكنت حلوان، سرّها أن ترى خيام الأعراب فى العشرينيات منتشرة فى البراح الممتدة حول الضاحية، فسارعت إلى التعرف بهم، وحلت من الملابس والحلوى ما جعلها متحبة إلى الرجال والنساء والأطفال جميعاً، وكانت تتركب الدواب، ويسير وراءها أعرابى ممن تغفرهم بسخائها، ولا تكاد تنقطع عن زيارة الخيام أسبوعياً، إذ ترى من البساطة فى التعامل، واليسر فى المعيشة، والسذاجة فى التفكير ما يدفعها إلى حين متصل إلى دُنيا البراءة التى لا يغمرها جدول الضرب بأرقامه الحسابية. وأسهمه المالية، وقد أهداها شيخ العرب كلباً نظيفاً. فأثرته بالرعاية، واتخذته حارس المنزل، حتى إذا تركت حلوان عزّ عليها أن تهجره، فحملته إلى الفندق صديقاً وفيات، وحارساً شجاعاً! أثارها تذكرت كلب لمارتين الذى يقعى تحت رجله فى تمثاله البرونزى الناهض بأحد ميادين باريس! وما اختار المثال هذا المشهد إلا ليصور إعجاب الشاعر الكبير بالحيوان الوفى الأمين.

وناحية جديدة بالنأمل فى آراء الأدبية الكبيرة، فقد علمت أن قصة رؤفائيل التى أبدعها لمارتين قد انتشرت طبعتها فى البلاد العربية منذ ترجمها الأديب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات، فلاقى من السيورة والذبيوع ملاقته قصص المنفلوطى عن مجدولين والشاعر والفضيلة وغيرها، وكان المنتظر أن تبتجّ بما تركته القصة من

أثر كبير، ولكنها قالت إن روافئيل لا تمثل لامرئين فى نُصوجه الفكرى وعمقه النفسى. لأنها تحفل بأحاسيس شابت متسرع لم تضفله التجربة، وكان الأولى بالزبات أن يختار أثراً آخر من آثار الشاعر الكبير، وتلك صراحة محبة من الحفيدة، ولكننا نذكر تعقياً على رأيها أن فى قصة رُوافئيل من الإبداع الفنى ما يرتفع بها إلى مستوى الأعمال الباقية، وحسبها أنها حببت الطبيعة إلى آلاف القراء، لأن إلحاح روافئيل فى تصوير مشاهد الغروب والشروق، ومسارح البحيرات والأنهار، وروائع المروج والغابات، وقم الهضاب والجبال.. قد جعل من الطبيعة الصامته صديقاً لمن فقد الصديق! وخسب القارئ المنفرد أن يرى الأُس فى لوحات الطبيعة، فيتخذها صديق وحدته، وأنيس وحشته! وهو مكسب عزيز، هذا إلى التحليل الدقيق لأرقّ المشاعر، والطف الأحاسيس، مع الفطنة اللطيفة للمعانى الصامته، الناطقة فى الإشارة الخاطفة، والنظرة الشاردة والالتفاتة العجلى، لقد عاشت الكاتبة الشاعرة فى مصر لتؤدى رسالة الحق والخير والجمال فبلغت ما أرادت. وأوجب علينا أن نذكر نضالها الأدبى بأوفر معانى التجلّة والإكبار..

\*\*\*

## بن المازنى وطه حسين

كان المازنى خفيف الظل، فكّية الروح فى كل ما يكتب. ومعاركه النقدية ذات نكهة خاصة تشف عن روحه. وأنت تعجب حين تقرأ له بحثاً ناقداً يتجه إلى تقرير أصول أدبية جديدة، فتجده متبسّطاً رقيقاً شفافاً، وكأنه يتحدث فى مجلس سمر، لذلك كانت مقالة المازنى شديدة الإغراء لقارئها وإن خالفها كل المخالفة؛ لأن المقالة لديه ليست مضموناً فحسب، ولكنها مضمون يتفرق فى غدير صاف عذب، وإذا كانت هناك قسوة ما يضطر إليها اضطراراً فى بعض أوقات انفعاله، فإن القارئ يستسيغها راضياً، بل إن من يتوجه إليه المازنى بالنقد يحاول استساغتها، مجتهداً ألا تترك فى نفسه أثراً أيماً، ولا أذكر أن المازنى — رحمه الله — فى نقده الأدبى الذى امتد قرابة ثلاثين عاماً فى أمهات الصحف، وكبريات المجلات، وفيما انفرد بإصداره فى كتب خاصة قد عنف على أحد من منقوديه غير المنفلوطى وشكرى وطه حسين، أما المنفلوطى فكان زعيم المقالة الأدبية المتصدر فى زمنه، والمازنى الشاب يحاول هدمه مندفعاً بحماسة شاب.. يحمل المعول متحديا الرعوس والقمم، وهو فى أعماقه يعرف مكانة صاحبه، ويرى الشجاعة كل الشجاعة أن يذيع قولاً فيه. وأما عبدالرحمن شكرى فقد أثار صديقه الحميم عليه إثارة غاضبة حين تحدث عن سرقاته، وكتب المقالات الغاضبة فى تجربته، والمازنى هو الذى أصدر كتاباً عن حافظ إبراهيم مقارناً بشكرى ليجعل شاعر النيل



لا شيء أمام صديقه، وكان ينتظر منه بعد ذلك أن يكون رفيقاً به، فلا يهب عليه إعصاره المتتابع فى السفور وفى عكاظ وفى مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكرى، ولكن شكرى قد عنف واشتد، فاضطر المازنى إلى أن يهاجم ويدفع، وأتى بما لا قيمة له لدى الحكم النزيه، على أنه مالبث أن تذكر قديم الصحبة فأخذ يعتذر وبأسف، وجعل يشيد بشكرى ويعترف بأستاذه. ولكن قلب شكرى النافر كان كالزجاجة المكسورة لم يجبر لها صدع.

أما نقد المازنى لطله حسين، فهو موضع حديث اليوم، ولا أدرى حين أكتشف عن بعض اتجاهاته. كيف أصور هذا الهجوم المتصل الذى والاه المازنى على طه فى غير مجاملة! ولا أدرى مرة ثانية لماذا كان الدكتور طه حسين ضعيفاً جداً أمام المازنى والعقاد معا! فهو يحاول جهده أن يحنى رأسه للعاصفة كى تمر، وعهد القراء بطله أنه مندفع متفحم عنيف، يشن الغارة تلو الغارة على خصومه، ويتحدث عنهم بأبلغ ما يملك من أساليب الزراية، وقد يقف موقف الأستاذية من زملاء يشاركونه اللقب والوظيفة والبحث فيتكلف أشد ضروب التكلف ليوقعهم فى الحرج، ولكن المازنى يلح عليه بالهجوم الطاعن، ويعاود الإلحاح فى إصرار، وطه يسكت عنه كما يسكت عن العقاد!!

لقد كنت أعتقد قبل أن ينتقل العقاد إلى رحمة الله حين أرى اندفاع طه لتزكيته وتقريظه فى كل ما يقول، فإذا اضطُر إلى المعارضة بحث عن أرق الأساليب وأشقها نقاء كى يبدى معارضته الباسمة فى أدب خجول، كنت أعتقد حينئذ أن طه حسين مؤمن فى أعماقه بالعقاد، فهو لا يجد سبيلاً الى معارضته إعجاباً بمذهبه

الفكرى شعراً ونثراً، ألم يبايعه بإمارة الشعر دون أن يطلب العقاد هذه الإمارة ألم يتحدث عن وحي الأربعين، ومطالعات فى الكتب والحياة.. حديث من يرى بين يديه أرفع النماذج للأدب الحى؟

ولكن هذا الاعتقاد قد تبدد حين وجدت طه حسين يهاجم شعر العقاد بعد وفاته، ويتنكر للعبقريات بعد أن قرظها، وكانت إحدى عثراته أمام القراء! إذ هم يعلمون سابق رأيه فى صاحبه أيام كان ذا قلم يتر ويسأصل، فما بالهم اليوم يلمسون دخاناً كثيفاً كشف عن نار تنقد! إن عهدى بالدكتور طه حسين أن يكون حازماً حريصاً، ومن مقتضيات الحزم الحريص أن يسكت عن نظيره بعد رحيله! وقد أدركه الضعف الإنسانى، أو قل.. قد غلى الرجل الحبيس فأطلق لاهب الشرار!

ولكن موقف طه مع المازنى قد اختلف؛ لأن المازنى وإن رحل مبكراً عن الحياة فقد ترك خلفه صديقه الأثير عباس محمود العقاد، ولن يجرو طه أن يتحدث عن المازنى، وهو يرى إخلاص العقاد، ويحاذر انتقامه. بل لا أريد أن أظلم الدكتور طه حسين فأغضى عن مكرمة نبيلة آثر بها المازنى - رحمه الله - بعد رحيله، إذ كتب فى الأهرام يطالب الحكومة بمعاش لأسرة المازنى أحد أعلام البيان فى عصره، ثم شاء الله أن يتولى الدكتور طه حسين وزارة المعارف فى حكومة الوفد فيبادر إلى تقرير معاش مجز للأسرة، وتلك مكرمة نبيلة حقاً، يجب أن تسجل للدكتور طه فى حق زميل نانه بقوارص النقد كثيراً فطوى الضلوع على ألم، ولاذ بالصبر دون صيال.

كان الدكتور طه حسين قد ابتدأ عهده الأدبى بجريدة السياسة

ناقداً حاداً، وكان أكثر ما يكون حدة مع من يرى فى أخلاقهم عزوفاً عن الصيال والمصارعة كالدكتور أحمد ضيف، وهو رائد حقيقى من رواد الأدب المعاصر، جاء بآراء سديدة سبقت فى إلقائها وطبعها كثيراً من آراء الدكتور طه التى ردها من بعده فى دوى صاحب، وأنت تعجب حين تقرأ كتابى الدكتور أحمد ضيف فتجد الكثير مما قاله الدكتور طه من بعده قد قيل فى إيجاز محكم، وتواضع عازف، ولكن الدكتور طه قد قسا عليه قسوة تذكرنا بقسوته الشديدة على الأستاذ علام سلامة حين أخذ يتهمك ببحث علمى كتبه عن مدلول كلمة الأدب وتطورها، والأستاذ علام سلامة أحد الذين ناقشوا الدكتور طه حسين يوم أخذ الدكتوراه من الجامعة المصرية برسائله عن أبى العلاء، فهو منه بمنزلة الأستاذ، ومهما قصرت بالأستاذ الشيخ علام سلامة ظروفه الثقافية عن الاطلاع على ماقرأه الدكتور طه حسين فى باريس، فليس من اللائق أن يترفع عليه تلميذه متكباً متندراً، وكأنى بالدكتور وقد أمن صولته كما أمن صولة الدكتور أحمد ضيف فاستعلى وتزبد. أما حين تعرض للعقاد فى تحليل كتاب المطالعات فكان كالذى يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وما يكاد يهم بنقد حتى يمهّد له ويعقب عليه بالثناء! وظل هذا ديدنه الدائم معه، وأذكر أنه تعرض لكتاب (رجعة أبى العلاء) بعد زمن طويل فى الثقافة، فأخذ عليه قارىء فاضل (١) ما رأى فى نقده من خفوت وحذر، وكتب بمجلة الثقافة يقول موجهاً الحديث إلى الدكتور طه حسين:

---

(١) هو الأستاذ على زكى بك وكيل مديرية القليوبية (إذ ذاك) ص ٤٢ من العدد السادس من مجلة الثقافة ١٩٣٩/٢/٧.

« لكننى أراك قد خرجت على مألوفك حين عرضت لكتاب الأستاذ الكبير العقاد (رجعة أبى العلاء) .. الذى أعرف له منزلته من الأدب، ومقامه الفريد فيه، عرضت له مترقفاً محاذراً مجانباً صراحتك المدوية، متجاوزاً الهوادة واللين إلى طبقة أدنى إلى الدعابة والرخاوة التى لم يمح أثرها من نفسى ما لأسلوبك البديع من حلاوة وطلاوة» .

وقد ردّ الدكتور على ناقده الصريح فقال (٢): من كلام هادىء تخفى سطورهُ من المعانى ما يستشفه القارئ الحصيف: «وليس على الخصومة العنيفة بينى وبين الأستاذ العقاد فى الأدب من بأس، أن تبدأ بالدعابة واللين والنقد الرقيق، فرب لمحة أغنت عن صراحة، ورب إشارة أجزأت عن عبارة، والأستاذ العقاد بعد رقيق الحس دقيقه، وهو أرق منى حساً، وأدق منى مزاجاً، يضيق بالنقد ويتأثر بلذعه أكثر مما أضيق وأتأثر، لا يكاد يقرأ فصلاً فى نقد كتاب من كتبه حتى يسرع إلى الرد وإلى الرد الذى يتكلف فيه التأويل والتحليل، فالخير كل الخير فى أن نطرق عليه الباب فى رفق، وأن ندخل عليه بعد أن يأذن لنا فى رقة وظرف، والله يعلم بعد ذلك كيف يكون مقامنا عنده، وكيف يكون انصرافنا عنه؟» .

لقد أفصح الدكتور عن ذات نفسه، وأوضح تهيئه من العقاد بما لا يحتاج إلى تعليق، والحق أن العقاد — رحمه الله — كان ذا إنسانية رفيعة، إذ أدرك شعور صاحبه نحوه فأراحه من هجومه مقدراً مجاملته المتصلة! وكنت أعتقد أن المازنى لن يقل دماثة عن العقاد .. فهو

بطبعه الساخر أكثر تسامحاً، ولكن ترصده للدكتور طه حسين بكل سبيل مما يضاف إلى شجاعته، وما يؤكد أنه يتسامح مع منقوديه طبعاً لا تطبعاً ولوشاء أن يعنف لوجد من قلمه الجراءة الواثقة، على أن المازنى فى نقده يصدر عن اتجاه أدبى يعتقد صحته، فهو لا يناقش فى الجزئيات الصغيرة بل يتعرض للفكرة الكاملة فيناقشها مبينا ما يراه من انحرافها، وقد استشعر فى أعماقه ما استشعره العقاد من مجاملة طه والرفيق به، وتعرض لصراع نفسى بين عقله وقلبه إذ يتذبذب بين المسألة والهجوم، وقد كشف للقارئ سربرته حين قال فى كتاب (قبض الريح) (٣) تحت عنوان (الأساليب والتقليد):

«عزيز على أن أنازله - أى الدكتور طه حسين - فإنى أنطوى له أوصرت أنطوى له على الحب والاحترام، وليتنى ما عرفتة ولا خالطته، إذن لبقيت يدي حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهمسه، أو لاتضيره وتوهى عظامها، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة.. وإنى لأتمرد أحياناً على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا وتقمصنى عفريت النقد الذى لا يحابى الأصدقاء ولا يجامل الأوداء، فأرفع بالفأس كلتا يدي، وأشب عن الأرض، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ، فيطالعنى وجهه الساكن، وجبينه المشرق، وهو جالس إلى يحاذئنى، ويقاسمنى ما أعانيه من المضض، ويحمل عنى شر شطريه، فتهى قبضتى، وتقلت الفأس، وتهوى ذراعى إلى جانبي، وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول: خسارة، نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس؛ فإن فى الجبين اتماعاً، وفى العظام قوة، وفى التركيب مائة..».

---

(٣) قبض الريح ص ٣٦ ط الشعب - ١٩٧١ م.

هذا بعض ما اشتجر فى نفس المازنى من صراع ، ونخيل إلى أن المازنى كان يعتقد فى قرارة نفسه أن طه حسين يجامله فى الظاهر ليأمن نقده ، فهو يجالسه ويحادثه ويقاسمه آلامه عن سياسة حاذقة لاعن حب خالص ، لذلك اتجه إلى مخاصمته فى عنف ! وكان الأحرى به أن يترك العنف إلى الرفق ، ومثل المازنى فى يسره الهين يستطيع أن يقول ما يشاء دون أن يرمض صاحبه وأن يوجهه ، بل مثله من يستطيع أن يقدح وكأنه يمدح لو أثر الرفق حقاً بصاحب الوجه الساكن ، والجبين المشرق ، واخلال المازنى الرقيق قد لمس عنف طه الصارخ بمن لا يستطيعون مقاومته ، ومن يستأسد عليهم الدكتور فى غير مجال الوثوب ، فصمم على أن يأخذ بثأثرهم منه ! وعلى أن يثار بسطو عنيف ، والتكبر على المتكبرين من البشر عزة علياء . كان الدكتور قد نشر حديث الأربعاء تباعاً فى السياسة وفى غيرها ، حتى إذا أراد جمعه فى أجزاء متتالية ذكر فى مقدمة الجزء الأول أنه يقدم مباحث متفرقة .. وماهى بسفر أو كتاب ، ولن يجد القارئ فيها هذه الفكرة القوية المتحدة الواضحة .. التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم ، وأنه لم يعن بهذه المباحث العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، وأنه يعلم أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية والنظر ، وقد أنكر المازنى على صاحبه أن يعترف بنقص كتابه ثم يخرج به هكذا محتاجاً إلى إكمال ، وأن يستخف بقرائه فلا يجدهم أهلاً لأن يتكلف من أجلهم البحث العلمى الدقيق إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا ، ويقول المازنى فى صراحة للدكتور: « لو وسعت هذا الذى تقول إنك تتجنبه (وهو التحقيق الدقيق) لما أحجمت عنه ، ولا صدك الإشفاق على رءوس القراء والترفق بأدماغهم

ولو كان فى جعبتك ماهو أغلى وأثمن لما طوبته عن العيون ولا احتلت وتلطفت وألححت فى عرضه ولرفعته قبلنا فى كل ناحية» (٤). وكأن المازنى أراد أن يهون نقده فقال: «وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فإننا جميعاً مع الأسف هذا الدكتور، ومامتاً إلا من يتظاهر بأنه قادر على خير مما يصنع.. وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء، نكتب لهم طلباً لإعجابهم واثماً لنشأنهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت، ثم تأبى لنا طباعنا المنكرة إلا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا إلى اكتساب ذلك، يعرض أحداً على القراء بضاعة مزجاة فإذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق، وأنها لا تتحمل إلا الحسيس الرخيص من الأصناف (٥)».

والحقيقة أن كل كاتب — مهما عظم قدره — يكتب البحث فى فترة، ثم يراجع فى فترة أخرى، فىرى به نقصاً يجب أن يكمل، والدكتور صادق بينه وبين نفسه حين لمس بعض هذا النقص فيما كتب، وكان عليه بالذات أن يعمل على تلافيه لأن يعتذر عنه؛ إذ أنه كثيراً ما حمل العصا فوق رؤوس الكرام من الكتاب لينعى عليهم العجلة، وليعدها عيباً خطيراً، وليطيل فى تسجيل هذا العيب وينحى باللائمة عليه. لقد أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف أول كتاب جاد عن الأدب الأندلسى فى هذا العصر تحت عنوان (بلاغة العرب فى الأندلس) وهو بحث يجب على الناقد أن يأخذ فى اعتباره أنه أول تاريخ منهجى لهذا الأدب، وأن هذه الأسبقية تتسع لغفران ما به من

(٤) قبض الريح ص ٤٥.

(٥) قبض الريح ص ٤٥.

الخطأ، ولكن الدكتور طه مجرد الكتاب من حسناته ويقول عنه في إسراف (٦):

«وأحسبني لا أخطيء ولا أتجاوز القصد إن قلت إن السبب الأساسى الذى يحول بين الأستاذ وبين الإجابة اللائقة فى كتبه هو أن نفسه سريعة الحركة، مسرفة فى هذه السرعة لا تكاد تعرض للشئ فتثبت له حتى تقتله بحثاً ودرساً وتنضجه فهماً وتفكيراً.. وإذا كانت الأناة شرطاً أساسياً للإجابة والإتقان فى كل شئ منها يكن نوعه، فهى الشرط الأساسى الوحيد للحياة العقلية المنتجة، وربما لم تكن المناهج العلمية شيئاً إلى جانب الأناة العلمية، ذلك لأن المناهج العلمية المنتجة على قيمتها ولزومها ليست فى حقيقة الأمور إلا نتيجة طبيعية للأناة العلمية، وإن هذه النتائج الباهرة ليست إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة شاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها لا أقول الأشهر ولا أقول الأعوام ولا أخطيء إذا قلت القرون».

هذا بعض ما قاله الدكتور آخذاً به زميلاً كبير القدر، بارز المكانة! فإذا كان المازنى دعاه إلى أن يترك التسرع حتى يكمل الناقص، ويتم الخديج فقد دعاه إلى ألا يأمر الناس بالبر وينسى نفسه.

ثم تعرض المازنى لمسألة فنية هى تقليد الأثر الأدبى وسهولة احتدائه، أتكون هذه السهولة مدعاة اعتزاز أم مدعاة هوان؟ إن

---

(٦) حديث الأرباء ح ٣ ص ٨٢.



الدكتور يرى فى كثرة المقلدين لأسلوبه ما يعتده موضع زعامة قائدة ، والمازنى يقول إن الأساليب التى يسهل محاكاتها أدخلت الأساليب من المياسم الشخصية والمميزات الخاصة التى يختلف بها كاتب عن كاتب ، أو بعبارة أخرى التى لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها ، فالمتنبى مثلاً ينطق شعره باسمه ، وينسب نفسه له دون أن يحتاج إلى نسبة ، وما من مقلع على الأدب الانجليزى يعنيه أن يفتن إلى أسلوب كارليل وإن لم ينسب إليه ؛ لأن الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة ، وطريقته فى تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات أوكد وأعمق كانت المحاكاة أشق ، والإخفاق فيها أقرب ، فهى لا تهمل إلا بحيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التى ترجع فى مرد أمرها إلى النفس وما ركبت عليه وانفردت به (٧) .

وهذا كلام ذكره طه ورد عليه المازنى بعد صدور الطبعة الأولى من حديث الأربعاء ، وإخالنى أزعج أن الدكتور طه حسين لهذا الوقت لم يكن له تلاميذ يقلدون تعبيره الأدبى التصويرى ، وإنما قلده المقلدون فى إنكار الروايات القديمة ، ومحاولة الشك فى بعض الآثار الفنية من شعر ونثر نسباً للجاهلين والأمويين ، والدكتور طه فى هذه الناحية بالذات تابع غير متبوع . وقد تحدث الباحثون عن قضية الانتحال بما يرجع بأصولها الواضحة إلى محمد بن سلام ومن تلاه ، وإخالنى سلسلت تطوّر هذه القضية فى كتابى (موقف النقد الأدبى من الشعر الجاهلى) بما أستريح له وأرتضيه .

ويمضى المازنى فى الحديث عن أسلوب طه حسين فيرى أنه يخطب ولا يكتب، وأنه لو كان قد ألقى مقالاته بدل أن يكتبها لما جاءت إلا كما هي الآن، فإن مزايا الكتابة قد تجردت منها لأن صاحبها يملها ولا يتعهدها بهذيب وتنقيح، ولو فعل لبرئت من كثير من عيوبها، ويزيد المازنى فيزعم أن مقالات الدكتور، مع أنها خطب مدونة فى رأيه - قد خلت من مزايا الخطابة لأنه يملها على أنها مقالات، وكما تفقد كثير من الخطب مزاياها حين يقرؤها الناس، فإن مقالات الدكتور قد فقدت هذه المزايا أيضاً<sup>(٨)</sup>.

ويمضى المازنى فيرى أن أظهر عيوب الدكتور فى أسلوبه الأدبى هو التكرار والحشو وما هو منها بسبيل، وعلّة ذلك راجعة إلى أن الدكتور يملأ ولا يراجع، وقد تورط المازنى فى هذا المجال فى أشياء ما كان أحد يودّها له حيث تعرض إلى علة الدكتور الزمنية، وأثر العمى فى أسلوبه، وكرر ذلك تصرّحاً وتلميحاً، ولا أدري كيف نسى المازنى مروءته النفسية وهو ينزلق فى هذا المهوى! إن علة الدكتور تحسب له لاعليه، فقد جعل من نقصه الجسمى باعث همة عالية.. اثمرت خير الثمار إذ تبوأ بهذه الهمة عمادة الأدب فى عصره، وكل ما ذكره المازنى عن عمى بشار وأبى العلاء مقارناً بعمى الدكتور طه لا داعى له فى موضوعه، وكان عليه أن يبحث عن الشاعرين فى سياق آخر غير هذا السياق!. قد يكون المحلل النفسى للدكتور طه محتاجاً إلى إيضاح أثر آفته فى إنتاجه، ولكن المحلل الأدبى يجب عليه ألا يسرف فى الحديث عن هذه الناحية كما أسرف المازنى، وقد

---

(٨) قبض الريح ص ٢٧.

أحسن الطبعة الأخيرة أو أحسن القائمون عليها فى دار الشعب حين حذفوا كثيراً مما قاله المازنى بصدد هذه الآفة، ودون فى الطبعة الأولى، وهذا مانهني إليه صديقى الأستاذ محرز أحمد خفاجى الموجه الأول للغة العربية بالمنصورة؛ لأن الإنسانية شرط فى سمو النقد، وفقدتها عامل فى انحداره! ورأى فى سمو المازنى ورقة إحساسه لا يتغير، ولكنه هنا يشذ عن قاعدته المطردة، وليته استقام.

وقد كان المازنى منصفاً للدكتور طه حسين أكبر الإنصاف حيث تحدث عن كتاب الشعر الجاهلى إبان صدوره، وقد قام الرد العاصف فى المحيط الأدبى بسببه، ولو كان المازنى يبتغى التشفى المغرض من صاحبه، لتزعم حملة الهجوم، ولكن المازنى هو المازنى فى أصالته، فقد تحدث عن الكتاب بما يعتقد، تحدث عنه مقرظاً وعائباً، قرظ اتجاه الدكتور فى نفى بعض الروايات المنحولة شعراً ونثراً فى هذا الزمن البعيد، وقال فى شجاعة مخلصة: « ولم يأخذنى الدكتور على غرة بهذا الكتاب لما أعرفنى قرأت شيئاً من أخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها إلا نازعنى فى أمره شك ضعيف أو قوى، وإلا حكى فى صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة، وأشهد أن الدكتور كان بارعاً فى بسط رأيه، وفى إبراز الشبهات التى تحوم حول هذا، وتضعف الثقة بنسبته إلى الجاهليين، وفى تأكيدها أيضاً، ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التى جاءت — على خلاف عادة الدكتور — خالية من كثير من حشوه المألوف، ونحسب أن الاختلاف ضرورة فى هذا البحث، مهما تكن النتائج التى يخرج بها المرء. وإن من الحماسة أن نسترسل فى الاستنامة إلى ما جاء فى الكتب القديمة وإن كان كل شئ يدعو إلى الريب ويغرى بالنقد.

ومضى المازنى فى إتجاهه حتى خلص إلى نقد مارآه موضع المؤاخذه، فذكر أن الكتاب لم يبرأ من السقاط، وأن أوله خير من آخره، وصدره أمتن من عجزه؛ إذ أنه فى المجال التطبيقى لم يأت بشىء ذى قيمة، وهو يرفض قصة ويقبل مثلتها دون ترجيح، والموقف واحد، ويذكر معانى الابتذال والغربة والإناس فى غير مكانها الأدبى. ثم ختم المازنى مقاله بقوله: «لقد أطلنا جداً والصحيفة لاتسع للإفاضة، ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخبط الطلبة منه بأبحاث الأساتذة، فليته استغنى عنه، وإن الدكتور ليحسن جداً إلى نفسه إذا نحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل إلى النقد التطبيقى أو الدراسات الفردية» (١).

وبعد، فلا يمكن لقارئ المازنى أن ينسى هذا الفصل البديع الساخر الذى كتبه تحت عنوان (طه حسين فى ميزان التشكيك) وجمعه مع فصول (قبض الريح) ثم شاء القارئون على طبعة هذا الكتاب فى دار الشعب أن يحذفوه جميعه مع ما حذفوا من فقرات الكتاب؟. ولا أدى كيف تم هذا البتر الشنيع لأقوى موضوعات الكتاب. وليس به ما يشير إلى أسباب ما يوجب هذا البتر، والمقال بموضوعه وشكله ومغزاه آية الآيات فى بابه، وقد أوحى به ما كتبه الدكتور طه حسين عن مجنون ليلى حين ذهب إلى إنكار وجوده لتضارب ما روى الرواة عنه من أنباء وبناء على التناقض فى بعض الروايات التى دفعها الدكتور جميعها ليقول بأن المجنون شخصية

---

(٩) قبض الريح ص ١٥٨.

خيالية! وقد قال المازنى فى مطلع المقال إن الأستاذ العقاد قد تساءل فى بعض مجالسه عن أى شىء يسفر البحث ياترى لو نسجنا على منوال الدكتور فى الذى كتبه عن المجنون، أفبقى من طه شىء كما لم يبق هو من المجنون شيئاً؟ وقد راق المازنى تساؤل العقاد فتولى هو كتابة الإجابة عن التساؤل فافترض أن يأتى باحث فى القرن الثالث والعشرين ليتناول حياة الدكتور بمثل ما تناول به حياة المجنون، وستكون النتيجة كما خطها المازنى حين قال (١٠): «ويزعمون أن رجلاً اسمه الدكتور طه حسين عاش بمصر فى أوليات القرن العشرين، وأنه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها إليه وغلوه إياها، ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين، أحدهما أن يكون هناك أناس كثيرون يسمون (طه حسين)، وثانيهما أن يكون هذا اسماً استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه، ذلك أنه على ما روى أزهرى النشأة، والأزهر هذا جامعة إسلامية كبرى يلبس طلابها الجبة والقفطان والعمامة أو ما يماثل ذلك من ثياب العامة، فهو على هذا شيخ، ويقولون إنه كان فى صدر أيامه هذه يكتب فى صفحة يومية اسمها الجريدة، فألفت أحد أدباء هذا العصر واسمه عبد الرحمن شكرى يسميه طه افندى حسين، وهو مالا سبيل إلى حمله على الخطأ أو زلة القلم؛ لأن الفرق بين الشيخ والأفندى كان من الواضح والاختلاف فى التعليم والنشأة والزى، بحيث لا يعقل أن يخلط بينهما، وأحرى بالمتهاجين أن يعرف كل منها صاحبه».

ويمضى المازنى متعرضاً إلى مفارقات فى حياة الدكتور ليضرب

بعضها ببعض حتى ينتهى إلى قوله: «ويظهر أن هناك أكثر من  
دكتور طه حسين واحد، ففي بعض المقالات المعزوة إلى المتسمى  
(الدكتور طه حسين) تنويه بأن كاتبها كفيف، وفي بعضها الآخر  
مايفيد أنه مبصر (قرأت ورأيت وشاهدت) وما إلى ذلك من الألفاظ  
الدالة على الرؤية، مثال ذلك بعض رسائل بعثها من فرنسا وفيها  
يصف مناظر البلدان ، ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر  
في كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا إلى التمثيل والأداء ،

وما يؤكد هذا التعدد أن لأحد هؤلاء الدكاترة - فإنهم على ما يبدو  
كثير - أبناء يسميهم أساء أفرنجية ، وأن الصحف المحفوظة في دار  
الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طه ، والبعض يذكر الدكتور  
طه ، وواحدة تزعمه أستاذاً في الجامعة ، وأخرى تراه صحفياً ،  
ومعروف أن قوانين العصر لا تحجز أن يكون المرء موظفاً في جامعة  
أميرية ، وأن يكون صحفياً في الوقت عينه ، أضف إلى ذلك أن  
الشيخ طه حسين كان ذا لحية ، وأن دكتور الجامعة كان أفندياً  
حليفاً . فالأمر كما نرى لا يعدو إحدى اثنتين : أن يكون هناك  
أشخاص عديدون بهذا الأسم ، وهو غير محتمل ، أو أن يكون هذا  
الاسم مستعاراً وهو الأرجح .»

هذا بعض ما جاء في المقال ، وهو محاكاة ساخرة لما قاله الدكتور  
طه عن المجنون وعن بعض شعراء الجاهلية ، إذ أنكر وجودهم  
لمفارقات لخطها في تاريخهم ، وكان على الباحث أن يستقرئ  
حلقات هؤلاء لينظمها في سلك مطرد ، لاليعحكم بأن أصحابها غير  
حقيقيين ، وقد أثبتهم خيال الرواة دون واقع تاريخي ! لقد بلغ المازنى

باتجاهه الساخر أكثر مما بلغه باحث مترصن لا يعمد إلى الفكاهة في نقده الحاسم الصريح .

ظل الدكتور طه يحاسن المازنى ، ويتعرض له بالثناء إذا عنت المناسبة ، حتى وقع معه فى حوار ساخن حين تعرض المازنى لنقده ؛ إذ كتب الدكتور طه حسين مقدمة أدبية لديوان (أناث حائرة) الذى نظمه الأستاذ عزيز أباطه فى رثاء زوجته ، فلم تصادف موضع الارتياح من المازنى وبادر بنقدها فى صحيفة البلاغ نقداً واضحاً قال فيه بعد التمهيد: «توكلت على الله ، فقرأت التصدير الذى كتبه الدكتور طه حسين بك فقلت لنفسى: لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا طه حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة ، فما خلق لها بل للأدب ، وإنه ليضيع نفسه فى هذه المناصب التى تشغله وتستنفد جهده ووقته ، فإذا كتب جاء بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذى لا محصول وراءه ، ولا أعرف له رأساً من ذنب ، فلماذا لا يستقيل ويربح نفسه من هذا العناء الباطل ، ويتفرغ للأدب؟ ماذا يفتنه من هذا الغرض الزائل؟ كيف يستطيع أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه — وهو مالا غنى لأديب عنه—؟ وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب؟ وهو مشغول فى ليله ونهاره بهذا الذى لا آخر له من شئون الوظيفة واللجان وما إليها .. وهو يتولى أعمالاً كل واحد منها كاف للإرهاق ، فن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف ، إلى عشرات من اللجان يشارك فيها ، وتأبى له كرامته أن يكون صفرأ ، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيراً ، ولو نفى يده من هذا كله لكان أفضل» .

هذا بعض ما قال المازنى ، وهو صادق فيما بينه وبين نفسه ؛ لأنه

ترك التعليم بالوزارة ليتفرغ إلى الكتابة سياسية وأدبية، إذ رأى أن الكاتب المرموق أعظم من أكبر موظف، فهو حين نصح الدكتور بالتخلي عن المناصب واللجان لا يقول غير ما يعتقد، بل إنه دعاه إلى الاكتفاء بمنصبه الجامعي لعلاقة هذا المنصب بشئون البحث العلمى والإنتاج الأدبى، وما قاله المازنى هنا بالذات لاقسوة فيه، وكان الظن بالدكتور أن يتقبله فى يسر هين لأنه إذا تقبل الحجارة الثقيلة فيما مضى صامتاً، وقد آلمته أعنف الإيلام فى شخصه وعلمه، فن اليسير أن يتقبل غباراً خفيفاً تهب به الريح لحظة ثم يصفو الجو، ولكن رواسب الماضى قد انتفضت فجأة من أعماق الدكتور بعد أن كبها بالأغلال حقبة طويلة وهى تقاوم ما استطاعت، حتى قدرت أن تحطم الكبول وأن تدفع صاحبها المتبصر المتماسك إلى رد حاسم يصرخ به فى وجه المازنى قائلاً:

«أؤكد للأستاذ المازنى أنى آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباطة لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير، إذن لكان له الحصول كل الحصول، ولكان له رأس كقمة الجبل، وذنب كالذى خوف به المنجمون المعتصم، حين هم بفتح عمورية، وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملى فى وزارة المعارف وفى جامعة فاروق، إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً، والأستاذ المازنى يعرف أن لأبى العلاء قصة مع الشريف المرتضى، وأظنه يأذن لى فى أن أسرد من هذه القصة شيئاً، فالسرقة فى الأدب مباحة، ولا سيما حين تكون فى العلن لافى السر، وهى حينئذ أشبه بالسطو، ولست أسرق قصة أبى العلاء أو لست أسطو منها إلا بمقدار، فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق، وأن يقرأ مطولة لبيد، ومطولة طرفة، وعينية



سويد بن كاهل التى مطلعها :

بسطت رابعة الحبلى لنا فوصلنا الحبلى منها ما اتسع

ورائية الأخطل التى مطلعها :

ألا يا أسلمى يا هند هند بنى بدر وإن كان حيانا عدى طيلة الدهر

ولامية المتنبى التى مطلعها :

بقائى شاء ليس همواتحالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا

إلى عبارات أخرى لا نخرج عما جاء فى هذا الكلام .

وقد تعرض الدكتور زكى مبارك إلى تسجيل هذا الحوار بالعدد ٥٢٧ من مجلة الرسالة (١١) ، ومن مقال المبارك اقتبست ما استشهدت به من كلام الأديبين الكبيرين ، إذ من المتعسر على أن أرجع إلى مجلدات البلاغ فى مخبئها السحيق ، وقد عهد الدكتور مبارك للحديث بما يكشف بعض خوافيه ، ثم شاء أن يحل للقراء ما ألغز به الدكتور فى رده حين أشار إلى نصوص أدبية لها مغزاها الذى يعنيه ، فقال الدكتور مبارك :

«ونسارع فنذكر أن الإشارة إلى سورة الفلق منصبه على آية (ومن شر حاسد إذا حسد) . وأن الإشارة إلى مطولة لبىء تتجه إلى هذين البيتين :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها  
وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأعظم حظنا أقسامها

---

(١١) المجلد الحادى عشر ص ٦٢٦ من مجلة الرسالة .

وأنه يريد من مطولة طرفه هذين البيتين :

فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى      عداوة ذى الأصحاب والمتوحد  
ولكن نفى عنى الأعادى جرأتى      عليهم وإقدامى وصدقى ومعتدى

ومن عينية سويد بن كاهل أشار الدكتور إلى هذين البيتين :

رب من أنضجت غيظاً قلبه      قد تمنى لى موتاً لم يقطع  
وبرانى كالشجا فى حلقه      عسرا مخرجه ماينتزع

وأراد من رائية الأخطل هذين البيتين :

تنق بلا شىء شيوخ محارب      وماخلتها كانت ترش ولا تبرى  
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت      فدل عليها صوتها حية البحر

ومن لامية المتنبي أراد هذين البيتين :

أرى المتشاعرين غروا بدمى      ومن ذا يحمد الداء العضالا  
ومن بك ذا فم مرمريض      يجد مرأً به الماء الزلالا

ثم يقول الدكتور زكى «وما أردت تبليغ هذه التعارض إلى  
الأستاذ المازنى، وإنما أردت منفعة القراء، والشر يتسم بالخير فى  
بعض الأحيان» .

أحسب أن الكلام قد امتد إلى حد بعيد، وأن استعراض ما كان  
بين الأدبيين الكبيرين لم يشمل كل ما كان، بل شمل ما أمكننى  
الاطلاع عليه، وقد يكون لدى غيرى ما يكمل به ما بدأت، فها أحسب

إلا أن الرجوع إلى أمثال هذه المناوشات مما يعطى الدروس القوية  
لناشئة اليوم ، كى يدأبوا أشد الدأب ليلبغ بعضهم ما بلبغ الكبار من  
أمثال طه حسين والمازنى وغيرهما من أعلام الأدب الحديث .

\* \* \*

## أديب يتعاضم

[ياقوت الحموى يتوجه إلى مسجد الخضر فى آمد،  
ويقابل شيخ أدائها على بن الحسن بن عنتر بن ثابت  
الشهير بشميم الحلى. ويدور بينها الحديث التالى:]

ياقوت:

السلام عليك ياسيدى الجليل .

شميم:

عليك السلام ورحمة الله، من أنت؟

ياقوت:

أنا ياقوت الحموى، جئت إلى آمد اليوم، فوجدت  
حديثك على كل لسان، وسمعت المدح ينثر عليك بدون  
حساب، فرأيت أن أحظى بمقابلتك، وأهل من معينك  
الفياض .

شميم:

كأنك لم تسمع بى إلا حين جئت إلينا اليوم، مع أن  
مؤلفاتى العديدة قد تناقلها الناس فى الآفاق، وذاع  
حديثها فى أنحاء حلب وبغداد وخراسان..!

ياقوت:

لا يامولاي فقد سمعت الكثير عن أدبك وإنتاجك،  
ولكنى حين نزلت آمد، ولمست إعجاب الناس بك،  
تذكرت ما أعرفه عنك، وهرعت إلى لقائك، راجباً فى  
الاستفادة والتوجيه!

شميم:

إننى كما تعرف، متنوع الثقافة، متشعب المعارف، ففى  
أتى فن تريد أن يجرى الحديث؟

ياقوت: لقد شغفت بالأدب ورواية الشعر والتاريخ ، وإننى لأرجو أن أنقع لديك الغليل .

شميم: أنظر أمامك ، فهذا صوان ضخم ملئ بالكتب الأدبية التى ألفتها من ذاكرتى دون أن أستعين بمؤلفات أحد ، فهل شاهدت فى رحلاتك المسهبة من له هذا القدر من التأليف ؟ .

ياقوت: هذا مجهود كبير يا مولاي ، ولكنه غير مستغرب من أديب كبير عكف على الأدب والشعر حقبة من الزمن ، ولعلك تخبرنى عن طريقتك فى التأليف ، وكيف تختار المواضيع التى تدبج فيها القول ، حتى اتفق لك هذا التراث الثمين .

—: أنا لا أطرق الأبحاث الهينة المريحة ، التى يعمد إليها جبهة المؤلفين ، ولكنى أعمد إلى المعجز العصى من آثار السابقين فأعارضه بما أراه ، فتكون معارضتى ماحقة ساحقة وأنت تعلم ما ذاع عنى من المقدرة والإبداع !!

—: لقد قرأت بعض معارضاتك ، ولكن اختلاف الأيام قد أفسد الذاكرة وشتت الانتباه ، فهل لى أن أعرف منك من عارضتهم من البلغاء لأسجل ذلك فيما بين يدى من أوراقى ؟ .

—: لقد رأيت الناس يعجبون بأبى تمام وهو حقير قدم ، إذا قيس بى ، سمعت بعض الشاء على حماسه التى جمعها من أشعار الناس ، فأردت أن أخله بحماسة جمعها من

شعري الخاص ، ولم أستجد الشعراء الآخرين كما فعل ابن  
أوس الذليل ، فجاءت حماسي ضرباً من السحر الحلال .

—: هل لك أن تسمعنى بعض خرائدها الجياد؟

—: حماسي مشهورة معروفة فسل عنها الناس ، وأظنك ستتجاوز  
حدود الأدب فى السؤال !

—: معاذ الله أن أتجاوز الحد معك أيها السيد الجليل ، ولكنى  
ظامىء إلى المعرفة والعلم ، وقد قدمت بلدتك من  
أجلك وحدك ، فكيف أخرج منها خالى الوفاض؟

—: أعرف تماماً أنك جئت إلى آمد لتزورنى ، فليس بها من  
تشد إليه الرحال سوى ، ولن أسد فى وجهك الطريق  
فسلنى عما تشاء .

—: سأترك الكلام فى أبى تمام كيلا تغضب على ، وأحب  
أن أسألك عن عارضتهم من الشعراء سواه .

—: لقد عارضت الكثيرين غير حبيب ، فأبو نواس قد نظم  
فى الصهباء قصائد عامرة سارت مسير الشمس ، وظن  
الناس أنه لم يدع شيئاً لغيره ، فتصدت له معارضاً ،  
فأسقطت معجزته من يده ، ونظمت فى الخمر عقوداً  
بديعة ، تحلى بها الزمان ، فلو عاش ابن هانئ لاستحيا  
أن ينظم شعراً بعد الآن .

—: أخاف أن تهمنى بفساد الذوق ، إذا طلبت بعض  
خرباتك أيها الطائر الصداح؟

—: لن أقول لك شيئاً بضمي، فأنا أعظم من أن أنشد  
الناس، ولكن خذ هذه الصحيفة واقراً ما بها من  
الخمريات .

[ياقوت يتناول الصحيفة وبقراً:]

امزج بمسبوك اللجين ذهباً حكته دموع عيني  
كانت ولم يقدر لشيء قبلها إيجاب كون

[يقاطعه شميم فيقول:]

- ما رأيك في هذا القريض به .
- أحسنت يا مولاي غاية الإحسان !
- (في انفعال) ما عندك غير الاستحسان !! تباً لهذا الزمن الجاحد ، أنا  
مخطيء إذ أسمع البهائم أشعارى الجياد
- معذرة أيها السيد ، فقد اعتدت أن أقول لمن ينشئ الشعر الجيد :  
أحسنت ، وها أنذا قد قلت ، فاذا أصنع لأعبر عن إعجابي بشعر  
مولاي؟؟!!
- نعم ، تقوم وتصنع مثل ما أصنع » ثم يقوم من مكانه ويدور في المسجد  
ويصفق في تيه وإعجاب .
- لقد تعلمت منك ما يجب أن يصنعه المستحسن !! ولكن الضحك يأخذ  
على سبيل الكلام ، فهل أضحك يا مولاي ؟ .
- لِمَ تضحك أيها الأحق في مجلسي الوقور ؟ .
- كنت سمعت عنك نادرة ظننتها مختلفة عليك ، وها أنذا أصدقها الآن .

— ماهى النادرة يا مجنون؟!

— حدثنى أبو البركات سعيد الهاشمى أنك جئت قديماً إلى حلب، فقدم عليك فى ملأ من صحبه، فأنشدتهم بعض قصائدك فاستحسنوها غاية الاستحسان، ففضبت كثيراً، وفت إلى أحد أركان المنزل وغت على ظهرك، ثم رفعت رجلك إلى الحائط، فلم تزل ترتفع شيئاً فشيئاً حتى وقفت على رأسك، وقلت: هكذا تشكر النعمة، بأن يقف الإنسان على رأسه لاعلى قدميه، وأمرت الحاضرين بأن يصنعوا ما صنعت!!

— نعم، فعلت ذلك لأفهمهم طريقة الاستحسان.. ثم ماهى المناسبة التى جعلت أبا البركات الحقير يحدثك بهذه النادرة، وقد مضى عليها الزمان؟

— لقد كنا بحلب، ومرت بعض الجنائز، وبها نسوة يلطن الوجوه، وينحن بكلمات حزينة. ويأتين بمركات عجبية قال القوم: إن هذه الحركات منقولة عن مولاى، وإن نواح النائحات قد ألفه سيدى شميم!! وخاض الناس فى غرائبك البديعة، فذكر أبو البركات نادرته عنك، وهى تحفة بديعة ستدور فى الأسمار.

— هذا الكلب صادق فيما قال، وقد نسى أن يسمعك النواح العجيب الذى صنعته واخترت له روبا محكماً، ووزناً مرناً، وإذا رجعت إلى حلب مرة ثانية فسل عنه الأدباء.

— أعجب كيف شغلت نفسك بالنادبات النائحات وأنت غارق فى أبحاثك دون أن تجد الوقت لهؤلاء!

— لقد كنت مع تلاميذى ذات صباح بحلب، فمرت بنا جنازة يندب



فيها النساء فى حرارة وحسرة، كما يجب أن يكون، فأخذتنى  
الحمية، وأمرت من معى من التلاميذ، فوقفوا صقّين حولى،  
ولطمت خدى، فلطموا خدودهم مثلى، ووضعت نواحاً يرتلون،  
فأذن الله وتناقلته النادبات فى جميع البلاد!

— أنت يامولاي مبدع فى كل أمورك، وأخشى أن يبتعد بنا الحديث  
عن الأدب والشعر، فهل تكمل حديثك مع أبى نواس؟

— إن فضلى على هذا.. واضح بين، فإننى لم أذق الخمر طيلة  
حياتى، ووصفتها بما أعجز المدمنين العشاق، أما.. أبو نواس فقد  
عب من الخمر دنانا مترعات، وكان شعره هراء إذا قيس بشعرى  
الممتاز.

— إذا كنت لاتشرب الخمر، وأجدت فيها القول، فكيف بك لو  
تكلمت فى الزهد والحكمة كأبى العلاء، مع أنك اصطليت بما  
للزهد والحكمة من ضرام؟.

— من ذلك... الأعمى الذى تذكره فى مجلسى الآن، إن المعرى  
لا يوزن بنعلى، فكيف تطمع أن أعارضه بشعرى الخلاب!.

— [ياقوت مندهشاً]: المعرى... حقير! سبحان الله يامولاي! لقد  
ذكرتنى بأبى نزار ملك النحاة.

— هذه جريمة ثانية، إذ كيف أذكر برجل كل صناعته النحو، أما  
أنا فكاتب شاعر راوية أخبارى محدث لغوى مؤرخ! هل غرب عنك  
عقلك يامجنون؟.

— ذكرتنى به لشيء واحد يامولاي، فقد كان لا يذكر أمامه نحوى

مثله إلا قال عنه ماقلت فى أبى العلاء، وقد خاض ذات يوم فى ذكر زملائه النحاة فجعلهم جميعاً كلاباً، فقال له بعض الحاضرين: إذن أنت زعيم الكلاب لا النحاة، فكأثماً ألقم بحجر فاه!.

— ملك النحاة معذور فى سبه الناس، فقد ابتلى بمخالطة الأوشاب والرعاع فوصفهم بما يستحقون. دعنا منه، وتكلم فيما جئت من أجله دون انتظار.

— لم أجيء إلا لأسألك عن مؤلفاتك، وقد ذكرت لى معارضتك لأبى تمام وأبى نواس، فن غيرهما من الذين نكبوا بمعارضتك على غير ميعاد.

— لقد رأيت استحسان الناس لجناس البستى، فألفت كتاباً فى التجنيس، أسميته «أنيس الجليس» وخذ هذه الصحيفة واقراً مايقع عليه بصرك دون اختيار.

[يتناول ياقوت الصحيفة ويقرأ:] — ليت من طول بالشام نواه وثوى به!

جمل العودة للزو راء من بعض ثوابه

— [يقاطعه شميم ويصيح]: اسجد الآن، اسجد الآن!  
— لماذا أسجد يا مولاي؟.

— هذا موضع من مواضع السجادات فى الشعر، وأنا أعرف الناس بتلك المواضع فلا تخالف أمر مولاك.

— [يسجد ياقوت ثم يلقى الصحيفة ويسأل]: ومن غير أبى تمام

وأبى نواس وأبى الفتح البستي قد نكب بمعارضتك أيها السيد  
الجليل؟

— هل سمعت الخطباء يرددون على المنابر خطب ابن نباته في دمشق  
وحلب وبغداد؟ .

— نعم يا مولاي .

— لقد عارضت هذا المتشدد بخطب قوية مدهشة، فليس للناس  
حديث غيرها الآن .

— معذرة! فلم أحظ بسماعها . ولعل لديك سفرأ يجمعها وأسعد  
بقراءته ردحاً من الزمان .

[يمد شميم يده ويعطيه ديوان الخطب، فيقرأ ما وقعت عليه عينه  
وسمع صاحبه قوله:]

« الحمد لله فالق حب الحصيد بحسام سح السحب، صابغ خد  
الأرض بقاني رشيق العشب، محبى ميت الأرض بإماتة كالح الجذب،  
لابتسام ثفرنسيم انفاح الخصب، أحده على مامح من موضح بيان بما  
ألب في سوداء لب » .

[ويلاحظ شميم تلكؤ ياقوت في القراءة فيصبح منفعلأ:]

— ماللهائم والأدب؟ دع السفر أيها الأعجم البليد، هل مررت على  
الموصل فأخذت منها البلادة والغباء؟ .

— معذرة يا مولاي، فقد ثقلت التراكيب، ولم يجد اللسان نافذة  
للاسترواح فتعثر به المنطق .. وضل الإجابة في الإلقاء .

— قلت لك هل مررت على الموصل فأخذت منها الفهاة والبلادة؟  
فلم أظفر بجواب!

— أنا مضطر لخالفتك الرأي فى أهل الموصل ، فهم — كما أعتقد —  
ألبة أذكاء .

— وما معرفتك بالذكاء واللب ؟ لقد ناقشتهم وخبرتهم ، فعجبت .

— للمرة الثانية تذكرنى بأبى نزار زعيم النحاة ! .

— ولأى شىء ذكرتكَ به الآن ؟ .

— أنت تسب أهل الموصل ، وهويسب أهل الشام ، وكلاكما لا يعترف  
بإنسان ، فجميع الناس ... رعا .

— لى العذر إن شمت جميع الناس ، فهم لا يفرقون بين الدر والبحر ،  
وزعيم النحاة معذور أيضاً ، وإن كان يخاف الناس فلا يجاهر بسهم  
كما أفعل الآن .

— هو مجاهر مثلك يا مولاي ، وقصته مع نور الدين زنكى قد عرفها كل  
إنسان يقطن بلاد الشام ! .

— لم أشغل ذهنى قبل الآن بأبى نزار فأعرف قصته مع نور الدين ،  
ومع ذلك فأسردها على بإيجاز .

— لقد خلع نور الدين عليه حلة سنية ، ومرفى طريقه فرأى حلقة بها  
تيس يدره إنسان ، فقال المدرب لتيسه : إن بحلقتي رجلاً عظيم  
الشأن ، نابه الذكر ، فأين مكانه ، فشق الحيوان الحلقة ووضع يده

على زعيم النحاة، فلم يتمالك نفسه وتخلع عليه حلة نور الدين، وعلم بذلك فعاتبه، فقال النحاة: إن بهذه المدينة أكثر من مائة ألف تيس فما عرف قدرى غير هذا الحيوان فخلعت الحلة عليه فى ارتياح.

— أصاب زعيم النحاة، فأهل الموصل كأهل الشام فى...، وقد كنت أشرح لهم القاعدة العلمية وأقرأ النص الأدبى موضحاً محلاً فما يستفيدون شيئاً منى، فن ذا يلومنا على احتقار الدهماء!.

— كلامك رفيع يا مولاي، فالموصليون معذورون إذا لم يفهموه.

— اسمع يا بنى، ليس فى الوجود إلا...

— [ياقوت ينظر إليه مندهشاً].

شميم: هذا كلام لا تفهمه أنت ولا العامة، ولكنك لا تنكر مقدرتى على خلق الكلام.

— أعفنى من هذا الحديث يا مولاي، فلست من علماء التوحيد فأعلم من الذى يخلق الكلام.

— إذا لم تسر المناقشة كما أريد، فلن أتحدث معك فى علوم الأدب على الإطلاق!.

— لن نتحدث فى الأدب كما تريد يا مولاي، وسأسألك سؤالاً يتعلق بك، فأنا رجل محدث، وإن لم تكن بالمحدث جرأة مات بفصته، فهل تأذن بالجواب؟.

— أذكر السؤال أولاً، ولى الحق فى قبوله أو رفضه كما أشاء.

- لم سماك الناس «شما» مع أن اسمك الحقيقى على يامولاي .
- لقد مكثت مدة من عمرى لا أكل غير الطيب ، لأخفف الرطوبة ، وأقوى الذاكرة ، وكان الرجع يمتنع عنى بضعة أيام ، فإذا جاءنى كان أشبه ببندقة من الطين ، فكنت آخذه وأقول لمن يجلس معى : «شمة ، شمة» فإن له رائحة طيبة ، فكثرت ذلك حتى غلب على ولقبنى الناس بشميم .
- حسبك يامولاي ، فأنا أريد أن أسجل جميع ماسمعتة منك ، ولو طال بنا الحديث لعجزت عن حصره ، وستكون تسميتك هذه مسك الختام !! .
- لقد أمتعتك بجدبى ، وهو لا يباح لكثير من الناس ، فاشكر ربك على فضله ، فالأمر كما قال أبو العلاء :
- وكم عين تؤمل أن ترائى      وتفقد عند رؤيتى السوادا



## أحمد محرم يرثى والدته

أصبحت الجزالة عيباً شائناً لدى بعض من يتعرضون لنقد الشعر هذه الأيام، فهم يقرءون القصيدة الرصينة ذات الخواطر الصادقة والتعبير القوى ثم يشفعون قراءتها بابتسامة هازئة، فإذا سألتهم عن علة ذلك قالوا إنها الجزالة، فإذا استزدتهم إيضاحاً صاحوا بك تقليد وترديد لميراث قديم. وهكذا أصبح كل قصيد قوى السبك متين الأسر صلب العود تقليداً متكرراً للعصور البعيدة فى تاريخ الأدب، مهما حوى الخاطر الصادق وكشف عن الشعور الصحيح. ثم تراهم لا يعدمون بعد ذلك تعليلاً يلفقونه للناس إذ يزعمون أن البارودى حين رجع بالشعر إلى ديباجته الناصعة فى أزهى عصور الأدب إنما صوب اهتمامه الكبير للشكل دون المضمون، ثم أعقبه تلاميذ طريقته من أمثال شوقى وحافظ ومحرم والجارم وعبد المطلب فنهجوا نهجه على أبعاد متقاربة تختلف فى اللون لافى النوع، إذ يصدرون جميعاً عن الجزالة الرصينة وماهى غير استرجاع لما تدخر الحوافظ من معان متكررة فقدت الجديد فى أكثر ما تقول: وبعض سامعى هذا الكلام أوقارثيه يقع فى حيرة مضللة لما يجد من تعليقات تأخذ طابع النظر والاستدلال فى الظاهر، إذ يهجم أصحابها على التراث الأدبى هجوماً مغرضاً يتصيد بعض الشواهد من هنا وهناك لتدعيم قضية زائفة لا تركز على منطق صحيح، وإذا كانت الشواهد فى كل تراث أدبى شرق أو غرب مما تضم الزائفة والصحيح فإن هؤلاء يخذعون الكثيرين حين

يقصرون استشهاداتهم على الزائف وحده، وكأنه الطابع المميز لمدرسة البارودى، ولهم بعد ذلك أن يصبوا سخطهم على الجزالة فهى الداء الأصيل .

قال لى أحد هؤلاء: أنه يشعر بحب صادق للأدب العربى شعره ونثره، وأن هذا الحب الصادق هو الذى يدفعه إلى تحريره مما يسمى بالرصانة والجزالة، لأن الشعور الصادق الدقيق لا يمكن أن يرسم فى أنماط متوارثة يرتبط فيها اللفظ بأخيه ارتباطاً يجعله صاحب المقام الأول فى الأسلوب، والقارئ المعاصر يريد من الشعر إحساساً ونبضاً، لا وزناً وإيقاعاً، وجل أنصار الجزالة لا يصدقون عن خوالجهم الدقيقة، وآية ذلك أن الجديد لديهم من الشعور يخفق فى زحام من حاشد الرث القديم، ثم طلب منى ناصحاً موجهاً أن أعاود النظر فى حيدة وتجرد لأهتدى إلى الحكم الصحيح .

وحين رجعت إلى منزلى وجدت من نفسى نشاطاً لقراءة بعض الدواوين الجزلة فددت يدى إلى الجزء الأول من ديوان أحمد محرم، وهو شاعر عرف بالاهتمام كل الاهتمام بنصوع الديباجة، وقوة الجزالة، وقد نشر الجزء الأول من شعره قبل أن يعدو الخامسة والعشرين من عمره أى وهو فى مرحلة من حياته أدنى إلى التقليد منها إلى التجديد، فاحتمال التكرار المزعوم حينئذ أقوى وأشد! وقد قلت فى خاطرى أن شاعر الجزالة هذا فى يافع عمره الشعرى لن يأتيك بجديد، أو هو أخرى ألا يأتى بالجديد إذا صح ما يردده خصوم الديباجة الناصعة، فلتقرأ بعض ما قال لترى عن عيان! ولما كنت أميل دائماً - لشجى أعهده فى نفسى - إلى قراءة شعر الرثاء، فقد اخترت رثاء محرم لوالدته الراحلة وطفقت أقرأ فإذا قرأت؟



لقد بدأ الشاعر المفجوع ، فتحدث بعد المطلع الجزل عن وقع  
الفجیعة فى نفسه وأسرته فقال :

لعلك لم تشهد غداة ترجحت      بنا الأرض حتى أوشكت تتحول  
وسد علينا كل فج قال لنا      عن الهوى منأى أو عن الخطب مرحل  
وحتى ظننا البعث قد حم يومه      وحن الذى يغشى النفوس فتذهل  
غداة وقفنا للوداع نفيضها      قلوباً جرت من حولنا تتسيل

ولعلك تقول إن الرجل يتحدث عن شعور سائد عام ، فكل  
مفجوع بالموت يتصور أن الأرض ترجحت به وأن الدنيا قد سدت فى  
وجهه وأن القيامة قد قامت ! ولكن على رسلك وتأمل معى ، أترید  
من الشاعر أن يصور إحساسه جميعه أم تريد منه أن يتصيد المعانى  
البعيدة ، فإذا أردت جميع إحساسه فهناك اشتراك عام بين جميع  
المصابين أو بين أكثرهم فى بعض الأحاسيس الإنسانية ، فإذا اندفع  
الشعراء إلى تصوير هذا الحس المشترك ، فليست الجزالة هنا تهليداً ،  
ولكنها قيثارة ترسل لحنا صادقاً يعزف على أوتار القلوب مهما تردد فى  
الأسماع . وتلك ملاحظة أولى ننتقل منها إلى قول الشاعر الشاب  
ناهجاً نهج غيره من عشاق الحكمة الشعرية ذات المثل السائر .

أحاجيك ما قدر الحياة نريدها      على الكره ما فيها لنا متعلل  
أرى المرء فى الدنيا كمرورة (١) قارع      تشقق من أطرافها وتحلل  
تصارعه فيها الخطوب وإنه      لمستسلم يوماً لها فجندل  
يحاول أسباب النجاة ودونها      قضاء بإفناء النفوس موكل

---

(١) يقول أبو ذؤيب .

حتى كأنى للحوادث مروءة      بصفا المشقر كل يوم تقري

ستضرب كفاً بكف وتقول منتصراً هذا هو التقليد بعينه ،  
 فالصخرة التى تشقق من أطرافها وتحلل مما استهلكه الناس منذ أبى  
 ذؤيب الهذلى إلى عصرنا هذا تقول ذلك وتنسى أن الشاعر يهد  
 به . إلى الحديث عن عواطفه الخاصة ، ولو أنه ساق هذه الحكم  
 السائرة وسكت ما كان الشاعر المبدع الذى نخصه بالحديث ، ولكنه  
 ينتقل سريعاً إلى مشاعره الذاتية فيتساءل كيف يغادر الراحلة العزيزة  
 بفلاة موحشة تزحم بالقبور ، وقد خلا جانبها من النضرة والبهاء ، مع  
 أنها لو سكتت روضة يانعة من الرياض لكان الابن المفجوع ضئناً  
 على الروضة الغناء بعزيزته المفضلة ، تأمل صديقى الطرافة فى هذا  
 الإحساس . ثم يتساءل كيف تنفرد الأم بمكانها البعيد فلا يسمع  
 أحباؤها حديثها الشهى ، ولا يملئون برها السخى ، ولا يظالعون وجهها  
 السنى . إن ذلك ما يدعو إلى الذهول ذهولا لا ينفع فيها عذل أو  
 ملام ، بل إن العذل لينقلب إلى طرفة الآخر حيث يظن الابن  
 المسكين أنه عذل على التصبر والتجلد لا عذل على الجزع والهلوع ،  
 اسمعه يقول :

حرام علينا أن نغادر قبرها	بموحشة فيها المقابر همل
ولو ضمنتها روضة لوجدتنى	أضن بها حتى عليها وأبخل
اتفرد فيها لانغلاً برها	ولا يزد هينا وجهها المتهلل
ولا نسمع القول المشهى تقوله	فنطرب ما شاء النعيم ونغذل
كأنى وقد زالت وغيب آهأ	أخو جنة مما أقول وأفعل
ويعذلنى صحبى فأحسب أننى	لإمساك نفسى أن تصدع أعذل

أقرأت يا أخى هذا الشعر الحى فما عسى أن تقول فيه ؟ ثم تعال  
 معى نستعرض هذا المشهد الباكى الذى رسمه محرم لطفها الصغير

وقد انطلق يريدھا مقلبا عينيه حائراً دهشاً، وكأنه يلتاع للدار الموحشة  
حين أقفرت من وجهها. إنه ينظر فيرى أخته الكبيرة تشق ثيابها  
صارخة ناحية ثم تقبل عليه لائمة تحدّثه في انفعال مر، والطفل لا يعي  
ماذا تصنع وتأتى إلا أنه يستشعر حزناً لا يدري حقيقته على حين قد  
دراه الشاعر ووعاه. لن يجدى هذا التلخيص المتور شيئاً أمام قول  
الشاعر:

وماها جنى إلا ابن خمس يريدھا	وقد غاھا ماغال فالدمع مرسل
يقلب عينيه ويسأله ماله	يرى الربع منها وهو قفر معطل
وما بال من قامت تشق إزارھا	وتنحب لا تألو ولا تتجمل
وتذكره فعل الحفى وتنتحى	تكلمه حيناً وحيناً تقبل
خرجت به أهوه عنها وإنه	ليأبى فإ يلهو ولا هو يغفل
كلانا سواء فى التفعج والأسى	ولكننى أدرى المصاب ويجهل

هذا هو الصغير. أما من فوقه ممن درى حقيقة المصاب، فقد أخذ  
يعاجلھا التوديع، ولكن الموت كان أعجل منه فاخطفها غير عابىء  
بوداعه، ولا مكترث بلهفته حين أبصر عينها يغيض سناهما وسمع  
حشرجة روحها تعلو وتسفل فى حلقها، ثم راعه أن تسكت فجأة  
فهوى صارخاً يبكى بن النوادب وينوح.

وأخر لم يملك من الحزن نفسه	يعاجلھا التوديع والموت أعجل
دعاها وعيناها يغيض سناهما	وقد حشرجت فالروح تعلو وتسفل
فلما رأى أنفاسها قد تصرمت	هوى صارخاً بن النوادب ينكل

وقد تكون الصورة موجزة إذا قورنت بصورة الطفل، ولكنه الإيجاز

الموحى الملىء بشتى الانفعالات الحافل بمختلف الأحاسيس؛ إيجاز لا يترك قارئه دون أن يفجر فى نفسه من ضروب الشجى وألوان التأثير ما يجعله يستعرض الأبيات الثلاثة، وكأنه يستعرض صفحات هائجة تمر وتصخب! وقد كان محرم دقيقاً لبقاً حين تحدث عن والده فقال:

وأشيب صافاها وصافته حقبة	وللحب فى قلبها متغلغل
يقاسمها نعمة الحياة وبؤسها	وينهض بالعبء الذى هو أثقل
يناشدها الرجعى غداة تحملت	لطبتها والقلب بالوجد مشعل

أجل .. كان الشاعر دقيقاً حين أوجز حديث والده الأشيب ملماً إمامة الطائر بحبه المتغلغل فى أعماقه ونهوضه بعبء العيش وإنه لثقل . ثم مناشدته إياها الرجعى . ألا ترى أن محرم قد أحسن الرزاة والتعقل فى هذه المناشدة كما أحسن تصوير الهلع والفزع فى البنت الصارخة المجزع؟ معبراً عن كل موقف بما يقتضيه، وتلك هى الحاسة الدقيقة التى تحبب لنا الكبار من الشعراء وقد عاد الشاعر إلى نفسه فصور عواطفه الملتاعة حين سار بها الموكب إلى آخر مثنوى فقال:

أأماء هل تدرين ما صنع الأسى	بنفس عناها الخطب فهى تملل
وهل أبصرت عيناك أبة عبرة	شرقت بها والنعش خلفى يحمل
تسير اليتامى والمساكين حوله	فن هالك يبكى وآخر يعول
سخوا بالدموع الغزير يهل صوبها	سخاءك بالعرف الذى كان يذل
فإن يك ما أثنت عليك دموعهم	جزيلاً فما أسدت يمينك أجزل

وقد يقول قائل إن هذا مما يقال فى كل مشهد تشيع، وأنا أرد

على ذلك بأنه يقال فى كل مشهد تشيع لأنه شعور مشترك عام لا تكرر يلقى به دون قصد، والقارئ يستعرض نفسه حين يقرأ غيره، فيطرب له كل الطرب، إذ يجد ما يعبر عن شعوره فى بعض المواقف سارة كانت أم حزينة، وذلك يرتفع بالشعر ولا ينخفض به مادام يحمل من التأثير قوة تنتقل كهرباؤها قوة من نفس إلى نفس سريعة دون إمهال.

على أن المشهد لم ينته عند هذا الحديث المتداول بل تطرق الشاعر إلى إحساس خاص تفرد به تفرداً هو فيه السابق المبرز، إذ ذكر أن الأموات قد فرحوا كثيراً بمقدم هذه الزائرة الجديدة، فحفظوا لاستقبالها مرحبين مهللين إذ كانت رحمة من الله تؤتسهم فى مضاجعهم الموحشة، وإذا كان الحى منها محروماً على أرضه فقد سعد الميت فى باطنها بما عز على سواه أن ينال، هذا إحساس طريف بادها به الشاعر حين قال:

لقد علم الموتى ثواءك بينهم	وإنك فيهم رحمة الله تشمل
فبات لهم من حول قبرك ضجة	كما ضج من عال أجش مجلجل
فأعجب الأقسام يرزق ميت	ويعمر حى حبله بك يوصل

وقد فطن القارئ لاحالة إلى أننا نقصد بالطريف فى القصيدة الطريف من الشعور الحى والإحساس الصادق، أما ما يوحى به التكلف الذهنى والاصطياد العقلى من طرافة خادعة فلن تفلح كثيراً فى استثارة المشاعر لدى القارئ، وماهى فى مجال الشعر غير بروق خلب وسراب لا ينقع، وقد أجاد الشاعر الحديث عن نفسه إذ يقول:

أكنت سوى الدنيا فولى نعيمها  
لأقبل مما كنت أحذر مدبر  
ولو صدق الظن التقينا فسرنا  
إذ الدهر سلم لآيهم بفاجع  
فجعلنا بها كالشمس سال شعاعها  
لئن جتها بيت من الترب موصد  
أصدقائي خصوم الجزالة

هذه قصيدة شاعر جزل قالها فى دور التقليد ، ولم تمنعه الجزالة  
الرصينة فى فترة المحاكاة الأولى أن يصور إحساسه الصادق وشعوره  
المتقد ، وقد تجدون فى بعض المقابلات بين إقبال المخذور وإدبار  
المأمول وبين البيت الموصد والليل الأليل ما تعدونه ترديداً ، ولكن ألم  
يفصح الرجل عن نفسه إفصاحاً مبيناً فنقل عن خاطر مفجوع وفؤاد  
حزين مالا يستطيع كثير من أصحاب التهويم والرمز أن يبلغوه فهم عنه  
بعيدون ؟

أرى أنه أفصح فحالفه التوفيق .

\*\*\*

## الحب بعد فوات الشباب

ليس للحب سنٌ يقف لديها ، فالطفلُ والصبي والشاب والكهل والشيخ ، كل أولئك يحبون ، دون أن يفترق الحب لديهم فى جوهره ، وإنما اشتهر عهدُ الشباب بالحب ، لأنه عهدُ الأمل المورق ، والرجاء الواعد ، كما أنه عهدُ الفورة المتقلعة ، والعزيمة المتقدة ، وللشباب صراحته تعلن المستتر ، وتكشف المكنون ، أما بعدُ الشباب فإن الهدوء يسيطر لايُخفى الحب ، بل لينأى به تحت أطباق متراكمة ، فإذا استطاع دخانه أن يتغلّب على ما فوقه من رماد ، فإنه ينبعثُ فى الجو رقيقاً متطعماً ، وكأنه يمشى على استحياء ، ينبعث متعقلاً ، لا يُرسلُ الخاطرَ العابر دونَ فلسفةٍ شارحة ، ولا يبعثُ الدمعة المترققة دون اعتذار ، والفرق بين حديث الشاب وحديث الشيخ .. فرقٌ ما بين الرجاء واليأس ، لأن الشيخ لا ينسى فى هول مأساته أنه يسبحُ فى وجه التيار ، وأنه فى أطوائه لا يجد العذرَ الصريحَ لنفسه ، فكيف يقتنع سواه بمسلكه ! بل إنه ليطيل النظر إلى من يخطرُون فى ميعه الشباب متسائلاً كيف عجلتْ به الأيام ذون أن تنتظر؟ وإذا كان من الطبيعى أن تُعجلبه ، فكيف لم تُغصِف بعَوَاطِفِهِ المتقلعة ، وهوافه الظامئة . ولعل شوقى قد صدق فى تصوير احساس الشيخ ، حين قال على لسانٍ من أحبّ فى شيخوخة دونَ أن يملك رصيد الحب ، فانقلب هواه إلى حسدٍ مرير ، وشكّ قاتل ، يقولُ شوقى فى مسرحية كيلوباترة ، على لسان الشيخ اللهيف :

ويخى أَمِنْ بعد السنين  
تجنى الحسان على ما  
لم ألق رأساً فاحماً  
ووجدت لأفح غيرة  
فكأن ظلمة شعره  
وكأنما سَرقت ذوائبه  
ولو أن لى ولداً فا  
حذراً وخوفاً أن يكو  
شكٌ يعذب مهجتي  
وقد مَرَزَنَ بلا عُدَد  
لم تجن قبل على أحد!  
إلا حملت له الحسد  
بين الجوانح بَلَقَد  
فى مقلتي هى الرمد  
الشباب المفتقد  
ت لما بكيت على الولد  
ن بها تعلق أو وجد  
إن المشكلة فى كبد

والقلوب الكهلة أعمقُ من أن يسر غورها متأمل ، لأن تجارب  
الحياة قد أحسنت ميراسها على الكتمان ، وأتقنت ميراثها على الصبر ،  
فهما تحدث الكهل أو الشيخ عن لواعجه فهو يخفى أضعاف ما يُغلن ،  
ولا كذلك الشاب حين يندفع فيصف ما كان ، بل ربما دفعته أحلام  
اليقظة إلى أن يخلط بين الواقع والخيال ، فيتحدث عما تخيل وكأنه  
واقع لا شك فيه ، ودواوين الشعراء تمتلئ بصبوات ذوى الوجوه  
النضرة والشعر الأسود ، فإذا تغصنت الوجوه ، وابتضت الشعر فإن الغزل  
الآمل ينقلب إلى حنين يائس ، هذا الحنين يجد مكانه فى النفوس ،  
لأنه يحمل عُنصر الصدق الخالص ، ولدّع الألم الواخز ، وسنحاول أن  
نلم بأحاديث نفر من الصابرين كابدوا الحب فى الغروب ، بعد أن  
نعموا به فى الشروق ، فلم يعتصموا بالسكوت ، وكيف؟! والبوح  
تنفيس ، والكتمان دمار.



## (اسماعيل صبرى)

كان أستاذ الشعراء اسماعيل صبرى باشا.. رجل مُروءة وتصوّن ، وقد عبّر فترات الصبا والشباب دون أن يعرف برّج الحب ، حتى إذا جاوزَ الخمسين وصارَ مُحافظاً للاسكندرية لَفَتَ نظره ما للأميرة السكندرية من صِيتٍ مُدوّ ، فى عوالم الجمال والجاه والثقافة ، فهى وريثة مجد ارستقراطى هياها لأن تحوزَ لقب الإمارة ، وهى صاحبة ثقافة المُقية تعددت روافدها من الفرنسية والإيطالية والعربية ، ثم هى تُدير مجلّتين ذات لغتين ، تصدرُ إحداها بالفرنسية والأخرى بالعربية ، ولها صالون أدبى يزخر بأعيان الفكر والسياسة والثروة ، ولها رحلات فى الشتاء والصيف إلى أثينا العواصم شرقاً وغرباً ، وقد رأى الشاعر المحافظ أن يكتب فى مجلّة (أنيس الجليس) التى تُصدرها ، كما أجبر كبرياءه على أن يتعهدا بالزيارة المتصلة ، على غير عادته مع الناس ! وإذ كان أصحابُ ندوتها من العلية يُشاركون فى توديعها حين نهم بالسفر ، فإنّ الاكتفاء بالتوديع الصامت لا يشفى ظمأً يعتلج فى نفسه ، فلا بدّ وهو الشاعر العاطفى أن يُترجم إحساسه قهها وشى بسريرته ، وماذا يصنعُ والحبُّ كالزهر من شأنه أن يفوح ، وكالنجم من شأنه أن يومض ! وصبرى فى فته الشعرى لا يقول القصائد إلّا فى الأغراض العامة ، أمّا أحاسيسه الذاتية فيوجزها فى مقطوعات لا يتكلّف معانيها ، ولكّنه ينقل عن خاطره المباشر ، إنّه ليخشى أن يفتضح وجدّه ساعة الوداع حين يخذله قلبه فيهبى غير متماسك . ومَن هو؟ إنّه إسماعيل صبرى الذى رفض فى إباءٍ مصافحة العميد البريطانى صاحب الحكم فى مصر حينئذ ، ولكّنه لا يرفض أن يسأل قلبه حائراً خائراً :

أثري أنت خاذلي ساعة التو      دبع باقلب في غد أم نصيري  
 وبك قل لي: متى أراك بجنبي      راضياً عن مكانك المهجور  
 لست بعض الحداة بل أنت بعضي      قف قليلاً، فلست بالمأجور  
 ساعة البين قطعة أنت قدت      للمجنن من عذاب السعير  
 لا يخبني رُوحى الفداء لمأحيك      غداً من صحيفة المقدور

ويتوالى الرحيل والإياب، فيكرّر الشاعر هتافه الوجداني، وقد  
 منعه توفّره أن يسق، بل حافظ على كرامته، مستشعراً عدم الجدوى  
 من حب غير متكافئ، وقد رحله ربه حين انتقل من الاسكندرية  
 إلى وكالة الحفانية بالقاهرة، رحمه رداً ما، قدّر ما يكفّ آهاته،  
 ويخفّ دموعه، ولم يذر أن قلب الشاعر أخضر أنضر.. مهما تقدّم به  
 الزمن، وإذا كانت الثقافة والشباب والجمال أكثر ما جذبّه إلى  
 الأميرة السكندرية، فقد هيأت له معشوقة أخرى، أنضر شباباً، وألح  
 ثقافة من أختها، وإن لم تصل إلى مخنّدها الارستقراطية، أتيج له أن  
 يعيش الآنسة متى، وهو في سنّ السنين، وهي في الخامسة والعشرين،  
 وكانت زينة المحافل الأدبية في زمنها، يتهاف على ندوتها الشيوخ  
 والشباب معاً، فن الشيخ نجد أحمد لطفى السيد وشبلى شميل  
 ويعقوب صروف، ومن الشباب نجد عباس العقاد ومصطفى  
 عبد الرازق وأنطون الجميل ومنصور فهمي، لقد حاول شيخ الشعراء أن  
 يسكت خوالجه فما استطاع، كما حاول أن يكتفى بالحب الصامت كما  
 فعل يعقوب صروف وشبلى شميل وغيرها، ولكن الفرق واضح بين  
 شاعر وعالم، فالعالم يملك من وجدانه مالاً يملكه فتان تتردّد أنفاسه  
 بشعره، وإن لم ينطق، لقد لحظت الآنسة مى مواجهة، فكانت تخصّه  
 بلقاء خاص مجاملة لسته ومكانته، أما هو فكان يترقب يوم الثلاثاء

ترقب الظامىء للماء العذب ، وهو لا يقدر أن يجسّ أشواقه بل يصيح  
مُصرّحاً غير مجمم .

رُوحى على دور بعضِ الحى هائمه كظامىء الطير نوافاً إلى الماء  
إن لم أمتّع بمى ناظرى غدا أنكرتُ صبحك يا يوم الثلاثاء

وفى مّى قال اسماعيل صبرى أجل ما قاله من الشعر، لأنّ الغزل  
الوجدانى كان فنّه الأول فى دنيا القريض ، وكانت مقطوعات مّى  
فى حرارتها اللّافحة ، وبأسها المرير، ووصفها الدقيق .. أجلّ ما جرى  
به قلمُ شيخ الشعراء ، وطبيعىّ أنه لم يكن لينسى أنه شيخ ! وأنّ فاتنته  
الأدبية الرائعة لا تفتأ تذكره الشباب فيذكره آسباً ، وقد سجّل ذلك  
حين قال :

ثمّسى تذكرنا الشباب وعهده حسناءُ مرهفة القوام فنذكر  
تنب القلوب من الصدور إذا بليت وتظل من حدق العيون وتنظر  
وتبيثُ تكفر بالتحور قلائد فإذا دنّت من نحرها تستغفر

ومن إكبار إسماعيل فى ملئه ، أن أصدقاءه ، وتلاميذه جميعاً  
كانوا .. يعرفون مكنّ لوعته ، ثم لا يجردون على مواساته تبيّناً ، حتى  
إذا انتقل إلى جوار ربه اتسع المجال لحافظ إبراهيم كى يقول :

فيا وبح قلبك مادّا ألح عليه من الداء حتّى انفطر  
أيخفق تحت الدجى وحده لذكرى أليف سلا أو هجر  
فكم لك شكوى هوئى أو أسى لها نفثات تذيب الحجر  
هتفت بها قرّة فى الهجير فكاد يذُبّ إليك الشجر

## عباس محمود العقاد

وَوَقَعَ الشاعر العملاق عباس محمود العقاد فى الشَّرْكَ، لقد ذاقَ  
حلاوةَ الحب فى شبابه، وكتب عنه أروع قصائده، ثم تقلبتْ به  
شجونُ السياسة فانتحى معتزلاً فترةً من الزمن، وإذا ذاك هبط عليه  
الحبُّ بعد الخمسين ليعوضه من لَجِب المُخاصمة، وعراك السياسة..  
ما يُنعشُ الجدِّيب فى صمته الراكد، لقد أحبَّ ممثلةً حسناء فى  
مقتبل الشباب، وأوحى له من الخواطر ما سجَّله فى بادئ أمره مُفتراً  
فخوراً، ولكنَّ الأمورَ لا تدوم على حال، فبقدر ما هَلَّلَ للوافد الجديد،  
ويقدِّر ما بذلَ من شعوره وأعصابه وكرمه سعيداً محبوباً.. كَانَ وَقَعَ  
الصدود على قلبه، فَوَقَعَ الحجر الثقيل من رَأْس عصفورٍ صغير، لقد  
بكى العملاقُ وصرخ، وإن شقاءً أن يبكى العملاق.

على أنَّ الرجل الكبير لم يشأ أن يجعل حبه الغرب موضع سخرية  
بين المتندرين، فانطلقَ يكتب بقلم الباحث المحلِّ، والناقد المفكر،  
عن دواعى الحب فى سِنِّ الكهولة، موضحاً أنَّه بما لا غبار عليه، بل  
هو شيءٌ طَبِيعِيٌّ لمن جاوزَ مرحلةَ الصخب والضجيج، وانتهى إلى  
مرحلة التأمل العاقل، والبحث الوثيد، وقد أسعفه اطلاعه المديد  
على تواريخ الأُسُباه من رجال الفكر فى الشرق والغرب، فاستشهد  
بثوماس هاردى، وجيته الألمانى، إذ وَقَعَ كلاهما فى شَرَكِ الصبابة بعد  
الثمانين، وكلمةُ الثمانين فى هذا المجال مهولةٌ مرعبة، ولكنها كانتْ  
عكازَ العقاد الذى اعتمد عليه فى تبرير الصبابة لا عند الكُهل  
فحسب بل عند الشيوخ، وهو يعلم تماماً قول من يقول:

وَلَا كَهْوَى الشَّيْخُ إِذَا أَحْبَبَا      وَلَيْسَ وَرَاءَ غَيْرِهِم بَلَاءُ

إن العقاد ينقلُ عن توماس هاردى قوله «أنظرُ إلى المرأة فأرى هذه البشرة الذابلة تنقبضُ، فأتوجّه إلى الله مبتهلاً إليه: أسألك يارب إلا ما جعلت لي قلباً يذبل مثل هذا الذبول» .

فإذا يُوحى قولُ توماس، إنه يُوحى بقرعِ المرعب من حب غير متكافئ، وأقولُ غير متكافئ لأن الحب لم يهبط على شيخ قيسوفه إلى عجز مثله أبداً، ولكّته يسوقه إلى ذوات التضارة ممن يمتنّ حاملات في بُرد الشباب! وهنا تقعُ المأساة، لأنّ الشابة الحسنة إذا استجابت إلى صباية شيخ فإنّها حين تستجيب تعطف ولا تُحب، وإذا كان الحب عطفاً فلن يدوم، لأنه صدقة تمنح، ولا يعيش إنساك محترماً على الصدقات!

أما جيته فقد سلّقه العقاد بلسان الملام حين كُتب عنه وهو فى سن الأربعين، يلومُه أن عشق فى سن الشيخوخة، وقد مرّت الأعوام على العقاد لتُندره بمأساة كمأساة جيته، بل لتجعله يُقدّم العذر للشيخ الكبير، على ما أفرط من ملام لا مبرر له فيقول:

يا صديقى القديم جيتى اعتذراً      لك من سوء ظنّتى وملامى  
كنتُ أنعى عليك حبك فى الستة      من بنت العشرين، فاغفر  
إن عَشِفْنَا كما عَشَقْتَ وأَوْفَيْنَا      عليها، انتقمْتَ خير انتقام!

وأعجب ما اضطرّ إليه العقاد فى بلواه هذه أنّه اضطرّ إلى أن يتنازل عن حقوقه كعاشق، فقد كان فى زهو الشباب يُحاسب صاحبتَه أشدّ الحاسب دون أن تُذنب شيئاً، وهو الآن يرى الذنب الواضح فيضطرّ إلى التفاضى عنه دون حساب، بل هو يضطرّ إلى قبوله فيقول:

أعفبك من حلية الوفاء      إنك أحلى من الوفاء  
خونى فما أسهل التقضى      عندى، وما أسهل الجزاء  
وليس بالسهل فى حسابى      فقدك يازينة النساء

وإخال العقاد يقول أمثال هذه الخواطر فى ساعات الضيق  
الكارب، حين تتسُدُّ أمامه الأبواب ويقفُ حائراً لا يعرف كيف يجتازُ  
طريقه إلى الفضاء الفسيح، لأنَّ مثله فى شموخه وكبريائه قد غانَى  
إعصاراً رهيباً ضغط عليه، حتَّى هوَّن عليه أن يكتفى بما لا يكتفى به  
المتعب الغيور، هذا الإعصار الرهيب أحسَّه العقاد، وشكا أمره إلى  
الناس حين قال:

تحديثُ الحياة فهل جزئنى      بهذا الحب عن هذا التحدى  
أعودُ إلى الحياة لكى ألاقى      همومَ المستعبدِ المستعبد!

## ( أحمد محرم )

أحمد محرم كان الثانى بعد شوقى لدى كثير من النقاد، لأنَّه يفوق  
حافظ إبراهيم مبنى ومعنى، وقد عاشَ عمره الطويل محروماً من الجاه  
والمنصب، وإن رُزق من الشهرة فى جيله حظاً طار به إلى آفاق  
العالم العربى، وأعجب مانراه فى سيرته... أنه لم يشتغلْ بغير القضايا  
الاسلامية والوطنية والاجتماعية فى أغراضه الشعرية، أمّا الغزل فلم  
يَعرف غير نمطه التقليدى يسوقه فى إفتتاح القصائد جرياً على سنة  
الأقدمين، واحتذاءً لأستاذ مدرسة البعث محمود سامى البارودى،  
حتى رُمى فى سنِّ الستين بحبِّ عاصفٍ لاحيلة له فيه، إذ هامَ  
بمدرسة شابة بإحدى مدارس دمنهور، وهو هيامٌ يائس غصفت بشيخ

بائس، لا يملك قوت يوفه.. إلا بجهد جاهد، وقد كشف الدكتور محمد ابراهيم الجيوشى عن مأساة هذا الغرام فى كتابه عن محرم، كما حدثنى الأستاذ عبد المعطى المسيرى صاحب القهوة الأدبية بدمهور.. التى كانت لعهد نذوة الأدباء. أن غرام الشاعر قد ظلَّ شغل الندوة الشاغل، لأنَّ الشاعر كان يترفع عن مجالسة كثير من المنتسبين للأدب ادعاءً، فانتهزوا محنة قلبه ليجعلوه موضع التهمك، إذ يحكون عن الشاعر أنه كان ينتظرُ صاحبتَه ليحملَ حقيبتها مودعاً إياها، حين تسافر، ومستقبلاً، حين تعود، وقد سافرَ إلى بلدتها (ميت غمر) فى الإجازة الصيفية ليحظى برؤيتها من بعد، وكان يرحلُ من دمنهور حين تنأزم مشاعره فراراً من تجواله الاضطرابى حول مدرستها دون موجب، وكأنه سجل ذلك حين قال:

عصف الهوى بجوانح المشتاق	وهفَّ الحنينُ بقلبه الخفاق
ما يفعلُ القلبُ الطروب إذا الهوى	بلغ القرار وجال فى الأعماق
يا صاحبي فيم المقامُ على الأذى	سِرْ فالبلاد فسيحة الآفاق
ما كنتُ أوتر أن أفارق موضعي	لولا القضاءُ وحكمة الخلاق

وقد اشتعلتِ الحرب العالمية الثانية أثناء صبايته الدامية، فلم يخلصها بقصائد ناثرة كما فعل عند اشتعال الحرب العالمية الأولى، ولكنه اتخذ شُبوب هذه الحرب باباً للحديث عن حربِ هواه، فهى أعظمُ هولاً، وأسوأ عاقبة، فقال:

النارُ نارُ الحبِّ لانار الوغى	لكنَّ من جهل الهوى لا يعلمُ
كم من دم يجرى بمعترك الهوى	مامثلة فى ساحة الهيجا دم

ما القتلُ عند ذوى المعارف والنهى      إلا حبيبٌ من حبيبٍ يحرم  
ياربِّ كُنْ لأحبتى ((لرفقتى))      فالعيشُ إن وقع الفراق محرم

هؤلاء ثلاثة من أعلام الشعر.. لم نشأ أن نتجاوزهم إلى شيوخ  
آخر من غير الشعراء ، كابدوا فى ثلوج الشيخوخة برح الهوى ، ثم  
كانت العاقبة أن أثاروا النائرة عليهم دون أن ينالوا بعض ما يرتجون !  
ولعلَّ العقاد كان أشدَّ وجيعاً حين نقل للقراء قولَ توماس هاردى ،  
إذ رأى غصونَ وجهه الجهم وبياضَ رأسه الأبيض : ( أسألك يارب أن  
تجعلَ لى قلباً يذبل ، كما ذبل وجهى ) .. وهيات ! فليست الوجوه  
كالقلوب .

\*\*\*



## غلامٌ صَغِيرٌ بالصَّعِيدِ يَسْتَقْبِلُ سَفِيرًا فِي مَنْزِلِهِ

للنبوغ علاماتٌ تُلَوِّحُ بشائرها في سماتِ النابغ الصغير، إذ يدلّ  
الاهلال التامى في ليلته الأولى على ما يُوقَل فيه من إشراقٍ زاهر حين  
يصيرُ بداراً مكتملاً، وقد تختفى هذه العلاماتُ، إذا لم تُتَحِ الفرصة  
لظهورها، ولكن تكنُ في الأعماق، كما يكنُ الجمرُ تحت الرماد،  
حتى إذا سنحت الفرصة المناسبة توهجت الجذوة توهجاً ساطعاً، وقد  
ألِفَ الناس أن يَخْصروا النبوغ في الإبداع علمياً وفنياً، ولكنه في  
حقيقته يمتدُّ إلى السلوك الشخصي، لأنَّ المواقف الإنسانية تُظْهِرُ في  
كثير من الأحيان فنوناً من النبوغ تقفُ جوارَ المعارف من فنونه  
الإبداعية الأخرى، فيكونُ لها من الروعة ما يملك النفوس ويأخذُ  
بالألباب، وحديثنا الآن عن غلام نابغة لم يتجاوز العاشرة من عمره إلاَّ  
بعام واحد حمل إليه سفيرٌ كبيرٌ رسالةً ذات شأن، فأبدى من بشاشة  
اللقاء وآنزان التصرف، وبلاغة الأخذ والرد، وحرصاً الاستقبال  
والتوديع، ما كانَ موضع الإعجاب الزائد من السفير الزائر، حين قرن  
هذا السلوكَ الممتاز من الغلام الناهض بما يلحظُ من حداثة سنّه،  
وطراوة عُوده، فكتب عنه صفحات رائعة في مذكرات أذاعها بين  
قومه، هذا الغلام الناهض هو علّى رفاة الطهطاوى نَجْلُ المصلح  
التربوى الأشهر رفاة الطهطاوى، وقد صارَ فيما بعد أحد رجالات  
مصر المعدودين، إذ تركَ المؤلفات النافعة، وتولّى وكالةَ نظارةِ  
المعارف، وآنحازَ للثورة العرابية عن إيمانٍ بمبادئها الدستورية، ثم أحيل

للمعاش انتقاماً لمسلكه الوطنى، فعكف على الإنتاج العلمى..  
مواصلًا رسالة أبيه، واستعاضَ عن منصبه الرسمى، تقدِيرَ المنصفين،  
وإجلالَ العِلْية شرقاً وغرباً من المفكرين، وذلك إجمالاً يحتاج إلى  
تفصيل .

### (لمحة تاريخية)

لا نريد أن نُؤرِّخ لرفاعة الطهطاوى، فأكثر ما يُقال فى ترجمته  
تَحْصِيلُ الحاصل، لأنَّ تاريخ هذا النابغة الأملى من الذبوع  
والسيرورة، بحيث لا يُضيف الكاتبُ جديداً ذا دل، ولكتى أشير إلى  
بعض الملابسات الخاصة برحلتيه إلى السودان، لصلتها الوثيقة بما  
نُريد من الحديث عن ولده النابغة، لنكتمل الصورة فى إطارها  
الجميل .

لقد كان رفاعة رائد الثقافة فى مفتح هذا العصر، وقد أشرف  
بعد رجوعه من فرنسا على مدارس الطب والهندسة والحريّة إشراقاً  
علمياً دعاة إلى ترجمة كتب كثيرة تتّوع ولا تتحد، وعلى يده تخرّج  
أفذاذ النهضة العلمية الأولى فى شتى اتجاهاتها، وكلّهم يدين له  
بالفضل، وتُسجّل استاذيته، فى مقدمات ما يُخرج من المطبوعات، ثم  
تجلّت همته الكبرى حين اقترح إنشاء مدرسة الألسن لتتنقل أوروبا إلى  
مصر، بدل أن يذهب نفر محدود من تلاميذ مصر إلى أوروبا فلا تمتد  
الفائدة إلى مدى فسيح، بل تنحصر فى آحاد لا عشرات، وقد آنت  
مدرسة الألسن أكلها الطيب فى شتى فروع المعرفة لأنها أدت رسالة  
كليتى الآداب والحقوق معاً. إذ قامت على تدريس اللغات  
الأجنبية، وأدب اللغة العربية والتاريخ والجغرافية والتشريع الإسلامى

وبعض القوانين الوضعيّة، وأعدّت نخبةً من رجال مصر الذين تحرروا الصحافة المصرية إبان نشأتها، وألّفوا الكتب العلميّة — والأدبيّة — ودرّسوا في المدارس العالميّة، ووقفوا على نشر المخطوطات العربيّة، وترجموا المؤلفات الأوروبيّة، ولو اطرّد أمر هذه المدرسة على نحو ما رسم لها رفاة من حُظّة لتقدّمت النهضة العلميّة والأدبيّة على وجه سريع، ولكنّ عباس الأوّل تولى حَكَم البلاد، وفي نيته أن يؤصد المدارس، وقد صدّق المؤرخ الإيطالي (ساماركو) حين قال عنه «إنّ أظهر ماتيسم به حكومة عباس الأوّل هو عداؤه الوحشيّ للحضارة الغربيّة، وكرهه العنيف لجميع الأعمال التي كوّنت مجدّ جدّه محمد عليّ، فبذل كلّ الجهد في تحطيمها شيئاً فشيئاً» مع ملاحظة أن إغلاق المدارس ليس إعتداءً على الحضارة الغربيّة.. قدّر ما هو اعتداءٌ على الحضارة الإسلاميّة، والتزبيّة العربيّة، وطبيقيّ أن ينقّم على رفاة لأنّه رمز الثقافة وأستاذ النهضة العلميّة، ولم يجذّ جُرمًا واضحاً يؤاخذه به فاهتدى إلى نقيّه مع نخبة من أساتذة مدرسة الألسن، إلى السودان، ليقوم على إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم، ولكّ أن تعجب لمن يؤصد المدارس بمصر، ويُصرّ على فتح قدّرة بالسودان، لا ليدرّس بها من تخرجوا من مدرسة الألسن، بل ليدرّس بها أساتذة المدرسة وعميدّها ويُخبّل إلى أنّ مثل رفاة لا يخلو من خصوم يتملقون عبّاساً حين يعرفون هدفه التدميريّ، فيؤخّون إليه أنّ رفاة أساس التهضة العلميّة في مصر، وقد استنتج المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعي أنّ كتاب (تلخيص الإبريز) كان من أسباب نفيّه إذ تحدّث رفاةً بإفاضة عن الدستور الفرنسي، وعن مجلسي البرلمان، وحقوق الأُمّة في مُحاسبة الحكومة ومراقبتها، وعن المساواة بين جميع الأفراد

فى الحقوق والواجبات؁ ورفع الدعوى الشرعية على الحاكم إذا صدر منه ما يخالف العدل؁ مع قيامه بالتنفيذ الفورى لما صدر ضده من أحكام؁ كما بين حرية النشر؁ وانطلاق الآراء الصريحة ومجانبة الظلم؁ بحيث لم يسمع ولم يقرأ فى باريس عن أحد تقلّم من الضرائب! واستنتاج الراقى سليم لاشبهة فى صحته؁ إذ لا يعقل أن يطبق عباس من سطر هذه الأفكار فى كتاب طبع مرتين؁ وذاع أمره بين القارئين؁ وحفظت نسخته فى مكتبات مدارس الطب والهندسة والحربية والألسن.. لتكون فى متناول الأيدى؁ وتحت عيون الطلاب؁ وقد عجبنا للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم حين رأى أن من المحتمل أن يكون لعللى مبارك يد فى نفى رفاة؁ ليأخذ مكانته إذا بعد؁ لآتى قرأت ما كتبه على مبارك فى الخطط التوفيقية عن رفاة فرأيناه يرتفع به إلى مستوى رائع؁ ويشيد بمآثره إشادة المعجب الفخور؁ فكيف يسعى لنفيه ليأخذ مكانته! وأتى مكانة سبقي لمثله فى مضمار التربية والتعليم؁ والمدارس موصدة؁ والمتقفون مضطهدون؁ لو أن مدرسة الألسن على الأقل قد بقيت وأبعد عنها رفاة لجاز للدكتور عزت عبد الكريم أن يفرض هذا الاحتمال؁ ولكن الميدان قد أقفر فأئى منافسة نتاح؁ وكلا الرائدنين مصاب؟

## الرحلة إلى السودان

سافر رفاة إلى السودان مع نخبة من أكابر علماء مصر؁ لينشئ مدرسة ابتدائية بالخرطوم؁ فتخرج المدلة صابراً ولكنّه كان مثل الجندي الذى يوجه إلى المعركة؁ لايهمه أن يكون فى الساقة أو المقدمة أو القلب؁ فأخذ للأمر سبيله الموفق؁ وأدهشه أن يرى فريقاً من تلاميذه

بالخرطوم ، وهم الذين اختارهم محمد على عند رحلته إلى السودان ليكونوا طلبة بكلية الألسن ، تحت رعاية رفاة ، ثم رجعوا إلى الخرطوم ليعملوا فى وظائف الدولة ، وإذا كان رفاة أزهريّ النشأة ، فقد آثر أن يجمع نفراً من طلاب العلم خارج المدرسة الابتدائية ليقراً معهم كُتُب الأزهري ، وهو يقول عن ذلك فى كتابه - مناهج الألباب المصرية - « ومع أنّ الإقامة بتلك الجهات كانت مجرد الحرمان من النفع الوطنى ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سقى لم يضع هباء منشوراً ، فقد تعلّم فقهاء ، الخرطوم ممن معى من المشايخ القراء ، تجويد القرآن الكريم ، وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك » .

ولا أدري لماذا يحاول بعض الأفاضل أن يتجاهلوا أثر رفاة فى النهضة العلمية بالسودان ، لالشيء سوى أنه كان ناظراً لمدرسة ابتدائية ، بل امتدّ هذا التجاهل إلى الأثر المصرى بنوع عام ، مع أن طلبة العلم بالسودان قد أخذوا يؤمنون الأزهري الشريف منذ ظهرت سلطة (دافور) سنة « ٨٤٨ هـ » ، ومن بعدها مملكة القونج بسنار سنة « ٩١٠ هـ » ، ولا يزال رواق السنارية بالجامع الأزهري يحمل هذا الرسم إلى عهد قريب . قبل أن تُنشأ مدينة البعوث الإسلامية ! وفى دواوين الشعراء السودانين قصائد جيدة فى تكريم الأساتذة المصريين وقضاة الشرع ممن وفدوا إلى الخرطوم ، فكانوا منارة توجيه ، ومنيع تقيف ، وفى طليعتهم محمد مصطفى المراغى ، ومحمد شاكر ومحمد الخضرى وعبد الوهاب النجار وعثمان زاتى ، فهل هتف هؤلاء بتكريم أساتذهم دون تعبير عن واقع ملموس ! مهما يكن من شيء فقد أدى رفاة واجبه ، ولكن الذى ضاعل من قيمته هو مقام به من الشكرى المتكررة استياء لما حلّ به حين أنزله عباس عن قدره ، وأشعره بالنفى

المجحف ، دون ذنب ، وقد رأى رفاقه يتساقطون صرعى لعدم احتمالهم حرّ السودان ، ولإحساسهم أيضاً بالاغتراب فى غير ميدان ، إذا لو كانت الرحلة للتدريس فى مرحلة عالية ، لاستهانوا بكل شىء ، ولكنهم أجبروا على السفر، ليؤدوا وظيفة فقيه الكتاب أو معلم الصف الأول من المدرسة الابتدائية ، وقد تعلموا فى فرنسا ليكونوا قادة الشباب ، لاليعلموا الأبجدية ، ومسائل الجمع والطرح للأطفال .

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

لقد ردّد رفاعه شكواه نثراً وشعراً ، فتوجّه بقصيدة ضارعة إلى حسن باشا كتحدا مصر ، وكان صاحب حظوة لدى عباس الأول يقول فيها :

وما خِلْتُ العزيز يريد ذلّي	ولا يبصغى لأخصام لداد
لديه سعموا بالأسنة حداد	فكيف صغى لألسنة حداد
مهازبل الفضائل خادعونى	وهل فى حربهم يكبو جوادى
ورُخِرْتُ قولهم إذ مؤهوه	على تزبينه نادى المنادى

كما رأى من الخير أن يشغل نفسه بعمل أدبى جاد ، فنهض بترجمة القصة الفرنسية الشهيرة « تليماك » ، وقال فى المقدمة التى بدأ بها :

« وإنى قد توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس مما قضاه الله مفراً ، ألفت برهة خامد الهمة ، جامد القرينة فى هذه الملمة ، حتى كاد يتلفنى سكير الجحيم الفائر بحره وسمومه ، وبلغنى فيل السودان الكاسر بخرطومه ، فما تسليت إلا بتعريب (تليماك) وتقريب الرجاء بدور الأفلاك» .

## السفير الأمريكى

كان الاستاذ (بايارد تيلور) شاعراً كاتباً من نوابغ الأمريكين ، وقد عين سفيراً للولايات المتحدة فى برلين لمدة طويلة ، ولكن حب الرحلة قد ملك عليه نفسه ، فجال كثيراً فى بلاد الشرق والغرب ، وكتب عن رحلاته أسفاراً ممتعة ، ومنها رحلته إلى السودان ، حيث التقى برفاعة الطهطاوى ، وانهقدت أواصر الصداقة بينهما ، وقد خصّه بفضل قيم فى كتابه عن السودان ومصر ، ترجمته الأستاذ عبد اللطيف النشار إلى العربية ، وفيه يذكر أن رفاعة رافع الطهطاوى من ذوى الثقافة العالية ، والذكاء المتوقد ، وقد أحزنه كثيراً أن يُنفى عن بلده إلى مكان تنتشر فيه الحمى القاتلة ، وكان يخضع لرقابة شديدة من مصر تفرض عليه ألا يتسلم خطاباً إلا عن طريق الحكومة ، وهى بدورها ترفض الرسائل وتقف على بابها ، وقد اكتسب محبتي وعطفى؟! إذ كنا نسهر كثيراً فى منزل القنصل الأمريكى ، وإذا ذاك يطمئن إلى خلو المكان من الرقباء ، وفيض فى ذكر آلامه دون تحفظ ، وقد علم برحيلى إلى مصر عن طريق النيل ، فأسر لى فى مكان خال أنه يريد أن يبعث معى رسالتين إحداها إلى ولده الصغير بطهطا ، والأخرى إلى المستر مورى القنصل الانجليزى بالقاهرة .. ذاكراً أنه لا يستطيع أن يأتمن البحارة المصريين ، إذ ربما أذاعوا الأمر فيبقى فى المنفى دون رجوع .

## غلام ممتاز

يقول الاستاذ (بايارد تيلور) نقلاً عن ترجمة النشار ببعض التصرف :

وبعد تحريات قليلة وصلت إلى منزل رفاعه ، ولم يؤذن لى سريعاً بالدخول لأن السيدات المصريات لا يسمح لهن باستقبال الأجانب ، فجلست فى قاعة واسعة مفتوحة الأبواب ، ريثما ذهبت خادم لتأتى بنجل رفاعه ، وما لبث أن جاء ، وكان عمره أحد عشر عاماً ، ولكنه أطول قامه ممّن هم فى مثل عمره ، وقد ابتسم حين رأتى ابتسامة عذبة ، ولولا إلمامى ببعض عادات هذا الشعب ، لمددت إليه يدى مرحباً فى احتفال ، وطوّقت خصره بذراعى محتضنا ، ولكنى صبرتُ حتى رأيته يجيئنى فى وقار وجلال كما لو كان رجلاً كبيراً له سمت وأبهة ، ثم تناول يدى فأدناها من قلبه ، ثم شفّيته ثم جبينه وجلس بجانبى ، وصفق طالباً القهوة ، ثم سألتنى : كيف صحتكم يا صاحب السعادة ؟ فقلت : بخير والحمد لله فقال : هل لديكم أوامر لى ؟ مروا نطاعوا ..

قلت : أشكر لك لطفك ، وليس لى إلا تحيات أحملها من أبلك مع خطاب طلب أن أسلمه إليك يدا بيد . ثم دفعت الكتاب إليه فوضعه على قلبه ، ثم قبّله ، وفضّ غلافه ليقرأ ، وبعد انتهائه توردت وجنتاه ، وسطعت عيناه ، وسأل :

هل معكم كتاب آخر يا صاحب السعادة ؟ قلت نعم .. وسأسلّمه إلى صاحبه ، قال أصبّت ؟ ومتى تصلون إلى القاهرة ؟

قلت : الأمر يتوقف على حالة الريح مع السفينة ، وأظن المدة لا تتجاوز سبعة أيام ، ورأيت الصبى ينظر إلى معلّمه ، فدنا فأسرّ إليه بكلمات ، لم يلبث أن جاء بعدها بشراب لاشىء فيه سوى عصير الليمون المحلى بالسكر ، ثم جىء بالرمان فأكلت ، وسألتنى الصبى أن



أشرفه بالبقاء لديه هذا اليوم ، ولولا أنى كنت أرى وجهه وهو  
يحدثنى ، لظننت أننى أحادث رجلاً ، فقد كان هذا الصغير من  
الجلال والقوة ، كأنه من عطاء الرجال !

وتجمع الناس حولنا فرحين ، كأنهم اعتادوا أن يروا هذا النضوج  
المبكر من الأطفال ، وكنت مضطراً إلى أن أتخذ حباله من الاحتشام  
والكلفة كما لو كان حاكم المدينة ، على أن ذلك لم ينقص محبتي إياه  
وبعد ساعتين أو ثلاث عدت إلى السفينة التى جرت فى بطء إلى  
الشمال ، وقد نهض الصبى عند نهوضى ومشى إلى جانبى إلى آخر  
حدود المدينة ، والناس من ورائنا يسرون فى أكمل نظام ، حتى إذا  
بلغت السفينة حيأتى مودعاً كما حيأتى مسلماً ، وقال : أسأل الله أن  
يجعل رحلتكم سعيدة يا صاحب السعادة وأنهى السفير حديثه بقوله :  
لقد بدا لى أن منظر استقباله ووداعه ، والوقت الذى قضيته معه ،  
كان قطعة من مشاهد ألف ليلة وليلة ، ولو نسيت فلا أنسى تلك  
الذكرى الجميلة بالنسبة إلى .

## مَنْ الغلام

أما الغلام الناهض فهو على رفاعة رافع باشا فيما بعد ، وقد تقلبت  
فى المناصب حتى بلغ وكالة المعارف فى عهد ناظرها عبد الله فكرى ،  
كما رأس تحرير روضة المدارس ، وألف من الكتب عدة آثار ذكر منها  
الزركلى فى الأعلام كتابى (١) قدوة الفرع بأصله ، وحب الوطن  
وأهله ، وهو نفحة من روضة أبيه (٢) رقم العلم فى رسم القلم ، كما  
أن له رسائل أدبية منها ما بعثه إلى صديقه عبد الله فكرى بالإضافة

إلى شعر رائع بالنسبة إلى زمنه ، توجد قصيدة منه ، فى خاتمة الآثار الفكرية ، ولا أدلّ على شدة حياته ، من موقفه من رثاء والده ، فقد انتقل رفاعة إلى رحمة الله ، وولده قائمٌ على تحرير مجلة روضة المدارس ، فأثر أن يكتب عنه مانشرته جريدة الوقائع المصرية فى تأيينه ، ليكون الرأى سواه ، فلا يظنّ أحدٌ به مبالغة إذا تحدّث عما يعلم ، وكم بذل من جهد نفسى فى كظم لواعجه نحو أبيه ، مع أنّ الناس جميعاً يعرفون من رفاعة ؟ وأى مصلح كان .

## فى الثورة العربية

انضم على رفاعة إلى صفوف الثائرين تحت زعامة أحمد عرابى ، وخطب وكتب وراسل وجادل فى تأييد الثائرين ، وقد كان وكيل النظارة فى وزارة البارودى ، ثم أحيل إلى التقاعد عقاباً له بعد إحقاق الثورة ، وكان محمد سلطان باشا قد ألح عليه أن ينضم إلى جماعة الخديو فأبى وأنكر أن ييؤ هذا الإثم ، ثم انطفأت الثورة بتأثير الخيانة ، وقابله محمد سلطان ساخراً ولكن فى مداعبة شعرية .

يقول أحمد تيمور باشا فى حديثه عن محمد سلطان بعد أن ذكر دوره فى الارتقاء فى أحضان الانجليز ، ثم اشمئزازهم منه بعد ذلك :

« حدثنى على رفاعة باشا نجل رفاعة بك الشهير قال : كانت بينى وبين سلطان باشا وحشة ، ازدادت حين جعلت وكيلاً للمعارف إبان الثورة العربية » ثم عزلت من هذا المنصب بعيد الثورة وقصدت السفر إلى بلدتى (طهطا) فلقيته بالقطار ، فلما وقعت عينه على ، قال : إيه يا على بك لقد أجاد الشاعر فى قوله :

برغم شبيب فارق السيف كفه      وكانا على العلات يصطحبان

فقلت نعم أجاد ، وأجود منه قول الآخر:

إنى لأفتح عينى حين أفتحها      على كثير، ولكن لا أرى أحداً

وسلطان يريد بشبيب أحمد عرابى ، فرد عليه على رافع بما يدل  
على أن من بقى بعد الثائرين هباء لا قيمة له ! فهو يفتح عينه على  
أشباه الرجال فحسب ، أما الرجال فقد ذهبوا منذ انطفأت الثورة بعد  
اشتعال . والبيت الأول للمتبنى ، والبيت الثانى لدعبل ، وكلاهما  
هجاء .

\*\*\*

## أبو نواس يحج

شغل الحسن بن هانئ أذهان معاصريه ، فقد كانت سيرته ذائعة شائعة يتناولها الظرفاء متندرين معجبين ، ويتناقلها الزهاد لاثمين ناقلين ، وهو لا يفتأ بضرم النار ويشعل الوقود بما ينظم من شعر ماجن يتردد صده في كل ناحية وترنم به الحداة في كل ركب ، وكثيراً ما يشفع القول بالعمل فيلجأ إلى الديارات الخليعة ويتصدر الأندية الداعرة ، يعب الخمر وينادم المرد ، ويقود الأسراب الطائرة إلى منابع السكر ، حيث تتجاوب الأوتار ، وتدور الكؤوس ، وترأس أبلّيس الحفل ، فيفتح باب الغواية على مصراعيه ، ويوسوس لكل ماجن بما يسىء المروءة ويغضب الخلق الكريم .

وشاعر هذه نشأته وسيرته لا يمكن أن يفكر يوماً من الأيام في الحج ، بل ربما نفر منه ودعاً إلى حربه ، حيث لا يعود عليه بفائدة مما يبتغيه . وإذا كان شعراء الغزل في الدولة الأموية قد وجدوا في هذا الموسم الحافل معرضاً فسيحاً للجمال الفائق ، فحفوا إلى التمتع ببدائعه الفاتنة ، فإن الحسن لا يجد به مآدبه المشتهاة ، فقيم السير إلى مكة ؟ وعلام يتحمل الشاعر في سفره المشاق ؟ بل إنه سئل عن موعد حجه فقال مستهتراً كهادته « إذا نفدت لذات بغداد (١) » وهيات أن تنضب موارد اللهو في دار السلام !

---

(١) قال أبو نواس :

وقائل هل تريد الحج قلت له نعم إذا أفنيت لذات بغداد

ولكن الثابت فى التاريخ - على رغم ما تقدم - أن أبا نواس قد حج البيت المكرم فطاف مع الطائفين ، ولبى مع الملبين ، وقد غمره شعور سماوى هيمن على عواطفه فأنطقه بتساويح خالدة ، تستمد نغمها الحلو من قيثارة فاتنة . فكيف ينبع فى الصحراء الموحشة نهر دفاق «ملء؟ سؤال يتطلب رداً مقنعاً ، ولعل الإجابة تظهر فى تاريخ الرجل ، فقد كان من حظّه العاثر أن يهيم بجارية تمقته وتزدره ، وترسل قذائفها المحرقة فوق رأسه وهو سليب العقل ، طائر الفؤاد ، يسير وراءها أنى سارت ويبعث خلفها الرسل يستعطفون منها قلباً جامعاً ، لا ينبض برحة هالك ، ولا يستشعر حناناً لمدنف . ولقد كان هذا عجيباً منه أى عجيب ! فقد اشتر طيلة حياته بمجانبة الغيد ، فكيف يتورط إذن فى هذا الحب الجديد؟

كانت «جنان» جارية عبد الوهاب الثقفى ساحرة فاتنة ، ذات وجه أزهر صبيح ، إذا تأملتة تعاظمك الإقرار أنه من البشر - كما يقول عنه الحسن - تجمع إلى دل الحديث وسحر الملامح ذكاء وقادراً ، وفهماً عميقاً للشعر الرفيع ، ورواية واسعة للأدب ، وقد خطرت ذات عشية أمام الحسن فأخذت عقله من مكنه ، ونقشت صورتها فى مهجته . فترك عصابته الماحنة وسار يتعقبها فى كل مكان تحل به ، فإذا كان فى البصرة عرس واجتمعت النساء خرج يتلمس صاحبتة فى اهتمام بالغ ، فإذا وقعت عينه عليها لم يطلق أن يسارقها النظر بعض الوقت ، فينخفض رأسه حزناً باكياً إلى الأرض ، ويهيم فى آفاق خياله فيعقد موازنة شعرية بين «جنان» وعروس الحفل ، وطبعى أن يحكم بتفوق صاحبتة فى مضممار الحسن والملاحه ، ثم لا يكتف ذلك ، بل يعلنه على الناس إذ يقول :

شهدت حلوة العروس جنان فاستمالت بحبها النظارة  
حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشارة

وإذا قام فى البصرة مأثم حزين وهرعت العذارى إليه كعادتهن ،  
ترك الشاعر ما يملأ سمعه من النواح والعيول وأخذ يتلمس صاحبه فى  
موقفها الدامع ، ويسبح فى آفاق تفكيره ، فلا يوازن بينها وبين عذراء  
ممن شاهدتهن كما فعل يوم العرس ، بل يجعل الموازنة بينه وبين الميت  
الفقيد . ولا غرو فقد قتله الحب فهو جدير بأن تبكى عليه صاحبه كما  
تبكى الآن على الراحل النازح ، ثم هو يبلغها ذلك فى شعر رقيق  
هادىء . يقول فيه :

يا قفرا أبرزه مأثم يندب شجوا بين أتراب  
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب  
لاتبك ميتا حل فى حفرة وابك قليلاً لك بالباب

وكانت « جنان » تعتقد أن أبا نواس غير صادق فى حبه لأنها  
تعرف عنه خلائعته وادعاءه ، فكانت تسبه وتؤذيه وتطعنه فى رجولته ،  
وتنال من كرامته كل منال ، ولم تصف له غير حقبة يسيرة مرت فى  
حياة العاشق مرور الطيف ، وتركت وراءها طوفاناً جارفاً من السهد  
والدمع . وكأن الله — عز وجل — أراد أن يؤدب الحسن بهذا الحب ،  
فقد خلع كبريائه وغروره وترك وقاحته وهجره ، ثم هام كالمشدود على  
وجهه ، فإذا سأل عن جنان قوبل بما يكره من الأنباء الصاعقة  
والأخبار الفاجعة ، وهو فى كل دقيقة يتجلد ويتبصر . وقد يدق  
شعوره فيتصور سبابها المقذع تكريماً جليلاً لشخصه لأنها تذكر اسمه  
لامحالة ، وفى هذا غم كبير يساق إليه بلا حساب ، اسمعه يقول :

أتانى عنك سبك لى فسبى      أليس جرى بفيك اسمى فحسبى  
تشابهت الظنون عليك فى ذا      وعلم الغيب منه عند ربى

وليت شعرى: لم يذكر اسم ربه الآن وقد نسيه قبل ذلك؟ أ يكون  
الحب قد جذبه قليلاً إلى روضة الإيمان، أم أنه الضعف البشرى  
يتسلط على المرء فيلجئه إلى الاستعانة بربه إذا تقطعت السبل،  
واستبهم الطريق.

ولقد تطايرت الأنباء إلى العاشق المدنف أن «جنان» ستحج مع  
مولاها إلى مكة، وذهب الحسن يتأكد من النبأ ويستوثق من مصادره  
العليمة، فعرف أنه حق لامرية فيه. ومن ثم فقد أعد العدة؛ وأعلن  
لأصحابه أنه سيخف إلى مكة فى قافلة صاحبه، ولم يدهش  
البصريون لحج الشاعر، فهم يعلمون أنه يقصد به غير وجه الله. ولقد  
كان يتتبع صاحبه فى كل مكان بالبصرة؛ فلا عليه إذا واصل  
مراقبته الدقيقة فى مكة مهما كلفه ذلك من صحته وماله والطريف  
أنه لا يقبل أن يترك الناس فى حيرة من حجه المفاجيء، بل يكشف  
اللثام عن باطن سره إذ يقول:

ألم تر أننى أفنيت عمرى      بمطلبها ومطلبها عسير  
فلما لم أجد سبباً إليها      يوصلنى وأعيتنى الأمور  
حججت وقلت قد حجت جنان      فيجمعنى وإياها المسير

وأنت لو قارنت بينه وبين بشار بن برد لأدركك العجب من ثبات  
بشار وخفة الحسن، فقد خدع الأعمى قومه حين زعم أنه سيحج نائباً  
إلى ربه، واتجه فى أيام الحج إلى «زرارة» وأقام بها مع أحد

أصحابه، ثم رجع مع العائدين من مكة فى يوم واحد، وجلس يتقبل  
 التهانى، ويقص الأحاديث المسهبة عن زمزم والحطيم. دون أن يفضح  
 نفسه بكلمة واحدة، حتى أطمأ صديقه القناع، فكشف أمره أمام  
 الناس فى أبيات فاضحة<sup>(١)</sup>، أما أبو نواس فهو لا يريد أن يلبس  
 على القوم حقيقته، فينستر بالورع والنسك، ويدجل بالطواف  
 والتلبية، بل يذيع شعره الصريح على الناس فى جرأة واستخفاف.  
 ومتى اهتم الحسن بالجمهور، وقد جانب المحجة، وخلع العذار!!

ولقد ظهرت براعته العجيبة فى مكة حيث عرف فتاته فى الحج فى  
 لجج طاغية من الزحام الحاشد، فجعل يتبعها خطوة ويتعقبها فى  
 طوافها تعقبا يدعو إلى الغرابة والدهشة وقد شاهده فى هذا الوضع  
 المريب محمد بن عمر الجهماز فصاح به: «ويحك! أمالك فى هذا  
 الموضع زاجر، ولا يمنعك خوف الله، ولا يردك حياء من الناس؟»

فقال له الحسن «يا أحمق وهل حسبت قطع المهامه والسباسب إلا  
 للذى حججت له، وإليه قصدت» ثم شاء شيطانه الداعر أن يكشف  
 حيلته للناس، فقال هذه الأبيات تزيد كعادته حين جعل جنان  
 تقاسمه هواه وهى فى حقيقة أمرها كارهة نافرة:

فاشتفيا من غير أن يأتيا كأنما كانا على موعد

(١) قال سعد بن القعقاع صاحب بشارفى رحلته:

ألم ترنى وبشار حججنا	وكان الحج من خير التجاره
خرجنا طالبى سفر بعيد	قال بنا الطريق إلى زواره
فآب الناس قد حجوا وبروا	وأبنا موقرين من الخسارة



لولا دفاع الناس إياها      لما استنفاها آخر المسند  
ظلمنا كلانا سائراً وجهه      مما يلى جانبه باليد

ومع هذا فقد تيقظت مشاعر الحسن فجأة فى طوافه وتلبيته ، فلم  
يكذب بسمع الترانيم الشجية يصدرها المليون طوائف تتلاحق وتتابع ،  
حتى حركت أوتار قلبه وأخذ النغم الساحر يسكب فى سمعه نشوة  
عميقة ، فنسى جنان بضع لحظات وسحره الجمع الحاشد يصبح  
ويستصرخ ، فلبى مع المليون تلبية هى فى الواقع تغريدة عذبة صدرت  
بها فنان موهوب ، إذ يقول فى رنة حلوة وتوقيع جميل :

إلهنا ما أعذلک	ملك كل من ملك
لبیک قد لبیت لک	وكل من أهل لک
لبیک إن الحمد لک	والملك لا شریک لک
واللیل لما أن حلک	والساجدات فى الفلک
على مجاری المنسلک	ما خاب عبد أملك
أنت له حیث سلک	لولاک یارب هلك
یا مخطئاً ما أغفلک	عجل وبادر أجلک
واختم: بخیر عملک	لبیک إن العز لک
والملك لا شریک لک	والحمد والنعمة لک

ولله ما أبدع أبانواس هنا ، فقد .. كان شاعراً قبل أن يكون  
عاشقاً ؛ فهو يتأثر بالمنظر الرائع فيبرز صورته الجميلة فى مرآة شعره ،  
وإن شغله بعض الوقت عن فانتته ، ولا يعقل أن ينقص هذا من حبه  
فى شىء لأن الشاعر حساس مرهف يتأثر بكل ما يرى وسمع فيتغنى  
به فى سهولة ويسر ، ولئن كان المجنون قد طاف مع الطائفين ، وشاهد

ماشاهده الحسن ، فلم يخض كصاحبه فيما خاض فيه الملبون ، ومضى يتساءل عن ليله ويرسل زفراته الشعرية المحرقة ، فلأن قيسا كان عاشقاً قبل أن يكون شاعراً؛ فهو على النقيض من أبى نواس .

وكثيراً ما يقف الأدباء أمام مقطوعة الحسن فى التلبية وما يشاكلها من أشعاره فى الزهد والتوبة حائرين مرتبكين ، حيث يستغربون صدور هذه النفثات الصادقة من خليع مستهتر بالشرع الخفيف ، ولقد فات هؤلاء جميعاً أن لكل نفس مهما غرقت فى الخلاعة والفسق سباحات خاطفة تصلها بالسوء فتندم على ما فرطت فى جنب الله ، وتجه إلى الخالق مستغفرة باكية ، فلا عجب إذا أدركت الشاعر هذه اللحظات الخاطفة فى أبياته الزاهدة ، لاسيما والحسن برغم مجونه الزائد متصل السيب بالآثار الدينية والمواعظ الروحية ؛ فقد صحب فى صباه أئمة الدين ، وروى الحديث النبوى ، حتى عده الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال من رواته ، وإن هجته ووصمه بما يسقطه ويرديه ، كل ذلك يدعوه إلى الندم والحسرة — ولو بعض لحظات — على ما يرتكبه ويأتيه ، واعتقد أن شهرة الشاعر بالخلاعة قد جنت عليه أكبر جناية ، فقد طاب له أن يتناقل للناس نوادره وأشعاره وكلها طريف ممتع فى بابه — وخيل إليه أنه إذا انقطع عن غيه ، سكت الناس عنه فلم يلهج بذكره ذاكر ، وصاحبنا — كجميع الشعراء كلف بالشهرة مولع بالظهور ، بل إنه صرح بذلك لأبى العتاهية حين لأمه فى تهكه . وإذا كان الصيت الذائع فى رأيه لا يكون بغير الخلاعة الزائدة ، فليطلبه من طريقها الشائن .. وهذا ما كان !

وكيفما كان الحال ، فقد رجع الشاعر من مكة كما ذهب إليها ، ولم يتقرب إلى الله بتوبة ترفع عنه سيئاته ، وحسبه أن وجد فى البيت

العتيق طريقاً يوصله إلى جنان بدل أن يوصله إلى الله ! وليته ظفر بما يريد، فإن صاحبه مازالت برغم هذيانها تمقته وتزدريه، وعذرهما في ذلك أنها لم تصدقه فيما يدعيه، إذ جنت عليه شهرته السالفة، فحق لجنان الماكرة أن تعذبه بالحرمان .

وقد يؤس الشاعر من صاحبه في النهاية، فأكب على الشراب وحالف السكر مخالفة تنسيه شواغل الوجد ولواعج الهيام، ثم ترك البصرة بما فيها من معارف وأصدقاء واتجه إلى مدينة السلام، فرأى البصرة لا تقاس بها في الترف والمجون، فقد حوت من المتع والملاذ ما يستخف الوقور ويسبى الحليم، ففرق في الخلاعة إلى أذنه، ونهر بدلوه مع الغواة، وبلغ ما يبلغ المرء بشبابه فإذا عصارة كل ذاك آثام !

عفا الله عن الحسن بن هانئ فقد حج إلى البيت العتيق حجا غير مبرور، ونظم في الزهد والتوبة مالا ينهض بآثامه ومخازيه، ولكنه خدع من كتب عنه من المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية، فزعم أنه تنسك وزهد، وما كان الشاعر طيلة حياته من الزاهدين، ولكنه قال قول الزهاد، وفعل أفعال المجان، فكان كصاحبة جيل تذيب العصافير في قسوة، وتدمع عليها في رحمة .

فلا تنظري يا بن للدمع وانظري إلى الكف ماذا بالعصافير تصنع



## مرءة عبده الحامولى

كنا فى مجلس المغفور له الأستاذ الزيات بدار الرسالة منذ خمسة وأربعين عاماً، وقد جرى الحديث عن أخبار الأريحية والمرءة التى ذخرت بها الكتب القديمة، فسأل سائل لماذا أجذب العصر الحديث من أمثال هذه الروائع الكريمة، فلا نجد لساناً يتحدث عنها أو كاتباً يشير إليها؟ فرد الأستاذ الزيات يقول: إن المرءة المعاصرة ذات أنصار وعشاق، ولكن طريقة التأليف الحديثة تمنع أن تحتشد هذه النوادر دون تبويب فنى مقبول، كما كان يكتب الجاحظ وابن قتيبة والتنوخى وصاحب العقد الفريد! والحق أن ما يصدر عن الكرام من أريحية ومرءة فى حاجة ماسة إلى تدوين يشتهر ويذيع، فيكون دروساً عملية فى الخلق الفاضل والسلوك الحميد، ولا ينفعن أن نحبذ هذه الفضائل دون أن نذكر من رجالها المعاصرين من رأيناهم رأى العين يملأون النفوس إعجاباً وتقديراً، أو سمعنا من أساتذتنا عنهم ما شاهدوه من مستجاد الهمم، وروائع المأثورات.

أتفق لى أن سمعت عن الفنان الشهير عبده الحامولى قصصاً متواترة تنبئ عن أريحيته النادرة، وتشهد بأن الفنان الأصل إذا أجاب هواتف الخير والحب والإنسانية فإنما يستجيب إلى مشاعره النبيلة ذات الهدف العبرى، أما من يحيدون عن مآثر المجد من ذوى الفنون فيما شذاذ يمثلون الإستثناء، أو دخلاء يغرون الناس بهارجهم

الحادعة ! وما زالت رسالة الفن على إختلاف أنواعه رسالة الحق والخير والجمال .

كان عبده الحامولى قة فى فنه الصوتى ، ولسنا بصدد التحدث عن موهبته فقد يكون غيرنا أقدر على ذلك ممن تخصصوا فى دراسة الفن الغنائى وتاريخه المعاصر ، وإذا كان لابد من سطور ضئيلة نقدمها لأبناء هذا الجيل فإننا ننقل هذه النادرة الطريفة التى رواها الأستاذ عبد العزيز البشرى لتشير من بعيد إلى روعة الرجل وتحليقه ، والأستاذ البشرى من أقدر معاصريه على الحديث عن أصحاب الفنون حديث الموهوب المتذوق الطروب ، فهو يقول عن الحامولى فى مجلة الرسالة العدد ٤٢ « ما برح عبده الحامولى يضطرب بين الليل والعين حتى قال الجبار « أدبنى صابر على نارى » ولست بمستطيع أن أقول كيف قالها الرجل ، ولا كيف صنع لأننى أنا نفسى لا أدرى ولا أحسب أحداً من الخلق درى كيف قال الرجل ولا كيف صنع ؟ ولكنى أستطيع أن أقول إن طائفاً عنيفاً من الكهرباء سرى فى هذا الحشد لم يسلم منه أحد ، جد الناس جميعاً وتعلقت أنفاسهم وشل كل مناط للحركة فيهم ، لما تحس منهم إلا أبصاراً شاخصة وأفواها مفعورة لو اطلعت عليهم لخلتلك فى متحف يجمع دمي منحوتة لأناسى يتفرق فيها ماء الحياة حتى القائمون بالخدمة لقد مسهم هذا الطائف فجمدوا ووقفوا ، حتى ردف عبده ، لقد جرى عليهم من هذا ما جرى على سائر الناس . وظلت هذه الحالة برهة وينفجر البركان الأعظم يتطاير عنه الحمم وترى الخلق يموج بعضهم فى بعض لا يدري والله أحد أين مذهبه ؟ ولا تسل كيف قدت الحناجر من الشهيق ولا كيف برت

الأكف بالتصفيق ، وخرج الأمر ساعة عن عرس مقام إلى مستشفى مجانين .»

هذا بعض ما قيل عن الحامولى الفنان أما الحامولى الأرمي فسأخصه بهذا الحديث ، لقد تمكن الفنان من قلب الخديو إسماعيل تمكنا جعله سمر روحانه ورفيق سفره حتى اصطحبه ذات مرة إلى الآستانة وقابل أمير المؤمنين فلقى الحظوة والإقبال وانتشر له فى بلاد الخلافة صيت جهير، وقد ضن عليه إسماعيل أن يغنى غيره من الوجهاء إلا بعد استئذانه، وكان الخديو فى ليالات السمر يجلس مع الفنان وفرقة الموسيقى على بساط من السجاد العجمى المذهب بلاء الصالة الممتدة، فإذا أبدع الحامولى فى غنائه أخذ إسماعيل يزحف نحوه ثم يضع يده بالأكياس الذهبية فى جبته، حتى اتفق له ذات ليلة أن يخرج من مجلسه ثقيلاً بطيئاً فأخذ يعد ما يحمل فوجد اثنى عشر قرطاساً بكل قرطاس مائة جنيه من الذهب الخالص، ففرق على رجاله قدرأ كبيراً واحتفظ بما يبلغ النصف!! هذا الفنان الأرمي الشهم غنى إسماعيل ذات ليلة فبلغ الطرب بالخديو منتهاه ورجاه أن يسأل مايشتهى، وقد توقع أن يطلب مبلغاً من المال يربو عما يستحوذ عليه كل حين! ولكن الحامولى نظر إلى الخديو نظرة عميقة، وسأله اتمنحنى يامولاي ماأريد فبادر إسماعيل بالموافقة فى تلهف فقال الحامولى كل ماأريده أن تنقذ نشأت باشا مدير القليوبية السابق من محنته وتعيده إلى مكانته؟ ولم يكن الخديو الناقم على المدير يتوقع مطلباً كهذا فصاح فى غضب ولكنى أمقته وسأرده. فرد الحامولى فى إباء لن أطلب غير ذلك. فالرجل حين رجاني كان يعلم أنى أهل للرجاء ولن يغنى عن إنقاذه ماأخذ من الذهب وإن كان

كالجبال .. فسكت الخديو برهة ثم نزل على إرادة مطربه فعاد نشأت إلى مكانته بعد أن كان من الموت على أمتار.

هذه الصلة الوثيقة بين الفنان وولى الأمر لم تكن لتحول دون الاصطدام فى مأزق خطير تجلت به همه الحامولى ورجولته ، وكشف عن معدن نادر لا يكاد يوجد بين الناس إلا فى القليل ، فقد تزوج الحامولى بالمطربة الشهيرة (ألظ) وأعلن فى الناس أن زوجته منذ اقترنت به لن تغنى أمام أحد من الناس جل أو هان ، وكان إسماعيل ممن يعشقون غناءها ، ويقدرّون موهبتها البارعة فى التجميع والتطريب ، فأشار باستحضارها على عجل فى أحد مجالس طربه ، وأرسل قوة بوليسية لاستدعائها على الفور مهما قامت الصعاب ، وقد أفهمه جلساؤه فى لباقة أن الحامولى قد حرم عليها الغناء تحريماً لا سبيل إلى تخليه ، فاستهان الخديو بمشيئة الزوج وأرسل حملته المزعجة لاختطاف الزوجة ، وفوجئ الرجل الشهم بالموقف الصعب ، فتصدى للقوة وحده ، وحال دون أمنيته مستخفاً بالتهديد والوعيد . فلما تأزم الموقف أوصد باب المنزل ثم رمى بنفسه من شباك خلفى ، واتصل سريعاً بإسماعيل باشا صديق وزير المالية وأفهمه أن ذهاب ألظ إلى القصر لا يعنى غير انتحاره دون انتظار ، وكأن الوزير قد أشفق على صاحبه فركب عربته إلى الخديو وأخذ يصور له نفسية الحامولى .. وتشدده حتى مال به إلى التسامح . فأمر بإحضار القوة البوليسية ورفع الحصار عن المنزل ، ولكن أثر الحادث قد ترك عقابيله فى أعصاب الفنان الكبير فأسلمه إلى الأرق وهدده بالإعياء ، وقد كان فى شجاعته هذه مثلاً يروى فى استهوال ، إذ كان الخديو إذ ذاك حاكماً بأمره لا يقف أمامه وزير أو كبير . وكانت أحكام المصادرة والنفى

والسجن والقتل تصدر عنه فى تجر لا يعبأ بحق أو يتقيد بدستور!!

أما مروءته السمحة فقد اشتهرت بين العامة إشتهاراً جعلها موضع العجب والإعجاب، إذ أنه كان يبذل جميع ما يحصل عليه من الهبات تقرباً لغمة محتاج أو إستجابة لصيحة هليف، وإذا كان الرجل قد كسب الثروة الهائلة من حفلاته المتتالية فإنه لم يبق منها على كثرتها شيئاً فى يده، وقد ودع الحياة وليس بمنزله من المال ما يفي بنفقة الجنائز ومحفل التشيع!! وأصحابه يذكرون أن بعض السائلين قد اعترض طريقه ذات يوم وليس فى جيبه ما يفي بمعونته من العطاء، فخلع خاتمه الذهبى ومنحه إياه، وكان منشورى الشكل تقدر قيمته بألف جنيه، ولكن همامته النبيلة لم تشأ أن يرجع السائل مجروح النفس فدفع إليه الخاتم عن مسرة وارتياح! وللجود مذاق هنئ لا يستمتع به غير نفر من طراز هذا الإنسان! ولن يستكثر أحد ذلك عليه أو يميل به إلى المبالغة والتحويل، فالحامولى يكسب مقداره فى مجلس واحد فلا عليه أن يجود.

وحادثته مع سليم سركى أشهر من أن تذكر، فقد كان الفنان الكبير صديقاً للصحافى الشهير بصاحبه كثيراً فى مغداه ومراحه، وربما كان يحمله على إحياء كثير من حفلات الأعراس حسبة لوجه الإخاء، وللحامولى فى هذا المجال فتوة نادرة يتحدث بها عارفوه، حتى أنه صمم فى بعض السنوات أن يغنى مجاناً فى جميع الحفلات ليرتفع بالفن المبتذل إذ ذاك عن مستوى الكسب والإتجار، ولذلك خاض ميدان التجارة برأس مال قدره عشرون ألفاً من الجنيهات، ولكن الفنان المثالى لا يمكن أن يجلى فى ميادين الخديعة والاحتيال فما تصرف العام حتى خسر ماله جميعه. واضطر إلى الإرتزاق من موهبته



إضطراباً أحس له مضاضة محرقة وألماً كاوباً، وقد أتفق بعض الوزراء ذات ليلة مع الحامولى أن يحبى زفاف نجله بألف جنيه ذهب، ومهد لذلك فاستأذن القصر الخديو وأقام سرادقاً كبيراً يسع آلاف المشاهدين، وتحدثت القاهرة بما سيتاح لها هذه الليلة من إبداع الحامولى وتحليقه، وماأزف الموعد حتى تقاطر الناس من كل فج يتقدمهم علىة القوم من الأمراء والوزراء وأرباب المناصب والوجاهات، فاحتلوا الصفوف الأولى وتركوا ما خلفها للجمهور المحتشد بموج بعضه فى بعض، ولم تمض لحظات حتى حضر الحامولى يتقدم فرقته وإلى جواره صديقه الأستاذ سليم سركىس، فامتعض أحد الوزراء لمراى الصحافى إذ كان قد نقده فى صحيفته نقداً عده غير لائق بمستواه كما يزعم. فأسر إلى زميله صاحب العرس أن يبادر بطرد سركىس وإلا اضطر الوزير إلى الانسحاب، وقد ظن الرجل أن المسألة هينة، فتقدم إلى سركىس يأمره بمغادرة المكان، وشاهد الحامولى حرج صديقه فرمى من جيبه بالجنيهات التى أخذها مقدمة لأتعب السهرة وأمر فرقته بالتأهب للانفضاض، فارتج المكان ارتجاجاً رهيباً، وحدث من الهرج والصياح ما جعل صاحب العرس يضرع إلى الحامولى أن يبقى فى مكانه على أن ينتظر معه سركىس فرفع الحامولى رأسه وقال فى اعتداد: وعلى أن يذهب سركىس فيطرد الوزير الشاذ من الإحتفال، وطارت الأنباء إلى المتخطفس الشموخ فانسحب متضائلاً قبل أن يواجه بالإبعاد، وكان ماأناه الفنان درساً قاسياً صفع وجوه المستوزرين من أبناء الذوات!!

هذا الموقف الكبير يصور الحامولى فى اعتزازه وكبريائه أبهر تصوير وأحلاه كما يبرز تقديره الحى للوفاء، وحرصه النبيل على كرامة

الأصدقاء ، وهو من هذه الناحية لم يدخر وسعاً فى الترويح عنهم ،  
والتفنن فى إسعادهم بما يريدون ، فإذا وفق فى ذلك إلى بعض  
ما يريد كان سروره بالحمل الأرفع ، كان الأستاذ خليل مطران يعانى  
هماً شاغلاً لنكبة ما حلت به ، فزاره الحامولى فى الظهيرة ولبح ما يعتلج  
وراء ابتسامة من وجد ، فاقترح عليه أن يذهبا معاً إلى حديقة  
الأزبكية ويغنيه وحده هناك ! فوافق الشاعر ومضيا حتى إذا جلس  
فى ظلال بعض الغصون رفع الحامولى عقيرته بغنى بقول القائل :

ودواهى العيون شر الدواهى      يقظتنا للحب وهى سواهى  
واستعانت على القوى بهواها      فاستعنا على الهوى بالله

قال مطران : وكان الهجير مشتعلاً والبستاني يرش الماء ، فخیل  
إلى لفرط التأثير من خلاصة الصوت وعذوبة موسيقاه أن الحر زفرات  
عشاق وأن الماء دموع تتساقط . وطربت طرباً عظيماً ، فلما شاهد  
الحامولى طربى وخلوصى بعض الوقت من الضيق كان ذلك أشهى  
لنفسه من أعظم أجر يتقاضاه .

ولا تختم هذه العجالة حتى نشير إلى طرفة بديعة ذكرها الأستاذ  
أحمد محفوظ فى كتابه ( خفايا القاهرة ) عن الحامولى ، وهى فى رأينا  
تنطق بشكاه الفنان وخفة روحه قبل أن تنطق بأريحته ومروءته  
وشهامته ، وترسم حبه للشعب وحده على الضعاف حذباً يشيع فى  
أحناء نفسه ويتغلغل فى طواياه .

قال الأستاذ محفوظ عن بعض معاصرة :

« كان الحامولى يعبر زقاقاً ضيقاً فى مدينة الاسكندرية فألفى

امرأتين تختصمان لأن إحداهما قد آذت الأخرى برش الماء فى الزقاق ، لأنها اعتزمت أن تقيم حفلاً فقيراً لابنها فى مساء الغد ، فهى تسكن التراب بالماء تمهيد الأرض ولكن الأخرى لم يرضها هذا فصاحت فيها (يا شيخه هوستينا هو يعنى أنتى حاتيجيى عبده ، فتقول الأولى (ما يبعدش على الله) ، ويسمع الرجل الكريم هذا الحوار فتدفعه الأرمجة إلى القدوم نحو المرأة الفقيرة الراجية ويدفع لها ثلاثين جنيهاً ذهباً لتعد العدة ، لأنه سيحضر إليها عبده ، فتجن المرأة فرحاً وتصدق الرجل وتقيم السراشق الفسيح .

ويجتمع عبده الحامولى بأصدقائه ، ويعلن أنه سيغنى فى المساء فى (باب سدره) ، وتعلم الاسكندرية كلها هذا النبأ ويهرع الناس غنيهم وفقيرهم إلى هذا الحى الفقير ، وبر عبده بوعدده للأم وتشهد الاسكندرية ليلة لم تشهد مثلها فى حياتها الطويلة .

وبعد أف تكون هذه المكرمات النادرة فى حاجة إلى تعليق ؟

\*\*\*

## حسين فوزى

### بين السندباد العصرى والسندباد القديم

كان الدكتور حسين فوزى مثلاً نادراً فى مواهبه ، فهو عالمٌ دقيق ، وفنانٌ أصيل ، وكاتبٌ متفرد ، ورحالةٌ متنقّل ، ولو قُسمت مواهبه المتعددة على عدة رجال ، لافتخر كل رجل بما حازه من موهبة واحدة ، فكيف وقد تجمعت محتشدة ، فى كيان الدكتور حسين فوزى ! لقد كنا نعجب حين نرى فى القديم إنساناً كعبد اللطيف البغدادى يجمعُ بين الأدب والعلم والرحلة ، ونظنه لا يقدر التخصص حق قدره ، بل يأخذ من كل فن بطرف واحد ، وربما أكد بعض ناقديه أنه هاوٍ فى غير مادونه من رحلاته ، ولكن حقيقة الدكتور حسين فوزى التى نلمسها لمس الواقع ونراها رؤية العيان تؤكد أن الله ذو فضل لا يحد ، وليس بمستكثر عليه أن يجمع العالم فى واحد .. ولعلّى أكون صريحاً حين أعلن أننى كنتُ أتتبع كل ما أعر عليه من آثار الدكتور حسين فوزى ، لأننى أتفق معه فى كل وجهاته ، بل لأننى أخالفه فى الكثير من هذه الوجهات ، وليس ذلك بمستغرب لأن القارئ يجد المتعة كل المتعة مع كاتب يتيح له أن يفكر وأن ينقد وأن يرجح ، فهو يملأ عقله بمختلف الأفكار تصويماً وتخطيطاً ودفعاً وجذباً ، إذ يحس أنه شريكه فى موضوعه ، وليس مجرد آلة استقبال تهبأ لآلة إرسال ، هكذا أكون فى كثير مما أطلع للدكتور حسين فوزى ، فله على منة وإنعام .

## ( السندباد العصرى )

إذا كان السندباد رحالة لا يفتأ ينتقل من مكان إلى مكان ،  
فالدكتور حسين سندباد نشيط جاب أكثر جهات الأرض شرقاً  
وغرباً ، جاب هذا الأكثر بعين فاحصة ، ونفس مستوفزة ، وعقل محلل ،  
فلم تكن رحلاته ترويحاً للنفس قدر ما كانت إجهاداً للعقل ، وشغلاً  
للقلب ، وتعباً للقلم ، ولم تقتصر الرحلات على الحاضر ، بل اندفعت  
إلى الماضى ، إذ يطالع مادونه الرحالون من فريق السندباد ، على مر  
العصور ، وهو أيضاً مع القدماء دائم التفكير كثير النقد ، متعب القلم ،  
يقرأ لينقد ويعمل ويستنبط ، وقد يرسل البسمة الساخرة حين يجد  
الابتسام مرفها عن شجونه ، وله جرأة محمودة على الهدم والتفنيد ، لأنه  
يعتقد أنه قد ورث أرضاً طيبة تحتاج إلى حرث وحفر وتسميد ، ولا جد  
أن يطرد منها الشوك والصخر ، أو ما يعتقد أنه الشوك والصخر ،  
ولا عليه إذا كان هذا الصخر فى منطق سواه رخاماً بللورياً ، أو كان  
الشوك سياجاً لزهرة ناضرة ، فحسبه أن يعتقد أن الصخر صخر ، وأن  
الشوك شوك ، ولا بد من وصفها الصحيح .

وحيث كان مديراً لمعهد الأحياء المائية ، تألفت بعثة علمية من  
كبار الباحثين لدراسة الأحياء المائية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ،  
تألفت من علماء الانجليز وعلماء مصر ، وطبيعى أن يكون الدكتور حسين  
فوزى مدير معهد الأحياء المائية عضواً مختاراً لهذا العمل الجاد .. مع  
نفر من زملائه الجامعيين فى مصر ، وقد قضت البعثة فى رحلتها تسعة  
أشهر على ظهر الماء ، ووضع رجالها عدة بحوث علمية كشفت الجديد  
عن عالم البحر المستور وكان من الرائع أن تُحصى البعثة ألفاً ومائة

وستين نوعاً من سكان الماء تنقسم إلى ثلاثة وخمسين قسماً، منها  
 ثمانية عشر لم تُعرف من قبل، وقد اطلقت عليها أسماء علمية، من  
 بينها اسم الدكتور فوزى واسم الدكتور عبدالفتاح محمد وأسماء أخرى  
 لعلماء الإنجليز والمصريين، كما قدّم أعضاء البعثة ورئيسها تحدة بحوث  
 علمية كانت موضع الدراسة الجادة فى الدوائر العلمية بالغرب، ومنها  
 بحث دقيق للدكتور فوزى، ولكن هذه البحوث الرصينة الدقيقة  
 انحصرت فى تحيز الدراسات الأكاديمية.. التى لا يعكف عليها غير  
 المتخصصين، وقليل ما هم — ولو اقتصر الدكتور فوزى على بحثه  
 العلمى الدقيق، ما ترك هذا الصدى الرنان الذى تركه كتابه الأدبى  
 عن الرحلة وقد سمّاه «سندباد عصرى»، إذ صوّر خواطره وانطباعاته  
 فى فصول مثيرة تدلّ على لطافة الحس، وتوهج الشعور، وقوة  
 الانفعال، وأقول قوة الانفعال لأن المؤلف خطّ كتابه فى ريعان شبابه  
 المتوهج، وكان ذا ثورة مشتتة على كلّ ما يبعده مظهراً من مظاهر  
 التخلف فى الشرق، ثورة دفعته إلى مجاهرات عنيّدة لا تُرضى أكثر  
 القارئ، لأنها لم تسلك سبيل الحياء الثام بين اتجاه واتجاه، بل  
 جعلت تختار أرذل ما تقع عليه العين شرقاً، لتقرّبه بأرفع ما تقع عليه  
 العين غرباً، والمنطق العلمى، والحياد الفنى معاً يقتضيان ألا تقتصر  
 على ذكر المساوىء فى ناحية، وذكر المحاسن فى ناحية مقابلة، ثم  
 نقول هاؤم اقرءوا كتابيه! وقد شاء الدكتور فوزى أن يبدأ الصفحة  
 الأولى من كتابه بقوله «درجّت على حبّ الغرب والإعجاب بحضارة  
 الغرب، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوروبا، فتمكنت  
 أواصر حبّى، وتقوّت دعائم إعجابى فلماذا ذهبت إلى الشرق عُدتُ  
 إلى بلادى وقد استحال الحبّ والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى.

وهو ابتداءً تقررئى لىس فى مصلحته شخصيآ؁ إذ كان من الممكن أن يتابع صوره الفنية ومضاته الفكرية دونَ هذا التمهيد؁ وسيثم القارئ بالتجاهه من خلال انطباعاته؁ وطبيعى أَنه يدرك إعجابه بالغرب من خلال اللمسات القوية التى يُجسّد صورها بين السطور؁ وهنا يكون التأثير المنشود نتيجةً لأفكار تتعاقب مؤيدةً بالمثال والشاهد؁ أمّا أن نفجأ القارئ العربى الشرقى بما يصدم شاعره بدءاً؁ فإنّه سيحترس احتراساً تاماً من صاحبه؁ وسيبدأ الكتاب مستوفز الإحساس ليردّ على كلّ انحراف صغيراً كان أو كبيراً؁ وقد كانَ هذا الابتداء موضع الاعتراض من دُعاة الثقافة الغربية أنفسهم؁ فآنا أذكر أن الدكتور طه حسين قد ألّف فى الحقبة التى ظهر فيها كتاب (سندباد عصرى) كتابه الشهير (مستقبل الثقافة فى مصر). وفيه دعا إلى المنهج الغربى تربوياً؁ ولكنّ الدكتور طه حسين نفسه لم يستزح لابتداء الدكتور حسين فوزى فى السندباد العصرى؁ إذ يقول عميد الأدب العربى فى نقده للكتاب:

«وما أكثَرَ الآراء التى لا أشارك فيها الكاتب؁ ولكنّ اختلاف الرأى ليس عيباً يعيب الكاتب ولا الناقد؁ فلستُ أرى معه مثلاً أن كلّ ما فى الغرب جميل؁ وما أظنّ أن تطوافى فى الشرق إن أتيح لى أن أطرف فيه يرذنى إلى الإعجاب بالغرب فى غير احتياط؁ فقد يكون الغرب خيراً من الشرق؁ وخيراً من الهند خاصّة فى أشياء كثيرة؁ ولكنّ الغرب لىس خيراً كلّه؁ ولم يخلق الله بعدُ حضارةً هى خير كلها» (١).

(١) تراجع مقال الدكتور طه حسين بالعدد التاسع من مجلة الثقافة؁ السنة الأولى (١٩٣٩/٢/٢٨) م.

هذا ما قاله الدكتور طه حسين ، وهو حينئذ من دعاة الثقافة الغربية فى كتابه ، أما الاستاذ سيد قطب فقد قدّر السندباد العصرى من الناحية الفنية تقديرأ ممتازأ ، إذ عرض بعض لقطاته التصويرية حبذا ، ونقل ما يمثل منها المواقف الشعرية لفنان حساس يرتبط بالكائنات ارتباطأ عميقأ من حيوان وجاد ، بل إنه يبكى على مفارقة الجماد كما كان الشاعر البدوي يبكى على الدمن والأطلال ، ولكن سيد قطب — رحمه الله — يجهر بأنه يخالف الكاتب فى الإعجاب بكمل ماهو غربى ، وفى زرايته على الشرق وعاداته وأساطيره ودياناته ، ويرجو أن يكون المؤلف أوسع أفقأ ، وأكثر عطفأ ، وأعمق اتصالأ بروح الشرق الكامنة وراء هذه المظاهر والأوضاع والروح الصوفية المتسامحة المشرقة بنور الإيمان . إذ لاندعو إلى الروحانية السلبية ، ولكننا ندعو فقط إلى فهمها والعطف عليها وتقديرها من الوجهة الإنسانية ، فالغربى معذور حين يغلق حسه وفهمه دون الروح الشرقية الأصيلة ، أما الشرقى فلا عذر له فى هذا الإغلاق ،

هذه ناحية ، أما الناحية الثانية ، فهى إتجاه الشفقة المفرطة على الحيوان دون الإنسان ، مع أن الرحمة كل لاتتجزأ . والرحمة للحيوان شعور نبيل يجب أن يتأصل فى النفوس ، ولا يمكن أن تكون موضع خلاف ، ولكن الرحيم المشفق المتعاطف مع هرة قضت تسعة أشهر على ظهر الباكهة دون قرين من جنسها يلبنى نداء الطبيعة ، لابد أن يرحم إنسانأ قضى عليه أن يكون حصانأ يجر عربة (الريكشو) التى تحمل الأثقال الحجرية آناً ، والكائنات البشرية آناً آخر ، وقد رأى الدكتور الرفيق أن يركب (الريكشو) مع وجود عربات أخرى تجرها الحيوانات المختلفة ، وكان من المنتظر أن يأسى الراكب لحامله البشرى ،



وأن يجعل هذه الفرصة مثاراً لانفعالٍ راحم يُعلن السخط على البشرية التي يمتن فيها الإنسان أخاه، فتكون عربة الريكشو مصدر نبع للحنان المتدفق . ولكنَّ الدكتور مع إعلانه الشفقة على إنسان الريكشو الذي إنحط عن آدميته فأصبح في مستوى الدابة ، لا يكاد يحفظ هذا الإعلان المبدئي في أول الفصل حتى ينقلب إلى ضده في جميع السطور التالية، فهو الحمار الآدمي الخادع، الذي يصرخ الدكتور في وجهه قائلاً بنصّ عبارته ص «٩»: «أسرع أيها الحمار، أسرع أيها الكلب الحقير، أيها الحيوان، ماذا غرر بك لتضيع وقتي هكذا». ثم يشتمه باللغة الانجليزية التي تعلمها من البحارة الانجليز على ظهر الباخرة، ويصل إلى درجة منفعة من الحق فيستجد باللغة المصرية ليواصل السبّه، ويقول الدكتور مباهياً: ما كان أعظم دهشتي إذ كان لألفاظ السباب المصرية وقع البلمس على نفسي!!

فإذا قارن القارئ ما كتبت عن الحصان الآدمي المسكين الذي يأكل لقمة العيش بإتقان دور البغل والحمار، بما قاله حانياً مشفقاً عن القطة مشمشة التي ابتعدت تسعة أشهر عن القرين العزيز، فإنه يعجب لحنان متدفق يقف عند الحيوانات وحدها. ويتجلى في مثل قوله الدكتور فوزى ص «١٤» .

هذه المرة أيها السادة تفضل عندي بنى الإنسان، وهى تذكرنى بأوضاعنا الاجتماعية التي تضطرننا إلى كبت واحدة من أهم غرائزنا، وأسوأ من كبتها الإمعان فى تحقير مظاهرها، حتى لتتظر إلى المرأة التي تعمل لها مخلصاً نظرتها إلى المجرمين، هذه القطة التي تتأففون من مواتها ليل نهار، أشجع من بنى آدم، فهى حين طلبت الإلف أعلنت

ذلك على رءوس الأشهاد بلا هوادة، وفي غير خجل ولا وجل .. ثم عادت مشمسة إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد تسعة أشهر، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد فلم تزد لها خيلاء، ولم تمكنها هذه الحياة - على ظهر السفينة - من انتقاء عريس صالح من هرة سيلان أوزنجيار أو الهند، بل عادت إلى مسقط رأسها في السويس عذراء ذهبية الشعر!

لا أنكر ما في هذه الخاطرة من إشراق رائع، ولكنني أقرنها بحدث الآدمي المسكين الذي ألقاه لقمة العيش إلى أ، يكون حاراً أو بغيلاً فأعجب للإفراط والتفريط، أعجب للسب بالانجليزية والمصرية معاً!

## ( تاج محل )

حصر الدكتور فوزي الشرق في رحلته، في نطاق محدود هو الهند وسيلان وما شابههما، فأتيح له أن يعرض أمثلة مؤلة عن المنبوذين والجبياع والعراة وعبد البقر، وأرباب التناسخ، وذوات الرقص البدائي المنحرف، ولعل من سوء حظ الكاتب الكبير أن تكون الرحلة العلمية خاصة بهذه البقاع ذات التقاليد العتيقة، ولكنها في مجموعها لا تمثل الشرق بحيث نقف بها وحدها أمام الغرب في مجال المقارنة، وإذا كان لا بد في منطق الكاتب من أن تقف الهند [ قبل ظهور الباكستان ] .. أمام أوروبا في مجال المقارنة، فلماذا لم يذكر الكاتب شعوره أمام عظمة ( تاج محل ) وقد مرّ بهذا الأثر الضخم الرائع، واكتفى بذكر الاسم دون أدنى إشارة إلى معناه الحضاري، ورمزه الإنساني البليغ.

لقد تحدث السائحون شرقاً وغرباً عن عظمة هذا البناء الفخم (قصر الحب) الذى سيجل أعظم مظاهر الوفاء الإنسانى، وقد تجلت فيه أبدع مظاهر الفن فى رسومه البديعة وفى الآيات القرآنية ذات الخط الرائع، والمعنى الأروع، وفى الحديقة الفينانة.. التى تزدحم بالشجر، وتفوح بالعطر لتكون سياجاً يحيط بالتاج، دع عنك الحوض المستظل الذى تندفق فيه النافورات الفضية بأشعة الزلال العذب، والمقاعد الرخامية ذات الومض البللورى، والمنارات العالية ذات الرخام الأبيض المتموج، والقبة الرفيعة التى يزدان بها الأفق الفسيح وقد تألفت كملكة رفيعة لما حولها من القباب، أما ضريح الملكة الرائعة (ممتاز محل) فأكبر من أن يحيط به الوصف، والزائرون الذين يرتمون عرايا مشوهين أمام هياكل الهندوسى، تجدد بديلمهم المشرف الرائع فى ذوى النظافة والطهارة من أصحاب الوضوء والصلاة وتلاوة القرآن: لماذا لم يتحدث فوزى عن تاج محل.. وكيف حكم على نفسه أن يكون (عتيدا) ملك السيئات، لأن يكون (رقياً) ملك الحسنات!

## ( السندباد القديم )

وإذا كان لى بعض الملاحظات على السندباد العصرى، فإن كتاب (السندباد القديم) وقد كتبه الدكتور فوزى بعد قرابة ستة أعوام من سابقه، قد بلغ من الروعة والدقة والاستقصاء مالا مزيد بعده لمستزيد، لقد أراد المؤلف البحثة أن يقوم برحلة تاريخية خلال كتب الرحلات القديمة ليرصد ما ذكر فيها من غرائب البحار، مُحاولاً أن يجد التعليل العلمى لما جاء عن عالم البحر فى كتب القزوينى

والبيرونى والمسعودى وأضرابهم ، مما يظنه الناس خرافة مخترعة ، وهى تحملُ بذور الصدق الذى تُنقلُ من كتاب إلى كتاب وهو فى كل موضع ينمو ويكبر كما تنمو البذرة فى الأرض نبة صغيرة فعوداً أخضر ، فذات ساق ممتد وفروع وأغصان وثمار ، وكانت نقطة البدء للباحث الكبير ما جاء عن عالم البحار فى كتاب (ألف ليلة وليلة) من قصص الماء التى تجمعُ أبطالها من طراز حسن البصرى وعبد الله البرى وعبد الله البحرى ، والقرندلى الثالث ، وطبيعى أن يمتد الحديث إلى الغرب المدهش فى الجزر البحرية وما يسكنها مثل التنين والرخ وشجرة الوقواق . وجزائر النساء وكنوز اللؤلؤ والدر والعنبر ، حوريات الأسماك ذات الوجه النسائى والذيل الحيوانى أقولُ كان ألف ليلة وليلة مسرح الوقائع التى قام الباحث الكبير بتفسيرها .. مهتدياً بما حصّله من غرائب العلم الحديث فى هذا العصر المزدهر محاولاً أن يصل إلى التصور الأول لدى من تحدثوا عن هذه العجائب الخارقة ، وقد كان موفقاً كل التوفيق حين قال :

«إن خبرتى الشخصية بالأثر الذى تركه فى النفوس بعض ظواهر الحياة البحرية حتى عصورنا المتقدمة ، عصور العلم والفرقان ، وصلت بالصيادين فى أكثر من ساحل ، وسماعى بأخبار البحار وسكانها من أفواههم ، بل من أفواه بعض المتعلمين ، وإطلاعى على أحاديث البحار ، وفى كتب القدماء والمحدثين ، كل هذا عودنى أن أكون أكثر تسامحاً ، وأقرب فهماً لحكايات البحريّين فى القرون الوسطى ، وسببلى ألاّ أحكم على الأسطورة البحرية بالكذب ، ثم أنام هادئاً ، إنما أضع نفسى موضع من رأى الحيوان ، أو الظاهرة الكونية ، وأن أكيف عقلى تبعاً لعقليته ، فأستغرق (كذا) ما يعرف ، وأتجاهل

ما يجهل ، ثم أحاول أن أتصور أثر المنظر الغريب فى نفس العربى أو الفارسى بين أهل القرن التاسع ، ذلك مجهود ذهنى غير يسير ، ولكنه قليل بالقياس لما أحصل عليه من نتائج حين أكشف الواقع خلف الأساطير.

والحق إن محاولة تفسير غرائب (ألف ليلة وليلة) تفسيراً علمياً ، لا يتيسر إلا لذى موهبة جبارة تسلح معها بالعلم الفاحص ، والبصر السديد ، فإذا تركنا الجانب العلمى على عظمتة المرموقة - إلى الجانب الفنى ، فإننا نجد دقة الفنان وسلاسة انظراده ، وجمال سرده .. فى محاولة من كتابة القصص البحرية على نسق متصل ، لا تقصمه الفجوات كما هى فى الأصل ، بل تحبىء القصة وكأنها من قلم كاتب معاصر يلتزم بأوضاع الفن النقدى ، وللقارئ أن يطالع على سبيل المثال ، قصة عبد الله البرى وعبد الله البحرى ، ليرى تسلسل الأحداث المطرد منذ جاع عبد الله الصياد ومرّ بالخجاز ، وحل الخبز دون نقد ليؤدى الثمن فيما بعد ، ومنذ أخذ يلقي شبكته يومياً دون جدوى ، حتى تعلق بها بعد أربعين يوماً حمل ثقيل .. كان هو عبد الله البحرى ، ثم ماتاهد عليه الرجلان من موثيق أفضت إلى الثراء الباذخ حين حل عبد الله البحرى كنوز البحر من درر وجواهر ومرجان وزمرد إلى صديقه البرى ، وطار الخبر إلى حاكم البلاد إذا أنهر بهذه الكنوز وأخذ يسأل عن مصدرها ، فأعلن الصياد بما كان .. ولا يستطيع أن أستمتر فى التلخيص ، ولكنى أذكر أن الدكتور فوزى قد خلص منه إلى تحليل علمى بارع يبين دلالة القصة على وصف المجتمع نفسياً وخلقياً واجتماعياً ، كما يوضح أثر الدين فى الرضا والقناعة والوثوق بالانفراج مهما ضاقت الأبواب ، ثم ختم الدارس تحليله الرائع بقوله :

«لَا مِرَاءَ إِذْنٌ فِي أَنْ قِصَّةَ (عَبْدِ اللَّهِ الْبَرِّ) وَعَبْدِ اللَّهِ الْبَحْرِ) مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تَخْتَلُجُ بِرُوحٍ دِينِي عَمِيقٍ تَمِيزَتْ بِهِ عَقَائِدُ أَهْلِ الشَّرْقِ عَنْ عَقَائِدِ عَنْ أَهْلِ الْغَرْبِ، هُوَ رُوحُ اسْتِكَانَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَاعْتِبَارِ الْخُضُوعِ لِأَحْكَامِهِ صُورَةً مُثَلًى لِلْإِيمَانِ» .

## (أُسْلُوبَانِ مُخْتَلِفَانِ)

مِنْ يُوَازُنُ بَيْنَ أُسْلُوبِ حَسَنِ فَوْزِي فِي السَّنْدُبَادِ الْعَصْرِيِّ، وَأُسْلُوبِهِ فِي السَّنْدُبَادِ الْقَدِيمِ يَجِدُ الْفَرْقَ هَائِلًا مُتَّسِعًا فَقَدْ حُشِرَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُبْتَدَلَةِ دُونَ مُوجِبٍ، وَهُوَ أَمْرٌ نَكِرَهُ الدُّكْتُورُ طَهْ حَسَنِ وَصَاحَّ مُحَذَّرًا يَقُولُ «وَأَيُّ لَذَّةٍ يَجِدُهَا كَاتِبٌ مُتَقَفٌ لَهُ ذَوْفُهُ الصَّافِي فِي أَنْ يَصْطَنَعَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الَّتِي لَا تُسَمَّعُ إِلَّا فِي أَهْوَنِ الْبَيِّنَاتِ شَأْنًا، وَأَقْلَهَا حِطًّا مِنْ رَقِيٍّ، دُونَ أَنْ تَدْعُو إِلَى ذَلِكَ ضَرُورَةً فَنِيَّةً، أَوْ تَدْفَعُ إِلَيْهِ الْحَاجَةَ إِلَى تَصْوِيرِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَى تَصْوِيرِهِ إِلَّا بِاصْطِنَاعِ الشَّرِّ، إِنَّ الْكَاتِبَ قَدْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ، وَاعْتَدَى لَا أَقُولُ عَلَى الْعَرَفِ، فَأَمْرُ الْعُرْفِ عِنْدِي لَيْسَ بِذِي خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَلَكِنْ عَلَى الذَّوْقِ، وَعَلَى مَا يَنْبَغِي لِلْقَنِّ مِنَ الرَّقْيِ وَالْإِمْتِيَازِ، وَقَدْ تَسَأَلْنِي عَنْ أَمْثَلَةٍ لِهَذَا السَّخْفِ وَالْإِسْفَافِ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّي أَكْرَهُ أَنْ أُمَثِّلَ لَهَا فِي هَذَا الْفَصْلِ» .

أَمَّا الْكِتَابُ الثَّانِي فَقَدْ انْتَفَعَ فِيهِ الدُّكْتُورُ فَوْزِي بِوُخْزَاتِ النَّاqِدِينَ، فَارْتَفَعَ عَنِ الْإِبْتِدَالِ، وَأَخَذَ سَمَتَ الْأَدِيبِ الْجَادِ، وَمَا زَالَ الرَّجُلُ الْفَنَانُ يَتَابِعُ صَعُودَهُ حَتَّى سَلِمَ مِنْ عَثَرَاتِ السَّنْدُبَادِ الْعَصْرِيِّ تَمَامًا، وَعَادَ مَوْضِعَ الرِّضَا مِنْ نَاقِدِيهِ، وَالْحَمْدُ مِنْ قَارِئِيهِ، فَتَرَكَ فَرَاغًا هَائِلًا بِرَحِيلِهِ لَا يَقُومُ بِلَعْنَتِهِ وَاحِدٌ أَوْ اثْنَانِ بَلْ جَمْعٌ مُسْتَنِيرٌ.

## على الجارم يرثى ولده

كنت نشرت بإحدى المجلات بحثاً أدبياً تناولت فيه شعر المغفور له الأستاذ على الجارم ببعض المؤاخذه فى ضوء ما اهتمت إليه اتجاهات النقد المعاصر، ولم أكن فيما بينى وبين نفسى متجنباً على الرجل، ولا مباهياً بالهدم والتخريب وإنما هو رأى صادق أرتأيته .

ثم قابلت أستاذاً عزيزاً ممن أعرف لديهم براعة النظر وعمق الإدراك، وسعة المحيط، فذكر أنه لم يرتح لما ذكرت عن الجارم، وانى كنت من ضيق الأفق بحيث أردت أن ألزم جميع الناس بنمط معين من الشعر، مع أن القراء أولو مشارب ونزعات، وما يعجب زبداً من الناس قد لا يعجب سواه، وكلاهما ذو بصر وسداد! وأن ما توصله من قواعد الوحدة العضوية، والتجربة الذاتية، والصورة الشعرية أمر يروق كثيراً فى مجال التقعيد والتبويب، ولكنه يضطرب بعض الشيء عند التطبيق والاستشهاد. وآية ذلك أن الجارم — رحمه الله — كان يجد من الحظوة والاقبال لدى الكثيرين ما لم نجده لكبار المجددين. وليس معنى ذلك أن الجارم مصيب وهم مخطئون إذ أن من المؤكد أنهم أبعد نظراً وأقرب سداداً ولكن معناه أن لكل طعام آكله ومتذوقه، ومن الشطط أن نلزم الناس جميعاً بطعام خاص.

ولا أدري لماذا لم أجد لدى حينئذ ما أدفع به عن نفسى، فتركت

صاحبي يسترسل ويستفيض فيما يريد فاندفع يتحدث عن بعض ذكرباته مع الجارم ، وكان فيما قال .

حين مات المؤرخ البحاتة الشيخ عبد الوهاب النجار - رحمه الله - أقامت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حفلاً رائعاً لتأبينه ، وكان النجار وكيلاً لها وأحد دعاة المجاهدين بالقلم واللسان والرحلة والمال فى سبيل الله ! وقد حشدت الجمعية صفوفه من المتكلمين ليوفوا الفقيه الكبير حقه من التمجيد ، وكان من شعراء الحفل الأستاذ الكبير على الجارم . فاتجهت الأنظار إلى مقامه ، وأخذنا نتابع الخطباء والمتحدثين ، ونحن على شوق كبير لما سيهتف به الجارم بعد حين .

كان الشاعر مريضاً ، فأناوب من ألقى عنه قصيدته ، وقد اختاره أحسن اختيار ، وإن كنا نعرف أن اللقاء الجارم لا ينهض به سواه ، فهو الصناجة المطراب ، الذى يجعلك تحس إذ تسمعه أنك مع موسيقى تصدح ، لا مع إنسان يتكلم .

حان موعد القصيدة فاتجهت الأنظار إلى المنبر ، ووقف المنشد ليقول :

أقاموا بعض يوم واستقلوا	فطار القلب يخفق حيث حلوا
مضت بهم النجائب مصعدات	تمل بها الطريق ولا تمل
زوامل لم يعوقهن ليل	ولم يشغل كواهلن حمل
رأها آدم وعدت بنوح	وسار وراءه نسل فنسل
هوت أم الركائب كيف سارت	وهل تدرى الركائب من تقل
أسائلها وقد شطت وقوفاً	وأين من الوقوف المشعل



طففت أمد نحو الركب طرفى      فرد اطرف كئيبان ورمل  
وناديت الحبيب فعاد صوتى      وفى براته هلع وخبل  
أصاخ له من الصحراء نجد      فردد من الصحراء سهل

ومع أن أصحاب النقد الحديث يقولون إن هذا الكلام مما يصلح لكل راحل ، وأنه شبيه بالمعروضات المحلية التى يشتري منها كل إنسان ويبيع ، فإن السامعين - وكلهم من المثقفين - قد سيطر عليهم موقف الوداع ، وجعلهم الشاعر يرون بخيالهم قوافل الموتى تقذف بها الدهر دون أن تمل المسير. وتساءلوا مع الرجل : كيف تسير الآلة الحدياء هكذا دون إبطاء؟ وهل تدرى الركائب من تقل من الأعزاء؟ كما شاركوه التجربة حين سألها الوقوف ثم أخذ يمد الطرف إليها فلم ير غير الكئيبان والرمال ، وجعل ينادى حبيبه فلم يسمع غير الصدى يتردد من سهل حزن. أقول شاركوه التجربة حقاً فسأل كل سامع كما سأل ، ورأى بخياله ما رأى ونادى ولم يستمع الحبيب. وقد هبأ الجارم أذهان الناس لما يعتمل فى نفسه من أسى لاهف. فجعلوا يترقبون القول على قلق وشوق ، فإذا الشاعر يقتنص الحكمة الرائعة من بحار الأسى فيقول فى أنه جريحة ، ونغم هيف .

هى الدنيا فليس لها بقاء      وليس لها على الأيام خل  
إذا أعطت فقد أعطت قليلا      ولا يبقى القليل ولا الأقل  
تروح فبين شيخ أسكنته      منيته وطفل يستهل  
نعود إلى التراب كما بدأنا      فكل حياتنا نقض وعزل  
إذ بدت الغزالة ثم زالت      علمنا أن هذا العيش ظل

قد نقول إن هذه مواظ عامة تعود الناس أن يستمعوا إليها فى

مثل هذا الموقف ، ولكن قل لى بربك ، أ جاءت المواعظ العامة باردة  
الأنفاس جامدة الإحساس؟ أم أن الشاعر قد شحنها بكهرباء دافقة ،  
رجت شعور السامعين ، ولسوا من ورائها حزناً قوياً يضطرم فى نفس  
القائل ، كما أدركوا أن الجارم مقبل على الحديث عن مأساته  
الشخصية التى تعود أن يعطف عليها حين يؤن الراحلين . فقد كان  
من محن الجارم أن يفقد نجله النابغة المتفتح وهو فى طليعة المبرزين من  
طلبة الجامعة ، يرفل فى نضرة شبابه وتفتح مواهبه وارتقابه غده .  
فألجم الخطب الكارث فم أبيه ، فلم يستطع أن يخصه برناء مستقل .  
ولكنه كان يجد برد التنفيس حين يتحدث عنه فى مراثى الراحلين .  
لقد تحدث الجارم عن مأساة نجله فى مراثى أبى الفتح الفقى ومحمد  
أمين لطفى ، وأحمد الإسكندرى . وها هو ذا يرثى الأستاذ عبد الوهاب  
النجار ، ولكن وقدة الحزن فى حديثه وأنة الأسى فى نبراته تشيران  
إلى أن الشاعر متجه بكليته إلى الحديث عن فتاه . وإذن فقد تأكد  
عارفو الجارم أن الحديث عن الفتى الحبيب ، سيهزم بعد لحظات وأن  
الجارم سيعصر قلوبهم عصرا حين يقول :

بنفسى فى الثرى غصنا رطيا	يرف من الشباب ويخضئل
تقبله لدى الأصباح شمس	ويلثمه لدى الامساء طل
إذا اشتبهت غصون الروض شكلا	فليس لقدمه فى الحسن شكل
يميل به النسيم كأن أما	يميس بصدرها الخفاق طفل
كأن حفيفه نضرا وريفا	بسمعى حلى غانية يصل
ضننت به وجدت له بنفسى	وإن الحب تبذير ويخل
وكنت أشم ريح الخلد منه	وأهنأ فى ذراه وأستظل
وقلت لعله يبقى وراثى	بدوحته فإ نفعت لعل

فسل عنه العواصف أى نوع  
 نأى عنى وخلف لى فؤاداً  
 أشرم بالرثاء فهجمتوني  
 خذوا منى الرثاء دموع عين  
 بكى خير البرية خير طفل  
 أطاح به وأى ثرى يحل  
 يذوب أسى عليه ويضمحل  
 وتعذيب الذبيحة لا يحل  
 تكل المعصرات ولا تكل  
 ودمع العين فى الأحداث نبيل

لقد بلغ من حساسية هذا الشعر وروعة تأثيره أن أبكى أكثر  
 الحاضرين فجعل كل سامع يتذكر شجاه ووجده. وكأن الجارم قد  
 نكأ بكل صدر جرحاً دامياً، ولم يكن الرجل كاذب الإحساس حين  
 مهد لرثاء النجار بكل ما أنشد، حيث إن الأمر لا يخرج عن قوله:

أشرم بالرثاء فهجتموني وتعذيب الذبيحة لا يحل

والشاعر بما أبدع فى تصوير الجو الحزين قد مهد تمهيداً رائعاً  
 للحديث عن الشيخ النجار. وقد يقول قوم إن الوحدة العضوية فى  
 القصيدة منفصلة مبتورة، ولكنى أجزم أن الوحدة النفسية كانت  
 قائمة صلبة كأعنف ما تكون الصلابة. بل إن هذا الجو الوجدانى  
 الحزين هو الذى عطف بالشاعر فيما بعد إلى أن يكون حديثه عن  
 صاحبه الراحل حديث تواد واسترحام، فلم يتحدث الجارم كثيراً عن  
 بحوث الراحل ومؤلفاته، ولم يلم برحلاته ونشاطه بل انساب هادئاً إلى  
 بعض الذكريات الحبيبة ذات الشجى الضارع، والأئين اللاهف،  
 فتحدث عن زيارته إياه فى بعض الأوقات مسجلاً حديث الزمن على  
 لسان صديقين خبرا الحياة وعركا الأيام، فقال فى هدوء وقور يخاطب  
 روح صديقه الكبير.

أتذكر إذ تمازحنا لننسى      وقد أدركت أن المزح ختل  
أثبت تزورنى فهرعت أسمى      إليك ودمع عينى يستهل  
وكان عناقنا لما التقينا      وثاقاً للمودة لا يحل  
مشيت كأن رجلاً فى بساطى      تسير بها وفوق القبر رجل  
تجر وراءك السبعين عاما      وللسبعين أعباء وثقل  
ذمت لى المشيب وفيه حزم      وأطربت الشباب وفيه جهل  
وأبى الحزم ويحك يا ابن أُمى      إذا ما خاننى علم وعقل؟

وإمام الشاعر بهذا الموقف المستسلم بين شيخين كبيرين عركا  
الأيام وخبرا الحياة يحمل من هزات اللفهة، ومرارة التجربة ما ينسجم  
أتم انسجام مع روح القصيدة، ولم يستطع الجارم أن ينسى فتاه حتى  
بعد أن خلص إلى القول فى صديقه، لأن الأسى يبعث الأسى،  
وكل القبور لدى الحزين قبر مالك. لذلك نجده يسأل صديقه وقد عبر  
الحياة إلى الضفة المجهولة سؤال من يحاول استشفاف الغوامض  
المستكنة تحت الستور المنسدلة فى عالم الغيب. فهو يسأل أهنالك بريد  
إلى الدار الآخرة يذهب ويجيء بين الأحياء والأموات؟ أهنالك من  
سبيل إلى تزاور الأرواح بعد الفراق؟

أبطل الفتى فى عالم الغيب مشغولاً بأحبابه فى عالم الشهادة،  
أعبد الشاعر مكانه بين من هوى حين ينتقل إليهم فى عالم الخلود،  
أصل الدموع إلى الحبيب النازح فى مثواه؟ أيعلم حرقه الأشجان  
نجل يبكى عليه أبوه كل صباح ومساء؟

إن السؤال الأخير— فى رأى— هو الذى هيج كل ما تقدمه من  
الأسئلة اللاهفة، وهو الذى مهد الطريق إلى إبداع الشاعر حين

قال :

فديتك هل إلى الأخرى بريد      وهل لتزاور الأرواح سبل  
وهل يبقى الفتى بعد المنايا      له بالأهل والأصحاب شغل  
وهل لى بين من أهوى مكان      إذا قوضت رحلى أو محلى  
وهل فى ساحة الجنات نهر      يزول بمائه حقد وغل  
وهل تصل الدموع إلى حبيب      ويعلم حرقة الأشجان نجل  
لقد جل المصاب وجل صبرى      عليك ، وأنت من صبرى أجل

قلت لحدثى بعد أن فرغ من كلامه ونظر إلى كمن يحاول أن  
يستشف من ملامحى موقع حديثه من نفسى ، ولكن الجمهور قد أقبل  
ليستمع حديث الجارم عن صديقه النجار لا عن ولده النابغة الفقيد .  
فكيف جمع به الشاعر إلى غير ما يتوقع ؟

فقال الأستاذ دون إمهال : اعلم أن الجارم من شعراء المنابر  
العالية ، فقصائده للمحافل أولاً ، ثم للقراءة ثانياً ، وعشاق شعر المحافل  
يكتفون من الشاعر بالإثارة الوجدانية ، وقد أفلح الجارم فى تبيجها ،  
ثم ماذا كنت تريد من الشاعر أن يقول فى الراحل المؤن ؟ إن أبرز  
صفات الشيخ النجار كانت فى حججه الدامغة لدى النقاش العلمى  
سواء فى التاريخ أو الدين ، كما كان الرجل خطيباً ذا تدفق  
وانصباب وإن لجأ إلى الاستطراد الواسع فيما يرسل من خطب ذات  
رنين ، وقد عبر الشاعر عن مزايا صاحبه الفقيد حين قال .

مضى النجار والعلباء حصن      عليه - بعده - باب وقفل  
به جمع الحجا للعلم شملا      فبدد بعده للعلم شمل  
له حجج يسميها كلاما      وماهى غير أسياف تسل

وآراء ترى فيها ابن بحر      يصول كما يشاء ويستدل  
إذا فاضت ينابعه خطيباً      علمت بأن ماء البحر ضحل  
يذل له شمس القول طوعاً      ويستخذى له المعنى المدل  
فذاك الفضل جل الله ربي      وليس يحمد للرحن فضل

إلى أن قال :

فقم واخطب بحفلك كم تغنى      وهام بصوتك الرنان حفل  
وذكرنا اليقين فكم عقول      تكاد عليك من شجن تذل  
وقل إن البقاء إلى فناء      وإن زخارف الأيام بطل  
وإن الموت إطلاق لروح      معذبة وإن العيش غل

فما عسى ينتظر السامع من شاعر المحفل أكثر من ذلك ؟ إن قصيدة الجارم قد جاوزت السبعين من الأبيات فإذا اختص النجار بثلاثين بيتاً منها ، ورفرف الجوارح الحزين على الباقي لمناسبة أخرى تتصل بالموت والدمع واللوعة ، فإن الشاعر حينئذ لا ينادى السامعين من مكان بعيد ، لقد قال الجارم قصيدته مساء ثم نشرتها الأهرام فى الصباح فطالعها مائة ألف قارئ هم قراء الصحيفة اليومية الطائفة الصيت . فهل اكتفى سامعو الجارم بنص الأهرام المطبوع ؟ لقد كان الجارم يومئذ عميداً لكلية دار العلوم بالنيابة ، وتلقى رسائل كثيرة ينبئه كاتبوها - وأكثرهم من عليّة الناس - أنهم حريصون على تدوين القصيدة بخط واضح فى صفحة كبيرة تحفظ كتخفة بارعة . وكان بكلية دار العلوم جماعة للخط العربى اختبر أعضاؤها من طلاب الصفوف الأربعة الذين اشتهروا بجودة الخط ، وجمال التنسيق الكتابى ، فشرعت الجماعة فى إبداع نسخ فنية للقصيدة تهادتها العلية

من المعجبين وعبر ذلك عن اهتمام فريد بشعر الجارم ، لم يحزه أكثر المجددين « لك أن تقول إن الجمهور العام من السامعين لا يعد استحسانه مقياساً والشعر الرفيع أرسقراطى المشرب لا يقدره حق قدره غير ذوى الثقافات العميقة ، ولكن قل لى بربك أليس الجمهور العام من القراء بحاجة إلى شاعر رنان يوقد العاطفة بالتأثير، ويلهب الاكف بالتصفیق ، لقد كان هذا الشاعر حافظ إبراهيم ثم كان على الجارم بعد حافظ ؟ فهل تعصف بكل ما قاله رجال هذا النمط ، وهم عشاقهم الكثيرون . ذلك تحكم غير مستساع ؟ سكت صديقى الكبير، فوجدت لحديثه موقعا من نفسى وآثرت أن انقل خلاصته فى هذه السطور فقد تكون مما يفيد ، على أننا لانسى فى هذا المجال أن نعترف بأن الأستاذ الكبير على الجارم قد أفاد بشعره الجزل الرصين عشاق الديباجة الصافية والنسج الرصين ، لأن الرجل كان دون نزاع من أعلام اللغة وأدبائها الفحول ، وكان شعره فوق النقد اللغوى والنحوى والصرفى ، بحيث يجوز أن تجد بعض السقطات اللغوية والنحوية لدى البارودى وتلاميذه من أمثال شوقى وحافظ ومحرم والكاشف ، أما الجارم فن دراسته اللغوية والقاعدية والأدبية فى معقل منيع ، وأذكر أن الأستاذ الزيات — رحمه الله — كان يقول إن دارسى اللغة العربية فى حاجة إلى سماع صوت الجارم حين يلقى قصائده بالإذاعة المصرية ، فهو أستاذ الإلقاء تجويدا وضبطا مخارج الحروف ، ومحافظة على بنية الكلمات ، وذلك ما نفتقده عند أكثر المتحدثين ، وتحسن الإذاعة صنعا — فى رأى الزيات — لو دأبت على ترديد قصائد الجارم والدروس الدينية للأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراعى لتضع النموذج الأعلى لجودة النطق ، وضبط القواعد ، وتجويد الحروف .

## جميل صدقى الزهاوى وأدباء مصر

كان الشاعر العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى شعلة متقدة لاتعرف الخمود، حيث شارك فى معارك فكرية كثيرة، أثارت غباراً كثيفاً، وجمعت حوله الأنصار، وآلّبت عليه الخصوم، وهو على تقدّم سنه، ووهن جسمه دائب الحركة، ألدّ الخصومة، جَيّاش الانفعال، وقد كانت صحف مصر ومجلاّتها الأدبية، من ميادين نضاله الفكرى منذ اهتدى إلى موهبته الأدبية، إذ حفلت جرائد المؤيد واللواء والنظام ومجلاّت المقتطف والهلل والعصور والرسالة بشماره الأدبية نثراً وشعراً، وكانت الرسالة فى أخريات أيامه مجاله المفضل فى نشر قصائده إذ لم يكد يخلو عدد من أعدادها حينئذ من قصيدة رائعة يقول الزيات إنها للشاعر الفيلسوف، ولم يجمع للآن كثير مما نشرته الرسالة، إذ طالعت ديوان الشاعر الذى صدر أخيراً فى بيروت فوجدته خالياً من بعض قصائد الرسالة، وقد زار الشاعر مصر للمرة الأولى فى فجر شبابه. وهو فى طريقه إلى الاستانة فأكد صلته بكبار مفكرها، واحتفل به الدكتور يعقوب صروف وجورجى زيدان، وشبلى شميل وولى الدين يكن وإبراهيم اليازجى، وأخذ المؤيد يطالع القراء بفرائد شعره، ومن أجل ما نشره فى هذا العهد، قصيدة الغريب المختصر، إذ كان لها دوى زنان فى وادى النيل، عارضها الشعراء، وحللتها أعلام الأدباء، ومن فرائدها الجميلة قول الشاعر على لسان الغريب المختصر:



غداة غد يا لهُف نفسي على غد  
إلى حيث لا شمس النهار مطلة  
سلام على الدنيا، سلام على المنى  
سلام على الشمس المضيئة في الضحى  
يتم على الأبدى إلى حفرة نقلى  
ولا الليل نظار بأعينه النجل  
سلام على المأوى سلام على الأهل  
سلام على ربح الصبا، عقب الوبل  
وهل سمرات الرمل وارفة الظل  
فيالك من حزن وبالك من سهل  
بلاد بها حزن وسهل تقابلا

وسنعرض — فى إيجاز يسير— إلى بعض علاقاته الأدبية بنفير من أدباء مصر، لنرى كيف تجاوزت مشاعره مع قوم ، وتنافرت مع آخرين ، وهى صفحة من صفحات التاريخ الأدبى المعاصر تنفح بالجديد .

## بن الزهاوى وولى الدين يكن

كان اتفاق الميول بين الشاعرين الكبيرين .. ولى الدين يكن وجيل الزهاوى قويا ، فكلا الأدبيين نائر شاعر ذو نظرة واضحة فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وقد تعرض الزهاوى لنقمة الجماهير فى العراق فعزل عن وظيفته ، وحددت إقامته فى منزله ، وتلقى خطابات التهديد بالاعتقال .. حين كتب فى جريدة المؤيد مقالا عن المرأة يؤيد فيه السفور ويحاصم الحجاب ، ولم يجد الشاعر بدا من أن يعلن لبنى وطنه أن المقال مدسوس عليه ، وأنه لم يكتب شيئا مما نشره المؤيد ، والحق أنه تنصل لم يقنع الجمهور فى شىء ، إذ لم يعهد القراء فى جريدة المؤيد .. أن تنسب مقالا لغير كاتبه ، ولكنه أعطى حجة لوالى بغداد كى يخفف من عقوبة الشاعر.. فاكفى بحرماته من الوظيفة واعتقاله فى منزله ، رجة به أن يتعرض لسوء ، وقد بلغت مصر

أصداء هذه النقمة فى بغداد، فكان ولّى الدين يكن من أقوى الأصوات التى ناصرت الشاعر إذ أفرد المقالات وأنشأ القصائد فى مواساة صديقه، متعجباً أن تكون مقالة المؤيد مصدر هذه النقمة الثائرة، وكان مما قاله:

عفاءً على بغداد بعد جيلها	إذا ربعة العمور أخلق دائره
تنادوا به والضغن ملء قلوبهم	وقالوا وحيد مالنا لانكائره
أخى وفجاج الأرض بينى وبينه	أعيذك من هم تببت تساوره
أعيذك من وجد يضيقك نازلاً	وأهوال ليل مظلم أنت ساهره
وإن فريق الظلم إن طال ظلمه	سنمشى إليه بالسيوف نبادره

كما كتب الدكتور شبل شميل مقالاً يدافع فيه عن الزهاوى، فحرك ثوائر ولى الدين وأعقبه بمقال قال فيه:

«إن ينزل بالزهاوى نازل من الظلم، فتلك سبيلُ أبناؤكم سالكوها غداً، فالأى يحزنكم مصرعه، فإن فى مصارع أبنائكم ما يستدر جامد العبرات، إيه لكم قطعت الشعوب أشواطاً فى منازل الحياة ونحن إلى الوراء راجعون، لقد استجار المقطم بالوالى وبالرئيس. لك الله إنما تستجير من الرمضاء بالنار! لقد أسمعت لونا ديت حيا».

وقد عرف جيل لصاحبه ولى الدين يده الحانية، فبكاه بقصيدتين حين انتقل إلى جوار ربه، وأشار إلى دفاعه عنه فى محنته فقال:

ولست أنسى انتصارات له صدقت	فى محنتى، بل أنا بالفضل معترف
قد كان زينة مصر فى كتابته	كأنما هو فى آذانها شنف

ما جاء وصف ولى فى مصاحبة      إلا وفضل ولى فوق ما وصفوا  
يا كوكبا قد توارى بعد مطلعه      بمن تخفف عنا بعدك السدف

## ( بن شوقى والزهاوى )

لم يكن من شأن شوقى أن يدخل فى عراك قلمى مع أحد، وقصارى جهده مع خصومه أن يوعز لبعض أصدقائه من حملة الأقلام أن يردوا على مهاجميه، أو أن يفيضوا فى تحليل شعره موازنة وتقريراً ليشبعوا رغبته فى الإطراء، ولكن الزهاوى كان يستشعر فى أعماقه انقباضاً عن شوقى، فقد ملأ عليه الأفق فى مصر وفى العراق أيضاً، ولا بد لهذا الانقباض أن يجد متنفساً يتبع لجميل أن يخفف عن صدره بعض ما يحمل، ولسوء حظه أنه شاء أن ينازل شوقى فى موطن من مواطن قوته لافى موضع من مواضع ضعفه، فقد مات اسماعيل صبرى ورثاه شوقى بقصيدة من روائعه الفاتكة، وقد أسهبت الصحف فى تمجيد الشوقية وقارنتها بمراثى الشعراء لاسماعيل فارتفعت بها عما قال المهرأوى وحافظ والجارم وعبد المطلب والزين، بل ومطران أيضاً فى رأى بعض دون بعض، وطار الدوى إلى العراق، فامتشق جميل الزهاوى يراعه لينقد قصيدة شوقى، وطبيعى أن يلجأ إلى الافتعال والتحمل، لأن سبحات شوقى فى هذه المراثية من القوة بحيث لا يستطيع ناقد منصف أن يعصف بها فى مقال، وقد بدا الافتعال حين نقد الزهاوى المطلع التالى:

أجل وإن طالَ الزمانُ موافٍ      أخلى يدك من الصديق الوافى

فقال الزهاوى إن المعنى مضطرب، لأننا لو أعربنا (أجل) مبتدأ،

وموافٍ خبر، فصلنا بين المبتدأ والخبر، ولو كان المبتدأ محذوفاً وأجل خبر فتكون (مواف) صفة للخبر، وهذا تشويش للمعنى؛ فإذا يقول القارئ في هذا التعسف الجائر؟! إذ لا تشويش ولا اضطراب!

وقال شوقي :

ذهب الشباب فلم يكن رزئي به      دون المصاب بصفوة الآلاف

والبيت جيد، إذ أن فقد صبرى لدى الشاعر كان من الواقع فى نفسه بمنزلة فقد الشباب، ولكن الناقد يرى البيت قلقاً فى مكانه إذ لا يرتبط بما قبله! والارتباط أوضح من أن يخفى على شاعر كالهواوى، فقد خلت يد الشاعر من صديقه وكان فراغها منه كفراغها من عهد الشباب!

ومضى الزهاوى فى نقد كهذا، لا يحتمل نقضه أدنى جهد، واشتط فألحق نقده بعيون رائعة مثل قول شوقي:

فجعت ربي الوادى بواحد أيكها      وتجرعت ثكل الغدير الصافى  
فقدت بنانا كالربيع مجيدة      وشى الرياض وصنعة الأقواف

لم يذهب نقد الزهاوى دون صدق، فقد تعرض له الناقد العراقى الأستاذ محمد بهجت الأثرى بما هدمه هدماً، ولم يكتف الزهاوى بما نقد، بل أراد أن ينافس شوقي فى رثاء اسماعيل، فنظم قصيدة من بحر الشاعر وقافيته قال فى مطلعها:

ما الموت وهو يلم بالأخلاف      إلا تراث جدودها الأسلاف

وقارىء قصيدة الزهاوى يدرك أن الشاعر يفكر برأسه ولا ينقل عن وجدانه، كما يدرك أن شوقى قد جمع بين العاطفة الصادقة، والمعنى الجليل.

وحين بايع شعراء العربية شوقى بإمارة الشعر قال الزهاوى:

قالوا لشاعر مصر إمارة الشعر تبني  
فقلت يا أهل مصر منكم أمير ومنا

وهو يتنازل بعض الشيء حين يجعل نفسه أميراً لشعراء العراق، ليكون شوقى أميراً لشعراء مصر! غير أنه لم يهدأ قليلاً، فقد ظهر الجزء الأول من الشوقيات، ونهض الزهاوى لنقده فى مجلة لغة العرب، ولجأ إلى التمحل كعادته، فقد بدأت بالقصيدة الأولى من الشوقيات ومطلعها:

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

فقال الناقد: لا أدري أنزلت الفلك التى أقلت من فيها ساعة ركوبهم ليحتويها الماء؟ أم لم يكن محتوياً إياهم قبل أن تهّم! ومضى فى أمثال هذا التمحل بما لا نطيل فيه.

على أن الزهاوى كان صريحاً حين سئل عن رأيه فى إمارة الشعر فكان بما قال:

«شوقى من شعراء الماضى، وجهه إلى الوراء فى سيره إلى الأمام، أما إعجاب الأكثرين من الجمهور العربى بشعر شوقى فلكونه

يناسب مستواهم ويلمس أذواقهم ، فإذا تقدم الجمهور فى المستقبل  
القريب ، مات شعر شوقى إلا قليلا» .

ومما يحمد للزهاوى أنه رثى شوقى بقصيدتين رائعتين بعد وفاته ،  
وفيهما اعتراف بزعامته الشعرية ، يعفى على كل ماوجه إليه من نقد ،  
وقد قال فيما قال :

خَرْتُ لعزة شعرك الشعراءُ      فكأنهم أرضى وأنت سماء  
ولقد خفيت على ظهورك مدة      عن أعينى ومن الظهور خفاء  
قالوا سينبغ عبقرى مثله      قلنا: بلى ، لو أنجب الآباء

### بين الزهاوى ومحمد فريد وجدى

شاء الزهاوى أن يهجر العراق إلى مصر ، معتزماً البقاء فيها  
مادامت له حياة ، فقد كذره أن العراق لم ينصفه ، فلم يجد به منصباً  
مرموقاً كان يتمناه ، كما أن أقلاماً تحرشت به مناصرة معروف  
الرصاصى ، ومقدمة مكانته الشعرية فوق مكانته ، وقد احتفلت القاهرة  
بمقدم الشاعر الكبير . وأقام له شيخ العروبة أحمد زكى باشا حفلة  
تكريمية جمعت العلية من رجال السياسة والأدب والصحافة ، وفسحت  
الجرائد اليومية ، والمجلات الأدبية أبرز أمكنتها لقصائد الزهاوى ،  
وأطلقت عليه « الشاعر الفيلسوف » ، ولكن الزهاوى توڑط حين نشر  
قصيدة تحت عنوان « الدمع ينطق » بجريدة السياسة اليومية مال به  
إلى الإلحاد المادى ، وقد قال فيها :

وسائلة هل بعد أن يعث البلى      بأجسادنا نغيا طويلاً وتُرزقُ

فقامت النائرة عليه ، وهاجته بعض الأقلام ، وآزرتة أقلام مماثلة ، وقد شاء الأستاذ محمد فريد وجدى أن ينتصر للحق فى أدب ملائكى ، وسماحة نبيلة ، والأستاذ وجدى مثل من أمثلة الخلق العالى ، والثقافة الأصيلة والسلوك المثالى ، فكتب — رحمه الله — إلى الزهاوى خطاباً على صفحات السياسة يقول فيه بعد مقدمة عاطفة مقرظة .. تدل على كرم وحنو:

«آنست من السيد — أيدى الله — كلفاً شديداً ينشر مايدل على فناء الإنسان بفناء جسده ، فهل هذا منه عن بحث أعطاه حقه من الدخول فى مضايقه ، والصبر على تكاليفه ، إن كان الأمر كذلك ، فهل للأستاذ أن يساجلنى البحث فى هذا الموضوع الخطير ، فيعرض أدلته على نفى الروح ، وأعرض أنا أدلتى على إثباتها ، ليشهد القارئون من هذه المعركة القلمية أجل مشهد من مشاهد النضال العلمى بأسلحته الحديثة ، ويكون فى مقدمة إلى مصر اليمن والبركة وإن لنا أسوة حسنة بالمستر غلادستون والأستاذ توماس هكسلى إذ تناظرا فى مسألة الإلحاد والتدين .. فانتجا لأمتها أجل صحيفة من صحف النقد العلمى» .

ولكن الزهاوى ، وقد أخذته الأصوات اللائمة من كل صوب ، شاء أن يؤثر الصمت ، وأن يعجل بالرحيل من القاهرة ، كتب للعلامة الأستاذ محمد فريد وجدى رداً قال فيه بعد دياجة مثنية شاكرة .

«وأكبر أسفى ، هو أن الظروف لم تسمح لى وأنا نزيل مصر ، بمصافحة تلك اليد البيضاء التى خدمت الأمة العربية بكتاباتها ، وأود لو يسمح الدهر باجتماعنا فى يوم من الأيام لمداولة ما عندنا من الآراء

مستندين على ما أثبتته العلوم العصرية، خدمة للحقيقة، ولكن هيات، فإننى على وشك الإياب، أوبة من لايسمح له الوهن والكبر بالرجوع إلى مصر، تلك التى كنت أنزع إليها فى بغداد، وأتغزل بحريتها.

حان عطفى إلى العراق الرجاء فوداعاً لمصر ثم وداعاً

وحين مات الزهاوى كتب عنه الأستاذ محمد فريد وجدى بحثاً ضافياً بمجلة الأزهر، نافش فيه آراءه الماذية، وذكر طرفاً مما كان يريد أن يقوله فى مساجلته، ولكنه — كدأبه فى أساليب الجدل العلمى — كان نزيه القلم، عفت البيان، فسيح الجناب.

## بن الزهاوى والعقاد

سئل الأستاذ العقاد عن الزهاوى، فكتب مقالا ينسبه فيه للعلماء، ويباعد بينه وبين الشعر والفلسفة، ولن يُعجز العقاد أن يؤيد رأيه بما يتراءى له من أدلة يجدها طوع يده دائماً، ولكن الذى لاشك فيه أنه تحيف جيل صدقى الزهاوى تحيفاً ظاهراً حين باعد بينه وبين الشاعرية، ودع عنك الفلسفة، والزهاوى عند الناس جيعاً شاعراً أولاً وفيلسوف ثانياً وعالم ثالثاً، فإذا جاء العقاد ونأى به عن مجال اعتزازه وموضع فخره فلا بد أنه يصيبه فى أعز شيء لديه، وللزهاوى فى العراق خصوم احتفلوا بقول العقاد وباركوه، فرادوا من هم الشاعر. وخلاصة ما قال الأستاذ العقاد ينتهى إلى قوله:

«إن الأستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية من طراز رفيع، وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجترى فيها بالاستقراء



والتحليل ، ولا تقتصر إلى البدهة ، والشعور ، فن ينشده فلينشده عالماً  
ينظم أو ينجح إلى الفلسفة فهو قين بإصغاء إليه ، وإقبال عليه فى  
هذا المجال وأن خير مكان له هو بين رجال العلوم ، ورادة القضايا  
المنطقية ، فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء هذا المكان .

والذى قاله العقاد ينطبق على مثل الدكتور شبلى شميل والدكتور  
يعقوب صروف ، فكلاهما يتكلف نظم الشعر أحياناً كثيرة ، ولكن  
بحوث العلم هى ميدانها الصريح ، وظلم أى ظلم أن نقرن بها شاعراً  
كبيراً كالزهاوى له سبحاته وإشراقاته ، وقد دهش الزهاوى لمنطق  
العقاد ، ونازله فى قوة وبراعة وصراحة سافرة فضرب الأمثلة بعدة  
قصائد من شعره .. تمتلىء بالعاطفة والخيال وتؤكد نصيبه القوى من  
الشاعرية وصارح الأستاذ العقاد بأنه ينسب إليه ما يجب أن ينسبه  
الزهاوى للعقاد نفسه ، لأن صلة العقاد بالعلم فى رأى الزهاوى أكبر  
من صلته بالشعر ، وكان الجدير به أن ينقد الزهاوى مستنداً على  
خياله وبدهته إذا صدق انتماءه للشعر بدل أن يرتكن على المنطق  
الذى هو فى الدرجة الثانية عند العقاد ، وذهب الزهاوى يقطع كلام  
العقاد ليرد على كل فقره ، وقد كلفه ذلك إرهاقاً كبيراً ، لأن العقاد  
صاحب منطق وحجاج ، وقد انبرى ثانية لتفنيد آراء الزهاوى ، بمنطقه  
الجدلى الذى يسعفه دائماً لا باعتباره باحثاً ينشد الحقيقة ، بل باعتباره  
محامياً بارعاً ينحاز إلى قضية فرض عليه أن يدافع عنها بما يملك من  
البراهين . وقد رد الزهاوى على رد العقاد ، لأن من ديدن الشاعر  
الفيلسوف أن يكون دائماً فى عراكٍ وصيال وكان جريئاً بالغ القوة حين  
واجه العقاد برأيه فى شاعريته فقال :

«وما كانَ ردّي السابق عليه، لأنّي حرص على لِقَب الفيلسوف أو الشاعر كما تُوهم عبارته، وهو ما لَقِبني به الناس من غير أن أدعوهم إليه، وقد قرض الأستاذ مثلي الشعر، فلم أستخف بشاعريته، على ما فيها من مآخذ، وعلى أنّ رأيي فيه ليس بأحسن من رأيه فتّى، وما سألني إلّا ما أذاعه في رده عليّ من أنّي لم أقدم للرد عليه إلّا لأنّي أحب أن يقال عني فيلسوف شاعر، والحقيقة أنّي لم أرد عليه إلّا لأنّه بنى رأيه فتّى على دلائل لم تكن حكيمة ولا خليقة بأن يبني حكمه عليها من يريد الحقائق» .

ويخيل إليّ أن الزهاوى قد جَوف الأمر، وضغمه حين أظهر استيائه الصارخ من قول العقاد، ولو سكّت غير محتفل ما ترك للخصوم أن يشمتوا به، على أنّه انتقم لنفسه حين أصدر العقاد ديوانه فخصه بنقد متحامل عاصف، دون أن يمهره بتوقيعه الصريح، وقد حاول العقاد دفع النقد، دون أن يعرف أنّه للزهاوى بل ظن أن صاحب المجلة الأب انتاس ماري الكرملي هو الناقد؛ لأنّ أكثر الاعتراضات كانت من ناحية اللغة والنحو والتركيب الأسلوبى! فسلق الأب بعبارات قاسية وقد كشف الأستاذ الكبير عبد الرزاق الهلالي عن دور الزهاوى فيما نسبته العقاد إلى الأب انتاس، وجاء في ذلك بالفلق المبين .

## ( بن الزهاوى والزيات )

الأستاذ أحمد حسن الزيات أديب رقيق الحسّ، هادى الطبع، مسالم لا أنياب له ولا أظفار، لذلك جرى الود بينه وبين الزهاوى سلساً عذبا، عرفه في العراق حين انتدب للتدريس بدار المعلمين العالية

ببغداد، وهرع الزهاوى للقاءه فى أول مقدمه، وجعل يشكو له ما أصابه من نقد الأستاذ العقاد، وكيف دفع بخصومه فى العراق إلى شماته قاسية، وكان اللقاء الأول بين الأدبيين كما وصفه الزيات فى قوله:

لم يدع لى الزائر الكريم فرجةً بين كلامه الدافق، أدخل عليه منها بالتحفيف والتسرية، فإن الزهاوى كما علمت بعد ديدنه أن يتكلم، كالبلبل خاصة أن يغرد، والزهر طبعه أن يفوح، فهو فى مجلس الصداقة شاك أو شاكر، وفى مجلس الأدب محاضر وشاعر، وفى مجلس الأنس مُفاهكه أو محدث، كان الشيخ يتكلم أو ينشد، ونبراته المؤثرة، ولحيته الخفيفة، ووجهه المسنون، وعينه البراقة، وشعره الأشمط، تخيل لى أن طيفا من أطياف الجدد، أو نبياً من أنبياء اليهود، قد انشق عنه حجاب الزمن، فجاءنا فى هذا المكان الصامت».

أما حكم الزيات على شعر الزهاوى فقد صاغه لبقاً لطيفاً حين قال « الزهاوى شاعرٌ من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة، واللفظة النافذة، وليس له الأذن التى تموسق، ولا القرينة التى تصنع، فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية تعج بين الأبيات المتخاذلة، عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة».

وهذا كلامٌ ينطبق على أكثر شعر الزهاوى لاعلى الكثير، لأن الشاعر يحتفل أحياناً، فيأتى تعبيره محكماً دقيقاً، أما إذا أسرع أو ارتجل، فالأمر كما قال أستاذنا الزيات، وقد تسرع الناقد الكبير حين

قال «إن له الوزن الذى لا يتسق» فإن معناه أن البيت يجيء مكسوراً، وهذا ماينأى عنه شاعر كبير كالزهاوى، إلا إذا أراد الزيات أن الشاعر يرتكب من العلل والزحافات ما تحيظه الضرورات الشعرية على كراهية لا على تحريم.

وبعد، فحديث الزهاوى إذا كان بارعاً عند الزيات فإن الحديث عنه يحتاج إلى براعة.. قد لا يملكها الكثيرون، ولكننا نتحدث عنه قدر ما نستطيع.

\*\*\*

## من نوادر التصحيف

قرأت بمجلة الأديب الصادرة في أكتوبر سنة ١٩٦٩ حديثاً يخص أستاذى محمد سعيد العامودى - رحمه الله - فكتبت إليه مخبراً عما قرأت، ولكن القلم سها فوضع كلمة الأدب مكان كلمة الأديب، ومجلة الأدب مصرية تصدر فى القاهرة، ومجلة الأديب لبنانية تصدر فى بيروت، فبحث الأستاذ عن مجلة الأدب فى مكة فلم يجدها فأرسل إلى القاهرة يدعوها، وحين تصفحها لم يجد شيئاً مما حدثته عنه، لأن التصحيف الذى أسقط حرف الياء من كلمة الأديب قد أخرج موقفى حين نقل المجلة من قطر إلى قطر، ولكنه مع ذلك أتاح لى الآن أن أتحدث عن هذا التصحيف الظالم عبر التاريخ.

لقد شكا العلماء والأدباء معاً من جراء التحريف الكتابى. وإذا ضاق الأدباء ذرعاً به فضيق العلماء أشد وأمض، إذ ربما أدى إحلال حرف مكان حرف فى لغة العلم إلى كارثة محققة، فقد ذكر الأصفهاني أن حنين ابن اسحق كان يحتاط فيما يبلغه من أسماء الأدوية فيفزع من الحرف ذى اللبس خيفة أن يقرأ على غير وجهه فن ذلك أنه كان يكتب «الصعتر» ثم يضع بعدها حرف الصاد ويقول أخاف أن تقرأ (الشعبر) فيصير الدواء داء ويموت العليل، وهى شكوى مريرة ردها أبو الريحان البيرونى حين قال فى كتاب (الصيدنة): «ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة، هى تشابه صور

الحروف المزدوجة فيها، واضطرابها فى التمييز إلى نقط المعجم  
وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها، فإذا أضيف  
إلى ذلك إغفال المعارضة، وإهمال التصحيح بالمقابلة، وذلك بالفعل  
عام عندما قومنا، تساوى به وجود الكتاب وعدمه، بل علم ما فيه  
وجهه». وما زالت الشكوى تتردد عبر السنين حتى جلجل بها أحد  
فارس الشدياق فى مقدمة الجاسوس على القاموس، وحتى اضطرب  
مجمع اللغة العربية أن يعرض جائزة قدرها ألف جنيه لمن يوفق فى  
تيسير الكتابة العربية إلى اقتراح مفيد.

ونقرأ فى تراجم القدامى من الأدباء تهوينا وانتقاصاً يوصف  
بالصحفى إشارة إلى أنه تلقى علمه من الصحف لا من أفواه الرجال  
فتعرض إلى خطأ محقق، وانتقل ذلك من النثر إلى الشعر فقال ابن  
عساكر صاحب تاريخ دمشق:

وإنك لن ترى للعلم شيئاً يحققه كأفواه الرجال  
فلا تأخذه من صحفٍ فترمى من التصحيح بالداء العضال

وقال آخر فى هجاء أبى حاتم السجستاني - على فضله الذائع  
وعلمه الغزير.

إذا أسند القوم أخبارهم فإسناده الصحف والهاجس

وقد ألح العسكري كثيراً فى ترديد هذا المعنى فى كتابه  
(التصحيح والتجريف) فرأى «أن هذه الآفة لا يسلم منها إلا من  
افتن فى العلوم، وأخذ من أفواه الرجال، ولم يعول على الكتب  
الصحفية، ولم يؤثر شدة الراحة على تعب البحث والتنقيب».

وفى مجال التمثيل لما أنكروه من التصحيف، ومن أنكروه من المصحفين، تذكر عماد الزبرقان المقرئ الراوية فقد كان يصحف ألفاظا فى القرآن الكريم، لأنه حفظ القرآن من المصحف ولم يحفظه على شيخ، فكان مما يغلط فيه. وقد مهد بذلك السبيل لرأى خارجى متطرف أتى به أبو بكر محمد بن الحسن العطار، وكان من أحفظ الناس لنحو الكوفيين وأعلمهم بالقراءات وله كتب وتصانيف كثيرة، ولكنه تورط فيما حكاه عنه الأنبارى إذ قال «ومما طعن عليه أنه عمد إلى حروف يخالف الإجماع فيها فقرأها وأقرأها على وجوه، وذكر أنها تجوز فى اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم، وأنكروا عليه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة الفقهاء والقراء فأذعن بالتوبة، وكتب محضر توبته، وكتب جماعة من حضر فى ذلك المجلس بتوبته خطوطهم فيه بالشهادة عليه<sup>(١)</sup>. وتصرف هذا الرأى الخارجى المردود يرجع إلى أنه قبل كل ما يوحى به التصحيف من معنى يمتثل سواء قرئ به أم لم يقرأ، وهو شطط منبوذ أوجب التوبة والاستغفار وقبل أن تضرب الأمثلة لبعض ما وقع فيه العلماء من تصحيف نروح عن القارئ ببعض النوادر الطريفة التى جلبها التحريف، فكانت مثار الفكاهة لدى المتأدبين، فن ذلك ما حكاه القاضى أحمد بن كامل إذ قال حضرت بعض مشايخ الحديث من المغفلين فقال عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عن رجل قال فنظرت، فإذا هو قد صحفه، وحقه أن يكون «عن جبريل عن الله عز وجل».

(١) نزهة الألياء ص ٣٨٨ تحقيق الاستاذ أبو الفضل .

وقد روى ابن النديم فى الفهرست أن أحدهم قال مررت بشيخ جالس ويده مصحف ، وهو يقرأ إحدى آياته ، فقلت وما معنى كذا؟ فقال هذا الذى ترى فقلت ما يكون النصحيح إلا إذا كان مثلك يقرأ بلا فهم ؟ إنما هو ميراث السموات والأرض فقال : اللهم غفرانا أنا منذ أربعين سنة أقرأ هكذا .

أما قصة الفرزدق مع تميم بن زيد القضاعى فعروفة ، وفحواها أن تميما حبس شاباً يسمى خنيساً فى سجنه — وكان والياً على بعض نواحي الهند مدة طويلة ، فضاقت أمه صدرأ بحبسه ، وذهبت إلى قبر غالب بن صعصعة والد الفرزدق وأقامت باكية لا تريم ، حتى علم الفرزدق بمكانها فأتاها فذكرت حبس ابنها ، وكان تميم صديقاً للشاعر فكتب إليه يقول :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتى      بظهر فلا يخفى عليك جوابها  
فهب لى خنيساً واتخذ منه منة      لغصة أم مايسوغ شرابها

فلما أتاه الشعر طى الكتاب لم يدر أجيش أم خنيس ، وفى سجنه كلا الاسمين ، فأطلقها معا كيلا يفوته صاحب الفرزدق .

هذه طرفة ذائعة ، وأدخل منها فى باب الطرافة ما يروى أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى ابن حزم عامله على المدينة أن أحصى (بالحاء المهملة) من عندك من .. فصحفها كاتبه إذ قرأها اخص من قبلك من .. (بالحاء المنقوطة) فدعا ابن حزم بهم فخصاهم وكانوا أكثر من سبعة أشخاص .



أما ما وقع فيه العلماء من التصحيف فنسوق بعض أمثلته ،  
لانتقصهم فى شىء ، ولكن لنؤكد أنهم بشر كالناس جميعاً يصيبون  
ويخطئون ، وأن من أبواب هذا الخطأ ما يدعى بالتصحيف ، ترجم أبو  
البركات كمال الدين الأتبارى لأبى الحسن اللحيانى ترجمة موجزة  
كعاداته فى كتابه «نزهة الألباء» فذكر أنه أحد كبار أهل اللغة  
وأحفظ الناس للنوادر عن الكسائى والفراء والأحرر ثم أتبع ذلك  
بقوله (١) .

«وحكى أبو الحسن الطوسى قال كنا فى مجلس اللحيانى ، وكان  
عازماً على أن يملئ نوادر ضعف ما أملئ ، فقال يوماً تقول العرب  
«مثقل استعان بذقنه» . فقام إليه ابن السكيت وهو حدث وقال  
يا أبا الحسن : إنما تقول العرب مثقل استعان بدفيه تريد الجمل إذا  
نهض للحمل وهو مثقل استعان بجنبه ، ففقطع الإملاء ، فلما كان فى  
المجلس الثانى أملئ تقول العرب هو جارى مكاشرى ، فقام إليه ابن  
السكيت فقال أعزك الله وما معنى مكاشرى : إنما هى مكاسرى بمهمل  
أى كسر بيتى إلى كسر بيته ، فانقطع الرجل عن الإملاء وما أملئ  
شيئاً بعد ذلك : وكسر البيت جانبه . فكأن المعنى هو جارى ملاصقاً  
لا يفصل بينى وبين أحد ، ومن يقدر روعة المفاجأة مرتين متتاليتين  
بن التلميذ الحدث والأستاذ المسن يعذر اللحيانى فى انقطاعه عن  
الإملاء ، واستحيائه فى الحلقة من التلاميذ .

هذا بعض ما ذكره الأتبارى عن اللحيانى : وقد ذكر قريباً منه

---

(١) ص ٧٦ «نزهة الألباء» .

عن الجوهري صاحب الصحاح إذ قال مانصه (١).

ومن أعجب ما فيه — فى الصحاح — من التصحيف، أنه صحف  
تصحيفاً مركباً قال: الجر أضل: الجبل فجعل الجر أضل كلمة واحدة  
بالجيم والضاد المعجمة وإنما هو الجر: أصل الجبل، كما قال الشاعر:

(وقد قطعت وادياً وجرا) ثم قال وما فى الصحاح من الغلط  
ما يرجع إلى أن مؤلفه مات قبل تبييضه، والذي بيضه لم يقرأه عليه.

ولم يعف الأنبارى المفضل الضبى الكوفى — على جلال منزلته  
وعلو طبقته — من المؤاخذه، فقد أخذ عليه أنه صحف قول امرئ  
القيس (٢).

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قنا عن شواء مضهب

إذ قد قرأها نمس بالسین المهملة لا بالشین المعجمة، لأن المش  
مسح اليد بالشئ الخشن، وفى رأى أن رواية المفضل ذات احتمال  
مقبول، والقول بتصحيحه تحكم ظاهر وإن أسنده الأنبارى إلى خلف  
الأحر، إذ لا يمنع أن يكون المراد بالمس سرعة المسح لتعجل شئ آخر  
يرده امرؤ القيس:

ونخلص من المفضل إلى ابن الأعرابى، فقد روى عنه الأنبارى  
أنه روى قول الشاعر (٣).

---

(١) ص ٣٤٥.

(٢) نزهة الألباء ص ٥٦.

(٣) ص ١٥٣.

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر كرام وأنا لا نخط على النمل

فنطق نخط بجاء مهملة لا يخاء معجمة وقال أن معناه إنا لا نخط على بيوت النمل لنصيب ما جعنت ، وما أظن عاقلاً يتوهم إنساناً يتتبع بيوت النمل ليأخذ منها ، وإنما الرواية لا نخط على النمل واحداً غلّة وهى قرحة بالجنب تزعم المجوس أن الخط عليها يشفى صاحبها ، ومعنى البيت لسنا بمجوس نتزوج الأخوات .

وابن الأعرابي ممن صحف أكثر من مرة ، وإن لم يذكر له الانبارى غير المثال السابق ، فقد روت كتب التصحيف عن محمد بن عمر الجرجاني قوله : صحف ابن الأعرابي فى شعر الكميت وأنا حاضر فأنشد .

فبانوا من بنى أسد عليهم نجار من خزيمة ذى القبول

فقلت إنما هو باتوا بالتاء بالنون ، فلو شذقه ، فقلت إن بعد هذا البيت قوله :

وقالوا بالأيا من منتماهم فيا بعد المبيت عن المقيل

قال لا يلتفت إلى هذا :

وما كان لابن الأعرابي أن يعدل عن الحق إلى غيره بعد أن وضع الدليل ، إذ أن قول الكميت فى البيت الثانى (وقالوا) من القيلولة قد جاء فى مقابلة قوله (وباتوا) من البيات ثم كان الشطر الثانى نصاً جازماً لا يقبل الشك ، إذ قال الشاعر (فيا بعد المبيت من

الميل : ) وقد يعترى الضعف الإنسانى بعض العلماء فلا يذعنون للحق تكبراً ومغالة كما رأينا فى موقف ابن الأعرابى من صاحبه ، ولكننا نجد فى الجانب الآخر فريقاً يعتصمون بالخلق الكريم ، فيرجعون للحق إذ يعرفونه ، وأمثال هؤلاء جديرون بتسجيل مواقفهم الرائعة لتكون قدوة حسنة للمقتدين .

قال أبو الحسن الدارقطنى (١) حضرت أبا بكر الانبارى فى مجلس إملائه يوم الجمعة ، فصحف أسما أورده فى إسناد حديث ، إما كان حبان فقال حبان ، قال أبو الحسن فأعظمت أن ينقل عن مثله مع فضله وجلاله وهم ، وهبت أن أوقفه على ذلك فلما انقضى الإملاء تقدمت إلى المستملى ، وذكرت له وهمه ، وعرفته صواب القول فيه وانصرفت ، ثم حضرت الجمعة الثانية ، فقال أبو بكر لتلميذه : عرف الجماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلانى لما أملينا حديث كذا فى الجمعة الماضية ، نبها ذلك الشاب على الصواب وهو كذا وعرف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال :

موقف رائع من أبى بكر يحفظ له فى مجال الخلق الرائع مكان النصف التزيه فيزيد من مجده وبضاعف من خلوده ، ولو شابه موقف أبى جعفر النحاس من المنذر بن سعيد ، لكان النحاس ذا قدر عظيم عند المنصفين ولكنه أشاح عن تلميذه المعترض وعرف الغضب فى وجهه إذ ناقشه ، فن حديث الرجلين أن المنذر بن سعيد حضر مجلس أبى جعفر النحاس فسمعه ينشد قول الشاعر:

---

(١) ص ٣٧٠ من نزهة الألباء .

خليلى هل بالشام عين حزنة      تنوح على نجد لعلى أعينها  
قد أسلمها الباكون إلا حمامة      مطوقة باتت وبات قريبها  
تجاوبها أخرى على خير زانة      يكاد يذنيها من الأرض لينها<sup>(١)</sup>

فقال المنذر أعزك الله يا أبا جعفر أنت تقول باتت وبات قريبها  
فإذا كانا صنعان فى البيت ، فنظر النحاس غاضباً ثم سأل المنذر  
وما تقول أنت يا أندلسى ؟

فقال المنذر إن الرواية هكذا (باتت وبان قريبها) بالنون لا بالتاء ،  
فسكت أبو جعفر وما زال يستثقل مكان المنذر فى درسه حتى أنه سأل  
كتاب العين لبعض ساعات ففنه إياه .

وليس ابن الأعرابى وحيداً فى إصراره على خطأ التصحيف ،  
فقد عرف التاريخ ما يشابه فى هذا الإصرار ، ويزيد عليه أن يذهب  
إلى تأييده بالاختلاق الكاذب ليكسب نصراً مؤقتاً فى مجلسه المشهود ،  
ومن ذلك ما روى أن أديباً متعجلاً قرأ أمام سلطان المغرب محمد بن  
اسماعيل كلمة الوخيد بالذال المعجمة لا بالذال المهملة فراجع  
السلطان فى تصحيفه ، وكان القارىء ذا بديهة شاعرة فأصر على  
موقفه وارتمل لفوره هذين البيتين :

أقول لصاحبى لما ارتحلنا      وأشرعنا النجائب فى الوخيد  
تمتع من لذيذ شراب ليلى      فما بعد العشية من لذيذ

---

(١) هذه مقطوعة رائعة وقد أردت أن أزيد عليها هذا البيت من نظمى  
(فلا تحسباً أنى جهلت مصابيحها      فإن حنينى فى اغترابى حنينها)  
وبه يتم المعنى الشعاعى كما أكدته صديقى الدكتور إسلام الصامدى .

ولعمري لئن انقذ هذا المتعجل نفسه فى مجلس السلطان المغربى  
فكيف ينقذ خلفه من مؤاخذه التاريخ؟ إن تمسكه بالتصحيح أوقعه  
فى حرج ثقيل :

هذه نوادر مبعثرة وددت أن أجمعها فى مقال عابر للمعتبر، يكون  
من فائده اللغوية نفع الدارس ومن عبرته الخلقية تهذيب المتأدب،  
ولا يخلو من طرفة تحكى ونادرة تقال .



# أمجرم أم نائر؟

## ( نوادر تاريخية ذات معنى جليل )

قرأت المقال التاريخي الحافل الذي كتبه صديقي الأديب المبين الأستاذ محمد فهمي عبداللطيف بعدد يناير من مجلة الهلال تحت عنوان ( على الدكش ) ولم أعجب لما حفل به من غرائب، فأمثال على الدكش كثيرون، نعرف أشباههم في القرى من ضاقت بهم سبل العيش فانحرفوا إلى بعض المثالب، ولكن نفوسهم تنزع إلى المروءة حين يجد الجد وتدق ساعة الخطر، إذ تأتي من نوادر الأريحية، وغرائب البسالة ما يحتاج إلى تحليل نفسي، يقوم به باحث متمكن يسير أغوار النفس البشرية ويعرف أنها مزيج من الشر والخير، وأنها لا تدوم على حال، فقد تسف حيناً حتى تلتصق بالأرض ثم يدركها السمو فترتفع إلى أجواز السماء، وهكذا أسف على الدكش حين احترق السرقة، وتزعج عصابة اللصوص، وكأنه كان ناقاً على نفسه إذ ألبأته طبيعة حياته إلى هذا الجرم الشائن، حتى إذا وجد الفرصة السانحة إلى رد المغير، وصيانة الدمار كان الباسل المقدام!

لقد هال هذا الشجاع أن يقدم رعاك الاحتلال على اغتصاب الأموال والأرواح، فدبر الحيلة لكى يفتك بهم جميعاً فى حمية نائرة، واستطاع الشجاع الأعزل أن ينهض بأعباء كتيبة ذات سلاح وعناد إذ

أمكنته الحيلة أن يدبر المذبحة الناقية، وأن يجعل المحتل العادى يشرب كؤوس الحسرة متأوهاً، وأن يأخذ حذره من قوم يفقدون السلاح، ولكنهم يملكون الحفيظة الثائرة، والحمية ذات الانتقام! وإذا كنا لا نجد مفرّاً من مواخذه هذا الشجاع على انحرافه الشائن فيما اهتمن من انحراف! فإننا نعرف أناساً من عطاء التاريخ جرت بذكرهم الألسنة، وكتبت فى تراجعهم المجلات وقد اقترفوا سرّاً وجهراً من جرائم الاغتيال والاثم ما تقشعر منه الجلود، وهم مع ذلك قادة دول، ورءوس أقوام، أفنصف ببسالة هذا الشجاع لأنه انحرف فى بعض سلوكه دون أن نفسح المجال لتحليل الدواعى الباعثة، وتقدير الجبرية الاجتماعية التى ناءت بكلكلها على مجتمعه فرفعت قوماً وخفضت آخرين! أخشى أن يفهم قارئ أنى أحبذ الجريمة، إذ أنا أدعو إلى وقفات منصفة تقدر الأسباب وتزن المقدمات قبل أن تؤاخذ على النتائج، وهذا مايقوم به كاتب الترجمة الدقيق.

## ليس وحده

ولو كان على الدكش وحده فى مجال ارتفاعه وهبوطه هان الأمر، ولكن صحائف التاريخ تعج بأمثاله بحيث لم يخل عصر واحد من غطه! أجل لم يخل عصر واحد من انسان أو أناس قد انخرفت بهم مصادفات الحياة عن السنن الأمثل، وهم فى أعماقهم ذوو نوازع خيرة تهتف بالفضيلة، وكأنهم عرفوا أن الحياة مزاج من الشر والخير، وأنهم إذا اقترفوا ذنباً ما فعلهم أن يكفروا عنه بما يبدون من شمائل الفتوة، وغرائب الأريحية، ونبدأ بما تعرف عن صعاليك العرب كعروة بن الورد، والشنفرى! ألم تستفض الأنباء عن مظاهر بسالتهم النادرة،



واقدامهم على الأخطار دون تردد ، ألم يكن الصلوك فى أكثر أمره ذا أريحية نبيلة ، وذا همة تدفعه إلى صيانة الضعفاء ورعاية المحتاجين ، حتى ظفر مثل (عروة بن الورد) وكان يسمى عروة الصعاليك باعجاب معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان ، فتحدثا عنه حديث المعجب الفاخر! فقد كان يجمع ضعفاء قومه ليقبهم المسألة ويتكفل بما يحتاجون من مشرب ومطعم وملبس ومأوى! وكان لا يغزو من قبائل العرب غير من يعرف عنهم الشح والأنانية والغرور! هنا تثور حميته ، ويرى الانتقام واجبا يقوم به نحو قوم يسلبون الضعيف ماله ليتجبروا عليه بما يملكون من ثراء ، ويجمعون من خول وخدم ، أما الذين اشتهروا بمواساة المحتاجين واغاثة اللهفى فهم موضع تقديره ، يدفع عنهم بجماعته كل شر ، وببذل جهده فى الذود عنهم بروحه ، وهى كل ما يملك ، إذ كان يقسم الغنائم الذى نالها بشجاعته وتديبره ولا يبقى غير ما يقيم أوده ، وفى بالضرورى من حاجته .

يقول معاوية بن أبى سفيان — نقلاً عن الأغانى — « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم » . ويقول عبد الملك بن مروان ( ما يسرنى أن أحداً من العرب ممن لم يلدنى قد ولدنى إلا عروة بن الورد ) واعجاب هذين العاهلين بعروة بنىء أن هذا الصعلوك قد جمع من مظاهر الفتوة ما سلب الألباب حقاً ، وحسبه أن سعيه الجاهد لا يقف خيره عند نفسه بل يتعداه إلى سواه ، وأنه كان صادقا حين قال مخاطباً بعض معارضيهِ :

أنهزاً منى أن سمت وأن ترى	بجسمى جهد الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة	وأحسوقراح الماء والماء بارد

ويقول مخاطباً زوجته :

ذريتى ونفسى أم حسان إننى      بها قبل ألا أملك البيع أشتري  
فإن فاز سهم للمنية لم أكن      جزوعا وهل عن ذاك من متأخر  
وان فاز سهم كفكم عن مقاعد      لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

## فى بغداد

كان من بواعث الفساد الشائن ما عرف من تفاوت الطبقات فى المجتمع العباسى ، تفاوتاً شاسعاً يدعو إلى التذمر والحفيظة إذ نشأت عصابات كثيرة تحترف السطو والنهب ، وترى فى الاستيلاء على ما تفتصب من أموال الأغنياء مظهراً من مظاهر ارتجاع الحقوق إلى أصحابها ، وزاد الطين بلة أن بعض الحاكمين من ذوى الأمر قد استعان بهذه العصابات لردع خصومه ، واستظهر بها نصيراً يدفع عنه الغائلة ، فتفاقم الخطب ، لأن هؤلاء المستعان بهم قد أنسوا حاجة الرؤساء إليهم وعدوا أنفسهم من ذوى الأمر والنهى فى الدولة ! ولكن المتتبع لسير بعض هؤلاء يجد فيهم من يندم على موقعه ومن يحمل فى أطوائه نفساً تتوق إلى الفضيلة وتبحث عنها فى ظلال عيش آمن مستقر فلا تجد ، وفى كتاب (الفرج بعد الشدة) الذى كتبه القاضى التتوخي من غرائب هؤلاء النادمين ، ما يجب أن يكون موضع دراسة متأنية تقدر الملابس تقديرها المستقيم . ونحن ننقل منه على لسان بعض هؤلاء الفتاك حين سأله بعض الوعاظ عن حقيقة أمره ودعاه إلى التوبة النصوح فقال :

«نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح ، وجئت إلى بغداد أطلب

من السلطان العيش فما قبلنى أحد ، فانتظمت مع هؤلاء — يريد قطاع الطريق — فلو أنصفنى السلطان وأنزلنى بحيث أستحق من الشجاعة لانتفع بخدمتى وما فعلت هذا» .

وقد ألم مؤلف الفرج بعد الشدة بجديث الشجاع الخطير ( ابن حمدون ) إذا كان شديد النعمة على الأغنياء يترصد القوافل ويهجم على التاجر ، ويصب الفزع فى النفوس إذا جرى حديثه فى الناس ، حتى ظن الجميع أنه معرق فى الشر لا ينتهى فيه إلى أحد ، ولكنه بسط عذره الصريح حين قال مبرراً ما يأتيه .

يا هذا جزى الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا ، فانه اسقط أرزاقنا ، فاحتجنا إلى هذا الفعل ، وليس فيما نعمل ارتكاب أمر أعظم مما يرتكبه السلطان ، فإنه يصادر أموال الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر الكثير فيخرج من حبسه وهو لا يهتدى إلى شىء غير الصدقة ، فاحسبونا مثل هؤلاء .

ومنطق ابن حمدون يدعو إلى التمهّل ، فهو يوازن بين ما يقوم به حين يغتصب قافلة ، وبين ما يقوم به صاحب الأمر حين يصادر مال تاجر بغياً دون حق ، وحين يحبسه ظلماً فإذا خرج لم يجد باباً للإرتزاق غير أن يسأل الناس !! أى فرق بين مصادرة ظالمة يأتيها رئيس ! وبين سطر ظالم يأتيه قاطع طريق ؟

على أن أغرب ما حكاه التنوخى مارواه عن قصة لص فاتك يسمى ابن سيار الكردي على لسان بعض من وقعوا فى أسره حيث قال : « كنت مسافراً ببعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردي

فقطع علينا ، وكان يزي الأمراء ، فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه ، فوجدته يروى الشعر ، ويفهم النحو ، فطمعت فيه وعملت له أبياتاً مدحته بها ، فطلب مني أن أنظم في معنى ليختبرني فصعدت بما أمر ، فابتسم وسأل : أى شيء أخذته منك حتى أردته عليك ، فذكرت بضاعتي فردها ، ثم أخذ من أكياس التجار التى نهبها كيساً فيه ألف درهم ووهبه لى ، قلت أسألك وأنا آمن ؟ فقال نعم قلت كيف تهب مالا تملك ؟ فقال سريعاً : أما قرأت ما ذكره الجاحظ فى كتاب اللصوص عن بعضهم حين قال : ( إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها ، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، وللصوص فقراء إليها فإن أخذوا أموالهم . كان ذلك مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة ) . وهذا منطق لا تؤيده ، ولكن يجب أن نقف كثيراً عنده لنعلم أن نوازع الخير لدى هؤلاء اللصوص حاضرة غير غائبة وهى فى حاجة إلى من يعلو بها ، ويوجهها الوجهة الصحيحة ! ولن يكون ذلك إلا إذا صلحت الرعية واستقام الراعى .

## فى مصر

ولست ببغداد وحدها ذات القصص الغربية فى هذا المجال ، فقطاع الطريق فى مصر لهم منطقهم المائل ، وآراؤهم المطابقة مما يشكل ظاهرة اجتماعية تتطلب التحليل ، وفى كتاب المكافأة لآحمد بن يوسف ، نظير ما فى كتاب الفرج بعد الشدة للتوخى ونحن نروى منه هذا الموقف .

قال أحمد بن يوسف ، حدثنى محمد بن يزيد قال : أطلق جماعة من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم الظنة بالتلصص فانى

عند بعض القوم إذ حضر من هؤلاء غلام أصفر خبيث المنظر متمكن من نفسه، فرحب به، وجلس عنده، وهناك بسلامته ثم سأله عن حاله: فقال: خرجت من الحبس وماعى نفقة تبلغنى منزلى فقلت ماأسمك؟ فقال: مسافر فقلت له يابنى، قدم الله فى أمورك ولا تعدل عنه فإن الراحة فى ظله فقال ياسيدى الحق ماقلت، والنفس هى النفس وهى أمانة بالسوء والتوفيق إلى الله دون خلقه، فقلت له مايكفيك فقال دينار فأعطيته اياه .

ثم مضى شهر، وشاع أن رجلاً بالصعيد يتسلط على النفوس ويعترض المتاجر والقوافل، ولى ضيعة هناك فخرجت لقبض غلتها، فقطعنا اللصوص ووقع الخطب وأسروا القوم وذهبوا بنا إلى رئيسهم فنظرت إليه فإذا هو صاحبى، فحين عرفنى أكب على يدى واحتفى بى، وقال لأصحابه ذلك سيدى وشيخى، فادفعوا له بضاعته: ثم مضيت فقابلت عامل ابن طولون على الناصية فحدثته بما كان فقال له بذلت الجهد فى القبض على هذا الرجل وجاعته فما استطعت فهل تسفر بينى وبينه فأومنه وأكرم جماعته لينتها عن غيهم، فطمعت فى صلاحه ورجعت إليه فأديت الرسالة فقال الرجل ياسيدى مايبنى وبينه ألا أنس الناس به ثم قال لأصحابه من يساعدنى على الخروج إلى الله عز وجل؟ فقالوا جميعاً نحن معك وأعلنوا توبتهم، ثم قال الرجل أدخل بنا فى زى الأسرى لتعلن استسلامنا، فدخلنا إلى مقر العامل على المدينة والناس ينظرون إلى هؤلاء الفتاك فى زى الأسر متعجبين، كيف يقدر شيخ مثلى على سوقهم هكذا؟ وقد أعجزوا السلطان! ثم أعلنوا التوبة وعزموا على المسير إلى مكة حاجين!

فهذا شجاع فاتك ! لاحت له فرصة التوبة فاغتمها مع صحابته  
جميعاً ولو وجد من يسمون بالأشرار ناصحاً أميناً لأنقذ منهم العدد  
الكثير، وكفيت الشرور والأهوال .

## أبوزيد الهلالي

وحديث أبى زيد الهلالي لا يخفى على أحد، فلو تجاوزنا قصصه  
الأسطوري إلى واقعه التاريخي لعرفنا أنه نشأ نشأة الاجرام والبطش  
فى قبيلة يقوم معاشها على السلب والنهب فى حملات منتظمة تدهم  
الأمين فى أطراف الشام والعراق، ثم رحلوا إلى مصر حين اضطرتهم  
جيوش الدولة للمهاجرة، فنزلوا الوجه البحرى ليعيثوا به فسادا، حتى  
اضطر العزيز بالله الفاطمى إلى أن يطردهم إلى الصعيد، وما كان  
لهم أن يخلدوا إلى الأمن والسكينة، وقد قامت أسباب حياتهم على  
السطو فاستأنفوا ما ألفوا من البغى، وانتشر لأبى زيد صيت مدو حيث  
ترأس العصابات الباغية، ثم ثارت الثوار على الخليفة الفاطمى فى  
بلاد المغرب، ففكر مستشاروه فى أن يجند هؤلاء البغاة من قبيلتى  
هلال وسليم، ليسيروا إلى المغرب العربى وكأنهم جنود للدولة يحمون  
ذمارها فى مواقعها النائية، فإذا تم لهم النصر فقد حققوا لمصر رجاءها  
فى استتباب الأمن بين قبائل زناتة وكتامة وصنهاجة وهم نفر من  
البربر يحاكون العرب قوة شكيمة وشدة بأس، وإذا كانت الأخرى  
وأصيبوا بالهزيمة. فقد استراحت منهم مصر، وكان ما انتشر صداه من  
وقائع دامية بين البربر وبنى هلال وسليم، حتى ألفت القصص  
الأسطورية تجوف الوقائع، وبلغت سيرة أبى زيد ثلاثة أجزاء كبار  
تحدث عن النشأة الأولى فى منازل حمير بأرض اليمن ثم النشأة الثانية

فى حمى نجد وأطراف البادية مما يلى العراق والشام . وهذان الجانبان لا يهتم بهم القصص الأسطورى قدر ما يهتم بنزاع المغرب ، وقد شاء المؤلف الخيالى أن يمد للقصص فى أسباب التشويق فاخترع حوادث الغرام بين من سماها سعدى بنت زعيم قبيلة زناته وبين أحد أصحاب أبى زيد ، واشتعلت الغيرة بين القواد بسبب سعدى هذه ، فانقسم معسكر الهلالين إذ عارض دياب بن غانم أبأ زيد الهلالى ، ووقع بأسهم بينهم حتى ألفت فيهم الأساطير!

أن أمثال أبى زيد ودياب ومرعى لا يخرجون فى صميم الواقع عن قطاع طرق ، التف بهم من يميل إلى سلوكهم المضطرب فراراً من قسوة العيش فى مجتمع آمن تتحكم فيه الأقلية ناعمة رافلة ، على حين تصطلى الأكثرية بنيران الفقر والبأساء! ولو وجد أشباه هؤلاء من يوجه مسلكهم الحيوانى توجيهاً مستقيماً لكانوا أبطالاً مرموقين يحاربون فى صفوف العدالة وسيظل أشباه هؤلاء فى كل زمن ، ونحن نقرأ قصصاً كثيرة فى العصر المملوكى عمن يسمى بأحمد الدنف وبعلى الزبيق وهما من هذا الطراز، وفى سيرة الظاهر بيبرس تجد لها بعض الأمثال .

## عود على بدء

لنا أن نرجع إلى قصة (على الدكش) التى كتبها الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف لنحصى محامده جوار مثالبه ، فنزى أنه كان يحمى القرية من اللصوص فلا يجروا لص أجنبى على اقتحام حماه ، إذ أن سرقة أدنى شىء من قرينته اهانة لا تغتفر بالنسبة إليه ، فهو حامى الذمار كما كان يحمى عروة بن الورد أصحابه من الصعاليك ويطلق

عليهم ما يعرف (بأصحاب الكنيف) الذين استظلوا فى كنفه واستعصموا بحماه! ثم نراه ثانية يقاوم جيوش الاحتلال فإذا أعوزته الذخيرة الصائبة أمام سلاحه البدائى لجأ إلى الاحتيال الماكر حين يصطنع غرساً موهوماً، ويأتى بالهواذج ويلبس الرجال لباس النساء ليغرى الانجليز بالصعود إلى الهواذج والاتصال بهن واحداً إثر واحد، حتى إذا انطلت الحيلة وصعد جندى وراء جندى إلى الهودج لقى حتفه من المجموعة المنتكرة فى ثياب النساء! وهذا بعض ما كان يقوم به ابن حمدون العباسى وابن سيار الكردي حين أعدا الحملات للسطو على التجار، وحين التمسا حجتها فى كتاب الجاحظ إذ يرى من روى عنهم أن هؤلاء التجار مذنبون يعصون الله بمنع الزكاة، ولست أشبه التجار بجيوش الاحتلال فالقياس بعيد، ولكنى أرى أن محاربة السلطة الحاكمة فى صميمها هى الاتجاه الجامع بين المقاتل المعاصر وأشباهه السابقين مهما اختلفت الدواعى وتنوعت الأسباب! على أن على الدكش أعظم مروءة وأقرب إلى الهدى من هؤلاء فقد اختص ببأسه بغاة حقيقيين، سلبوا الآمنين راحتهم ودهموا القرى ليأخذوا الحيوانات والدواجن والحبوب منحة خالصة، وكأنها حق مكتسب! على حين قد عجزت الدولة أن تفعل شيئاً وهى محتلة فى قبضة حديدية، ورؤساؤها من الزعماء والحكام يتطلعون إلى الخلاص، ومن ورائهم الشعب يبذل دمه فى مظاهرات تقابل بالرصاص الحاصد فى هجمات وحشية تصم اغللترا بالبغى الفاضح، والاجرام الشنيع! وأقل جزاء لمثل هؤلاء البغاة أن يحتال على الدكش على اغتيالهم المنتقم، فيشقى صدور قوم مسالمين؛ ان فى قصة الدكش لعبرة بالغة للمعتبرين.



## الإمبراطورة أوجينى بين حافظ ومطران

من ير الشمس الرافلة فى ضحاها البهيج وقد أثلّفت بالأضواء ،  
واتشحت بالبهاء والروعة ، يعز عليه أن يراها فى غروبها الشاحب ،  
وقد دميت صفحتها الحمراء ، ولاحقتها طيوف المساء فهى على وشك  
المغيب .

وقد رأت مصر الامبراطورة أوجينى فى شروقها الساطع حين  
كانت أجل كوكب يتألق فى البلاط الأوربى ، ثم رأتها فى أصيلها  
الغارب حين صارت عجوزاً عاطلة من خلتي الجمال والسلطان ،  
فكان للمشهدين المتناقضين وقع غريب فى النفوس ، وقد عبّرت أقلام  
الكتاب فى صحيفة المؤيد عن الانطباع المتناقض بين عهد وعهد ..  
كما صور الشعراء هواتفهم فيما نظموه متفحصين عبر الدهر ، وعن  
الأيام .

### ( تاريخ حافل )

ولدت أوجينى فى أسبانيا ابنة لقنصل أمريكى ، وقضت عهد  
الطفولة واليفاعة فى ربوع الأندلس ثم قدر لها أن تنتقل إلى فرنسا ،  
وهى شابة فارسة تركب الخيل ، وتملك عيون المشاهدين فى حفلات

الأنس بشبابها الأخاذ، وفتوتها الباسلة، فلفتت نظر نابليون الثالث إليها إذ ملكت عقله وقلبه معاً، ولم يلبث أن اختارها امبراطورة على عرش فرنسا، وهى المثقفة الدارسة ذات الرأى السياسى المنحاز إلى فريق دون فريق، فعرضت آراءها على الامبراطور، ومالت بهواه إلى حيث تريد، فصادق انجلترا ونزل مع أوجينى ضيفاً على الملكة فيكتوريا، واستقبلا استقبالاً رائعاً، ثم ردت ملكة بريطانيا وزوجها الزيارة للامبراطور الفرنسى وصاحبه! وبدت أوجينى تسير دفة السياسة الفرنسية كما تريد، حتى صارت لدى كثير من المؤرخين مصدر تعاسة زوجها فيما انتهى إليه من حروب فاشلة. ولكن امتداد حكمها سبعة عشر عاماً قد ترك لها من الدوى الرنان ما جعلها أسطع نجمة فى سماء أوربا، وما جعل العواهل يحرصون على استرضائها، ويدعونها إلى زيارة عواصمهم فى احتفاء بالغ، ومن عجب أن تكون زيارتها لمصر ذات وقع جذاب فى نفسها إذ فاقت مظاهر الاحتفال بها فى ربوع الوادى مارأته فى أمم الحضارة والتمدن حتى سجلت فى مذكراتها خواطرها الشاكرة نحو الخديو اسماعيل، وذكرت أن سرورها بما شاهدت تحت سماء مصر لا يعادله سرور تقدم أو تأخر، وأن أيام قناة السويس كانت أيج الأيام.

## ( احتفال القناة )

كان من خطة اسماعيل أن يدعو ملوك الشرق والغرب إلى حضور الحفلة التاريخية لافتتاح المجرى العالمى بين العالمين المتباعدين، ولو حضرت الامبراطورة أوجينى فى الموعد الرسمى للاحتفال لكانت كسواها من كبار الزائرين والزائرات، ولكنها وفدت إلى القاهرة قبل

الافتتاح الرسمي بأربعة أسابيع، فتفرغ الخديو الولوع بالجدد إلى استرضائها، وأنزلها قصره الفخم بالجزيرة، وبذل من فنون الرعاية والاهتمام ما كان مضرب المثل فى الإسراف والتبذير، ولقد شاءت الامبراطورة أن تزور أباهاول والأهرام الثلاثة، والطريق إليها حينئذٍ وعمر شاق، فسخر الخديو إمكانيات الدولة فى رصف الطريق الممتد سريعاً وفى نقل غرائب الأشجار لتقوم صفاً على جانبى الطريق، واستمر العمل الشاق ليل نهار دون راحة حتى أصبح الطريق جذيراً بمسيرة الامبراطورة فى منطق اسماعيل، ورب ضارة نافعة، فقد أصبح الطريق من بعد متنفساً لأهل القاهرة والجزيرة يتمتعون بظله الوارف، ويتخذونه متنزهاً يستروحون، به من عناء التعب! وكأنّ القاهرة لم تكف كى تذيب الضيفة الكبيرة أفائق الراحة، وكؤوس الائناس، بل شاء الخديو وشاءت معه الامبراطورة الحسناء أن تزور آثار الفراعنة فى أعلى البلاد بالأقصر وأسوان، فهيئت السفن لرحلة نيلية تنقل ملذات البر إلى مراكب البحر، وتنظم قطاراً حافلاً من السفن يحفل بكل ضروب المسرات والبذخ، وقد قام المستقبلون على الشواطىء فى عواصم الصعيد، يدقون الطبول، ويرسلون الأغاريد جيئةً وذهاباً، وشمس مصر الصاحية تشرق على النيل فتجيله فضة فى الصباح، وذهباً فى المساء، وسحب الأفق البيضاء تندافع فى السماء فى نسق مبدع لتكون الطبيعة شريكة فى الاحتفال، حتى إذا انتهت الرحلة قصد الخديو مع حسناؤه إلى الاسكندرية لترى عاصمة كليوباترة، وتعرف كيف صارت هذه البلدة درة الشرق وعروس البحر! وإنها لمشاهد تتوالى وتتابع فى القاهرة والأقصر والاسكندرية لتختم بروعة خارقة.. تجلى فى احتفال بورسعيد يوم القناة .

كان الأمراء والملوك يتصدرون (حفل القناة) .. وفيهم امبراطور النمسا، وأمير هولندا، وولى عهد بروسيا وممثل إنجلترا، وكلهم يقفون فى انتظار التخت الامبراطورى الذى يحمل رئيسة الاحتفال، فأفيلت السفينة فى أبهى مظاهر العظمة، تسبقها مظاهرة ضخمة تهتف باسمها، وقد نزلت من (اليخت) يحف بها النبلاء والأميرات والوصيفات لتصافح المستقبلين من رؤساء الدول، على زعاريد الأهالى، ودوى المدافع، وصدحات الموسيقى ورفيف أجنحة الحمايم فى الأفق، حتى ذهلت أوجينى من روعة الاستقبال، وتلفتت تقول للملوك والأمراء يا إلهى لم أرفى حياتى شيئاً أجمل من هذا!

ثم تقدمت إلى الباخرة الأولى لتنطلق بها عابرة قناة السويس من بورسعيد إلى الاسماعيلية، ومن خلفها بواخر المدعوين من سرة الدول وأكابر القوم، حتى إذا بلغت الاسماعيلية، وقفت تحبى من هرعوا خلفها من الوافدين لتعلن انتهاء الاحتفال، ثم تنتقل إلى قصر كبير أقيم بالاسماعيلية ليكون موضع استراحتها وقد أدهشتها مظاهر الروعة التى اكتنفها طيلة اليوم، فأكادت تستريح حتى ركبت جوادها، وانطلقت إلى منزل إسماعيل غير بعيد، لتشكره من خالص قلبها على ما وجدت من أسمى مظاهر الاحترام، قائلة: إن مرور الأيام معها احتشد بالمباهج لن يغطى على روعة ما شاهدت اليوم منذ وقفت. فى الصباح ببورسعيد إلى أن انتقلت إلى الاسماعيلية. وأن عواطفها الدافقة قد حالت دون انتظارها إلى الغد. فقدمت تهتف بالشكر لعاهل النيل، وفى المساء أقيمت حفلة رائعة لتوديع الامبراطورة، اتخذت مظهر السهرات الغربية من رقص وموسيقى وتمثيل، وظلت هاتفة بالنغم مدوية بالتصفيق حتى مطلع الفجر.

## انتكاس مفاجيء

لم تكن الامبراطورة تعلم أنّ حفلة القناة قد جمعت أبهج مظاهر الروعة لتكون خاتمة أيام السعادة بالنسبة إليها، فقد وصلت إلى باريس لتجد الأمور تتأزم بين فرنسا وبروسيا، وتبحث الامبراطورة أسباب الأزمة مع زوجها نابليون الثالث، لتزيد النار اضطراراً، ولتعمل على إشعال الحرب بدل أن تبحث وسائل السلام! وقد عقدت مجالس الرأى فى قصر التويلرى، واجتمع الامبراطور بمستشاريه، يتباحثون فيما يجب أن يكون، ولكن أوجينى كانت تحبذ قيام الحرب تأديباً لبروسيا، وتعلن أن المعركة لن تستمر غير وقت قصير، وأنّ النتيجة مضمونة الانتصار، لترقع مكانة الامبراطور، ولتأخذ فرنسا بزمام القيادة الأوربية بعد أن تهزم بروسيا، لاسيما وقد أصبحت صديقه لانجلترا، وبين الامبراطورة الفرنسية، والملكة الانجليزية من ذكريات الصداقة والود ما يجعل لمعاهدتها المعنوية بدأ فى الانتصار الفرنسى المنتظر! ولكنّ الأوهام الطائفة التى حلقت فى خيال أوجينى لم تركز على واقع مبین، فقد كان الجنود من الفرنسيين لا يقتنعون بضرورة الحرب، ويعلنون أن رغبة الأمبراطورة وحدها هى التى تدفع إلى إراقة الدماء، وقد ساروا إلى المعركة دون استعداد متكافئ، فاستطاعت بروسيا أن تكيل الهزائم لفرنسا، وتوالت الأنباء السيئة تعلن عن آلاف القتلى، وسقوط المدن الفرنسية، ثم ختمت هذه الأنباء بوقوع نابليون نفسه أسيراً فى يد الأعداء! فهاجت الخواطر فى باريس، وانتشرت الثورة فى كل مكان حيث يهتف المتظاهرون بسقوط أوجينى صاحبة الكارثة، وبخيانة الامبراطور الفاشل!

وتلاحقت الجموع فى حشود كثيفة مندفعة إلى قصر التويلرى حيث تقوم أوجينى بتصرف الأمور نائبة عن الامبراطور، فعقدت مجلس المستشارين فوجدت روح الهزيمة تسيطر على المجتمعين ، وسمعت من أخبرها بأن الثائرين يريدونها هى شخصياً لأنها الداعية الأولى للحرب! وقرأت المنشورات التى جاء بها الحرس وكلها تدين الامبراطورة وتعذها مصدر الهزيمة الساحقة إذ كان نابليون لعبة فى يدها ، والعجيب أنها أصرت على الثبات ، وشاءت أن تفتح الأبواب لتقابل الثائرين فتهدىء من ثورة البركان المشتعل ، واثقة أن الحاكم العسكرى بباريس ينتصر لها مع جنوده ، وأن الجيش الاحتياطى يقف مع الامبراطور، ولكنها فوجئت بانضمام الجنرال ترشوه حاكم باريس إلى الثائرين ، ووجدت الجنرال ملىنى رئيس الحرس الامبراطورى يعلن أن المقاومة عديمة الجدوى ، وأن فرنسا كلها نار تشتعل ! ومع أن هذه الكوارث الحاطمة كانت جديدة بأن تنخذل الإرادة فى نفس الامبراطورة إلا أنها صممت على البقاء فى القصر لتواجه المندفعين إليه ! وكان من رحمة الله بها أن توجه إليها فى أتعس أوقات الحرج سفير النمسا وإيطاليا — وكانا من أصدقاء القصر — ليبلغاها ما يتوقعانه من الكارثة ، وقد دوت الأصوات فى الخارج هائفة بسقوط الامبراطور، ولم تبق غير لحظات حتى يفتح القصر ، وسمعت أوجينى ورأت ، ثم رأت أن تستسلم فى النهاية ، فقادها السفيران متكررة إلى منزل طبيب لا تتعلق به الأنظار، وعملا على تهيئة هروبها إلى إنجلترا لتتزل ضيفة على صديقتها الملكة فيكتوريا ، وما كادت تخرج متكررة ، حتى اقتحم الثائرون قصر التويلرى وبحثوا عن الامبراطورة فى مكانها ليفتكوا بها كما توقع السفيران ! وكانت فكتوريا عند حسن الظن بها ،

فقد آوت الامبراطورة فى مكان أمين ثم رحبت بنابليون الثالث حين أطلق سراحه، لينفى مع زوجته بعيداً عن الناس، ويطول النفى بأوجينى ولكنها تخضع لمشية قدر عليها.

## أيام رتيبة

ظلت الحياة تسير بالإمبراطورة رتيبة بطيئة. وقد ازدادت وحشتها بعد وفاة زوجها ونجلها الوحيد، فرأت أن ترحل إلى بعض العواصم التى شاهدها من قبل — غير باريس — لتغير من رتابة الزمن، وتستقبل وجهها مناظر غير ماتهده، فزارت أسبانيا والنمسا، ورأت أن تأتى إلى مصر لتتزل فى فندق سافوى ببورسعيد، ولعل اختيار بورسعيد كان مقصوداً، ففيها ترأست حفل افتتاح القناة من قبل، وفيها توافد العلية من الزعماء والرؤساء لتحيتها! ولا أدري ماذا كان إحساسها وهى تشاهد أناساً غير أناس، ووضعاً غير وضع! إن زيارتها المفاجئة للمصريين قد أوحى لجريدة المؤيد أن تقترح على الشعراء أن ينظموا فى هذه المناسبة ليقارنوا بين عهد وعهد، وبين زيارة امبراطورة وأمرأة من سواد الناس! وكان من الذين شاعت أبياتهم فى هذه المناسبة شاعر النيل حافظ ابراهيم، إذ تحدث علماً فى صدور العامة دون أن يجهد خياله فى تصوير إحساس بعيد، أو تدبج خيال مبتكر، بل قال فى عفوية واضحة:

ج واشمس ذلك المهرجان	أين يومُ القناة ياربة الثا
ل أين العزيز ذو السلطان؟	أين مجرى القنال أين مميت الما
فيه أرزاقنا ونخبو الأمانى؟	أين ذا القصر بالجزيرة تجرى
وللسعد كوكب متوان	فيه للنحس كوكب مسرع السير

خطر الليث فى فنائك باقصر  
 إن أطاقت بك الخطوب فهذى  
 رب بان نأى ورب بناء  
 تلك حال الإيوان يارية الثا  
 قد طواه الردى ولو كان حيا  
 كنت بالأمس ضيفة عند ملك  
 واعذرنا على القصور كلانا  
 وقد كنت مسرحاً للحسان (١)  
 سنة الكون من قديم الزمان  
 أسلمته التوى إلى غير بان  
 ج فما حال صاحب الإيوان  
 لمشى فى ركابك الثقلان  
 فانزلى اليوم ضيفة فى خان  
 غيرته طوارىء الحدثان

وصاحب الإيوان فى القصيدة هو الخديو اسماعيل ! ولو كان حيا  
 - فى إحساس الشاعر - لقابلها اليوم بما قوبلت به من الأمس ! ولكن  
 الوضع تبدل بمصر وفرنسا معا .. فلا ملام .

وكأنّ القدر شاء أن يبدع مشهداً رائعاً يتخذ مجالاً للعبرة، إذ  
 وفدت إلى مصر حينئذ أميرة ملكية انجليزية هى الدوقة أوف كونت  
 وقرينها الدوق أوف كونت، وقد شاء الخديو عباس حلمى أن يحتفل  
 بالاميرين فى مجمع باهر يُدعى له العلية من الرؤساء وسفراء الدول،  
 وفيمن دُعى نزلة مصر الامبراطورة السابقة أوجينى، وقد جلست بين  
 الجموع ترى العيون متجهة إلى الدوقة والدوق ذويها، وفى نفسها  
 شجون شاء الكاتب الشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران أن يفصح  
 عنها فى مقال تحليلى رائع قال فيه:

« كانت الامبراطورة أوجينى بملابس الوقار العاتمة التى هى آخر

(١) صار مكان القصر حديقة للحيوان بالجيزة كما هى الآن .



زينات الكساء ، كما أن آخر زينات الرأس من الشعر أحياناً تكون  
بياض المشيب» .

أما الدوقة كونت فإنها كانت رافلة فى حلة بهية كما شاء لطف  
الدوق . فى مثل هذا المقام لأميرة ثابتة فى منصب الإمارة زائرة  
للقطر من قبل ملك جليل ، مملكة ضخمة الجيوش والأساطيل .

كانت الامبراطورة جالسة على عرش من العزلة والانفراد [ أين  
العرش يا خليل !! ] بين عامة الناس ؟ ولا يقف أنا قانا إلا نفر من  
أتباع ثروتها ، أو أمير مصرى ذاكر للقدم مستحى من التقصير ! أما  
الدوقة البريطانية فيلم بها جميع من يسمو بهم الجاه والشرف إلى  
مخاطبتها ، وكانت بخلاف الملكة الجالسة بين السوقة تضحك بوجهها  
لوضاء ، وعيوبها الزرقاء ، للأمل الضاحك والفوز السعيد .

كذلك كانت هاتان المرأتان فى تلك الحفلة البهيجة إلى أن  
أنتهت ، وأذنت إشارة الدوقة بالمسير ، فشت يحف بها الأميران زوجها  
وعزيز مصر .. وتتبعها جميع النبلاء والكبراء ، وتعزف الموسيقى لها ،  
ويرفع الجنود السيوف تسليماً ، ويكشف الناس الرءوس تعظيماً .. حتى  
إذا امتطت مركبتها وسارت فى ذلك الموكب المهيّب الحافل نظراً  
إلى تلك الامبراطورة فى عزلتها فأنس على وجهها شبه ابتسامة ، ورأى  
فى شعاع نظرتها إلى البعيد من الزمن ملكة فتانة ، طويلة القامة ،  
رشيقها ، هلالية الجبين ، ناصعة البياض ، قرمزية الشفتين ، ساحرة  
اللفظ والحركة ، مستوية مركبتها بالقرب من ذلك المكان ، وقد وقف  
إلى جانبها أعظم ملوك الأرض واتسق وراءها سلك من الأمراء

الحاكمين ، وتسلمت تجاهها الجنود من ركبان ومشاة إلى مدى العين ،  
وكان الدنيا قد بسطت من الخضرة حوالها آمالاً ، ورققت سير النيل  
بين يدها إجلالاً ، وأطلعت الشمس لها ولقفت النسيم مجاملة  
وإجلالاً» .

هذا بعض ما قاله مطران ، وفيه عبرة وبلاغ .

## خاتمة المطاف

وقد أذن الفرنسيون للامبراطورة بعد أن بلغت التسعين ( وباله من  
عمر مديد ) أن ترجع إلى باريس لتكون مواطنة فحسب ! فاشترت بيتاً  
أمام قصر التويلرى الذى كانت تشرق فيه من قبل ، وجعلت تنزل  
كل أصيل إلى حديقته الكبيرة ، وقد صارت متنزهة للعامة من بعدها  
بعد أن كانت خاصة بها وبجاشيتها ، وقد أخذتها سنة عند الغروب  
فنامت على المقعد ، فتقدم إليها البستانى جاهلاً من هى ؟ ليهز كتفها  
فى عنف ويصيح : هيا يا شيخه ، سنقفل الأبواب الآن ! هيا اذهبي ،  
فنهضت العجوز متناقلة لتقول للحارس : اسكت يا ولدى فسأذهب !!  
ثم مضت .

أما لو أن الامبراطورة كانت تقرأ العربية ، وتعرف القرآن لتلت  
قول الله عز وجل : ( قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع  
الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء » .



## خواطر عن طاهر الطناحى

كانت متجّلة الهلال شغلاً شاغلاً لطاهر الطناحى مدى أربعين عاماً من حياته، وإننى لأشبح بعين الخيال فأتصوره فى عالم الغيب لا يزال مشغولاً بها للآن، فهو يترقب صدورها، ويطالعها بشغف وحنين كعهده من قبل. ويغلو بى الوهم فأتصوره متسائلاً عنى لماذا لم أكتب عنه حتى الآن.

أجل، أشرف الطناحى على مجلات أسبوعية فى دار الهلال فترة ما من فترات حياته، ولكن أشواقه الدافعة كانت تجذبه دائماً إلى الهلال، وأذكر أنى قلت له؛ لقد احتل كتاب الهلال وروايات الهلال بعض فراغك، لتشغل عن مجلتك حيناً من الزمن، فأشرق وجهه بابتسامة معبّرة وقال، هُما ولدان للهلال، أراحهما من أجل أمهما الرعوم.

وأكثر خلطاء الطناحى يعلمون أنه بدأ عمله الصحافى فى دار الهلال، ويعدون هذه الدار موطنه العملى منذ اتجه إلى هذا المجال، أما الحقيقة فتتطرق بغير ما يعلموه، لأنه التحق بالأهرام وهو طالب بمدرسة القضاء الشرعى، وقد جذبه الأستاذ داود بركات إلى عالم الصحافة بما لمسه عن قرب، من جده الحازم، وصبره الدعوب، لأن الكاتب الكبير كان يقرأ يومياً ما يقع فى يده من افتتاحيات الصحف العالمية، ليجد الزاد المتواصل لقرائه، كما كان يغادر مكتبه بن

الساعة والساعة إلى مطبعة الأهرام ليرى بعين الصقر دولاب العمل فى كدحه الجاد، مع عطفٍ وتسامح وسعة صدر، وطاهر الشاب يلمس الكهل الصبور لابنى عن العمل قراءةً واستقبالاً وتأليفاً وتفتيشاً وتوجيهاً، فيعرف أن العرق وسيلة النجاح، وأن وراءه فى مضمار السبق الصحفى سباحاً طويلاً ليصبح رجلاً ذا شأن، ولم ينس أن يعترف بفضل أستاذه فيقول عنه فى مقال تحت عنوان (علمتنى الحياة).

«صاحبت الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام الأسبق فى مفتتح حياتى الصحافية، فتعلمت كيف يكون الصحفى الزيه، الذى لايفكر إلا فى المصلحة العامة، والذى اتخذ الصحافة خدمةً للجمهور، وفناً نزيهاً يعمل لرقى الثقافة ورقى المجتمع، ورفع مستواها على الدوام، ووجدت فى خلقه وسلوكه خير مثل لخلق الصحافى الكبير، وسلوك الرجل العام الذى يحبه الجميع، ويقدرونه على اختلاف هياتهم وأحزابهم».

## (نشأة أدبيّة)

فى دمياط الجميلة بين البحر الأبيض وبحيرة المنزلة ونيل مصر إلى امتداد النخيل الأسمر الفارع المتشابك فى العقود الأولى من هذا القرن كأنه الغابة الشجراء، وقد تراخت ذوائبه الحمر والصفّر والخضر تحت سماء صافية تلوح فيها السحب البيض كأنهن راباتٌ سلام وأمن، فى هذا البلد المؤمن ذى القباب المرفوعة والمآذن العالية والمتاجر الآهلة والمصانع المتنوعة، نشأ طاهر الطناحى ليتعلم فى مدرسة الشاعر الكبير على العزبى وكان حيثنذ جهير الصوت يمتد إبداعه فى المؤيد

واللواء والدستور والجريدة إلى ربوع العالم العربى ، وترأسل زملاءه الكبار من أمثال حافظ وأحمد محرم وإمام العبد ، ولصاحب المدرسة أناشيدٌ وطنية وحاسية ، يفرضها على التلاميذ فيرددونها كل صباح ، ثم يقيم الحفلات فى مواسم الهجرة والمولد والإسراء ، لتلقى الخطب من الكبار والصغار معاً ، فنشأ من أبناء العزب جيل ممتاز نذكر منه محمد الأسمر وطاهر أبا فاشا وطاهر الطناحى وطاهر الجبلاوى ومحمود عماد ومحمد مصطفى الماحى وحسن كامل الصيرفى وعبد اللطيف النشار وسواهم .. ممن ألفوا الكتب ونظموا الدواوين ، وملأوا الصحف ، وقد تحدث الطناحى عن أثر العزب فى نشأته الأدبية فى رسالة بعث بها إلى الأستاذ نقولا يوسف فنشرها بمجلة (الأديب أغسطس سنة ١٩٦٧) حيث أنه غرس البذرة الأدبية فى نفسه التى خلصت للأدب والشعر منذ بدأت تخط الحروف الأولى فى المدرسة الابتدائية ، ثم حفظ القرآن والتحق بالمعهد الدينى بدمياط ، وجاء إلى القاهرة ليتصل بمدرسة القضاء فدرسة دار العلوم ، ولذكرياته بهذين المعهدين حديث بطول ، حيث تزعم الفريق الدرعى الذى نادى بترك الزى الأزهرى ونشر مقالات عن اتجاهه فى جريدة البلاغ ، ولأمر ما ترك دار العلوم قبل أن يظفر بشهادتها العلمية ، لأن عمله بالأهرام فدار الهلال قد اتجه به إلى القضاء الطلق مادام يملك المهوبة المسعفة والقلم المبين .

## فى دار الهلال

من غير المعهود أن يتقدم ناشئ شاب لدار كبرى مثل دار الهلال ، فيحرز ثقة ذوى الشأن بها لأول عام يبدأ به ، لاسيما والأستاذ

أميل زيدان من الحنكة والاحتياط والترث بحيث لا يمنح ثقته عفواً دون أسباب أكيدة، وكم عرفنا من أدباء كباراً، وأوساطاً التحقوا بدار الهلال وقتاً ما، ثم جد من الخلاف ما جعل الأسباب تنقطع لأموير يقدرها أصحاب الدار تمام التقدير، وقد بدأ طاهر الطناحي عمله بمجلة المصور، وتطلب ذلك منه أن يجرى التحقيقات الصحفية مع كبار المسؤولين من وزراء وسياسيين، وإذا كان الحديث الصحفى مع أدباء ناهين مثل أحمد لطفى السيد ومنصور فهمى ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبدالرازق لا يكلف الصحفى عناءً فى تحرير الإجابة لسلامة ما يبدون من الآراء من الناحية الأسلوبية، فإن اجراء الأحاديث مع رجال السياسة والاقتصاد والأعمال الحرة يتطلب جهداً واعياً فى اختيار التعبير المناسب كما يتطلب دقة أمينة فى تحديد المراد على وجه لا يسمح بالاختلاف اليسير بين الشكل والمضمون، وقد أجرى الشاب المتحمس لأول عهده أحاديث سياسية واقتصادية واجتماعية مع كبار المسؤولين، فنقلها أجل نقل، وصاغها أنور صباغة، فنالت تقدير المتحدثين أنفسهم قبل أن تنال تقدير المسؤولين عن النشر فى دار الهلال، وزاد من مكانة طاهر الطناحي فى داره الصحفية الواسعة النشاط أن فريقاً من الكبار من أمثال الأمير محمد على والأمير عمر طوسون واسماعيل صدقى وطلعت حرب، وحسين سرى وأحمد حسنين وغيرهم ممن يتساوون معهم فى المكانة العالية. كانوا يصرون على أن يكون طاهر الطناحي وسيلة دار الهلال إليهم، بل ربما يكون من المعجب أن بعض من سبقوا طاهراً فى هذا المجال بدار الهلال يقابلون بالاعتذار، والسياسى الكبير منطلقى مع نفسه حين يرحب بالطناحي لأنه ينظر فيجد حديثه المتناثر قد صيغ فى أجل سياق، كما

يرى براعة نادرة من طاهر الطناحي تتجلى فيما تقدم به الحديث من لوازم كاشفة تضيء جوانب هامة من شخصية المتحدث الكبير كما تشير إلى أدوار حياته. بإيجاز شاف لا يضر به الاختصار، ولعلّ الاستاذ الكبير حافظ محمود قد لمس هذه الحقيقة حين كتب ذكرياته عن الطناحي بمجلة قافلة الزيت صفر ١٣٨٩ هـ فقال:

«أذكر يوماً كان فيه زملاء الطناحي المشتغلون بالقلم يتلهفون على الظفر بجديث من شيخ القضاة عبدالعزيز فهمي لكن عبد العزيز فهمي أصر على ألا يدلى بهذا الحديث إلا إلى طاهر الطناحي، كما أذكر في مناسبة أخرى أن كان الطناحي في حوار دقيق مع الكاتب الكبير المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل باشا، وقال الطناحي إنه سينقل ما دار بينها إلى القراء بعد أن يطلعه على ماسيكتبه، فابتسم هيكل قائلاً: لو كان غيرك لصممت على أن أطلع على نص الحديث قبل نشره، أما أنت فلك أن تصنع بهذا الحديث ماتشاء، لأنني «واثق من أمانة فكرك».

### (النظر البعيد)

كان طاهر الطناحي بدار الهلال أشبه بسفير سياسى لبلاده في دولة كبرى، فهو يتمتع بدبلوماسية حاذقة، تربه أدق الخوافى المستترة فى الظواهر المرئية. وتمنحه من بعد النظر وسلامة التقدير ما يجعل حدسه المتخيل موضع الإصابة المحققة، فهو ينتخب الصفوة من الكتاب، والبارع من الموضوعات، والدقيق من الأحداث، ليقرن الموضوع بمن يناسبه ويختار من الأسئلة ما ينفذ إلى الصميم دون حجاب، ويكون هو فى أكثر الأحيان صاحب الحديث الذى يستل

الأسرار من الضمائر بأخفى ما يكون من التمهيد، والذي يواصل الطرق في ابتسام وتؤدة حتى يحوز ارتياح من يستوضحه الرأى فى المشكل الغامض، لذلك استطاع أن يقنع كباراً من أعلام السياسة والفن والأدب بكتابة مذكراتهم، وبتأثيره الشخصى نشرت سلسلة كتاب الهلال مذكرات عبدالعزيز فهمى وإسماعيل صدقى وأحمد لطفى السيد، ومحمد على علوية ونجيب الريحانى. وباحتياله البارع أقنع العقاد أن يكتب قصته عن سارة مفرقة فى إحدى مجلات الهلال قبل أن تطبع فى كتاب خاص به وهى مجلة (الدنيا) الأسبوعية، كما جمعه يكتب تاريخ حياته فى سلسلة كتاب الهلال تحت عنوان (أنا) (وحياة قلم). وإن رجلاً يبلغ هذا المبلغ القوى لدى قادة السياسة والفكر لذو موهبة لا تنكر، كما أن ذاكرة الطناحى القوية كانت إحدى مميزاته الكبرى إذ صاحب شوقى وحافظ ومطران وقى والكاظمى والمازنى والعقاد وطه حسين ومحمد فريد وجدى والرافعى ومنصور فهمى، فعرف الدقيق الخافى مما يجهله الكثيرون عن هؤلاء، وقد أصدر كتابه الكبير (حياة مطران) فى مجلد واسع فاجأ الناس بما يجهلون من حقائق أدبية نقلها الطناحى عن الشاعر الكبير، وكان فى نيته أن يصدر مجلداً حافلاً عن الآنسة متى إذ كان من أخلص أصدقائها فى محتها الأخيرة حين تخلص عنها الهائون بها وتركوها مرتعشة فى ثلوج الوحدة والجمود، وقد سافر ظاهر إلى لبنان فى مأساتها المشهورة ليقف بنفسه على ما يملك هناك من دسائس لاتستطيع الخلاص منها، وقد قدرته الكاتبة حق التقدير، وكشفت له عن أوهام كانت عند الناس بمنزلة الحقائق، وأذكر أن الطناحى — رحمه الله — حدثنى ذات يوم عن خيالات غرامها الموهومة التى ألصقت بها



إلصاقاً، فكان مما قال: إِنَّ مَتَى قَدْ اعترفت له أن قلبها لم يفتح لمحبة أحد غير جبران خليل جبران، وكان حباً أشبه بالخيال، لأن الحبسين لم يتقابلا وجهاً لوجه، ولكن البريد كان رسول الشوق المتردد، ولعل هذا البعد البعيد بين الجسدين النازحين كان أهم عوامل الحب المتقد، أما ما يذكر عن هوى الرافعي والعقاد وصبرى والجميل وولى الدين يكن، فقد كان يقف عند حدود الصداقة البرية من ناحيتها، وإن فهم على غير وجهه لدى من يتخيلون فيحكمون، ومن طرائف الطناحي أنه كان يحتال على اصطیاد بعض الرسائل العاطفية بوسائل مأكرة، فقد بعث للمازنى بعدة خطابات موهورة باسم حسناء تعشقه، وتلهف المازنى على الرسائل فرد عليها فى شوق جارف، وبقي الأمر مستتراً حتى مات المازنى، ونشر الطناحي الرسائل بمجلة الهلال ثم جمعها بين فصول كتابه الشهير (ساعات من حياتي) وللأدب ربّ غفور.

## ( حساسيات بالغة )

كان الطناحي فى أكثر أحواله صاحب الرأى المختار فى شئون التحرير بدار الهلال، لأن ثقة الأستاذ أميل زيدان بكفائته وإخلاصه لا تُحَدّ، هذا ما كان يبدو على السطح لمن يرى الظواهر اللائحة فلا يبحث عن مكنونها المستتر، أما الحقيقة التى خفيت عن الكثيرين، فقد نفّس عنها طاهر ذات مساء، حين ذكر لى أن عمله بدار الهلال قد عاقه أن يبدى بعض النقدات الهادفة، وجعله يخضع لمشيئة لا ترغب الإثارة مهما كانت ذات نفع علمى مؤكد، ومما يرويه الرجل فى مجال التمثيل، أنه بعد رحيل أحمد شوقى توالى مقالات الإطراء

مقدرة مكانته الشعرية وزعامته الأدبية، فكتب طاهر مقالات تحت عنوان (شوقى والمتنبى فى ثوب) .. حيث عرض موازنة بين قصيدتين للمتنبى وشوقى كان احتذاء أمير الشعراء واضحاً ملموساً لمن يطالع الأصل والفرع، وتقدم بالمقال، فرفض الأستاذ أميل نشره قائلاً إن جبهة القراء ستتهم الهلال بمعاداة شوقى الفقيه، فى ظرف كثر فيه الباكون والمادحون، فقال الأستاذ طاهر، ولكن الهلال قد اتسعت من قبل لنقد مماثل، فقال الأستاذ أميل، إنك موظف بدار الهلال، ولست كاتباً من الخارج فوقفك غير موقف من تأتى مقالته بالبريد، وقد اضطر طاهر أن ينشر بحثه فى مجلة أبرار حين أصدرت عدداً خاصاً بشوقى فى ديسمبر سنة ١٩٣٢.

هذه واحدة، أما الثانية فقد كتب الأستاذ طاهر الطناحى نقداً تاريخياً فنياً لفيلم (دنابير) الذى مثلته أم كلثوم وكتب أحداثه أحمد رامى سنة «١٩٤٠م»، ونشر النقد بمجلة الثقافة منعاً لإخراج دار الهلال، وكان النقد يتجه إلى تخطئة المؤلف فى أحداث تاريخية غيرها عن واقعها دون ضرورة فنية، وفى الاحتيال على أن تملأ أم كلثوم المساحة بأغانٍ لاتم عن روح العصر العباسى، كما كان المخرج مخطئاً حين جعل سليمان نجيب وعباس فارس يمثلان الرشيد وجعفر البرمكى وبينهما عشرون عاماً، مع أن الرشيد رضع مع جعفر من ثدى واحدة، وقد ولدا فى عام واحد، وقد تأثر الأستاذ رامى والآنسة أم كلثوم (حينئذ) بما كتبه الطناحى، واتصلا بدار الهلال. واضطر الأستاذ أميل لارضائهما، ثم واجه الطناحى بأنه أمام الناس يعبر عن دار الهلال، وإن كتب نقده فى مجلة الثقافة ونشره الأستاذ أحمد أمين، ثم طلب منه ألا يعود! ولدئى أحداث سياسية تتجه هذا الاتجاه كمنمت

دار الهلال فم طاهر عن أن يبدى رأيه الصريح كما يريد .

هذا هو بعض الحرج الذى أعنيه حين أقول إن طاهر الطناحى قد تعرض لحساسيات بالغة عاقت قلمه عن الطيران فى أجواء النقد الزيه ، وهو بعد صاحب رأى المسموع فى شتى شئون الدار، وقد صدق الكاتب الكبير الأستاذ فكرى أباطه حين قال فى معرض رثائه بمجلة المصور!

«خير مايقال فيه أنه طار بمجلة الهلال كل مطار، فصعد بها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً بالكيان العربى، ثم شقّ بها الحدود فعبّر البحار إلى أمريكا الجنوبية، فدخلت كل بيت من بيوت المهاجرين العرب، واندلع الفقيد بأعداده الخاصة (نحن العرب) نفس الاندلاع .. وكان لايعرف المستحيل، وكم انعقدت جلسات نائرة بيننا وبينه ذات ضجيج وعجيج، ولكن إيمانه بما استقر فى ذهنه، وفطر حماسه لواجهه، وعزيمته الماضية، كان هذا وذاك هو سلاحه الماضى الذى أجهز به على المستحيل .

## ( على فراش الموت )

أصدر الطناحى عدّة مؤلفات هامة مثل ( أمير قصر الذهب ) و(على ضفاف دجلة والفرات) وقد سماه فى طبعة ثانية (معارك السيف والقلم) و(حياة خليل مطران) و(ساعات من حياتى) و(شوقى وحافظ) وهى مؤلفات متداولة شهيرة، وستقف عند أثرين فذين من أحسن ماكتب، هما كتابه (على فراش الموت) وكتابته (حديقة الأدباء) .

أما كتاب (على فراش الموت) وقد طبعه مرة ثانية تحت عنوان (الساعات الأخيرة) فهو مزاج من صحائف الأدب والتاريخ والأخلاق، حتى ليصعب على الناقد أن يميل به إلى ضرب خاص من الفنون، فهو كتاب أدب لدى من يرى المؤلف يحاكي أساليب من يتحدث عنهم، ويعيش في أجوائهم مصوراً حلقات حياتهم في يسر لا يرهقه التحليل، ولكنه يقدم الخصائص الفكرية، والوقائع السياسية والأحداث الاجتماعية في سهولة تجعل التحقيق حواراً بين سميرين لامناقشة بين باحثين، كما أن براعة الطناحي تتجلى في تفحص شخصية من يتحدث عنه روحاً وأسلوباً، فكأن الكاتب هو المتحدث عنه تماماً. وأضرب المثل بمديته عن المنفلوطى والبكرى، والأول ذو سلاسة وعدوبة، والثانى ذو سجع واقتباس، وقد مات المنفلوطى يوم شغلت مصر مجادث الاعتداء على سعد زغلول، فنسبت وداع الكاتب الكبير متأثرة بمجادث الزعيم الخطير، فصوّر الطناحي هذه المشاعر بقوله مقلداً المنفلوطى:

«لكن هذه الحمام الساجعة فى رياضها، وهذه الأزاهر الباسمة على أفنانها. وهذه الآرام الرائعة فى فيافها، وهذا النسيم المختال فى خطراته، المدل بلثماته، وقد سمعت بموته فوجت الحمام، وذوت الأزاهر، واعتقلت الفجيجة فيه الآرام فسقطت شجوة بخطبه يوم شغل الناس عنه بإصابة سعد، فنسوا كل شئ حتى هذا المصاب العظيم، وحملت الهول عنهم تلك الطيور الوفية التى ناجاها، وتلك الأزاهر الندية التى طالما استوحاها، وتلك الأطباء الرشيقة التى تحاكى رشاقة أسلوبه وبالع سحره.

فإذا تحدث عن توفيق البكرى صاحب صهاريج اللؤلؤ فإنه يقول محاكياً طريقته الفنية: «يا ياما أحلى الوحدة والريف، وذلك المشتى والمصيف، والجو السجسج والظل الوريث، مالى وللناس، ولأميرهم العباس، وقد مارستهم أشد مراس فلقيت منهم الغل والباس».

هذا من الناحية الأدبية، أما الناحيتان التاريخية والخلقية فبارزتان للعيان.

### ( حديقة الأدباء )

من يوم أن أصدر الأستاذ عبد العزيز البشرى صور المرأة، وكثير من الكتاب يحاولون محاكاته، ومن بين هؤلاء محمود تيمور فى (ملاحم وغضون) وطاهر الطناحى فى (حديقة الأدباء)، حيث تحدث عن عشرين من الشخصيات البارزة فى العالم العربى، وآثر أن يرمز لكل شخصية بما يناسبها.. فأحد لطفى السيد نسر، والعقاد عقاب، وإبراهيم ناجى سنجاب، ورامى فراشه، وبنيت الشاطيء بطة، وقد عجبت لاختيار الطاووس رمزاً لميخائيل نعيمة، وهو كاتبٌ وديع هادىء لا يعرف زهو الطاووس، ولعلّه لو اختار الطاووس لركى مبارك لكان أوفق، وما بدا للعيان بمجرد القراءة العابرة أنّ عين الرضا عن كل عيب كليلّة، فلم يكن هم الطناحى وتيمور غير رصد المحاسن فحسب، بحيث لا يمكن أن ترى فيما كتبه بعض ما تراه عند البشرى حين تحدث عن أحمد زبور وإبراهيم وجيه وإسماعيل سرى وأبى الفضل الجيزاوى، إذ كان الساخر الكبير ناراً تشوى، وسوطاً يلهب، أما الطناحى فكان هبة نسيم تمر كثيراً على الروض فترجع متشبهة

بالعبر، وجعل الرمز سبيلاً إلى تحليل الشخصية الإنسانية مما يحتاج إلى  
مهارة فى الاختيار، ودقة فى المقارنة، وغوص فى الأعماق، ولعل  
المؤلف قد بلغ فى هذا النطاق كثيراً مما يريد. هذا وقد كان  
الطناحى شاعراً تضمّ مجلّات الهلال ديوانه المتناثر على مدى الأعوام  
الطوال، وهو بذلك قد زاول البحث والقصة والقصيدة والمقال،  
— رحمه الله —



## محاكمة قضائية لشاعر معاصر

قدم الأستاذ الكبير كمال النجمى حديثاً رائعاً ممتازاً عن المدرسة القنائية بالعدد الأخير من مجلة الهلال . وقد أشار فيه إلى الشاعر الوطنى المعاصر عبد الحليم المصرى ، إذ أقام بقنا فترة من حياته ، وهى إشارة ذكرتنى بهذا الشاعر المطبوع الذى جهله الكثيرون من أبناء هذا الجيل ، وقد كان فى مطلع هذا القرن نابه الاسم ، معروف المكانة ، وقد انتقل إلى (قنا) مغضوباً عليه .. إثر محاكمة قضائية ظلّ دوتها يتردد فى المجتمع المصرى قرابة عامين ، وكان من قضائها ومحاميا وشهودها فئة ممتازة من أعلام مصر ، ولولا أنّ الشهرة الأدبية حظّ مقدور ، لتناقلت الكتب الأدبية ما كان من أمر هذه المحاكمة ، فأضافت صفحات من السياسة والتاريخ والأدب والقانون جديرة أن تكون موضع الالتفات ، ولا أدرى لماذا تذكرت هذه القضية حين قرأت مقال الأستاذ النجمى ، لأنه ذكر انتقاله إلى هذا البلد الكريم ، فتداعيت المعانى لى لأتذكر باعث هذا الانتقال ، بل لأعجب كيف تناساه الرواة ، ولا أعلم أحداً سجله بأمانة وتدقيق كما سجله الشاعر الكبير الأستاذ محمد مصطفى الماحى فى دراسته الأدبية عن الشاعر ، وقد كان زميله فى عمله الرسمى ، وصاحب سره فى موقفه الحرج ، فهو أمين مأمون ..

## ( عبد الحليم المصرى )

تشابهت نشأة عبد الحليم المصرى بنشأة حافظ ابراهيم ، إذ عشق الشعر صغيراً ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وسافر إلى السودان ضابطاً ثم أعيد مفضوباً عليه ، وكل ذلك قد تم على وجه المطابقة الكاملة لحافظ ابراهيم من قبل ، وإذا كان حافظ قد بلغ أوج الشهرة بما قال من الشعر ، فلم يكن عبد الحليم عند نفسه بأقل من حافظ ، وقد خلب شاعر النيل ألباب قارئيه بما نظم فى السياسة ، وسامعيه بما جود فى الإلقاء ، فأحرى بعبد الحليم أن يسلك مسلكه ، وقد اجتهد واحتفل ، فسار له اسم ، وسارعت صحف مصر إلى تزكيته ، فكانت قصائده تنشر فى صدور المؤيد واللواء والأهرام ! وكان يفوق حافظاً بشبابه الفارع ، ووسامته البارعة ، وربما اجتمعا فى محفل واحد فنال من التصفيق قدر مانال شاعر النيل ، وقد ظهر حافظ على شوقى فى المحافل بجودة إلقائه ، وهاهو ذا عبد الحليم لا يقل عنه براعة تأديبه ، وعذوبة ترنيم ، وليس المهم لدى الشاعرين معاً أن يبلغا رضا الشعب وحده ، فقد بلغاه عن موهبة واقتدار ، ولكن طيف القصر قد ملك عليها السبيل ، وفى اعتقادهما أن شوقياً لم يأخذ مكانة الريادة إلا بإتمائته لعباس حلمى ، وكيف السبيل إلى الخديو ! ومن دونه شوقى !؟ لاحل إلا أن يكون التزلف لشوقى أقرب باب للوصال ! فهل سينفرج الطريق عن وثبات سريعة تفضى إلى الأمل ! أو أن من يجعل الضرغام باباً لصيده تصيده الضرغام ؟

### ثلاثة شعراء

خطر لحافظ وعبد الحليم أن يبلغا باب القصر عن طريق شوقى ،



على حين شاء أحد الكاشف أن يصل إلى الباب دون واسطة ، إذ كانت لديه عزة شاذة ترتفع به عن أن يتزلف إلى زميل ، ولم يتحقق للثلاثة ما يرجون ، أما حافظ فقد مدح الخديو بعدة قصائد ضممتها الشاء على شوقى ، ليستلين منه قناة صليبة . ولكنه بعد أن كرر الزلقى تأكد أن مجهوده ضائع ، فأتى بمدحة جديدة يهاجم فيها شوقياً علناً ، وزميه بالحسد والضعف في قوله :

يا عيذ ليت الذى أولاك نعمته	بقرب صاحب مصر كان أولانى
شكا عما ن وضع الغائضون به	على اللاكىء ، وهاج الحاسد الشانى
كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف	ساعت فيه لنظام ووزان

وأما الكاشف فقد أكثر من مدائح العباس حتى كاد يقصر فته عليه وعلى مديح السلطان ، ثم انفجر موقفه صارخاً ، حين تقدم فى مناسبة يوم الجلوس بقصيدة يتساءل فيها عما يسره فى هذه المناسبة ، وهذا هو الخديو لا يقرب إلا شاعراً واحداً ، ولا يلتفت إلى الأنداد ، وقد صبر الكاشف مُسِراً شكايته الكظيمة .. حتى لم يجد بداً من أن يتحول السر إلى رعدٍ قاصف ، إنها لحمية رائعة تنجلي فى قوله :

عيذ وماذا سرتى فأثادى	ذهب الرجاء من الحيس الصادى
مالى إذا لم ألق عندك موضعاً	ولهذه الأعلام والأجناد
قربت شاعرك الجليل فما اقتدى	بك واحد من أهل هذا الوادى
مازلت لأشعار تكرمها وما	لك غير ملتفت إلى الأنداد
لم يُغن إسراى إليك شكايتى	وقد انتهيت بها إلى الإرعاد

ومثل الكاشف حين يعلن هذه الاحتجاجات الدامغة ، لا يقرب

أَمْلاً بَعْدُ، وَلَعَلَّهُ وَجَدَ الْيَأْسَ إِخْدَى الرَّاحَتَيْنِ، أَمَّا عَبْدُ الْحَلِيمِ فَكَانَ حَرِيصاً عَلَى مُوَاصَلَةِ الطَّرْقِ الْمَلْحِ عَلَى بَابِ شَوْقِي، يَطْرُقُ وَيَطْرُقُ دُونَ يَأْسٍ، وَقَدْ خَصَّه بِمَدَائِحٍ مُسْتَقَلَّةٍ لَا تَحْيَى عَرْضاً فِي سِيَاقِ الْمَدَائِحِ الْخَدِيدِيَّةِ كَمَا فَعَلَ حَافِظٌ، بَلْ جَعَلَ مَدِيحَهُ مُسْتَقِلاًّ يَعْتَرِفُ فِيهِ بِأُسْتَاذِيَّتِهِ، وَبِأَنَّ الْبَلَاغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَفَخَّرُ بِالشَّوْقِيَّاتِ — وَبِأَنَّهَا مِنْ مَبَالِغَةٍ!! — ثُمَّ يَصْعَدُ بِهِ الْخَيَالُ فَيَتَوَهَّمُ أَنَّ شَوْقِيَّاً وَهُوَ مَلِكُ الْبَيَانِ قَدْ اسْتَوَزَهُ، وَأَكْبَرَ مَنْزِلَتَهُ حِينَ أَصْفَى إِلَى شَعْرِهِ، وَأَنَّهُ يَتَغَاضَى عَنْ هِنَاتِهِ الشَّعْرِيَّةِ، حَنَاناً وَعُطْفاً يَتَوَجَّهَانِ مِنْ أَسَازٍ إِلَى تَلْمِيذٍ، بَلْ مِنْ أَبٍ يَرْعَى الْبَنُوَّةَ وَيَكْلُوهَا بِجَنَاحِهِ! لَقَدْ اسْتَكْثَرَ الشَّاعِرُ مِنْ شَوْقِي أَنْ يُصْغَى لِمَدِيحٍ قَلِيلٍ فِيهِ، وَعَدَّ ذَلِكَ حَنَاناً أَبَوِيّاً! وَمَنْ أَدْرَاهُ أَنْ شَوْقِيَّاً كَانَ يُصْغَى عَاطِفاً حَافِظاً، لَا جَمَاحاً مُتَحَمِّلاً! أَفَكَانَ يَنْتَظِرُ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: لَنْ أَسْمَعَ مَدِيحاً وَجْهَتَهُ إِلَيَّ! لِيَعْرِفَ أَنَّهُ قَدْ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، وَكَيْفَ يَشِيخُ شَوْقِي عَمَّنْ يَقُولُ فِيهِ:

ذَلَّتْ آبِيَّةُ الْبَلَاغَةِ فَاعْتَدْتُ	تَمْشِي بِطَرَسِكَ مِشْيَةَ الْمُتَدَلِّلِ
قَرَبْتَنِي حَتَّى إِذَا اسْتَوَزْتَنِي	أَكْبَرْتَ مَنْزِلَتِي بِصَدْرِ الْمُحْفَلِ
وَلَبِثْتَ تَجْرَى فِي سَمَاعِي صَافِيَا	مِنْ عَذَبِ شَعْرِكَ كَالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
حَتَّى إِذَا اسْكُرْتَنِي اسْتَشَدَّتْنِي	مَا سَطَّرْتُهُ فِي مَدِيحِكَ أُنْمَلِي
لَتَغْضُ طَرَفَكَ تَارَةً عَنْ عَثْرَتِي	وَتُقِيلُهَا طَوْرًا بِغَيْرِ تَدَلِّلِ
فَإِذَا تَبَيَّنْتَ أَمْرًا فَأَنَا الَّذِي	يَرْعَى الْأَبُوَّةَ فِي الزَّمَانِ الْحَوْلِ

وَيُضِيقُ الْجَمَالَ عَنْ تَسْجِيلِ مَا تَزَلَّفُ بِهِ عَبْدُ الْحَلِيمِ، إِذْ كَرَّرَ الزَّلْفَى خَالِصَةً حِينَا، وَحَامِلَةً مَرَارَةَ الْعِتَابِ وَالْأَلَمِ حِينَا آخِرًا، حَتَّى إِذَا جَبَّهَ الْيَأْسَ الْقَاتِلَ، لَمْ يَجِدْ بَدَأًا مِنَ الْانْفِجَارِ الْأَزْعَنِ، وَنَقُولُ الْأَزْعَنُ لِأَنَّهُ لَمْ

ينفجر، بحممه النارية فوق شوقى فحسب! بل فوق أمير البلاد،  
وحاكم مصر، انفجاراً قدّمه إلى القضاء العاجل، وطرده من  
وظيفته، ومنع الأصدقاء أن يلوذ بهم فأعرضوا متباعدين.

### (قصيدة الهجاء)

يُخيل إلّى أن الشاعر الناقم لبث وقتاً طويلاً يفكر فى حيلة دقيقة  
تمكنه من أن ينشر هجاءه الصارخ فى جريدة الأهرام الذائعة، دون  
اعتراض، فهو يعرف جيداً أن لا سبيل إلى نشر الهجاء الصريح فى  
أية صحيفة.. مهما كانت تشيخ عن سياسة القصر الخديو، لأنّ  
للأصول المرعية، وللمساءلة القانونية تقديرهما الذى لا يغيب عن  
رؤساء التحرير، لا بدّ إذن من التلميح دون التصريح. ولن يكون  
التلميح إلا بالتستر وراء أشخاص يختارهم الشاعر من سجل التاريخ،  
ولن يُعجزه أن يجد فى صفحاته أمير المؤمنين وحاكم الولاية وشاعر  
الأمير، فإذا كان خليفة المسلمين فى تركيا هو أمير المؤمنين. وعباس  
حلمى الثانى هو حاكم مصر فى ظلّه، وأحمد شوقى هو شاعر الأمير،  
فما أسهل أن يأتى الشبه القريب من التاريخ العباسى الزاهر، حيث  
يكون هرون الرشيد أمير المؤمنين، ويكون أحمد بن الخصب والى  
مصر، ويكون ابن هانئ (أبو نواس) شاعر الخصب، وقد زار أبو  
نواس فعلاً مصر وقدح الخصب بقصيدة قال فيها:

إذا لم تنز أرض الخصب ركابنا فأى فتى بعد الخصب تنزور

هذا ما اهتدى إليه عبد الحليم المصرى، إذ نظم قصيدة طويلة  
بلغت ثمانين بيتاً من جيد الشعر، قدّمها بدىاجة قال فيها إنه رأى فى

منامه رجلاً طويلاً حسنَ الوجه، يُوقظه من نومه، ويقدم له هذه القصيدة راجياً أن ينشرها بعد اليقظة في جريدة الأهرام، وابتدأت القصيدة بالغزل التقليدي على النهج العباسي المشتهر، ثم انتقلت إلى هجاء الخصب وهجاء شاعره!! والسؤال المحير حقاً هو هذا؟ كيف عَقَلَ رئيس تحرير الأهرام الأديب البارِع الأستاذ داود بركات عن المغزى المراد، وهو من الوُضوح بحيث لا يحتمل الالتباس؟ إننا نعرف أن الأستاذ داود بركات مع ضلّاعته الكتابيّة في أفانين السياسة، والتعقيب على المشكلات العالمية في عصره، كان ذا حِسٍّ أدبيّ ناقد، وله فصولٌ أدبية عن شوقي وحافظ ومطران وأحمد محرم وولى الدين يكن والآنسة مى.. وأمين الحداد وجبران خليل جبران، ومصطفى لطفى المنفلوطى. أفيمكنُ أن يقرأ القصيدة دون أن يلتفت إلى ما وراء الستار؟ أكبرُ الظنّ أن ثقته في أدب عبد الحليم المصرى قد دفعته إلى نشر القصيدة دون أن يستمر في قراءتها، لاسيّاً أنّها بتقديمها الممّوه تنتقل إلى عصر بعيد، فهي إذن ضرب من الشعر التاريخى الذى أخذَ يجد طريقه فى الظهور، وهذا ما أكّده جريدة الأهرام حين داهمها الخطر بغد توزيع الجريدة، وحَمَلَة جريدة المؤيد عليها، إذ أعلنت أنّها تبرأ مما تظوى فى لفائفها من رموز تنكر مدلولها كل الإنكار، وترى الشاعر يستأهل التأديب إذا صَحَّ أنّه يقصدُ ما كانت تجهله الجريدة، حين سمحت بنشر هذا الافتراء! لقد أصبحت الأهرام فى موقفٍ لا تُحسد عليه، واضطرت إلى تأكيد براءتها المرة بعد المرة لتسكت السنة من أخذوا يتهمونها بنذ الولاء. أمّا الشاعر نفسه، فقد رمى الخديو بالخشع، والطمع، وسلب الأوقاف، واصطباد الثراء من شتى الوجوه، كما جعله نظيراً لفرعون أخيه حين

تَجَبَّرَ واستبد. وقال ما علمت لكم من إله غيري، فالأَرْضُ أَرْضِي.  
وهذه الأنهار تجري من تحتي، يقول عبد الحليم المصري:

قل للخصيب إذا ما جئت سدّته	عليك بالدين فالدنيا لمقات
يا حاملاً نشب الدنيا على كتف	أنت المسافر فانصت للنهايات
تمضى عجولاً بما جمّفته طمعاً	في غيره، فاسترخ بين المسافات
إن قيل منجمٌ تبر في الهواء رمث	بك الأمانى أوهام اللبانات
فاجلس على عرش فرعون أخيك وقل	أنا الإله ولى حق العبادات
النيل من فيضتي، والأرض من ذهبي	والشمس دارى، والآفاق داراتى
نعم الأمين على مصر وساكنها	لأنؤمن الذئب فى المرعى على الشاة

هذا بعض ما قيل فى عباس! أما شاعرُ الأمير، الذى غالى به  
الخصيب مغالاةً لاتجد المبرر من عاقل، إذ منحه من الإحسان  
ما أفسده، حين مدّ له أسباب الغواية! هذا الشاعرُ المدلّل قد أضرب به  
الجاه، وأتلفه العزّ، إذ أنّ أرومته سيئة لاتصلح بغير الإذلال والمهانة،  
ولكنه وحده يشرب ماء النيل عذباً صافياً دون الخلق، على حين  
يقف أنداده ظامئين لا تروى حلوقهم قطرة من ماء! وقد بطر واستعلى  
حتى جاز له أن يدعى الملك مادام مشمولاً بعطف الخصيب ورضاه!  
يقول المصري:

ما للخصيب يُغالى بابن هائلة	ما أعرف المين إلا فى المغالاة
يدّ بعارفة الإحسان يصرفها	إليه كانت سبيلاً للغوايات
قد يفسد العِزُّ من ساءت أرومته	ويصلح الذلُّ أرباب الإساءات
أشاعرُ النيل دون الخلق يشربه	بينما يشقّ الصدى من المرات
ليدع المُلْك إن يرض الخصيب فا	يبقى عليه سواه فى اللذات

مها يكن من شيء ، فقد أحدثت القصيدة دوياً رناناً ، دفع ذوى الأمر إلى محاكمة الشاعر الجريء على الفور فعقدت المحكمة فى جو عاصف ، وصار أحب الناس للشاعر لا يملك أن يدفع عنه الاتهام ، حيث تطوع بعض من ائتمنهم عبد الحليم على سرّه بالشهادة ضده ، فذكروا أنه اعترف لهم صراحةً بسوء قصده ، وصال رئيس النيابة مقررّاً فداحة الجرم ، واستأنست المحكمة بشهادات كبار الأدباء والشعراء فلم ينكروا أن الخديو هو المقصود بالذات ، وقد اعتذر المتهم عن الحضور لمرض طارئ تركبه شهادة الطبيب ، وترافع الدفاع طويلاً دون جدوى ، حيث صدر الحكم غيابياً بحبس الشاعر ثلاثة أشهر ، فعارض فى الحكم الجنائى الغيابى مستأنفاً ، وتحددت الجلسة على وجهٍ سريع .

## فرقة الهلباوى

أتى بطلي مغوار كان الهلباوى !! لقد جنت عليه مأساة دنشواى جناية طمست بريقه الساطع عن العيون ، وهو بعد مدره القانون الجريء ، الذى واجه المحكمة مواجهةً محرّجة ، حيث تقدم زميله الأستاذ الكبير وهيب دوس بالدفاع القانونى مُستنداً إلى نقاطٍ تحتل الأخذ والرد ، أما الهلباوى تلميذ جمال الدين وزميل محمد عبده وسعد زغلول ، فقد واجه المحكمة بما لم يخطر لها على بال ، حيث أكد أنّ القصيدة ليست نصّاً فى هجاء عباس ، وأن رئيس التحرير ، وهو الأديب الأسمى الأستاذ داود بركات لم يفتن إلى ما استنتجه المستنتجون ، وقد اعترف المتهم بأنه لم يقصد الخديو بهجائه ، وأنه يتحدث عن واقع تاريخى ، فإذا رأت المحكمة أن تُلزمه بما لم يعترف به ،

فكأنما تقرر أن الهجاء صحيح ، وأن سمو الخديو تلوح صورته من خلاله ، وما أظن وطنياً مخلصاً فضلاً عن قاضٍ عادل يتلمس الهجاء تلمساً ليلصقه بأعلى رأس في البلاد! إننا نعرف بُعْدَ الخديو عما جاء في القصيدة من هجوم ، وأن الشاعر قد أقسم أنه لا يقصده ، فهل تريد المحكمة أن تقول له إن قولك ينطبق على سيد البلاد! أم أن الأكرم للمحكمة أن تقرر أن الخديو أسمى من أن يهجى هذا الهجاء الشنيع! إن عهد الخديو أرفع من أن يثبت في سجل تاريخه هذا الحدث الشائن الذي أنكره من نسب إليه ، فلتحكم المحكمة بالبراءة فهذا أجل بها وبصاحب الأمر ، ويقانون مصر . وبالشاعر المتهم! وكانت النتيجة أن صدر الحكم بالبراءة دون إبطاء .

على أن ديوان الأوقاف قد فصلَ الشاعر فصلاً تأديبياً ، لما جاء في قصيدته ، فاستأنف الشاعر مستظهِراً بحكم المحكمة ، ف قضى المجلس بتعديل الحكم ، وينقله إلى قنا ، ورأى الشاعر أن يُهادن ، فاستأنف المدائح الصادقة ، ثم جاءت الريح بما يحب فذهب عهد ، وجاء عهد ، وأقيم السلطان حسين كامل سلطاناً على مصر فأرجعه إلى القاهرة ، وأتاح له أن يتصل بالقصر بعد رحيل شوقي إلى منفاه بالأندلس ، وأخذَ عبد الحليم مكانته بين كبار الشعراء ، وقد أقيمت احتفالات شعرية تُخلد أبطالَ الإسلام ، وتُلقي بقاعة الجامعة المصرية ، فأنشد حافظ إبراهيم قصيدة (العمرية) عن الفاروق عمر ، وجاء دور عبد الحليم المصري فأنشد قصيدة (البكرية) عن الصديق بعد وقت قريب ، ثم أنشد محمد عبد المطلب (علوته) عن علي - كرم الله وجهه - في وقت نال ، ولم يكن أحدٌ يتوقع أن الموت سيُهاجم عبد الحليم في عنفوان شبابه ، فأت فجأة في سن الخامسة والثلاثين ،

وبكاه عارفو فضله من الكتاب والشعراء ، ورحل عن الدنيا تاركاً  
آثاره الأدبية ، وأظهرها ديوانه الشعرى فى ثلاثة أجزاء ... وإذا جهله  
الكثيرون من أبناء هذا الجيل فما أخرى الدارسين بالرجوع إلى آثاره  
الفكرية محللين ناقدين ، ليأخذ مكانه المستريح فى سجل الأدب  
الحديث ...





# الشعر العباسى

## بين رفيق العظم وطه حسين

أما الدكتور طه حسين فما أظن أحداً يحتاج إلى أن يُعرّف به ،  
وأما المؤرخ البحاثة العالم الأديب رفيق العظم ، فقد كان أحد أعلام  
السياسة والأدب والتاريخ فى الجيل الماضى . كتب مقالاته السياسية  
والتاريخية فى أمهات الصحف اليومية ، وشارك مشاركة فعالة فى  
الحركة العربية بماله وقلمه ونفوذه ، حتى هاجر من بلده إلى مصر  
ليجد متنفساً قوياً لنشر أفكاره بعيداً عن سيطرة المتحكين ، وقد ترك  
آثاراً علمية حافلة فى الأخلاق والتربية والسياسة والتاريخ والإجتماع ،  
كتب عنها السيد محمد رشيد رضا بحثاً ضافياً فى المنار والمقتطف  
«نوفبر سنة ١٩٢٥» . ومن أشهر كتبه وأكثرها رواجاً وذيوغاً كتابه  
الحافل .

( أشهرها مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ) وهو خاص بعهد  
الفتوح الإسلامية .. فى عصر الخلافة الراشدة ، ولم يقتصر مؤلفه على  
نظراته التاريخية ، بل توسع فى مسائل العمران والاجتماع والسياسة ،  
إذ قصد تربية شبيبة الإسلامية بإحياء ذكرى السلف المناضل من  
ناحية ، وبتوضيح نتائج أعمالهم الباهرة وصفاتهم الخلقية الممتازة من  
ناحية أخرى ، ليكونوا أسوة الشبيبة فى سلامة الاتجاه وسمو الهدف  
وعزة الحياة . وبهاها من مُثُل نادرة .

## الشعر العباسى فى نقاش جاد

كان المرحوم الأستاذ رفيق العظم شديد المتابعة لكل مايكتبه الباحثون فى مسائل الأدب والتاريخ ، وقد رأى الدكتور طه حسين فى أوائل العشرينيات يفرد الصفحات الطوال أسبوعياً فى جريدة السياسة اليومية متحدثاً عن شعراء العصر العباسى من الذين يميلون إلى التحلل الخلقى أمثال بشار.. وأبى نواس والحسين بن الضحاك ، ووالبة بن الحباب ، وحامد عجرد ، ومطيع بن إبّاس ، ليقول إن هؤلاء المتحللين هم صورة العصر الأدبية والإجتماعية ، وهم لسانه الناطق عن أخلاقه وعاداته .

وهو إتجاه تردد فى دوائر الاستشراق قبل أن يذيعه الدكتور . ثم شاء باحث أن يتسع فيه ويمتد على نحو يخالف الحقيقة الأدبية ، ويسىء إلى تاريخ دهر نعتز به ، حين يجعل العصر كله عصر تحلل وشك ومجون .

ولأسلوب الدكتور سطوة تجذب قارئه ، وتدفع الشباب إلى استيعابه ، دون بصر بخوافيه ومراميه ، وقد وجد من الناقدين فى مصر من عارضوه معارضة قوية جادة ، فكشفوا أخطائه فى صرامة حادة ، ولكن الأستاذ رفيق العظم كان ممن جادل بالتي هى أحسن ، وقد بلغ بالرفق مالم يبلغ غيره بالعنف والشدة والجزء الثانى من حديث الأربعاء يشمل بعض هذه البحوث بعد أن هذبها الدكتور وطرده عنها كثيراً مما صدم الأسماع .

## رأى الدكتور طه حسين فى الشعر العباسى

يقول الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة تحكم بها عليه حكماً صادقاً، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب أكثر من رجوعك إلى الفقهاء والمتكلمين والرواة، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقاً، ويعبرون عن أهوائها وميوها، ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة، أفنظن أن شاعراً كأبى نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس فى بغداد، وغيرها دون مدن العراق؟ بل فى الشام ومصر حين ذهب إلى الشام ومصر، فيحفظون شعره ويتناشدونه، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف، ثم لا يكتفون بذلك، بل يزرون عنه الروايات وينتحلون له القصص، ويتحدثون عنه فى اللعب واللهو بالاعاجيب، أظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثلاً للذة والنعيم فيكفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصادقة؟!

كلا ليس من شك من أن صلة حقيقة قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجة صادقين، لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر، وما يضطرب فى نفوسها من عواطف فى حين كان الفقهاء ورواة الحديث عاكفين على الفقه يستنبطونه، وعلى الكلام يحصونه وعلى الحديث يروونه، وكانوا فى ذلك لا ينطقون بلسان أحد. ولا يجرون على رأى أحد، ولا يمثلون إلا العلم الذى.. يصفون به ويعكفون عليه.

## مثل معاصر يرد على الدكتور

وقبل أن أتى برد الأستاذ رفيق العظم على هذا الاتجاه، أقول إن افتتان العباسيين برواية أشعار أبي نواس وحديثهم عنه فى حلة وترحاله لا يدل على أن المجتمع العباسى يسلك طريقه، ويتابعه فى انحداره فى شىء ولنلق نظرة واحدة إلى شهرة المطربات والمطربين، فى عصرنا الراهن، فنحن نجد الإذاعات المرئية والمسموعة والمجلات الأسبوعية.. والصحف اليومية، تتحدث عنهم فى أكثر ممالك الشرق العربى والغرب الأوروبى.. دون أن يكونوا الصورة الحقيقية لأخلاق شعوبهم، بل إن الذين يفردون عنهم المؤلفات الخاصة، ويصدرون الأعداد الدورية من المجلات حافلة.. بأبنائهم ليعرفون بعدهم عن قيم المجتمع ومثله، ويعلمون أنهم فى أوسع.. أمورهم يكونون مصدر ترفيه وقتى لبعض الشبيبة بما يأتون من معربات لا تكون موضع الاقتداء. فهل يقول قائل إن مطرباً فناناً أو مطربة مغنية أو ممثلة أو راقصة هى صورة سيدات المجتمع وربات الأسر؟ وإذا أجرؤ أحد أن يقول ذلك فهل يكون لقوله قيمة حقيقية لدى الدارسين؟!

ثم من قال إن علماء الإسلام من أمثال أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد بن حنبل كانوا منكفئين على أبحاثهم دون أن يسمع بهم أحد، وهم الآن ملء السمع والبصر؟ فكيف يكونون فى العصر الذى عاشوا فيه؟!

وعلماء اليوم صورة من علماء الأمس، فهل انصرف مجتمع اليوم عن حسن البناء ومالك بن نبي ومحمد المتولى الشعراوى ومحمد أبى زهرة ومحمد الغزالى وأبى الحسن الندوى وأمثالهم فى شتى ربوع الإسلام؟!

إن أحد هؤلاء كان لا يحاضر فى مكان ما حتى يجد الإزدحام الحاشد، والجمع المتقاتل على السبق وتقدم الصفوف. وفى الحاضر صورة الماضى لأن الناس هم الناس.

## من رد الأستاذ رفيق العظم

بدأ الأستاذ العظم فشك فى صحة ما يروى من أخبار المجون، وقال إن الحقائق التاريخية ولا سيما فى تاريخ الإسلام تشبه الدرر الملقى بين الأشواك.. يحتاج مزيداً استخراجه إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك. والأستاذ - يريد طه حسين - يعرف ما عاناه رواة الأحاديث ونقله الأخبار النبوية فى تمحيص تلك الأخبار، وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ونحن نقرأ فى التاريخ وفى كتب القصاصين عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية وما نسب إلى آل على وآل العباس من افتراءات، فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة، ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد. وقد غالى بعض الإخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والإنغماس فى الشهوات مغالاة تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير، ولا أظننى مخطئاً إذ قلت إنما نقل من هذا القبيل تلفيق قصصى.. يراد به أحد أمرين، إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين.. كالرشيد والمأمون، وإما سد نهجات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة، على أنه

لوصح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل هذا العصر، لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون.

## ملحظ قوى

وقد لاحظ الأستاذ رفيق العظم أن الدكتور طه حسين قد أسرف في الاستشهاد بقصائد أبي نواس الماجنة دون أن يتطرق إليه الشك في شيء منها.. ولكن حين تعرض لما قاله ساعة احتضاره من شعر تائب يستغفر به ربه أخذ يشك في صحة هذا الشعر، وصدق نسبته إلى أبي نواس، فانتهر الأستاذ العظم هذه البادرة ليقول: إن الذى جوز للدكتور طه حسين أن يشك في صحة هذه القصة، يجوز له أن يشك في أكثر القصص والروايات التى نقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء المجون، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية، فلا يصح أن تتخذ مثلاً صادقاً لذلك العصر. وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لأنها أمثلة.. من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لاهزل، وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات من السنين.

## رد الدكتور طه حسين

وقد رد الدكتور طه على صاحبه رداً أعاد فيه ماسبق أن أبداه وقال: إن العالم الجليل رفيق بك العظم، وكثيراً من العلماء المعروفين فى الشرق يسبغون على التاريخ الإسلامى، صفة من الجلال

والتقديس الدينى تحول بن العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم ويصفونهم بجلال الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من .. قواعد البحث ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً ، إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد يليق بمكانه ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها ، وإنما المكانة .. هى المكانة التى خلعها عليه القدم ، وجلال الخلافة ، أما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، وأما النظر إلى الناس من حيث أنهم أناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم فذلك شىء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

ومضى الدكتور فى ما يشبه ذلك ليعلن تمسكه بصحة ما رواه من أنباء أبى نواس وغيره من الماجنين .

والحق أن مقاله الدكتور عن الأستاذ رفيق العظم وأمثاله مجانب للصواب فليس لأحد من الناس قداسة عند أحد ، إلا بما تحقق صدوره عنه من جليل المواقف وصادق الأعمال ، وقد كتب الأستاذ رفيق العظم كتابه الذائع 'أشهر مشاهير الإسلام .. فى أكثر من سبعمائة صفحة ، تتحدث عن أبى بكر وعمر وعثمان وأبى عبيدة وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عامر ، وعمرو بن العاص وغيرهم من أبطال الصحابة ، وهم أقدم سلفية من هارون الرشيد وأعرق سابقة فى أجداد الإسلام قلم يكن الأستاذ العظم فى حديثه التاريخى غافلاً عن إبداء الملاحظات

النقدية لما تختلف فيه وجهة النظر من الحكم على الأعمال . فالقول بأن الأستاذ العظيم ومن يسرون فى اتجاهه يخلعون قداسة على رجال التاريخ الماضى قول لا يؤيده الواقع المشاهد، ولكن هؤلاء المحققين يتشدون فى أحكامهم ولا يلتفتون إلى القصص المكذوبة ليتخذوا منها رواجاً صحفياً تتأثر به طائفة من الشباب، ترى فيما يعرض من شعر العبت رياءً لظمئها.. المتعطش! ولماذا لانجل صنفاً من الناس قد أثبتوا بأعمالهم الواقعية ما يبعث على الأكبار والإجلال، ألا نكون مجددين فى التأليف؟ ..

إلا إذا تنكرنا لصحف التاريخ الصادقة، وأخذنا نلهو بسير العابثين لالقول إنهم وحدهم العابثون . بل لنقول إنهم صورة صادقة لعصرهم الفسح بجميع طوائفه وطبقاته . لو قال الدكتور إن طائفة من شعراء العصر العباسى سلكت مسلك المجون واستهوت بعض الناس ما خالفه أحد ولكنه قال إن هذه الطائفة كانت تمثل روح العصر وتصوره أدق تصوير، وفى ذلك شطط مسرف ينكره الواقع الصريح .

## عود على بدء

لعلنا — إذا تبعنا مادار من النقاش — ندرك أن المجتمع العباسى كسائر المجتمعات الإنسانية كان يحفل بأنماط الخير والشر معاً، فإذا وجد به المتحللون من أمثال أبى نواس ومطيع وبشار.. فقد وجد به المؤمنون الملتزمون من أمثال الأوزاعى والثورى وابن المبارك وأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل، فمحاولة الاختصار على روايات أبى الفرج فى الأغانى وحدها دون نظر إلى كتب التراجم والطبقات



محاولة تعسفية . وإذا كان عصر هؤلاء المتحللين قد كان عصراً علمياً حضارياً زاهراً .. فبحال أن يكون كله هوأً صاحباً ومجنوناً عابثاً، وبحال أن يكون له هذا النفوذ القوى فى الدنيا جميعها، ولن يعصف بجده الملتزم هو جماعة من الشعراء بما ينسجون من أبيات المجنون ، فيردها الشباب فى مجالس اللهو، ويرويها أمثال أبى الفرج الأصبهاني فى كتب الأدب والمسامرات .



## شاعران سجینان

نحن الآن أمام شاعرين قذف بها فى غياهب السجن ، ورسفا فى القيود والأصفاد قدراً من الزمان ، فلجأ كلاهما إلى القريض يئسه وجده ، ويطارحه أساه!

والسجن رهيب موحش ، ترتعد له الفرائص ، وتقشعر منه الأبدان ، وكما يفزع الأسد المكبل فى قفصه الحديدى ، فكذلك يفزع الشجاع الصنديد حين يهاجمه الظلام فى بقعة لا يراوحها الهواء ، وأفرج منه الشاعر المرهف ، ذو العاطفة المشبوبة ، والوجدان المضطرم ، فهو من إحساسه فى عذاب أى عذاب! وانظر إلى الطائر الغريد يخطف من أيكته الملتفة ، ويحبس فى الأسلاك المتشابكة ، مقصوص الجناح ، ثم ابعث عليه الحشرات .

ولن نفكر اليوم فى سجوننا المستحدثة بالقرن العشرين ، فهما بولغ فى إبحاشها وتضييقها ، فهى نظيفة محترمة تدرج فيها الشمس ، ويمر بها النسيم ، وليست كالسجون العباسية التى حبس بها الشاعران اللهيان ، إذ كانت نقمة من نقم الله ، فهى لا تحتوى على منافذ أو مقاعد ، ولكنها فى الغالب سراديب متوغلة ممتدة فى أعماق الأرض ، يوضع فيها الأحياء كما يدفن الموتى فى اللحد وهى على ظلامها الدامس ، حافلة بما يخيف من الأفاعى والهوام ، وقد لا يجد السجين من المكان غير ما يسمح له فيه بالجلوس وحده! والويل له إن وقف أو سار! بل

قد يمكث السجين طيلة نهاره فلا يجيئه السجن غير دقيقة واحدة يقذف له بفتات الطعام وآسن الشراب، وهو مع ذلك يتلهف على لقائه، إذ هو رسول الأحياء إلى الأموات.

وقد قدر لعلى بن الجهم أن يكون نزيل السجون مدة طويلة فانقلب إلى الظلام الموحش، بعد أن نادى المتوكل فى قصر الخلافة أمداً طويلاً، ونهل من النعيم والمسرة مالا يقدر بثمن، وجلس على سباط السمرينال مالد وطاب، وتلك حياة أشبه بالأحلام!

لقد كان ابن الجهم خبيث اللسان، فاحش الهجاء، وقد تعددت وشايته إلى الخليفة بأصحابه حتى تيقن افتراءه ودسه فعاقبه بالسجن ليرتدع، ونزعه من أفواف البهجة ومطارف النعيم، ونظر الشاعر فإذا السنة السوء تلوك حديثه فى كل مكان، فتزبد عليه مايكابد من الغصص والأشجان. وقد استعطف المتوكل بقصائد باكية، فما ناله من قلبه المعرض أى منال، حتى توهم أن السجن قد أصبح مقره الدائم، أبد الحياة وأقوال الشامتين الساخرين تصل إليه فى معتقله فتمزق نياط قلبه وتغرق مسامعه فإذا يصنع لإسكات هؤلاء وقد صد عنه الخليفة أعنف صدود وأقساه؟ موقف محزن حقاً. وحالة تبعث الرحمة والإشفاق. وقد رأى ابن الجهم أن يظهر ارتياحه لحبسه، وقبوله إياه، فى شعر يبعث به إلى الشامتين ليقصروا ألسنتهم عنه، فنظم هذه القصيدة التى تعرض لها الآن، ذراً للرماد فى الآفاق، وتجلداً على نوائب الأيام.

ومضت الأيام وخرج الشاعر من السجن، وبقيت قصيدته عزاء يندى على المرزوثين بالسجون بعد ذاك، فكانت الأنشودة التى يترجم

بها هؤلاء المعذبون فى ظلماتهم القائمة .. ثم روى الدهر بعاصم بن محمد الكاتب العباسى إلى السجن فرأى من أهواله ما أقض المضجع ، وأضرم الشجون ، وقد كان يحفظ قصيدة ابن الجهم فرددها فى نفسه مرات ومرات ، وأيقن أنها لا يمكن أن تعبر عن عواطف السجناء ، فهى وإن حفلت بأساليب العزاء والإستسلام ، تجافى الواقع الصريح أعنف مجافاة ، فاندفع ينقضها بقصيدة تضع الحق فى نصابه أمام الناس . وهانئ أولاء نوازن بن القصيدتين . لنرى أى الشاعرين أصاب حظاً من التوفيق والإبداع . لقد كان ابن الجهم يعتقد أنه مقبل على أكاذيب فاضحة ، فهو يدافع عن قضية خاسرة لاتجد الناصر المعين ، ومن ذا يجذ السجون من العقلاء ؟ لذلك نجده يقمع عواطفه فلا يسمح لها بالظهور فى مطلع قصيدته ، ويستهدى بعقله الناصح فيهديه إلى غرائب التشبيه . وفى التشبيه مجال فسيح للتلفيق والتنميق ، حيث ينسى القارئ عادة ما بين المشبه والمشبه به من فروق ، وبلهيه وجه الشبه الواضح عما هناك من أبعاد ، وإذ ذاك يجد الشاعر الفرصة مواتية لما يريد أن يقنع به الناس .

إن الخيال الزاخر بالتشبيه ليخلق بابين الجهم فى أجوائه الشعرية فيرى السيف الصارم يغمد فى جراحه بعد التجريد ، ويلمح الليث الوائب يربض فى غيله الأشب فلا يتردد فى الآفاق كما تتردد صغار الوحوش ، ويشاهد البدر المتألق يحتجب وراء الظلام برهة محدودة ثم يمحى واضح القسمات . كما يعلم أن النار المضطربة تكن فى الحجر حتى يقدحها الزناد ، والرمح القاتل تتناوله الأكف بالثقيف وتلهيه النار حتى يستقيم ، فإذا ما حجب السجن بعد ذلك عن العيون ، فله فى السيف والليث والبدر والرمح والنار عزاء أى عزاء . وأى عيب

على الرجل إذا كان كالليث الصائل ، والنار المضطربة والسيف  
البتار.

وهذا منطق ، عجيب ، وأعجب منه أن يقنع الشاعر بوجهاته  
وسلامته فيأخذ بتلابيبه ليقول :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى	حبسى وأى مهند لا يغمد
أوما رأيت الليث بألف غيله	كيرا وأوباش السباع تردد
والبدريدركه الظلام فتنجلي	أيامه وكأنها تنجدد
والنار فى أحجارها مخبوءة	لانصطفى إن لم نثرها الأزند
والزاغبية لا يقيم كعوبها	إلا الثقاف وجذوة تنوقد

فهل رأيتم ما فعل التشبيه ؟ لقد كاد أن يجعل السجن أملاً باسماً  
تحلم به العيون فى غفلات الرقاد ، ولكنه لن يحو الواقع الأليم ،  
فالسجن جحيم لا يطاق .

إن عاصها الكاتب ليقراً الأبيات ثم يقرنها بما يكابده فى السجن  
من ويلات ، فيرى أن كلام ابن الجهم يحتاج إلى تصحيح صريح ،  
ولن يكون هذا إلا من شاعر قادر يدحض الحجة وقيم الدليل ، فن  
يكون ذاك ؟

لقد اعتمد ابن الجهم على التشبيه ، فليأته عاصم منه ، لينازله  
بسلاحه فى حلبة البيان ، وهنا يظهر الحق للعيان .

وسيقف القارئ على المناحة الصاخبة التى تولول فى أعماق  
عاصم حين يصرخ فى مطلع القصيدة بقوله :

قالوا حبست فقلت خطب أنك  
لو كنت كالسيف المهند لم يكن  
لو كنت كالليث المصور لما رعت  
تمضى الليالى لا أذوق لرقدة  
فى مطبق، فيه النهار مشاكل  
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد؟  
أنحى علىّ به الزمان المرصد  
وقت الكرهية والشدائد يغمد  
فى الذئاب وجذوتى تتوقد  
طعماً وكيف يذوق من لا يرقد  
للبل والظلمات فيه سرمد  
وإلى متى هذا البلاء مجدد؟

لك أن تقرأ هذه الأبيات مرة ثانية، فستجدها تخاطب الشعور  
وتتجه إلى الإحساس، فتلتاع لها العاطفة، وسر ذلك ما ترخر به من  
الصدق والإخلاص، إذ كان الخيال الذى خلق به ابن الجهم  
ضعيف المنّة، قصير الجناح، فالأسير الحبيس ليس كالسيف أو الليث  
فى شيء، وإلا فكيف يغمد السيف لدى الكرهية النائية، وما خلق  
إلا ليمزق الاشلاء، ويسفح الدماء؟ وكيف يفضى الليث عما ينوشه  
من الثعالب والذئاب، وهى التى ترهب سلطانه الجبار؟ هذا ما فطن  
إليه عاصم، فاندفع ينقض أبيات صاحبه ومعه الحق فى دعواه.

ولكن لِمَ لَمْ يستطرد الشاعر فينقض التشبه بالبدر والنار، كما  
نقض التشبه بالسيف والليث؟ وذلك حتم عليه فيما أرى، لأن الشاعر  
الناقض غير الشاعر المعارض، فإذا قنعنا من المعارض بالتصوير  
الكلى، فلن نرضى من الناقض بغير الاستقصاء والثبات، ومثل من  
يعارض فى شعر تقوله كمن يبنى قصراً جوار قصره، فهو لا يتقيد  
بأسلوبك ونظامك فى البناء، وما عليه إلا أن يحدث بناء تشرّب إليه  
الأعناق، أما الشاعر الناقض فلا يبنى بيتاً جوار بيت، ولكنه يهدم  
فى صرح مشيد، فعليه ألا يترك بعض المقاصر شاخصة للأبصار!

ولقد تحدث عاصم عن ظلام السجن وتشابه ليله بنهاره فتأفف من غياهبه السرمدية، وشقائه المؤكد، وهو كلام لن تجد نظيره عند صاحبه، لأن الأول نائر ناغم يذيع الفضائح والهفات، والثاني قانع راض يلتبس الحماد فى كل مجال.

ثم ماذا بعد ذاك ؟

لقد لجأ ابن الجهم إلى الأسلوب الخطابى فى تدليله، ولا عليه، فهو شاعر يستحث العاطفة ويخاطب الشعور، وقد وجد السجن يلزم حبسه كما يلزم الكرم بيته، ويزوره الناس فى غياهبه دون أن يزور أحداً فى رحابه، شأن العطاء المترفعين، فلم لاتحمد السجون على هذا التكريم العجيب!؟ ذلك رأى يعلنه ابن الجهم إذ يقول:

والحبس مالم نفشه لدنية      شنعاء، نعم المنزل المتردد  
بيت يحدد للكرم كرامة      ويزار فيه ولا يزور، وعمد

وهذا كلام مردود لا يقره عاصم؛ وقد شهد فى محبسه كل مذلة وهوان؛ ومتى استراح السجن لزواره؛ وهم ما بين شامت يبدى التوجع؛ ويضم السرور، وصديق يذرى الدموع؛ ويرسل الزفرات، وهذا كذاك؛ يوقد الشجى فى الضلوع، بزورته؟ وقد عرف عاصم ذلك فاندفع يقول:

ما الحبس إلا بيت كل مهانة      ومذلة ومكاره لاتنفد  
إن زارنى فيه العدو فشامت      يبدى التوجع تارة ويفند  
أو زارنى فيه المحب فوجع      يذرى الدموع بزفرة تتردد

وواضح أن ابن الجهم يعترف بهذه الحقيقة في أطواء نفسه ولكنه يلقى الأدلة الوهمية كبتاً للشامتين ، وغن نرفع قريحته حين نعلم أنه يتصيد المحامد للقفر الموحش ؛ وذلك مسلك وعر تتعر فيه القرائح الجياد ؛ أما صاحبه فيصف ما يرى في القفر الحديب من قسوة وجفاف ؛ فهو يسير مع التيار؛ ولا يقف في وجهه متحدباً العقبات والصعاب !

وقد تعجبت لعلى حين ينسى موقفه الدفاعى ، وتطفى عاطفته على عقله ، فيرجو الفرج القريب ، وبأمل الرخاء بعد الشدة :

فلكل حال معقب ولربما أجلى لك المكروه عما تحمد

قد تعجب لذلك منه وتأباه ، إذ أن المستريح في محبسه لا يجب أن يفوه بما يشير إلى الضجر والسخط ، ولكن الحق ظافر غالب ، وقد عجز الشاعر أن يتنكر لعواطفه إلى آخر الشوط ، فعمد إلى إرضائها والترويح عنها ، وهو بذلك يلتقى مع صاحبه عاصم في مأساة واحدة وخطب مشترك ، فلا مجال للمناقضة بعد ذلك ، وقد ذهباً معاً يتوسلان ويعتذران . عسى أن يصيبها حظ من الغفران . ولقد كان ابن الجهم بليغاً في اعتذاره ، متفوقاً على صاحبه ، فهو يدعو إلى النصفة والسداد ، ويود لو اجتمع في مجلس واحد مع خصومه أمام الخليفة ليدحض الحق بالباطل . إذ ليس من العدالة أن يتحكم الشاهد في الغائب فيوغر عليه الصدور ، وينهشه ما استطاع . اسمعه يقول :

أبلغ أمير المؤمنين ودونه      خوف العدا ومهامه لا تنفذ  
إن الذين رموا إليك بباطل      أعداء نعمتك التى لا تجحد  
شهدوا ؛ وغبنا عنهمو فتحكموا      فينا ؛ وليس كغائب من يشهد



لو يجمع الخصماء عندك مجلس يوماً؛ لبان لك الطريق الأرشد  
والشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفرقد

والبيت الأخير ممتاز رائع؛ وهو فوق إقناعه السديد يدل على  
ما يعتقده الشاعر فى نفسه من سمو وسموق، ونحن نستطرف قوله:

شهدوا، وغبنا عنهمو فتحكوا فينا، وليس كغائب من يشهد

إذ ينبىء عن الظلم الفادح الذى لحق الشاعر.. بابتعاده عن  
مقارعة الوشاة؛ وقد ذيل البيت بحكمة صادقة تضمن له البقاء.

أما عاصم فقد نهج نهجه فى الزلفى؛ وراح يتحدث لسيده معتذراً  
معاتباً ويحوم على أفكار صاحبه إذ يقول عن وليه:

غذيت حشاشة مهجتي بنوافل من سيبه وصنائع لاتجحد  
عشرون حولاً عشت تحت جناحه عيش الملوك وحاجتى تزيد  
فخلا العدو بموضعى فى قلبه فحشاه جراً ناره تتوقد  
فاغفر لعبدك ذنبه متطاولاً فالحد منك سجية لاتعهد

وهذه أبيات لا تقرن بالأبيات الأولى فهى خالية من القوة والتأثير،  
وإن رافقتها فى بعض المعانى فضلاً عن الغرض العام. ولست  
أستطيع كلمة الحدق فى البيت الأخير، فهى أبعد ما تكون عن  
المقام؛ إذ لا يليق أن يوصف بها إنسان يعتذر إليه ويتزلف عنده، هذا  
إلى القوافى المستكرهة التى ألصقت إلصاقاً بالأبيات.

ولن نختم الحديث عن المقطوعتين قبل أن نجعل الموازنة بينهما فى  
أسطر محدودة. فنقرر أن أسلوبها سلس رقيق، وأن عليها رغم وعورة

مسلكه؛ وتحديه لشعوره وعواطفه؛ قد هدى عاصماً إلى ما نظمه من  
المعانى، وفتح عليه بما لم يكن يخطر له على بال، كما ارتفع عنه حين  
سارا معاً فى الاعتذار والعتاب فجاء بما لم يتطاوّل إليه عاصم؛ وإن  
كنا نأخذ على الشاعرين معاً ضيق الأفق، وقصر النفس؛ وسداجة  
التفكير؛ رغم إتساع المجال؛ وفى ذلك بلاغ.



# مراسلات أدبية

## بين باحثة البادية والآنسة مى

شهد مطلع هذا القرن كاتبة مجيدة، أخذ نجمها يتألق فى الصحف المصرية ساطعا يرسل النور فى دفاء وحنان، وبشر شتى العواطف المتباينة فيما يخطط من أفكار تنحو منحى الإصلاح الإجتماعى للمرأة، إذا انطلقت الكاتبة الشابة ملك حفى ناصف الشهيرة بباحثة البادية تؤدى دورها الأدبى فى تفرد باهر جذب إليها الأنظار، إذ كانت تعالج هموم المرأة فى أسلوب نابض حى يهز أوتار القلوب ويعجب به المؤيد والمعارض معاً، فأخذت أقلام الكبار تؤيده وتطريه، وجعل أحمد لطفى السيد وأحمد شوقى و خليل مطران وأحمد زكى، وهم من صفوف المبدعين فى هذا العهد يرسلون شواردهم الهاتفة بنبوغ الباحثة، فاقتعدت مكانها الأدبى فى ميعة الصبا ونضارة الشباب .

ولم يكد العقد الثانى من هذا القرن يتنفس عن عامه الأول حتى تألق نجم جديد آخر فى سماء الصحافة المصرية، كان نجماً متعدد الأضواء يرسل أشعته الرقيقة فى شتى الأنحاء، حيث لم يقتصر ضوءه على الناحية الإجتماعية وحدها، ولكنه امتد إلى آفاق متعددة، فكتب فى الأدب والتاريخ والوجدان النفسى أعذب ما فتخر به العربية من آيات نسوية بارعة، وكان لهذا النجم الصاعد من الومض والرفيف والحبيوة والجمال ما جعل أثره خالبا جاذبا ذلك هو نجم الأدبية اللامعة ذات الصيت الرنان الآنسة مى .

## ( صداقة وطيدة )

ولم تنافس الغادة الغادة فتصطرعا فى عراك أدبى ، يصول به رأى على رأى ، استجابة لهوائف السبق المتفرد كما يحدث كثيراً بين من تمتلىء نفوسهم بحب الذات ، ولكن صفاء النفس الحساسة وأشواق الروح المترفعة ، ورحابة الصدر الحنون لدى الأديبتين الرقيقتين دفع بها إلى السلام فالمصافحة فالعناق فالامتزاج ، دفع بها إلى السلام حين أنس قلم إلى قلم فرأى صورة نفسه فيما يخط صاحبه ، وإلى المصافحة فالعناق حين سعت احدهما إلى الأخرى ظامئة متلهفة وإلى الامتزاج حين تكاشف القلبان عن أطهر الخلدجات ، وأعذب المشاعر ، فامتد الناظران إلى أفق فسيح تورده الأحلام الزاهية ، وتعطره الأنفاس الفواحة ، فهو على البعد مرفأ السابح ، وأبك الطائر النازح ، وكما دارت بينها المراسلات على أوراق الصحف ، امتد بينها السمر الأخرى فى حجرات اللقاء ، فرأت الفتاة النابغة أختها الواثبة ، تشعر بإحساسها ، وتنطق بلسانها ، وتسمعها صوتاً يحتبس فى قلبها ، وتردد فى أنفاسها ، ليعلن كيف تتلاقى الأرواح ، وتتاجى القلوب .

بدأت مى بالتعارف ، — وهذا مما يذكرها — إذ لم تتحمل وطأة الشوق الدافع ، فرأت أن تخرج به من سر الضلوع إلى فضاء البوح فكتبت مقالاً بديعاً يكشف هذا السر إلى صاحبة وحيه ، كما يصور وقع مقالاتها فى نفسها المتلهفة على الصداقة المرتقبة . فهى تقول انها ترغبت باسم ملك قبل أن تعرف شخصها فاتخذت منها عنواناً لنهضة المرأة المصرية ، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت فى الثناء على فضلها وتحت يديها منذ ثلاث سنوات مجموعة مقالاتها ، من يوم أن ارتفع فيه صوتها مرشداً هادياً .

تقول الآنسة مّى فى رسالتها الأولى إلى ملك : «بالأمس لمست نفسك ، وقرأت أفكارك ، فعثرت على جراح بليغة وددت تقيلها بشفتى وبروحى ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى على غير هدى ، ولم يكن ذلك إلا اجلالاً لصفحات قلبها وحبا لنفس استجوبتها وعرفتها ، فيا من ارتفع قلبها إلى فكرها ، وانحنى فكرها على قلبها ، لماذا تصمتين ؟ علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا مريض يعرفها . والمرأة بعة جنسها أدرى ، فهي تستطيع معالجتها ، ولدينا قلوب تحترق ولا ندرى أى نار تحرقها ، وتلتهب شظا بما لاتعرف ماهيته ، فعلينا يا باحثة البادية كيف نرشدها ونوجهها ، ولدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمه ، ورغبات حارة ، فارشدنا أى الأعشاب فاسد فنقتلعه ، وأياها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان » .

هذا بعض ماقلته مّى فى خطابها ، وكانت الباحثة حينئذ مريضة تشكو ألم الجسم ، وعذاب الروح معا ، وقد لاقت فى رسالة مّى ماخفف بعض الشىء من آلامها ، إذ رأت روحاً تهتف بها هتاف البصير المدرك ، وهمت أن ترد سريعاً ، فلم تستطع ، فأوصت أختها ( حنيفة ملك ناصف ) أن تكتب بضعة أسطر تعلن وصول الرسالة ، وتظهر جيل الشكر ، وتعد بالرد الشافى حين تبرأ الباحثة من سقامها وقد أذن الله بالشفاء فكان أول ما صنعت أن كتبت الرد الشاكر تقول فيه :

( رد الباحثة )

تلقيت رسالتك وكنت بين مغالب الموت ، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك ، كانت رسالتك عزاء جيلا لى فى مرضى

الطويل ، وبلسماً ملطفاً لجراحي البالغة ، آلامى آيتها الآنسة شديدة ، ولكنى أنقلها بتؤدة كأتى أأر أأمال الحديد ، فهل تدرين ياسيدتى ماهولى ؟ ليس لى - بأمد الله - ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، وليس لى حال سىء أشتكيه ، ولكن لى قلباً يذوب عطفاً واشفاقاً على من يستحق الرحمة ، وهذا علة شقائى وميعث آلامى ، أنى أأمل نفسى أعباء غيرها ، ولست بمسيطرة على هذا العالم ، ولكنى عاهدت نفسى على الأأخذ بيد المرأة ، وبعرز على أن أأألى عن هذا العهد .

ومضت ملك ناصف تصور جهادها الاجتماعى فى أسلوب صادق رقيق يكشف أسرار نفس بنبلة ، تضم فى لفائفها أنفس الجواهر ، وتحمل بين دمائها أعذب الأحاسيس .

## (مراسلات أخرى)

تأكدت كل كاتبة من منزلتها لدى صاحبها ، فكان ذلك مبعث هزة لطيفة يشعربها من يعتقد أن صوته يجد المستقر اللذيد فى أذن صديق ، نير العقل ، رقيق الوجدان ، وإذا كانت مى تميل إلى الأسلوب المترف الأنيق فإن تأثيرها اللاشعورى قد انتقل إلى أسلوب أختها الكبرى ، فصارت تعتمد الروعة الفنية اعتماداً فى أكثر مانكتب ، لأن المقالات الأولى للباحثة كانت تهدف إلى اللباب الجوهرى دون أن تعنى كثيراً بأنافة الثوب ، ورقة الغلالة ، إذ أن ميدان الحديث عن اصلاأ المرأة قد اتأة بالاسلوب إلى منحاه العلمى حواراً واستشهاداً ودفعاً ، على حين كانت مى تكتب فى مسائل الوجدان بأسلوب الشاعرة ذات الهمس الرقيق ، والخيال الحالم ! على

أن تأثيراً مقابلاً قد اتجه إلى يراع مى، حين أخذت تعالج بعض قضايا الفكر، فخفضت من طيرانها السابح فى الفضاء لتصل إلى الميدان بين ذوى النقاش المحتدم، والجدل المتصل! وهكذا اقتربت الكاتبان تقارباً أديباً حميداً، وقد تحدثت الباحثة فى بعض مقالاتها عن آلامها النفسية التى تساورها بن الحين والحين، حين تنظر إلى جهادها المتصل فتجد الطريق مديداً رحباً يحتاج إلى نضال لا تملك أسبابه، ويهوها أن يقصر خطوها عن الغاية فتشعر بلوعة اليأس، وتتمنى أن ترزق من القوة ما يطرد عنها ألمها النفسى لتواصل السير كما تريد. وقد بلغت بما كتبت فى هذا الصدد من شغاف مى مبلغاً كبيراً دفعها إلى أن تكتب لصاحبها مشجعة مقدرة، كما أعلنت ماتلمسه من صدى الباحثة القوى فى نفوس القارئ والقارئات إذ يتلهفون على مقالاتها هفة الظامىء إلى الماء الثمير!

### ( من خطاب مى )

تقول مى لصاحبها (أنى لأقبض على شجاعتى بيدى لأعترف بأنى أحب آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها، وأتمنى من أعماق فؤادى أن تجد هذه الآلام منفذاً رحباً إلى قلبك وأن يبقى ذلك القلب الكريم لينا يجرح لجرح الغرب، ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أيا كان، بالاختصار — عفوك — أتمنى لك العذاب المعنوى لأنه النار المقدسة! أجل هو النار التى تطهر، النار التى تحيى، النار التى تلين، النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى السامية والميول الرفيعة، والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطرباً! أنى أسر إليك

أمرأً وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالاتك لدى القراء ! رأيتم جميعاً يتقبلون أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الاعجاب ، وأن البذرة التى تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبله فى كيانها حياة الغد وعندما تخضر المروج بنضرة الرجاء تتماوج فوق حباتها نسمات الحياة )

## ( الساعة المفقودة )

فقدت الآنسة مى ساعتها الرشيقة الصغيرة ، فكتبت مقالاً رقيقاً يتحدث عن الغائبة العزيزة \_ فالساعة كما ترى الكاتبة \_ صورة مصغرة للكون ، مساحتها رمز الفضاء ، وحدودها حدود الزمان والمكان ، وثوانها دقات القلب ، إذ من الثوانى يتألف الزمان ، ومن نبضات القلب يتم نسج الحياة .

وبعد وصف شعرى رائع قالت الآنسة مى مخاطب الساعة الفقيدة :

« يا بنت أبيك الزمان ، إنه يشفق بنا ساعة اللقاء ، ويخوننا فى يوم الصفاء ، ويهجرك عند اللقاء فأنت غادرة خائنة هاجرة كأبيك الزمان » .

لما أفنت قلبى الوحدة ضغطت بك على ساعدى قائلة : أنت الصديقة التى لا تخون ، وقد كنت تعزيتى وكنت زمانى ، فما لك تهجريننى الآن ؟

إذا وقعت فى يد شرير ، وقصد استعمالك ليؤذى أخوا ، فانقلبى أفعى لساعة ، وأفرغى فيه سمك حتى يسقط قتيلًا .



## ( رسالة الباحثة )

قرأت ملك مقال الآنسة مى فى وصف ساعتها الفقيدة ، فكتبت إليها خطاباً رقيقاً تعلن فيه اعجابها بأدبها الرائع ، وتحليلها النفسى البارع ، ثم قالت مداعبة :

« أنى وجدت ساعتك المفقودة ، والتقطتها ، رأيتك ترثيها بحرقة ، فجئت لأمسح دموعك إذ أحب دائماً أن أمسح دموع المحزون فتعالى إلى لتأخذها وتستغفرها من وصفك اياها بالغدر وعدم الإحساس فانها أحست بشوقى إليك فأنت إلتى .

أنها تبث إلتى ما كنت تشكينه من العواطف والآلام ، عثرت على وعثرت عليها ، لنكفى قلبك شر الفناء من الوحدة ، ولنؤكد لك أنك وجدت الصديقة التى لا تخون» .

هكذا كانت الساعة الفقيدة وسيلة لزيارة مى للباحثة ، إذ دعته ملك فى لطف ودعابة ليتعارفا تعارفاً ذاتياً بعد أن تعانقتا روحياً ! وصادفت الدعوة موضع الإجابة من مى ، فخفت إلى لقاء صديقتها فى حلوان ، ووصفت خواطر اللقاء وصفاً بديعاً قالت فيه :

« ذهبت إليها والشفق يضرم ناره فى قلب الأفق ، والسحب قد انقلبت هنا هيبا ، وهنالك أنواراً ، وهنالك ألواناً ، أى نفس لا ترنح اغتباطاً أمام جلال الغروب ، والغروب فى مصر أبرع جالاً منه فى أى قطر آخر على أن اغتباطى بمنظره لم يكن ليلهنى عما ينتظرنى من جديد ، ولا ليحبس عن ذهنى أسئلة تتعاقب على فكر المرء قبيل

اجتماعه بشخص غريب، فإننا لانفك متسائلين على غير ارادة منا: ترى كيف هو؟ على أى قرار يوقع نغمة صوته وإلى أى الألوان يقرب لون عينيه، كيف يتسم ويتكلم ويتحرك؟ بل كيف يفكر؟ وعلى أى الأساليب تأتى أفكاره؟ أسئلة إنما تنحصر الجواب عنها فى النظرة الأولى التى يتبادلها الغريبان! لقد تم اللقاء وكانت الباحثة - كما وصفتها مى - تضحك بسهولة، وفى صوتها زنين كرنين أصوات الأطفال، تضحك كمن يضحك من قلب لم يخالطه معنى الكتابة، ولم تنزل بساحته وطأة الهموم وما أشد مايسر السامع بهذه الضحكة المملوءة طيبة وذكاء ولولا أن خيالات الفكر والكتابة تتماثل على جبهتها السمرء الجميلة لتساءل المرء: أهو فى حضرة امرأة ذاقت طعوم اللوعة والألم».

### ( محنة أليمة )

صدقت مى حين تحدثت عن ضحكات الباحثة فى مجلسها الأدبى، إذ لم تكن هذه الضحكات غير ستار لحزن أليم يقطع نياط قلبها، فهى تحاول أن تكتمه جهد المستطاع لتضفى على المجلس روحاً من البشاشة تنأى به عما يثير الكدر ومن أعنف ألوان الصراع النفسى أن يكتب الحزين أساه ليبدو مشرق الصفحة، ضاحك السن، أنه يعانى من آلام القهر، وضغوط الكتمان مايفتت أحشائه دون أن يقف على سره أحد، وهذا ماعاناه الأديب الكبير الأستاذ على الجارم حين قال:

وأشد الآلام أن تلزم الشجر ابتساماً والقلب رهن اكتتابه

لقد كانت باحثة البادية غير سعيدة فى منزل الزوجية ، إذ كانت وهى المتكلمة بلسان المرأة تعاني من ضروب البلاء ما يعصف بهدونها الآمن ، لقد خدعها زوجها أولاً حين تقدم إلى الأسرة على أنه غير متزوج ! ثم بنى بها وكان عقيماً لمرض انتابه فظن أن الباحثة مصدر العقم ، وتزوج ثالثة دون جدوى ، ولم يفسح لأسباب السعادة أن تجد منفذاً لزوجته ذات المشاعر النابضة بالحياة والتوثب فكابدت من عناء حياتها الخاصة ، ما زاد أعباءها الأدبية ، بل ما أوقد الشجون فجعلت تتمثل بلاء المرأة حين تصاب بمالا تستطيع دفعه ، ثم غلى الضغط على قلبها الرقيق فانفجر فى أزهى سنوات العمر بعد مرض لم يطل أمده ، فروعت الأمة بفقد كاتبها الأولى ، وسالت أنهار الصحف دامية تقطر دماً ، وامتد الشعور باللوعة امتداداً جازعاً عبر عنه حافظ إبراهيم حين قال فى رثاء باحثة البادية :

لا كان يومك يوم لا	ح الحزن مختلف الصور
علمت هاتفة القصور	نواح هاتفة الشجر
وتركت أتراب الصبا	حزناً يقطعن الشعر
يبكين عهدك فى الصبا	ح وفى المساء وفى السحر
لاوازع وقد انقضت	ملك يقين الضرر

وجزعت مئى على صديقتها ، فكتبت رثاءها الحار ، يوم رحيلها ، ونثرت دموعها فى حفلة الأربعين رائية مؤبنة ، ثم أصدرت عنها كتاباً خاصاً ، يحلل آراءها الإصلاحية ، ويصور جهودها الأدبية فأدت واجب الصداقة ، ولبت نداء الحب والوفاء .

## ( من رثاء مى للباحثة )

تقول الأنسة مى :

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتساماً كثفرتها، ولكن إذا  
أمن المرء النظر فى أعماقها وجد بعد الغور والكآبة المقيمة وراء  
الابتسام مما يرى فى عيني المزمعين على الرحيل العاجل، أولئك  
الذين لا تطول حياتهم أكثر من زهور الربيع فيذهبون تاركين الجو  
حولهم معطراً بالعبر.

لقد كان قلب الباحثة يتلظى مضطرباً، ولم تكن ألفاظها إلا شراً  
من وميضه، وبه اختبرت البيئة المصرية، وهالها ما شهدت من ذل  
وتعاسة فغمست قلبها فى مداد هو سيال من قلبها النارى، وكتبت  
فصولها الخالدات قطعاً متقدمة تدخل القلوب وتمتجج بها حتى تصير  
جزءاً منها يأبى التفرق والانفصال فوداعاً أيتها الراحلة، لئن نزل البلى  
بيدك الرطبة فإن الخلود نصيب ذكرك، فأنت الآن حيث النور  
الشامل، والجمال المقيم، هناك يحيط بك أمثالك من الأرواح الكبيرة  
فى دار جعلت مقراً أبدياً للذكاء والنبوغ.

وأنا التى عرفتك وأحببتك ترننى جاثية أمام قبر ضم جسمك  
الثمين وعاشت مى تذكر ملك كثيراً، ثم رحلت هى الأخرى بعد محنة  
قاسية لترفرف مع صديقتها حيث التقيا بعد غياب طويل.

## إمام العبد الشاعر البائس

يدور حديث الأدباء عن إمام فى خفوت وهمس ، فأنت تجد من يذكر له النكتة الرائعة ، أو البيت الجيد ، أو الحادثة الغريبة ، دون أن يتعدى ذلك . فإذا أردت من يلم بدقائق أخباره ، وينشد بعض أشعاره ، ويحلل مواقف الاجتماعية والأدبية أعوزك أن تهتدى إلى ضالتك المنشودة ، وخيل إليك أن إماماً شاعر قديماً نشأ منذ قرون بعيدة وسكتت عنه المراجع التاريخية ، فما جاد عليه أحد معاصريه بترجمة وافية تضمن لتاريخه البقاء ، مع أن شاعرنا البائس أديب معاصر ولا يزال يوجد بين أدبائنا من سامروه ، وحفظوا عنه وتندروا به ، ولكن برؤسه الذى صحبه فى حياته قد امتد إلى تاريخه ، فكاد يأتى عليه . والبؤس طاغية جبار ، يصول الأحياء فى عنف وطغيان ، فإذا لفظوا أنفاسهم بين يديه ، عدا على القبور ، فزق الأكفان وبعثر الأشلاء !

ولد إمام من عبيدين رقيقين قد جلبا من السودان ، وبيعا لبعض الأثرياء ، فورث عنها السواد والدمامة والبؤس ، ونشأ فى كنفها يقتات بما يتساقط من فتات الموائد وبقايا الصحاف ، ولكنه منح القوة فى الجسم ، والسداد فى المنطق ، والخفة فى الروح ، فكان رياضيا ممتازاً يصرع أقرانه لدى الصيال ، وشاعراً مطبوعاً يحتمكم فى القوافى والأوزان ، وخطيباً تعرفه الحفلات السياسية ، والأندية الإجتماعية ،

وسميراً يؤس سامعيه بالملحة النادرة ، والفكاهة العذبة ، وقل أن يجتمع هذا كله لإنسان !!

وكان لونه الأسود موضع التندر بين زملائه وعارفيه ، فقاسى من جرائه كثيراً من ألوان التهكم والاستخفاف ، وهذا ليس بمعجيب ، فقد ابتلى كثير من الأدباء قبله ببلواه ، فدافعوا عن أنفسهم أبلغ دفاع ، وحفظ لنا الأدب قلائد جميلة لنصيب وعنترة والجاحظ ، يلجمون بها من ينتقصونهم فى أمر لا يوجب النقيصة ، بل وجد فيهم من فضل السواد على البياض ، وديج فى ذلك الفصول الطوال !!

وكان حافظ إبراهيم - رحمه الله - أقسى المهكين لهجة ، وألدعهم ، سخرية ، وكانت فكاهته معه تأخذ طريقها إلى الألسنة فى سرعة فائقة ، فما يكاد شاعر النيل يرسل تندرته العابث بصاحبه ، حتى يتقدم إماماً فى كل مجلس يغشاه ، وطالما وقعت بين الشاعرين جفوات متقطعة لما يلوكة حافظ من حديث إمام ، ثم لاتبث السحب أن تنقشع ، لما بينها من صلوات جمع بينها الشعر والبؤس والفكاهة وأكدها صفاء النفس ، ونقاء الضمير ، وقد اشتهر إمام بالشاعرية قبل صديقه ، فكان حافظ فى صباه يعرض عليه ما يفيض به خاطره من بيان ، فيقوم إمام بصقله وتجويده وتركيبته ، ثم مضت الأيام فإذا شاعر النيل يطير بشعره فى آفاق الشرق العربى ، وإمام البؤساء لا يجد من يروى قصائده غير حفنة يسيرة لا يمكن أن تلحق برواة حافظ ، وينظر العبد إلى مكانه من صاحبه ، فيوسع عشاق حافظ لوماً وتسفيهاً ، كما يعلن أستاذه له فى كل ندوة يدور بها الحديث عن الشعر والشعراء ، وحافظ يرد عليه بنكاته العابثة ، وفكاهته الساخرة ! فينتصر عليه أى إنتصار !!

نظم إمام ... أبياتاً رائعة صادفت هوى فى الاسماع والقلوب ،  
وأذاعتها الصحف مقرظة مادحة ، وانتظر الشاعر من حافظ أن يوفىها  
قسطها من الاطراء والإعجاب ، ولكن شاعر النيل يصبح فى ندوة  
حافلة بالسماز والأدباء إن مثل إمام فى الشعر كمثل « بخيتة فى  
المطبخ ، إذا فى أفلحت هى تعمير « اللمة » شاع عنها بين أهل الحى  
كله أنها سيدة الإماء ، وكذلك يتلقى الناس أبيات إمام فيهللون له  
لأنه عمر « اللمة » بنجاح !!

والواقع أن حافظاً كان مريضاً بمعاناة إمام ، فهو لا يرحم بالسكوت  
عنه مهما بالغ فى التودد إليه ، وكان لا يقصر تندرته على قصائده  
وأبياته ، وهى أئمن ثروة يعتز بها الشاعر بل ينتقل إلى ملبسه ومأكله  
وهيئته ، فيوسعه سخرية وعبثاً ، لقيه ذات مرة يلبس « كرافته » سوداء  
فصاح به : « أقفل قميصك أيها العبد ، فصدرك الأسود يضجر  
الناس ! » . ووجده ذات مرة يكتب خطاباً ، والمداد يتساقط من قلمه  
فقال « جفف عرقك يا إمام » !! وأمثال هذه المأثورات الحافظية  
متداولة مشهورة ، وكان فى طوق إمام أن يؤدب صاحبه ، ببأسه  
وصرامته ، ولكنه كان فى بعض أحواله ينفق من جيبه ويقاسمه  
قروشه ومليماته مما يدعو إلى التسامح والإغضاء !

ولم يكن حافظ وحده يستغل سواد إمام فى تندرته وسخريته ، بل  
إن إماماً نفسه قد اتخذ منه مادة دسمة للحديث عن نفسه ، فهو لا يفتأ  
يردده فى قصائده وأزجاله ويستلهمه كثيراً من المعانى فإذا تحدث  
الشاعر عن بؤسه وفاقته دار حول سواده ودمايته ، وإذا لفحه الحب  
تذكر سواده الفاحم ، فانتزع منه الخواطر المشجية ، وهكذا يصبح

السواد مركب النقص لديه، يشعر به فى ألم ومرارة فيسلمه أزمة القوافى والأوزان.

إقرأ إن شئت مابقى من غزله، تجده يدور فى أكثر قصائده على مامنى به من حلوكة دامسة، وهو فى كل مقطوعة يبتكر ويجدد، فهو تارة يقع فى حوار مع معشوقته البيضاء، فيسألها أن تسدل الليل البهيم على بدر الدجى الساطع، فترفض فى إباء واستعلاء، وتتعجب من عبد أسود يطمع فى غرام غانية عزت على الأحرار البيض، فيجيبها بما يثبت حريته واستقلاله وبصور ذلك إذ يقول:

عذبنى القلب كما شئت ولا	تكثرى اللوم فثلى لا يلام
وأسدلى الليلى على بدر الدجى	فحديث الشوق يحلوفى الظلام
همت بالوصل فقالت عجبا	أها الشاعر ما هذا الهيام
لم ينل منا الرضا حرُّوما	رام منا سيد هذا المرام
أنت عبد والهوى أخبرنى	أن وصل العبد فى الحب حرام
قلت يا هذى أنا عبد الهوى	والهوى يحكم ما بين الأنام
وإذا ما كنت عبداً أسودا	فاعلمى أنى فتى حر الكلام

وهو تارة يعلن أن لونه لم يكن مسوداً قبل غرامه، ولكن هيب الشوق أحرقه فى قسوة فأحاله من البياض إلى السواد، ولك أن تتصور الجسم الأبيض وقد اشتعلت فيه النار حتى تركته فحمة سوداء.. وهو تعليل طريف مستملح، ولكنه إدعاء فكه تضحك من الشاعر إذ يصبح به:

كتمت فأقصانى وبحت فلا منى	فهاج غرامى بن سرى وإعلانى
وما كان لونى قبل حبك أسودا	ولكن هيب الشوق أحرق جثمانى



وكان الشعر لم يتسع ببحوره الضافية لعواطفه «السوداء» فنظم كثيراً من الأزجال المرحّة تحوم في مجموعها حول سواده ودمامته، وعشاق الزجل يعجبون ببراعته وخفته، ويشيدون بقصيدة «الزنجية الحسنة» وفيها يقول:

الناس لها مذهب في البيض	ومذهبي حب السودان
مرجان مقيم ببخيته	وبخيته مجنونة بمرجان
مين اللي قال الحب عذاب	ياناس وحق الله افتوني
الليل ومحبوبتي أصحاب	إزاي عواذلي يشوفوني

ونلاحظ ونحن نطالع غزله المرح، أنه كان مشبوب العاطفة، صادق الصبوة، فهو يغمرك بفيض من الإحساس الصادق، ونحن لانتظر من شاعر مثله أن يثب مع الخيال أبعد وثوب، فقد كان في عهد يقتصر فيه أكثر الشعراء على التعبير الفطري، والإحساس الأولي؛ دون جنوح إلى التأمل والاستغراق، بل إن إماماً قد سلم مما ارتطم فيه معاصروه من الجناس المستنكر، والطباق الثقيل، واندفع إلى التعبير عن خواطره في سلاسة ونصوع، وحسبك منه أن يسكر لسانك بجلاوة اللفظ، ويطرب سمعك بعذوبة النغم، في مثل قوله:

أرى لوعة بن الجوانح لانهدا	أهذا الذي سماه أهل الهوى وجدا
وما ذلك الواهي الحقوق بجاني	أهذا هو القلب الذي يحفظ العهد

أو يقول:

كان هذا الغرام يجري ورائي	في شبابي فصار يجري أمامي
إنما الحب كهرياء عيون	لعيون تسرى إلى الأجسام
ما خضعنا لدهرنا وهو ليث	وخضعنا لنظرة الآرام

أو يقول :

أقام الهوى عشرين حولاً بمهجتي      وسار، فن أوحى له برجع  
كأن الهوى ما أكرمه ربوعها      وصادف إكراماً له بربوعي

ورغم هذه المقطوعات الجياشة بالحنين إلى المرأة، المتشوفة إلى ظلالها الوارفة، قد قضى الشاعر حياته عزباً لم يتزوج، ولسنا نحارفي تعليل ذلك؛ فتكاليف الزواج مرهقة لا يحتملها شاعر معدم، تتلوى أعضاؤه في أكثر أوقاته جوعاً وسغباً، وتتحرق إلى مسكن ضئيل يقبه برد الشتاء وحر الهجير، وقد كان الأدب على عهده لا يغنى من جوع. أو يدفع من فاقة، بل يظل الأديب متردداً على الأندية والمقاهي دون أن يجد من يدفع به إلى باب يرتق منه، وكانت الصحف السياسية والأدبية من القلة بمنزلة لا تبيء لها النهوض بحملة الأقلام، وبخاصة إذا كانوا من طراز إمام ممن يتهاكون على الشراب تهالكاً يستنفد جميع مآلدهم من مال! وتلك حالة جديرة بالثناء حقاً!. وقد نظر إمام إلى الزواج ككارثة مروعة توجب اللوعة والحيرة، وصور للقراء ما يعقبه من تبعات ومصاعب، ونعرض هنا جانباً من أبياته في ذلك لنكشف عن بعض ما يتصوره من اضطراب وقلق إذا ارتطم بالزواج، وإن كنا نرجع باللائمة في هذه النظرة إلى سلوكه المضطرب، وتربيته العوجاء، وزمنه الجحود.

قال الشاعر:

أيا العاقل المهذب مهلاً      هل رأيت الزواج في الدهر سهلاً  
كل عام يزاحم الطفل طفل      ليتنى عشت طول عمري طفلاً

ذاك يحبو وذاك يمشى وهذى      فوق صدرى؛ وتلك تنشد بعلا  
ضاق صدرى من الزواج فن لى      بحياة الخصى قولاً وفعلأ  
كان هذا الشقى جسماً فلما      أنكهته الهموم أصبح ظلاً

وهكذا يثس الرجل من الزواج فلم يطرق بابه، وقد ادعى فى  
مقطوعة أخرى أن لديه مانعا يحول دون زفافه، فهو كالليل الحالك،  
وكل حسناء شمس منيرة، واجتماع الليل والشمس من ضرب  
المحال (١)، وهذا إدعاء خطابى، فلكل ساقطة لاقطة كما يقال:

وتسألنى عما نظمه إمام البؤساء مصوراً فاقته وعدمه؟ والحق أنه  
أسهب فى تبرمه وتوجعه لحالته، وكان يحز فى كبده أن يجوع وتأكّل  
الماشية. ويعرى وتكتسى الأضرحة، ولولا أنه كان يسرى عن نفسه  
بمجالس السمر ومطارج الفكاهة، لاحترق بما يشتعل فى صدره من  
جحيم، وقد كان ككل أديب بائس - يظن لديه من الحصافة والمرونة  
ما يؤهل له العيش الرغد، والنعيم الهنىء، فإذا صدمه الواقع المرير  
بالبؤس والمترية ثار على الوضع الحائر، وندب الحظ العائر، وتطلب  
المكانة التى يصورها له خياله. وإنها لبعيدة عنه أشد ابتعاد. وقد  
كان من القسوة الغليظة أن يلقيه الناس بالعبد وهو الأديب الحر  
العيوف، وماذا يصنع فى لقب ورثه عن أبيه، ولازمه كالظل فما ينفك  
عنه أبد الحياة، إنه ليقابله بالعتب المرير، ويصبح كالساخر العابت؟

نسبونى إلى العبيد مجازا      بعد فضلى واستشهدوا بسوادى  
ضاع قدرى فقمت أندب حظى      فسوادى على ثوب حداد

(١) قال إمام.

أنا ليل وكل حسناء شمس      فاجتماعى بها من المستحيل

وإذا كان السواد ثوب حداد على حظه الضائع ، فإنه فى موضع آخر حداد على قلمه الكاسد .. هذا الذى لا يجبر نفعا لصاحبه ، وهو أحرى أن يملأ يديه بالذهب النضار . لو عاش بين قوم يقدرون فضله ، ومحترمون مواهبه ، وقد تمنى الشاعر أن يكون قلمه سهماً مسدداً إلى فؤاده ، فيرجحه مما يكابد من عناء . وتلك أمنية ترمى الجوانح ، وتدمى الجفون ، ولكنها فى رأيه سبيل الخلاص . ومرفأ النجاة .

ها هو ذا يقول :

ودرت مع الزمان بغير زاد	لست لأجله ثوب الحداد
فبدفعنى إلى تلك الأبدى	أمد يدي إلى قلمي افتقارا
كما أبغى ويكتب فى فؤادى	فياليت اليراع يصير سهما
وضقت من الرشاد بلا رشاد	سئمت من الحياة بلا حياة
تسريل بالسواد على السواد	وكيف يهيم بالدنيا أديب
وإن شرب المياه فن مداد	إذا أكل الطعام فن تراب
فأفقرنى ليرضيه فسادى	كأن الدهر يغضبه صلاحى

أو يقول :

وما قتلتنى الحادثات وإنما	حياة الفتى فى غير موطنه قتل
وما أبقت الدنيا لنا من جسوننا	على بأسنا ما يستقيم به الظل

وكان الحظ قد سد أذنيه عن قلم إمام فلم يصغ لحظة واحدة ، إلى صرخاته الفاجعة . وما زال يتقلب على أشواك الحرمان حتى دهمته العلة بعد خمسين عاماً من عمره الجديب ، فطلما نفت بمداة السحر ، وشنف بصريره الاسماع ، فطفق يودعه فى حرقة وتلهف ، وينشد

الثناء الباكي الذي ناح به على نفسه وهو يكابد العلة القاتلة ،  
ويصاول الداء الفتاك ، ثم سبحت روحه إلى أفاقها الرحبية ، بعد أن  
ردد هذه الزفرات الأخيرة :

أراك على العهد المقدس باقيا	يراعى، لقد حان الفراق وربما
لبست على نفسى الدجنة ثانياً	لبست عليك الليل حزنا وليتنى
فلما رأيت صبرى مضت بشماليا	مضت بيمينى الحادثات جهالة
وفى القلب ما يفرى الحسام ايمانيا	وكيف يطيب العيش والدهر مدبر

\*\*\*

## عبد الحميد الديب كما أراه

كتبت بالرسالة (٩٥٨) مقالاً عن الشاعر البائس المرحوم محمد إمام العبد وقد خطر لى أن أتبعه بمقال عن زميله البائس عبد الحميد الديب — رحمه الله — ومازلت أترقب فرصة الحديث عن الشاعر حتى سنحت اليوم وقد لاحظت أن الرجلين متشابهان فى أكثر من وجه، فكلاهما بائس معدم ضيق الرزق ، يشتهى لحظوة والسعادة والجاه .

وكلا الرجلين شاعر ملهم يصوغ خواطره وأشجانه مستلهماً واقع حياته، وظروف معيشته، فتأتى قصائده حارة ملتاعة، تنطق بالكآبة، وتنسم باللوعة والقنوط .

وكلا الشاعرين — رغم فاقته المدقعة — كان مجالا للفكاهة والتندر، فتارة يبتدع النكتة المرحية ، والملحة العابثة ، وتارة تدور عليه القفشات الباردة ويتخذ منه أداة للترفيه، والترويح فى المجالس والمنتديات .

وكلا الشاعرين قد اضطر اضطراراً إلى التجارة بالشعر، فكان يكتب القصيدة فى أى موضوع يملى عليه، وبيعها إلى المتشاعرين نظير مبلغ خاص يرزق به، ثم تنشر فى الصحف بعد ذلك ممهورة باسم المشتري المحتال .

وكلا الرجلين - أخيراً - دميخ الحلقة، عبوس الوجه، ممزق الثوب يحمل رائييه على السخرية والعبث به، لولا ما يرفرف فى أضالعه من روح عذبة لطيفة، تبعث فى محضرها أنواعاً مرحة من الخفة والبشر والابتهاج .

نشأ إمام فى كنف عبيدين رقيقين، ونشأ عبد الحميد فى ظل أسرة متوسطة بإحدى قرى المنوفية، كان عائلها يتاجر فى القطن فأصاب ربها جزيلاً منه، ثم اجتاحه سوء الحظ فتحول إلى المتربة والإدقاع، وتقلب فتاه معه فى حالته، فرفل فى مطارف النعمة والسعادة حيناً، ثم احترق فى لهيب الفاقة والحرمان حيناً آخر. وقد كان هذا التناقض المفاجئ فى حياته ذا أثر هام فى شخصيته، فقد أورثه تناقضاً ملحوظاً فى طباعه، فكان سريع الغضب والرضا معاً، يضحك فجأة ويسخط فجأة، ويمدح ويشتم، ويتفائل ويتشاءم، ويعصى ويستغفر، كل هذا فى آن واحد ومجلس واحد، مما جعل أصدقاءه يتقبلونه وبألفونه دون أن يجدوا فيه موضعاً للمواخذة والعتاب .

وقد نشأ إمام العبد فى جيل لا ينجع الأدب والأدباء، فالأمية فاشية، والصحافة تسير بخطى متعثرة، والقراء هم الأدباء أنفسهم، إلا ماندر من الأغنياء والموظفين، لذلك سدت أمامه سبل العيش ولم يجد فى الشعر والأدب متجراً رابحاً يدر عليه الرزق والمال!! ولكن عبد الحميد نشأ فى جيل يختلف عن الجيل صاحبه، فقد كثر عشاق الأدب والصحافة، وأصبح الأدباء يرتزقون بشمرات أفكارهم، وأسلات أقلامهم . وهنا نجد أنفسنا نواجه سؤالاً هاماً عن عبد الحميد الديب:

أكان بائساً حقاً؟ أم أنه قد احترف البؤس احترافاً، وكان فى متناوله أن يصبح سعيداً محظوظاً، كأصدقائه من الكتاب والشعراء؟ لقد سمعنا كثيراً ممن يبيكون عبد الحميد، يتحسرون على شبابه الضائع فى أمة لا تقدر الأدب.. ولا تعترف بالمواهب، فهم ينحون باللائمة على مجتمع يهمل النابغين، ويحتقر المواهب والكفايات!!

سمعنا ذلك، وقرأناه مرات ومرات، ولكننا قرأنا بمجلة الرسالة (٦٩٦) رأياً آخر للكاتب الفاضل الأستاذ عباس خضر، يتهم به الشاعر باصطناع البؤس واحترافه، ويدفع عن مصر ما ينسب إليها — ظلماً — من إحتقار المواهب والنبوغ، وسنقل هنا خلاصة هذا الرأى الفريد، ثم نعقب عليه بما نراه؛ قال الاستاذ عباس خضر «إنما يأتى البؤس والحرمان من التعفف مع عدم القدرة على الارتزاق، وقد كان الديب على عكس من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف إذ كان من العفاة السائلين، وكثيراً ما هيئت له أسباب العمل، فقد وظف عدة مرات فى التدريس بمجالس المديریات، وطالما دعى إلى التحرير بالصحف والمجلات، فكان يبدأ العمل، وينقطع عنه بعد قليل، وفى بعض الأحيان كان يحتال لأخذ المرتب مقدماً ثم يذهب ولا يعود».

ويقول الكاتب الفاضل بعد كلام طويل يدور حول ذلك «وهذه هى الحقيقة فى حياة عبد الحميد كما يعرفها خطاؤه، لا كما يحلو لبعض الناس أن يصورها، فلم يكن البؤس يأتى إليه قدراً لا يد له فيه، وإنما كان يصنع البؤس صنعاً، كان يحصل على المال فيبذره تبذيراً فى أدنياء الوجوه، وأقذر البيئات، ثم يجوع ويعرى، بصنيعه، وكانت تعوزه الكرامة والعزة والإباء والعفة، ليكون بائساً حقيقياً،



وكان لا يتخرج من أى وسيلة للإستفادة المادية، ولا يتورع عن أى شتم، ولم ينج من هجوه أحد ممن عرف سواء أعطاه أم منعه، فعلى الناعين على هذا الوطن جحوده وأهماله النابغين من أبنائه أن يلتمسوا المثال فى غير عبد الحميد الديب، ويعفوا التاريخ من التزوير والتزييف» .

هذا هو رأى الأستاذ عباس خضر. ونحن نخرج منه بنتيجتين، أولاً أن المجتمع المصرى قد قدر الشاعر، وفتح له أبواب الرزق فسدها بيديه، وثانياً أن الدبب قد اصطنع البؤس اصطناعاً وكان فى مكنته أن ينعم بالمال والسعادة، لو سلك الطريق القويم .

ونحن نوافق على النتيجة الأولى، فنبرىء المجتمع المصرى من إحتقار المواهب ممثلة فى الديب، فقد مهد للشاعر سبيل الرزق، وأعد له الوظيفة اللائقة، ومنحه الزملاء والأدباء مايكفيه من المال لو اعتصم بالحكمة والسداد هذا حق لامرئ فيه، وعلى الناعين على الوطن إهماله وجحوده أن يلتمسوا المثال فى غير الديب كما يقول الأستاذ عباس — كأن يلتمسوه مثلاً فى إمام العبد، الذى نشأ فى غير جيل عبد الحميد، فكابد من الجوع والحرمان ما أورثه التعاسة والشقاء .

أما النتيجة الثانية، فسنخالف فيها الكاتب مخالفة صريحة، فقد كان الديب ملثاث العقل، لا يعى مايصنع، بل تضيق به نفسه، فيترك الوظيفة، ويهيم على وجهه دون أن يستمع إلى منطق أو تفكير سليم، وهذا الذى لا يملك زمام نفسه، بل يهوى به الشرود والذهول

إلى هوة مؤلة، فيمزق ثوبه وحذاءه، ويتراكم الغبار على رأسه  
 الأشعث، ووجهه الشاحب، وأسنانه الصفراء، ثم يرسل الضحكات  
 بلا مناسبة، ويرفع الصوت عالياً دون مبرر، ويبكى ويضحك فى آن  
 واحد، هذا الذى يفعل ذلك كله، لا يكون متمتعاً بقواه العقلية  
 كاملة تامة فيمتهن البؤس ويحترفه، وكل مايقال عنه أنه تائه شريد،  
 لايعى مصلحته، ولا يقدر نفعه، فهو - إذن - جدير بالرحمة  
 والإشفاق.

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً، وتخيرته عن روية وتفكير،  
 مادفع به الحظ التعس إلى مستشفى الأمراض العقلية. فيقضى شهوراً  
 مؤلة بين عالمه المزدهم بالمرورين والمجاذيب. ولكنه جن جنوناً  
 حقيقياً، فانحدر إلى هذا المهوى السحيق.

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً ما قضى شهوراً مريرة فى  
 السجن، تكتنفه الظلمات، وتنغشاه الغياهب، ويجاور السفلة من  
 المجرمين والأوغاد، ويقول عنهم فى حق وأسف:

بنو آدم من حولنا أم عقارب      لها فى الحشا قبل الجسم ديب  
 لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحاً      أفسر أحلاماً لهم وأصيب

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً، ما قطع الليالى الباردة فى  
 زمهرير الشتاء، هائماً فى الطرقات، تنفاذفه الشوارع والأزقة، وينهمر  
 المطر غزيراً فوق رأسه، وترتعش أضالعه، وتصطك أسنانه كالمرور،  
 ولا يدرى أين يذهب وملتجئ، حتى يسمع صوت المؤذن فى الفجر،  
 فيعلم أن المساجد قد فتحت أبوابها للتائبين، فيهرع إليها محتتماً بجدرانها

من السيول الدافقة، ويجد نفسه مدفوعاً إلى الصلاة بدون رغبة سابقة، فيقول:

إذا أذنوا للفجرت مسارعاً إلى مسجد فيه أصلى وأركع  
أصلى بوجدان المرائى وقلبه وبثست صلاة يحتويها التصنع

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً، مترك دار العلوم دون أن يتم سنواتها الدراسية، وقد كان قريباً من مؤهلها الذى يضمن له الهدوء والإستقرار، دون أن يتساقط على الفتات. لو كان الديب يصنع البؤس عامداً ما كابد هذه الشرور والأهوال، ولكنه ذو عقل ملثاث يدانيه من المخاطر، وباعده عن الأمن والاطمئنان، وأمثاله كثيرون ممن تضج بمآسهم الحياة ولا يجدون الراحة فى غير المقابر الحالكة، بعد أن يطوفوا طويلاً بالسجون والمستشفيات؟ أليس هو القائل:

جوارك ياربى لمثلنى راحة فخذنى الى النيران لاجنة الخلد

فماذا بعد الحنين إلى الموت والفرج من الحياة؟!

ولم يكن جنون الديب دائماً، بل كان متقطعاً يواتيه الفينة بعد الفينة، وبذلك استطاع أن ينظم الشعر الرائع، وأن يخلد ذكره بين الأدباء، كما خلد المجنون الأكبر قيس حديته بين العشاق.

وقد كان للشاعر حالات صحوه التى يرى فيها الدنيا بعين البقظ المتأمل وكأنه حينئذ يرقب ما أسلف من أقواله الهازئة وأعماله الساخرة، فيروعه أن يكون من الناس بمنزلة الشاكى الدليل المتكفف ويحاول أن يغير ما أشتهر عنه من الإنحدار والتهور، فيلبس الملبس

اللائق، ويجلس الجلسة المحتشمة وينشد أشعاره فى المثل العليا،  
 كمفكر فى هذا الوجود وبشر بالخير والفضيلة، وقد تغلو به هذه  
 الحالة إلى حد مضحك حيث ينسى واقعه المضى وما أفرط من  
 شكابة واتضاع، ويتصور نفسه إنساناً كريماً نبيلاً مترفعاً، يحصن كرامته  
 بالكبر والفضيلة، ويتستر بين الناس بالتجمل والتعفف، ويقول معبراً  
 عن تصوره الموهوم مخاطباً غرفة سكناه .

يا غرفتى ما عشت أحبوك الرضا	فلقد حجبت عن الورى أوصابى
ووقبتنى فى مدمعى وشكايتى	أذن اللئيم ونظرة المرتاب
قالوا استقام لك الزمان وإنما	أوهمت حسادى بلمع سراب
حصنت بالكبر العظيم كرامتى	وأنا النبيل الشهم بين صحابى
والناس إن لمحو الغنى فى كائن	رفعوه فوق مراتب ...

فهذه الأبيات حلم من أحلام اليقظة لدى الشاعر، إذ يعبر فيها  
 عن صفات يجبها ويتمنى أن يتصف بها بين الناس، فهى من هذه  
 الناحية صورة منعكسة لسخطه المرير على واقعه ومحاولة متعثرة للهروب  
 من حياة شائثة يراها تضرب عليه الأسداد الحالكة من شمال ويمين !  
 وهذا ما يوحى بأن المريض المضطرب كان فى حاجة إلى معالجة  
 نفسية طويلة ليستطيع أن يتخلص شيئاً فشيئاً من محيطه النفسى  
 الكريه . ولكن أصدقاءه .. كانوا ذاهلين عن حقيقة مشاعره الأصلية  
 وكأنهم رأوا فى اضطرابه المتقلب مادة للتندر والفكاهة، فحرصوا أن  
 يبدو أمامهم بشذوذه ومفاجأته ليظل موضع السمر والتندر . وهم إذا  
 قرعوا مثل هذه الأبيات المترفعة المتشوفة إلى عالم التعفف والتصون لم  
 يفتنوا إلى منزعها الأصيل فى التعبير عن أشواق مكظومة، وأحلام

بعيدة يحاول الشاعر أن يتخطى وحله الوبىء إلى أفقها الحالم ، بل رأوا فيها عنصراً آخر من عناصر الفكاهة لدى شاعر منحدر يقترب الموبقات ، ويرتكب المآثم ، ولا يرى فى مزاوله التسول انحذاراً يهون معه قدره لدى للناس ، ثم هو بعد ذلك يقول :

حصنت بالكبر العظيم كرامتى وأنا النبيل الشهم بين صحابى

وكان أخرى بهؤلاء أن يقفوا من صاحبهم الديق تجاه مأساة لاملهاة ، لو فهموا منزعه الأصيل .. ونحن لانستطيع أن نحكم على شعره حكماً صادقاً صريحاً ، لأن شاعريته تجلت فى أهاجيه المبررة اللاذعة ، وهى لم تنشر على الناس فى كتاب ، ولا يسمح من يحفظها من أصدقائه بتدوينها فى صحيفة أو كتاب ، لبشاعة ماتحمل من التجنى ، والاسفاف ، فكيف نحكم عليها وهى لاتزال فى طى الكتمان . على أنى قرأت كثيراً مما نظمته فى بؤسه وحرمانه ، فوجدته يتمتع بسلاسة اللفظ ووضوح المعنى ، وصدق العاطفة ، وكان يصور شجونه كما ترسم فى نفسه ، دون أن تتعمق به الفكرة أو يطير بجناحه الخيال ، بل يقتصر على الوصف الصادق ، لشعره المتألم ، وإحساسه الملتاع ، كأن يقول :

أفى غرفتى يارب أم أنا فى لحدى	ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد
فأهدأ أنفاسى تكاد تهدها	وأيسر لمسى فى بنايتها يردى
ترانى بها كل الأثاث ، فعطفى	فراش لنومى ، أو وقاء من البرد
أرى الثمل يخشى الناس إلا بأرضها	فأرجله أمضى من الصارم الهندى
نحملت فيها صبر أيوب فى الضنى	وذقت هزال الجوع أكثر من غانلى

أو يقول :

أرى الحوادث آسادا مقذفة      علىّ دون الورى تعدو وتقتتل  
فكم تصوح عودى بعد نصرته      وكم خبا فى دياجى عمرى الأمل  
كأن حظى رحيق الدهر يشرها      بكرا معتقة ، فالدهر بى ثمل  
إذا تطلبت عيشى مت من كمد      وإن تطلبت حينى يبعد الأجل  
جوعان ، يا محنة أربت على جلدى      كأن ليلى بيوم البعث متصل

أو يقول :

أذله الدهر لآمال ولا سكن      فنى تزيد على أنفاسه المحن  
إذا سعى فجميع الأرض قبله      وإن أقام فلا أهل ولا وطن  
مهاجر بين أقطار الأسى أبدا      كأنه بيد الأرزاء مرتهن  
كأنه حكمة المجنون يرسلها      بغير وعى ، فلا تصغى لها أذن

هذه بعض النفثات الحارة التى نفس بها الشاعر عن صدره ، وهى قريبة من نفثات إمام العبد التى نشرنا بعضها من قبل . والشاعران كما يلاحظ القارئ متماثلان فى الغرض والمعنى والصناعة ، ولكن بيئة إمام الشعرية لم تكن تسمح بالابتكار والتنوع ، كما سمحت بها بيئة الديب ، فقد وجد من شعراء عصره ونقاده ، عمالقة موهوبين ذهبوا بالشعر مذاهب مختلفة ، وفتحوا له آفاقاً رحبية . وطبيعى أن يتأثر بما يقرأ ويسمع ، لذلك نجد بجنح إلى الشعر التحليلى فى قصائده التى نشرها بالمقتطف ، كما يميل إلى الشعر القصصى فينظم منه قصيدته : «أحزان الأسد» ، «ووفاة القمر» وفيها طرافة وأناقة فى المعانى والأساليب . وقد وفق توفيقاً بارعاً فى قصيدته «غنى الجار» فجاءت

مثالاً جيلاً للتصوير الصادق ، الموشى بحلة زاهية من الأناقة والسلاسة .  
وقد تغلغل الشاعر إلى أعماق جارد الشحيح فرسم كبريائه وغروره ،  
وصور اشمئزازه المفتعل ، وتعاليه الوضع ، وأضفى على أولاده من  
البهجة والأنس أفواهاً ناضرة ، ثم انحدر به إلى أسفل دركات  
الإنسانية .. حين جعله يجنو ذليلاً ضارعاً ، أمام دربهات حقيرة ،  
يستلها من جيب مفلس محتاج وقد بلغت خطراته الشعرية من الجودة  
مبلغاً رائعاً ، وهي جديرة بأن تكون ختاماً طيباً لهذا المقال ، قال :

على القرب منى كنز قارون مائلا	ولما أنل منه سوى حرقة اليأس
تكبر فالألفاظ منه إشارة	كأن عباد الله طرا من الخرس <sup>(١)</sup>
وإن نطق الفصحى فن طرف أنفه	كنفخة ذى جاه رفيع من الفرس
له أسرة كالروض زهرا صوادحاً	فن شامها ألفى ملائك فردوس
بنون بنات كالورود ملابسا	يمرون كالاصباح معتدل الطقس
يمر على سكنائى فى ذيل بيته	مرور عيون الموسرين على الفلس
صحوت على قصف الرياح وصوته	وما أحدث الطرق الشديد من الجرس
بطالبنى بالأجر فى غيظ بائع	تصيده المحتال بالثمن البخس
وأسمعته صوت الدراهم فانحنى	يقدم أعذار اليهود من الوكس
وأخضع فقرى كبره وثرءاءه	وأى غنى للحر غير غنى النفس

---

(١) ألفت القراء إلى جال التصوير فى هذا البيت .

# الدكتور عبد الكريم جرمانوس شرقى لا مستشرق

يشعر قارئ المرحوم الدكتور عبد الكريم جرمانوس أنه مع كاتب شرقي لامع مستشرق مجرى، لأن الرجل الكبير منذ سعد بالإسلام أخذ يحس بإحساس الشرقي المسلم، فهو يكتب بروح الحب الخالص عن ثقافة العرب وقفة الشريعة وكتاب الإسلام وباحثه حتى لتجده يتلمس شتى التبريرات قبل أن يؤاخذ، من يستحق النقد الصارم من مفكرى الشرق وأدبائه وشعرائه. وكنت أحس فى أعماقى أن نزعة الفن فى روح جرمانوس أقوى من نزعة العلم فى عقله، وذلك حين أجد بين سطوره رفرة مجنحة، وتصويراً موحياً، لا يكونان لغير شاعر موهوب! ويزداد هذا الإحساس عمقاً لدى حين أطالع ما كتبه فى مولفه الخالد (الله أكبر)، حيث سجل قصة إسلامه بالهند، وطلبه العلم بالأزهر وطوافه بالبيت فى مكة بأسلوب لا ينقصه غير الوزن والقافية حتى يكون شعراً نابضاً، وكدت أشعر أن جرمانوس عاشق عذرى، إذ أطالع ذكرياته، فهو يتحدث عن أمور وجدانية شديدة الوهج تتصل بسواه، ولكن من يتعمق إيجاءها الخاطف يشعر أن المتحدث عاشق هو الآخر، لأن الذى يبدع حديث الصباية هذا الإبداع، إنما بنفس عن ذات نفسه حين يتحدث عن سواه، بل إنه ما كان ليطلق هذا الحديث إلا ليخفف أوارا يلتهب بين جوانحه، ويتطلب الذبوع الملتح ولو بغير طريقه المباشر، وما ظنك بحاج يتحدث



عن عرفات والصفاء والمرورة ومنى والكعبة ، ثم ينتقل طائراً ليسجل مشاهد وجدانية عرفها عند من آنسوا صحبتها وأكرموا وفادته من سراة المكين ، وما تسجله « فوتوغرافيا » يرسم المشهد الظاهري وحده ، ولكنه كان تسجيل من يتغلغل إلى أدق الخوالج محلا ، راصداً مكان اللوعة من الجرح الناغر ، والقلب الملتاع .

## فى فندق سميراميس

وقد اعتاد جرمانوس أن يشرفنى بلقائه حين يزور القاهرة منذ تشرفت بصداقته ، والرجل محدث بارع ينتقل من خاطرة إلى خاطرة كما ينتقل الطائر من غصن إلى غصن ، ومثله فى ثقافته المتشعبة ، ووجدانه الحساس وعمره المديد ورحلاته الكثيرة ، يجد من مشهيات الحديث ما يمتع جليسه مهما امتد الزمان ، لذلك كنت أؤثر الاستماع إليه بحيث لا أتكلم إلا حين تتحتم الإجابة ، ولخبر لى أن أقتنص المفيد من الحديث من أن أقف عائقا دون الاسترسال . وكنت أتمنى أن ينطرق صاحبه إلى ذات نفسه ، فيتحدث عما ظننته من صبوته اللاهفة حتى جاءت المناسبة دون تمهيد ! والله يعلم تلهفى الزائد على اجتلاء شغاف الرجل ، وما يستكن فى لفائفها من أسرار ، فأتاح لى أن أبلغ منى سهلاً ذلولاً ، دون أن أطلب ما عساه يخرج صاحبه من استفسار ، وكأن الثمرة قد سقطت تلقائياً من غصنها العلوى دون أن تمتد إليها يد سقطت بفعل الجاذبية وحدها ، لا أنسى مجلسى معه فى ( سميراميس ) قبيل الغروب فى الردهة الواسعة بالدور الأول ، وكان الرجل الكبير يسبح فى حديث رائع عن مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وقد دعى إليه إذ

أنه عضو مراسل عن المجر، كان الرجل يفيض فى حديثه حين دخلت فتاة عربية تضع الخمار على وجهها بحيث لم يبد غير عينيها الواسعتين ، وكان ثوبها الحريرى الأسود يظهر قوامها الرشيق فى أجل مظهر، وقد عبرت أمامنا ففاح عطرها ساطعاً جاذباً، حتى لكأن الردهة قد تحولت إلى روضة وارفة وورود، وأخذت طريقها إلى السلم فى إيقاع مطرب رنح عطفى صاحبى! فوجدته ينهض واقفاً، ثم ينظر مشدوهاً، ويجلس فيما يكاد يستقر حتى يرمى ببصره إلى السلم . ويقول :

شبهتها والله!! شبهتها والله!! لكأنها هى بينها! شبهتها والله!! ونظر إلى وقد اكتسى وجهه بجمرة ساطعة كادت تعيد إليه شبابه وهو — حينئذ فوق الثمانين — ثم جعل يدور بعينه ويقول: ليست إياها! ولكنها شبهتها فحسب!

كانت هذه الحركات المضطربة، والنظرات الحائرة موضع العجب منى، وقد آنست بين ألفاظه ماشجنى على أن أسأله فى حياء .

— أتقول شبهتها! فن هى؟ ففاجأنى جرمانوس بقول:  
— حبيبتي القاهرية! لقد كدت أموت غراماً بها! رأيتها عند استاذى الشيخ، وتكررت رؤيتى بها، وأظنها بادلتنى الحب! ثم حرمت منها! لقد كتب الأستاذ محمود تيمور قصة غرامى بها! ابحت عنها، وستجدها فى إحدى مجموعاته القصصية! ستعرف كل شىء!

ولم أجد من اللياقة أن ألح على صاحبى فأطلب المزيد بعد أن أحال على تيمور، فتشعب الحديث إلى موضوع آخر. وقد صممت أن أعرف السر لدى القصصى الكبير.

## استقصاء وفحص

أخذت أجمع مؤلفات تيمور، وأقرأها منتقياً لأجد قصة جرمانوس ، فلم أوفق إلى ما أريد، ثم راسلت صديقي العزيز الأستاذ نقولا يوسف ، وهو صديق تيمور وجرمانوس معاً، فلم أظفر لديه بما يغنى، حتى كدت أياس، ولكنني اطلعت مصادفة على مجلة (قافلة الزيت عدد ذى القعدة ١٣٨٩ هـ) فرأيت لمحمود تيمور مقالاً رائعاً بديعاً تحت عنوان (الدكتور عبد الكريم جرمانوس عاشق الشرق والعروبة والإسلام). وقد أجاد القاص الكبير وصف صاحبه وكان مما قاله عنه: «جرمانوس شخصية فذة باللغة الظرافة، في إهابها تتلاقى ألوان مختلفة، فتصوغ منها مزاجاً لا يتوافر إلا للأقلى، إنه نموذج الرجل (الجنّتلمان)، فهو محبب إلى الأندية الرفيعة، والمجالس الأنيسة، بما يحف به من ظرف ولطف ولباقة، وهو حليف درس وبحث وإكباب على المطالعة، وقدرة فائقة على اكتساب اللغات، وامتصاص ماتفهو إليه نفسه فيها من معارف وهو قبل ذلك وبعد، رجل جوابة مطواف في أعماقه هوى الرحلة والطموح والمغامرة، لا يقنع في ترحاله بالسفرة الخاطفة، والمرور العابر كما يصنع السواح، ولكنه يقيم إقامة رواد الكشف والتنقيب وطلاب التعرف والاستقصاء، فهو ابن بطوطة، أو سندباد العصر، ومن ثم أصبح معلمة جغرافية اجتماعية للجوانب البارزة، في الدنيا عامة، وفي الشرق خاصة،

بدأ حياته محباً للموسيقى وعازفاً للكان، وهواه للموسيقى أرفه من حسه، وأذكى من خياله، فصاحب ذلك كفاحه الدراسي فجمع بين العلم والأدب، بين الطاعة لنداء العقل والانجذاب إلى هتاف

الروح، بين الارتباط بالواقعية الكادحة، والتطلع إلى الرومانسية الحاملة» .

وهذا رائع من تيمور... ولكن الأروع منه لدى أن يذكر فى هذا المقال أنه استوحى من جرمانوس موضوع قصة سماها «المستعين بالله» قصة جوال سائح يأتى إلى القاهرة فيسكن حى الحسين، ويلتحف بعباءته البيضاء حين يطوف بالحنى فى ملابسه العربية الفضفاضة، حريصاً على أن يصلى الفجر بالمسجد، وأن يترشف صوت المؤذن فى سكون الليل!

وإذن فقد عرف عنوان القصة وهو «المستعين بالله» وعلينا أن نبحث .

### خلف اللثام

أعدت البحث ثانية فى المجموعات القصصية للكاتب الكبير، وقد وجدت طلبتى فى المجموعة التى سماها «خلف اللثام» إذ جاءت القصة الثالثة تحت عنوان: (المستعين بالله، الكاتب هاردى). ولكيلا يتم القصص عن صاحبه نعمة تامة، فقد جعل بطل القصة ضابطاً بالجيش الانجليزى، فهو إذن ليس مستشرقاً مجرباً! ولكنه فيما عدا ذلك فحسب، هو الدكتور جرمانوس بعظمه ولحمه ودمه وقلبه وحيه! كان جرمانوس يسكن بحى الحسين وكان يطلب العلم بالأزهر، ويصاحب شيخاً كبير السن من علمائه.. يقرأ عليه قواعد اللغة العربية، وكتب التاريخ والتشريع، والأدب وله مجلس يومية فى دار الشيخ الأزهرى! وهى دار عتيقة ذات طابع تقليدى إذ يشد الخادم الحبل من الطابق

الثانى فيفتح الباب ، ويدخل الضيف صاعداً أعلى السلم ، حيث يسلم على شيخ فى السبعين من عمره هو أستاذ اللغة العربية ، ومن العجائب أنه فى شيخوخته الواهنة ، تزوج فتاة حسناء دون العشرين ، هام بها الطالب المجرى هياماً صامتاً ، وقد شغل نفسه برسمها فى لوحة دفعها إلى مكان عزيز فى غرفته التى يقول عنها تيمور:

« جعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ما حوت ، ف وقعت عيني على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوى ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هما عينان دعجوان ينبسط تحتها خمار أسود رقيق النسيج يكاد يشف عن ملامح وسمات ، فنهضت إلى الرسم أتوسمه ملياً ، وقد خلبتنى هاتان العينان بجورهما الساحر واهدأها الوطاف » .

هذه هى الصورة ، ولابد للفنان المصرى من رؤية الأصل ، وقد لاحق صاحبه استفساراً وملاطفة واحتياجاً حتى صحبه إلى منزل الاستاذ ذات مساء ، فماذا وجد ؟

لقد سطر تيمور بعض ذكرياته ، هناك حين قال : كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الفبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذى لا يترايل عنه مهما جت من أحداث ، ومهما تعاقب من أجواء ، ولانكاد نطمئن من مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزليتين صائحاً بصوته المختق . القهوة يانور!

وماهى إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية ، وموقد يتوهج فيه الجمر ، وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كئيب من الشيخ ، وتبدأ فى صب القهوة ، وتقديم

الأقداح مرة بعد مرة، وهى سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية .

وتوالت الزيارات!! تيمور للإستطلاع ، وجرمانوس للتعلم ظاهراً أو للإحتراق باطناً، وقد آثر التلميذ العاشق أن يشرح له أستاذه الشيخ شعر العباس بن الأحنف! ..

فاستجاب الرجل :

يقول تيمور:

«وانطلق الشيخ ينشد شارحاً، مستشهداً بمقطعات دقيقة من شعر صاحب فوز، فكنا نسمع مأخوذ من الطلاوة حديثه، ودقة بحثه، وبينما نحن فى نشوة السماع، إذ أحسست حفيف ثوب، فأرسلت بصرى.. نحو مصدر الحفيف، فطالعتنى على الفور عينان دعجوان تحتها لثام أسود هفهاف، فشعرت بهزة تنتظمنى، وألقيتني اختلس النظر إلى الكاتب [يريد التلميذ جرمانوس] فوجدته مطاطيء الرأس، يعبث بأطراف عباءته، وقصدت نور العين مجلسها عن كئيب، ووضعت الصينية بابريقها وأقداحها وجرتها يتطاير منها عبق البخور، ثم شرعت تصب القهوة، وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح، والشيخ ماض فى حديث العباس بن الأحنف، ينشد من غزله وهو يتابع أنفاسه فى جهد. وكنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجائين اللتين يخفق دونها الخمار الهفهاف فيخيل إلّى أنها عينان معلقتان فى الفضاء لا يتصل بها وجه ولا جسد، نبعان عميقان، يزخران بالأسرار الغامضة وفيضان بالاحلام العذاب ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكاتبين، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً

فى جلسته ، يعتمد ذقنه ببديه فى إطراق ، وكأنه فى غيبوبة روحية  
يهيم فى آفاق مترامية هذه إذن فتاة جرمانوس ! لقد كان حبه عذرياً !  
حيث اكتفى برسمها دون أن يبوح بشيء ! وقد ذكر تيمور فى خاتمة  
قصته أن صديقه قد مرض فجأة ونقل إلى المستشفى فى حالة  
مزعجة ، ورأى الصديق من واجبه أن يسهر على عناية المريض ليالى  
ذات عدد ، حتى إذا كاد يتمائل إلى الشفاء ، شاهد تيمور شيئاً تحت  
وسادته قد يده إليه ، فوجده صورة « نور العين » ، إذ أصر المريض  
وحرص على أن تكون بجانبه على سرير المرض ، وحين رأى الصورة  
أخذها من يد تيمور ، ووضعها على قلبه مستروحاً منتشياً !!

تلك هى قصة جرمانوس العاشق ! قرأتها فى مجموعة « خلف  
اللثام » . فعرفت لماذا اضطرب قلب الشيخ الكبير فى ردهة الفندق .



## فهرس

الموضوع	الصفحة
الهجرة النبوية والشيخ الأعرابي	٧
حافظ ابراهيم امير الدعاية	١٩
محمد عبده بين امتحانين	٣٠
مساجد مضطهدة	٤١
عمر بن الخطاب أديبا	٥٠
يأتلقون على صفحات الهلال	٦٠
شاعر يودع الحياة في صمت	٧٢
الطائرة في خيال العربي القديم	٨٩
بين حفني ناصف وحافظ ابراهيم	٩٩
العجرتحب الموسيقى والسحر	١٠٧
شاعرة هندية مسلمة	١١٤
من غزل المرأة قديما	١٢٢
نابليون بونابرت والتاريخ العباسي	١٣٥
عثمان زناتي شاعر مجهول	١٤٥
أوليات الشعر الحلمنتيشي	١٥٤
نخلنا حلوان	١٦٥
مصطفى كامل والجامعة المصرية	١٧٢



أدبية فرنسية تناصر الشرق .....	١٨٢
بين المازني و طه حسين .....	١٩٢
أديب يتعاضم .....	٢١٢
أحمد محرم يرثي والدته .....	٢٢٢
الحب بعد فوات الشباب .....	٢٣١
غلام صغير بالصعيد يستقبل سفيرا .....	٢٤١
أبو نواس يحج .....	٢٥٢
مروءة عبده الحمولي .....	٢٦٠
حسين فوزي والسندباد .....	٢٦٨
علي الجارم يرثي ولده .....	٢٧٩
جميل الزهاوي وأدباء مصر .....	٢٨٨
من نوادر التصحيف .....	٣٠١
أمجرم أم تائر .....	٣١١
الامبراطورة أوجيني بين حافظ ومطران .....	٣٢١
خواطر عن طاهر الطناحي .....	٣٣١
محاكمة قضائية لشاعر معاصر .....	٣٤٣
الشعر العباسي بين رفيق العظم و طه حسين .....	٣٥٣
شاعران سجينان .....	٣٦٢
مراسلات أدبية بين باحثة البادية ومي .....	٣٧١
إمام العبد الشاعر البائس .....	٣٨١
عبد الحميد الديب كما أراه .....	٣٩٠
عبد الكريم جرمانوس .....	٤٠٠



## من إصدارات

### النادي الأدبي الثقافي بجدة

- ١- قم الأولب «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٢- الساحر العظيم «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٣- عكاظ الجديدة «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٤- الشاطيء والسراة «شعر» للأستاذ محمود عارف - ضم إلى مجموعة الشاعر الشعرية.
- ٥- من شعر الثورة الفلسطينية «شعر» للأستاذ أحمد يوسف الريماوى - (نفد).
- ٦- أنين وحنين «شعر شعبي» للأستاذ منصور بن سلطان - (طبع).
- ٧- محرر الرقيق «سليمان بن عبد الملك دراسة للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).
- ٨- من وحي الرسالة الخالدة «إسلاميات» محمد على قدس - (طبع).
- ٩- المنتجع الفسيح «آداب وعلوم» للأستاذ محمد حسن عواد - (نفد).

- ١٠- طبيب العائلة - د. حسن يوسف نصيف - (نقد).
- ١١- مذكرات طالب (ط ٣) د. حسن يوسف نصيف - (نقد).
- ١٢- شمعة على الدرب «نثر» للدكتور عارف قياسية - (طبع).
- ١٣- أطياف العذارى - «شعر» للشاعر الأستاذ مطلق الذيابي - (طبع).
- ١٤- كبوات البراع «تصويبات لغوية» للشيخ أبي تراب الظاهري - (طبع).
- ١٥- عندما يورق الصخر «شعر» - للأستاذ ياسر فتوى - (طبع).
- ١٦- ورد وشوك «مطالعات» للأستاذ حسن عبدالله القرشي - (طبع).
- ١٧- في معترك الحياة «مجموعة آراء» - للأستاذ عبد الفتاح أبو مدين - (طبع).
- ١٨- المجموعة الشعرية للأستاذ محمد إبراهيم جدع - (طبعت).
- ١٩- الوجيز في المبادئ السياسية في الإسلام «نظريات إسلامية» للأستاذ سعدي أبوجيب - (طبع).

٢٠- أوهام الكتاب «تعبات مختلفة» - للشيخ  
أبى تراب الظاهرى - (طبع).

٢١- على أحمد باكثير حياته وشعره الوطنى  
والإسلامى - دراسة للدكتور أحمد السومعى -  
(طبع).

٢٢- نغم وألم «شعر» - الشريف منصور بن  
سلطان - (طبع).

٢٣- الكلب والحضارة «قصص من البيئة» للأستاذ  
عاشق الهذال - (طبع).

٢٤- شواهد القرآن - للشيخ أبى تراب الظاهرى -  
(طبع).

٢٥- التشكيل الصوتى فى اللغة العربية - للدكتور  
سلمان العانى - (طبع).

٢٦- أريد عمراً رائعاً - «شعر» - للشاعر عبدالله  
جبر - (طبع).

٢٧- ترانيم الليل «المجموعة الشعرية الكاملة» للشاعر  
الأستاذ محمود عارف - (طبع).

٢٨- حروف على أفق الأصيل - «شعر» للأستاذ  
حمد الزيد - (طبع).

٢٩- من أدب جنوب الجزيرة - «دراسة» -  
للأستاذ محمد بن أحمد عيسى العقيلى -

(طبع) Twitter: @abdulllah1994

٣٠- غناء الشادى - «شعر» - للشاعر الأستاذ  
مطلق الذيابى - (طبع).

٣١- الذيابى تاريخ وذكريات إعداد الشريف منصور  
بن سلطان - (طبع).

٣٢- محاضرات النادى «القسم الأول» - (طبع).

٣٣- محاضرات النادى «القسم الثانى» - (طبع).

٣٤- محاضرات النادى «القسم الثالث» - (طبع).

٣٥- المتنبى شاعر مكارم الأخلاق للأستاذ أحمد بن  
محمد الشامى - (طبع).

٣٦- هموم صغيرة - «أقاصيص» للأستاذ محمد على  
قدس - (طبع).

٣٧- أمواج وأنباج «دراسة أدبية» - للأستاذ  
عبد الفتاح أبو مدين - طبع (الطبعة الثانية).

٣٨- الخطيئة والتكفير - من البنيوية إلى  
التشريحية - للأستاذ الدكتور عبد الله الغدامى  
(طبع).

٣٩- التجديد فى الشعر الحديث - «دراسة أدبية»  
للدكتور يوسف عز الدين - (طبع).

٤٠- التراث الثقافى للأجناس البشرية فى  
أفريقيا - «دراسة علمية» - للدكتور عبد العليم  
عبد الرحمن جعفر - (طبع).

- ٤١- فلسفة المجاز- «دراسة لغوية» - للدكتور لطفى عبد البديع - (طبع).
- ٤٢- بكيك نواره الفال، سجيكت جسد الوجد- «شعر» عبدالله عبد الرحمن الزيد- (طبع).
- ٤٣- مصادر الأدب النسائي فى العالم العربى الحديث- للدكتور جوزيف زيدان- (طبع).
- ٤٤- أحبك رغم أحزاني- «شعر»- الدكتور فوزى عيسى- (طبع).
- ٤٥- أبوتمام- «دراسة»- للأستاذ سعيد السريحي- (طبع).
- ٤٦- عبقرية العربية- «دراسة لغوية»- للدكتور لطفى عبد البديع- (طبع).
- ٤٧- أحاديث- الدكتور محمد سعيد العوضى- (طبع) طبعة ثانية.
- ٤٨- اغتيال القمر الفلسطينى للأستاذ / أحمد مفلح- (طبع).
- ٤٩- التضاريس- «شعر»- للأستاذ محمد الشبتي- (طبع).
- ٥٠- ٤ صفر- للأستاذة رجاء عالم- (طبع).
- ٥١- علم اجتماع اللغة- «ترجمة عن الانجليزية»- الدكتور أريكو باقادر- (طبع).

٥٢- أفضية وقضاة فى الإسلام- للدكتور/ كمال  
محمد عيسى- (طبع).

٥٣- علم الأسلوب- للدكتور صلاح فضل-  
(طبع).

٥٤- دليل كتاب النادى- (طبع).

٥٥- ديوان دمر- «شعر» للأستاذ على دمر-  
(طبع).

٥٦- أحبك.. ولكن- «مجموعة قصص قصيرة»-  
للأستاذة مريم محمد الغامدى- (طبع).

٥٧- مدخل إلى الشعر العربى الحديث- للدكتور  
نذير العظمة- (طبع).

٥٨- بقايا غير ورماد «شعر» للشاعر محمد هاشم  
رشيد، (طبع).

٥٩- محاضرات النادى- الجزء الرابع- (طبع).

٦٠- محاضرات النادى- الجزء الخامس- (طبع).

٦١- محاضرات النادى- الجزء السادس- (طبع).

٦٢- محاضرات النادى- الجزء السابع- (طبع).

٦٣- اللغة بين البلاغة والأسلوبية- للدكتور  
مصطفى ناصف- (طبع).

٦٤- جزر فرسان- العقيد متقاعد صالح بن محمد بن



٦٥- شواهد القرآن - «الجزء الثانى» - للشيخ  
أبى تراب الظاهرى - (طبع).

٦٦- الفكر السيكلوجى المعاصر - للدكتور حمد  
المرزوقى - (طبع).

٦٧- مُذَنَّب هالى - للدكتور محمد عبده يمانى -  
(طبع).

٦٨- مورفولوجيا الحكاية الخرافية - الدكتور أبوبكر  
باقادر - (طبع).

٦٩- طه حسين والتراث - الدكتور مصطفى ناصف -  
(طبع).

٧٠- ذاكرة لأسئلة النوارس - «شعر» عبدالله  
الحشرمى - (طبع).

٧١- قراءة جديدة لتراثنا النقدى - «المجلد  
الأول» - والمجلد الآخر - (طبع).

٧٢- الوحوش - للأصمعى - تحقيق الأستاذ أمين  
محمد على ميدان - (طبع).

٧٣- فى مفهوم الأدب - ترجمة الدكتور منذر  
عياشى - (طبع).

٧٤- محاضرات النادى - الجزء الثامن - (طبع).

٧٥- فى نظرية الأدب عند العرب - الدكتور

٧٦- محاضرات النادي - الجزء التاسع - طبع .

٧٧- شعر حسين سرحان - دراسة نقدية أعدها  
الباحث أحمد عبدالله صالح المحسن - (طبع) .

٧٨ - في النص الأدبي - دراسة أسلوبية إحصائية -  
للدكتور سعد مصلوح (طبع) .

٧٩ - حكم الله في الصيد وطعام أهل الكتاب -  
للأستاذ مختار أحمد العيسوي - (طبع) .

٨٠ - محاضرات النادي - المجلد العاشر - (طبع) .  
٨١ - خصام مع النقد - د . مصطفى ناصف  
(طبع) .

٨٢ - أدبنا في أثر الدارسين - (طبع) .  
٨٣ - ثقافة الأسئلة - الدكتور عبدالله الغدامي -  
(طبع) .

٨٤ - تهذيب اللسان وتقويم البنان - للاستاذ مختار  
العيسوي - (طبع) .

٨٥ - ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي - تحقيق  
الأستاذ أيمن محمد علي ميدان - (تحت  
الطبع) .

٨٣ - منهج الإسلام في العقيدة والعبادة  
والأخلاق - د . أحمد عمر هاشم (تحت  
الطبع) .

٨٧ - الحركة التجارية في ميناء جدة في القرن  
الثالث عشر ، للدكتور مبارك المعبدى -  
(تحت الطبع)

طُبعت بمطابع دار البلاد - جدة

ت : ٦٧٠٠٣٣٣ ص . ب : ٧٦١٤ جدة ٢١٤٧٢



## قالوا ..

« هذه مقالات نشرت بعضها في مجلة الرسالة ، وبعضها في مجلة الهلال ، وبعضها لم ينشر في هذه ولا تلك ، استحسنتم أن أجمعها في كتاب ، لا لأنها بدائع أو روائع ، ولا لأن الناس ألحوا عليّ في جمعها فنزلت على حكمهم ، وأئتمرت بأمرهم ، ولا لأنها ستفتح في الأدب فتحاً جديداً لا عهد للناس به ، ولكن لأنها قطع من نفسى أحرص عليها ، حرصى على الحياة ، وأجتهد في تسجيلها إجابة لرغبة حب البقاء ، وهى مجموعة أدل منها مفرقة ، وفى كتاب أبين منها فى أعداد »

أحمد أمين